

الأمم

في تفسيرين كتاب الله العزيز

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ كاظم كاري الميرزا

١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

کاتب:

آیت الله ناصر مکارم شیرازی

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٣٠	الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ١٨
٣٠	اشاره
٣١	اشاره
٣٧	سوره الحديد
٣٧	اشاره
٣٧	محتوى السوره:
٣٨	فضيله تلاوه سوره الحديد:
٤٠	الآيات [سوره الحديد (٥٧): الآيات ١ الى ٣]
٤٠	اشاره
٤٠	التفسير
٤٠	اشاره
٤٠	آيات للمتفكرين:
٤٤	بحث
٤٤	اشاره
٤٤	جمع الأضداد فى صفات الله:
٤٦	الآيات [سوره الحديد (٥٧): الآيات ٤ الى ٦]
٤٦	اشاره
٤٦	التفسير
٤٦	اشاره
٤٦	على عرش القدره دائما:
٥٣	تعقيب
٥٣	اشاره
٥٣	آيات الاسم الأعظم:

٥٥	الآيات [سوره الحديد (٥٧): الآيات ٧ الى ١١]
٥٥	اشاره
٥٦	التفسير
٥٦	اشاره
٥٦	الإيمان و الإنفاق أساسان للنجاح
٦٢	بحوث
٦٢	اشاره
٦٢	١-بواعث الإنفاق
٦٣	٢-شروط الإنفاق في سبيل الله!
٦٦	٣-السابقون في الإيمان و الجهاد و الإنفاق
٦٨	الآيات [سوره الحديد (٥٧): الآيات ١٢ الى ١٥]
٦٨	اشاره
٦٨	التفسير
٦٨	اشاره
٦٨	انظرونا نقتبس من نوركم:
٧٦	ملاحظه
٧٦	اشاره
٧٦	الإستغاثه العقيمه للمجرمين:
٧٨	الآيات [سوره الحديد (٥٧): الآيات ١٦ الى ١٨]
٧٨	اشاره
٧٨	سبب النزول
٧٩	التفسير
٧٩	اشاره
٧٩	إلى متى هذه الغفله؟
٨٢	موعظه و توبه:
٨٤	الآيتان [سوره الحديد (٥٧): الآيات ١٩ الى ٢٠]

٨٤ اشارة

٨٤ التفسير

٨٤ اشارة

٨٤ الدنيا متاع الغرور:

٨٩ تعقيب

٨٩ اشارة

٨٩ ١-مقام الصديقين و الشهداء

٩١ ٢-الحياه الدنيا..لهو و لعب

٩٣ الآيات [سوره الحديد (٥٧): الآيات ٢١ الى ٢٤]

٩٣ اشارة

٩٣ التفسير

٩٣ اشارة

٩٣ المسابقه المعنويه الكبرى!!

١٠٢ الآية [سوره الحديد (٥٧): آيه ٢٥]

١٠٢ اشارة

١٠٢ التفسير

١٠٢ اشارة

١٠٢ الهدف الأساس من بعثه الأنبياء:

١٠٧ تعقيب

١٠٧ اشارة

١٠٧ ١-الحدود بين القوه و المنطق

١٠٨ ٢-الحديد و احتياجات الحياه الأساسيه

١١٠ الآيتان [سوره الحديد (٥٧): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

١١٠ اشارة

١١٠ التفسير

١١٠ اشارة

١١٠	تعاقب الرسل واحدا بعد الآخر:
١١٥	بحوث
١١٥	اشاره
١١٥	١-الإسلام و الرهبانيه
١١٨	٢-المصدر التاريخى للرهبانيه
١١٩	٣-المفاسد الأخلاقيه و الاجتماعيه الناشئه من الرهبانيه
١٢١	٤-إنجيل أم أناجيل!
١٢٢	الآيتان [سوره الحديد (٥٧): الآيات ٢٨ الى ٢٩]
١٢٢	اشاره
١٢٢	سبب النزول
١٢٣	التفسير
١٢٣	اشاره
١٢٣	الذين لهم سهمان من الرحمه الإلهيه:
١٢٧	بحث
١٢٧	اشاره
١٢٧	التقوى و الوعى:
١٢٩	سوره المجادله
١٢٩	اشاره
١٣١	محتوى السوره:
١٣١	فضيله تلاوه سوره المجادله:
١٣٣	الآيات [سوره المجادله (٥٨): الآيات ١ الى ٤]
١٣٣	اشاره
١٣٣	سبب النزول
١٣٥	التفسير
١٣٥	اشاره
١٣٥	الظهار عمل جاهلى قبيح:

ملاحظات ١٤١

اشاره ١٤١

١-قسم من أحكام الظهار ١٤١

٢-الظهار من كبائر الذنوب ١٤٢

الآيات [سوره المجادله (٥٨): الآيات ٥ الى ٧] ١٤٤

اشاره ١٤٤

التفسير ١٤٤

اشاره ١٤٤

أولئك أعداء الله: ١٤٤

بحث ١٤٩

اشاره ١٤٩

حضور الله سبحانه في كل نجوى: ١٤٩

الآيات [سوره المجادله (٥٨): الآيات ٨ الى ١٠] ١٥٠

اشاره ١٥٠

سبب النزول ١٥٠

التفسير ١٥١

اشاره ١٥١

النجوى من الشيطان: ١٥١

بحثان ١٥٤

اشاره ١٥٤

١-أنواع النجوى ١٥٤

٢-كيف تكون التحية الإلهية؟ ١٥٥

الآية [سوره المجادله (٥٨): آية ١١] ١٥٧

اشاره ١٥٧

سبب النزول ١٥٧

التفسير ١٥٨

١٥٨ اشارة

١٥٨ احترام أهل السابفة و الإيمان:

١٦١ بحثان

١٦١ اشارة

١٦١ ١-مقام العلماء

١٦٢ ٢-آداب المجلس فى القرآن الكريم

١٦٤ الآيتان [سوره المجادله (٥٨): الآيات ١٢ الى ١٣]

١٦٤ اشارة

١٦٤ سبب النزول

١٦٥ التفسير

١٦٥ اشارة

١٦٥ الصدقة قبل النجوى(اختبار رائع):

١٦٧ بحوث

١٦٧ اشارة

١٦٧ ١-الملتزم الوحيد بآيه الصدقة قبل النجوى

١٦٨ ٢-فلسفه تشريع و نسخ حكم الصدقه

١٦٩ ٣-هل الالتزام بالصدقه فضيله؟

١٧٠ ٤-مدّه الحكم و مقدار الصدقه:

١٧١ الآيات [سوره المجادله (٥٨): الآيات ١٤ الى ١٩]

١٧١ اشارة

١٧٢ التفسير

١٧٢ اشارة

١٧٢ حزب الشيطان:

١٧٧ الآيات [سوره المجادله (٥٨): الآيات ٢٠ الى ٢٢]

١٧٧ اشارة

١٧٧ التفسير

١٧٧ اشارة

١٧٧ حزب الله..و النصر الدائم!!

١٨٣ بحثان

١٨٣ اشارة

١٨٣ ١-العلامه الفارقه بين حزب الله و حزب الشيطان

١٨٥ ٢-جزاء الحبّ فى الله و البغض فى الله

١٨٧ سورة الحشر

١٨٧ اشارة

١٨٩ محتوى السوره:

١٩٠ فضيله تلاوه هذه السوره:

١٩٢ الايات [سوره الحشر (٥٩): الايات ١ الى ٥]

١٩٢ اشارة

١٩٣ سبب النزول

١٩٥ التفسير

١٩٥ اشارة

١٩٥ نهايه مؤامره يهود بنى النضير:

٢٠٤ بحثان

٢٠٤ اشارة

٢٠٤ ١-الجيش الإلهي الامرئيه:

٢٠٥ ٢-مؤامرات اليهود المعاصره

٢٠٧ الايتان [سوره الحشر (٥٩): الايات ٦ الى ٧]

٢٠٧ اشارة

٢٠٧ سبب النزول

٢٠٨ التفسير

٢٠٨ اشارة

٢٠٨ حكم الغنائم بغير الحرب:

بحوث ٢١٣

اشاره ٢١٣

١-مصارف الفىء ٢١٣

٢-جواب على سؤال: ٢١٥

٣-القضه المؤلمه ل(فدك) ٢١٦

الآيات [سوره الحشر (٥٩): الآيات ٨ الى ١٠] ٢١٩

اشاره ٢١٩

التفسير ٢١٩

اشاره ٢١٩

السمات الأساسيه للأئصار و المهاجرين و التابعين: ٢١٩

بحث ٢٢٧

اشاره ٢٢٧

الصحابه فى ميزان القرآن و التاريخ: ٢٢٧

الآيات [سوره الحشر (٥٩): الآيات ١١ الى ١٤] ٢٢٩

اشاره ٢٢٩

سبب النزول ٢٢٩

التفسير ٢٣١

اشاره ٢٣١

دور المنافقين فى فتن اليهود: ٢٣١

الآيات [سوره الحشر (٥٩): الآيات ١٥ الى ٢٠] ٢٣٦

اشاره ٢٣٦

التفسير ٢٣٦

اشاره ٢٣٦

حيل الشيطان و المهالك: ٢٣٦

بحوث ٢٤٣

اشاره ٢٤٣

٢٤٣	١-التعاون العقيم مع أهل النفاق
٢٤٤	٢-قَصُّه العابد(برصيصا)
٢٤٥	٣-ما ينبغي عمله
٢٤٧	الآيات [سوره الحشر (٥٩): الآيات ٢١ الى ٢٤]
٢٤٧	اشاره
٢٤٧	التفسير
٢٤٧	اشاره
٢٤٧	لو نزل القرآن على جبل:
٢٥٧	ملاحظتان
٢٥٧	اشاره
٢٥٧	١-التأثير الخارق للقرآن الكريم
٢٥٧	٢-عظمه الآيات الأخيره لسوره الحشر
٢٦٢	سوره الممتحنه مدنيته
٢٦٢	اشاره
٢٦٤	محتوى السوره:
٢٦٤	فضيله تلاوه سوره الممتحنه:
٢٦٦	الآيات [سوره الممتحنه (٦٠): الآيات ١ الى ٣]
٢٦٦	اشاره
٢٦٦	سبب النزول
٢٦٨	التفسير
٢٦٨	اشاره
٢٦٨	نتيجه الولاء لأعداء الله:
٢٧٣	الآيات [سوره الممتحنه (٦٠): الآيات ٤ الى ٦]
٢٧٣	اشاره
٢٧٣	التفسير
٢٧٣	اشاره

٢٧٣	أُسوه للجميع:
٢٧٩	بحوث
٢٧٩	اشاره
٢٧٩	١- نماذج خالده
٢٨٠	٢- الله غنى عن الجميع
٢٨١	٣- الأصل في العلاقات الرساليه: (الحب في الله و البغض في الله).
٢٨٣	الآيات [سوره الممتحنه (٦٠): الآيات ٧ الى ٩]
٢٨٣	اشاره
٢٨٣	التفسير
٢٨٣	اشاره
٢٨٣	موّده الكفّار غير الحربيين:
٢٨٨	الآيتان [سوره الممتحنه (٦٠): الآيات ١٠ الى ١١]
٢٨٨	اشاره
٢٨٨	سبب النزول
٢٨٩	التفسير
٢٨٩	اشاره
٢٨٩	تعويض خسائر المسلمين و الكفّار:
٢٩٦	العدل حتّى مع الأعداء:
٢٩٧	الآيه [سوره الممتحنه (٦٠): آيه ١٢]
٢٩٧	اشاره
٢٩٧	التفسير
٢٩٧	اشاره
٢٩٧	شروط بيعه النساء:
٢٩٩	بحوث
٢٩٩	اشاره
٢٩٩	١- ارتباط بيعه النساء ببناء شخصيتهنّ الإسلاميه

٣٠٠	٢- قصه بيعه (هند) زوجه أبي سفيان
٣٠١	٣- الطاعه بالمعروف
٣٠٣	الآيه [سوره الممتحنه (٦٠): آيه ١٣]
٣٠٣	اشاره
٣٠٣	التفسير
٣٠٦	سوره الصفّ
٣٠٦	اشاره
٣٠٨	محتوى سوره الصفّ:
٣٠٩	فضيله تلاوه سوره الصفّ:
٣١٠	الآيات [سوره الصفّ (٦١): الآيات ١ الى ٤]
٣١٠	اشاره
٣١٠	سبب النزول
٣١١	التفسير
٣١١	اشاره
٣١١	المقاتلون المؤمنون صفّ حديدى منيع:
٣١٤	بحثان
٣١٤	اشاره
٣١٤	١- ضروره وحده الصفوف
٣١٦	٢- الأقوال المجزّه عن العمل
٣١٨	الآيتان [سوره الصفّ (٦١): الآيات ٥ الى ٦]
٣١٨	اشاره
٣١٨	التفسير
٣١٨	اشاره
٣١٨	البشاره بظهور النبى (أحمد):
٣٢١	بحوث
٣٢١	اشاره

- ١- الصلة بين البشارة و تكامل الدين ٣٢١
- ٢- بشاره العهدين و تعبیر (فارقليطا): ٣٢٢
- ٣- هل أنّ اسم رسول الإسلام كان (أحمد) ٣٢٥
- الآيات [سوره الصف (٦١): الآيات ٧ الى ٩] ٣٢٨
- اشاره ٣٢٨
- التفسير ٣٢٨
- اشاره ٣٢٨
- يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم: ٣٢٨
- الآيات [سوره الصف (٦١): الآيات ١٠ الى ١٣] ٣٣٤
- اشاره ٣٣٤
- التفسير ٣٣٤
- اشاره ٣٣٤
- التجاره الزابحه: ٣٣٤
- بحوث ٣٣٨
- اشاره ٣٣٨
- ١- أى فتح هو «الفتح القريب»؟! ٣٣٨
- ٢- ما هي خصائص المساكين الطيبه؟ ٣٣٩
- ٣- الدنيا موضع تجاره أولياء الله ٣٣٩
- الآيه [سوره الصف (٦١): آيه ١٤] ٣٤١
- اشاره ٣٤١
- التفسير ٣٤١
- اشاره ٣٤١
- كونوا كالحواريين: ٣٤١
- تعقيب ٣٤٣
- اشاره ٣٤٣
- من هم الحواريون؟ ٣٤٣

سوره الجمعه - ٣٤٥ -----

اشاره ----- ٣٤٥

محتوى السوره: ----- ٣٤٧

فضيله تلاوه سوره الجمعه: ----- ٣٤٧

الآيات [سوره الجمعه (٦٢): الآيات ١ الى ٤] ----- ٣٤٩

اشاره ----- ٣٤٩

التفسير ----- ٣٤٩

اشاره ----- ٣٤٩

الهدف من بعثه الرسول: ----- ٣٤٩

ملاحظه ----- ٣٥٤

اشاره ----- ٣٥٤

الفضل الإلهى له حساب: ----- ٣٥٤

الآيات [سوره الجمعه (٦٢): الآيات ٥ الى ٨] ----- ٣٥٦

اشاره ----- ٣٥٦

التفسير ----- ٣٥٦

اشاره ----- ٣٥٦

الحمار الذى يحمل الأسفار: ----- ٣٥٦

بحثان ----- ٣٦٠

اشاره ----- ٣٦٠

١-العالم بلا عمل ----- ٣٦٠

٢-لماذا أخاف الموت ----- ٣٦١

الآيات [سوره الجمعه (٦٢): الآيات ٩ الى ١١] ----- ٣٦٤

اشاره ----- ٣٦٤

سبب النزول ----- ٣٦٤

التفسير ----- ٣٦٥

اشاره ----- ٣٦٥

أكبر تجمع عبادى سياسى اسبوعى:	٣٦٥
بحوث	٣٦٩
اشاره	٣٦٩
١-أول صلاه جمعه فى الإسلام	٣٦٩
٢-أهميته صلاه الجمعه	٣٧٠
٣-فلسفه صلاه الجمعه العباديه و السياسيه	٣٧١
٤-آداب صلاه الجمعه و مضمون الخطبتين	٣٧٤
٥-شروط وجوب صلاه الجمعه	٣٧٦
سوره المنافقون	٣٧٩
اشاره	٣٧٩
محتوى السوره:	٣٨١
فضيله تلاوه سوره المنافقين:	٣٨٢
الآيات [سوره المنافقون (٦٣): الآيات ١ الى ٤]	٣٨٣
اشاره	٣٨٣
التفسير	٣٨٣
اشاره	٣٨٣
مصدر النفاق و علامات المنافقين:	٣٨٣
الآيات [سوره المنافقون (٦٣): الآيات ٥ الى ٨]	٣٩١
اشاره	٣٩١
سبب النزول	٣٩١
التفسير	٣٩٣
اشاره	٣٩٣
علامات اخرى للمنافقين:	٣٩٣
بحوث	٣٩٦
اشاره	٣٩٦
١-للمنافقين علامات عشر	٣٩٦

٣٩٧	٢-خطر المنافقين
٣٩٨	٣-المنافق فارغ و منحور
٤٠١	الآيات [سوره المنافقون (٦٣): الآيات ٩ الى ١١]
٤٠١	اشاره
٤٠١	التفسير
٤٠١	اشاره
٤٠١	لا تلهكم أموالكم و لا أولادكم!
٤٠٣	تعقيب
٤٠٣	اشاره
٤٠٣	١-طريقه التغلب على الاضطرابات و القلق
٤٠٤	٢-النفاق العقائدى و النفاق العملى
٤٠٧	سوره التغابن
٤٠٧	اشاره
٤٠٩	محتوى السوره:
٤١٠	فضيله تلاوه السوره:
٤١١	الآيات [سوره التغابن (٦٤): الآيات ١ الى ٦]
٤١١	اشاره
٤١١	التفسير
٤١١	اشاره
٤١١	يعلم ما تخفى الصدور:
٤١٥	الآيات [سوره التغابن (٦٤): الآيات ٧ الى ١٠]
٤١٥	اشاره
٤١٥	التفسير
٤١٥	اشاره
٤١٥	يوم التغابن و ظهور الغين:
٤٢٠	الآيات [سوره التغابن (٦٤): الآيات ١١ الى ١٣]

٤٢٠ اشارة

٤٢٠ التفسير

٤٢٠ اشارة

٤٢٠ كلّ ما يصيبنا بإذنه و علمه:

٤٢٣ الآيات [سوره التغابن (٦٤): الآيات ١٤ الى ١٨]

٤٢٣ اشارة

٤٢٣ سبب النزول

٤٢٤ التفسير

٤٢٤ اشارة

٤٢٤ أولادكم و أموالكم و سيله لامتحانكم:

٤٢٩ ملاحظه

٤٢٩ اشارة

٤٢٩ حديث مهم:

٤٣١ سوره الطلاق

٤٣١ اشارة

٤٣٣ محتوى السوره:

٤٣٣ فضيله تلاوه السوره:

٤٣٤ الآية [سوره الطلاق (٦٥): آيه ١]

٤٣٤ اشارة

٤٣٤ التفسير

٤٣٤ اشارة

٤٣٤ شرائط الطلاق و الانفصال:

٤٣٨ ملاحظات

٤٣٨ اشارة

٤٣٨ ١-أبغض الحلال إلى الله الطلاق

٤٣٩ ١-المشاكل العاطفيه:

٢-المشاكل الاجتماعيه:	٤٣٩
٣-مشاكل الأطفال:	٤٤٠
٢-أسباب الطلاق:	٤٤١
٣-فلسفه ضبط و إحصاء العدّه	٤٤٣
الآيات [سوره الطلاق (٦٥): الآيات ٢ الى ٣]	٤٤٤
اشاره	٤٤٤
التفسير	٤٤٤
اشاره	٤٤٤
فأمسكوهنّ بمعروف أو فارقوهنّ بمعروف:	٤٤٤
بحثان	٤٤٨
اشاره	٤٤٨
١-التقوى و النجاه من المشاكل	٤٤٨
٢-روح التوكّل	٤٤٩
الآيات [سوره الطلاق (٦٥): الآيات ٤ الى ٧]	٤٥١
اشاره	٤٥١
التفسير	٤٥٢
اشاره	٤٥٢
أحكام النساء المطلّقات و حقوقهنّ:	٤٥٢
بحوث	٤٥٧
اشاره	٤٥٧
١-أحكام الطلاق الرجعى	٤٥٧
٢-لا يكلف الله نفسا إلّا وسعها	٤٥٨
٣-أهميته النظام العائلى	٤٥٨
الآيات [سوره الطلاق (٦٥): الآيات ٨ الى ١١]	٤٦٠
اشاره	٤٦٠
التفسير	٤٦٠

٤٦٠	اشاره
٤٦٠	العاقبه المؤلمه للعاصين:
٤٦٥	الآيه [سوره الطلاق (٦٥): آيه ١٢]
٤٦٥	اشاره
٤٦٥	التفسير
٤٦٥	اشاره
٤٦٥	الهدف من خلق العالم:
٤٧١	سوره التحريم
٤٧١	اشاره
٤٧٣	محتوى السوره:
٤٧٣	فضيله تلاوه سوره التحريم:
٤٧٥	الآيات [سوره التحريم (٦٦): الآيات ١ الى ٥]
٤٧٥	اشاره
٤٧٥	اسباب النزول
٤٧٧	التفسير
٤٧٧	اشاره
٤٧٧	التوبيخ الشديد لبعض زوجات الرسول:
٤٨١	بحوث
٤٨١	اشاره
٤٨١	١-صفات الزوجه الصالحه:
٤٨٢	٢-من هم(صالح المؤمنين)؟
٤٨٣	٣-عدم رضا الرسول عن بعض زوجاته
٤٨٥	٤-إفشاء السر
٤٨٥	٥-لا تحزموا على أنفسكم ما أحله الله لكم
٤٨٦	الآيات [سوره التحريم (٦٦): الآيات ٦ الى ٨]
٤٨٦	اشاره

التفسير ٤٨٦

اشاره ٤٨٦

قوا أنفسكم و أهليكم النار: ٤٨٦

بحثنان ٤٩٢

اشاره ٤٩٢

١-تعليم و تربيته العائله ٤٩٢

٢-التوبه باب إلى رحمه الله ٤٩٣

الآيات [سوره التحريم (٦٦): الآيات ٩ الى ١٢] ٤٩٥

اشاره ٤٩٥

التفسير ٤٩٥

اشاره ٤٩٥

نماذج من النساء المؤمنات و الكافرات: ٤٩٥

سوره الملك ٥٠٣

اشاره ٥٠٣

محتوى سوره الملك: ٥٠٥

فضيله تلاوه السوره: ٥٠٦

الآيات [سوره الملك (٦٧): الآيات ١ الى ٥] ٥٠٨

اشاره ٥٠٨

التفسير ٥٠٨

اشاره ٥٠٨

عالم الوجود المتكامل: ٥٠٨

ملاحظه ٥١٥

اشاره ٥١٥

عظمه عالم الخلق: ٥١٥

الآيات [سوره الملك (٦٧): الآيات ٦ الى ١١] ٥١٧

اشاره ٥١٧

التفسير ٥١٧

اشاره ٥١٧

لو كنا نسمع أو نعقل: ٥١٧

ملاحظه ٥٢٠

اشاره ٥٢٠

المقام السامى للعقل: ٥٢٠

الآيات [سوره الملك (٦٧): الآيات ١٢ الى ١٤] ٥٢٣

اشاره ٥٢٣

التفسير ٥٢٣

اشاره ٥٢٣

خالق الوجود علیم بأسراره: ٥٢٣

الآيات [سوره الملك (٦٧): الآيات ١٥ الى ١٨] ٥٢٦

اشاره ٥٢٦

التفسير ٥٢٦

اشاره ٥٢٦

لا أمان للعاصين من عقاب الله: ٥٢٦

الآيات [سوره الملك (٦٧): الآيات ١٩ الى ٢١] ٥٣١

اشاره ٥٣١

التفسير ٥٣١

اشاره ٥٣١

انظروا إلى الطير فوقكم: ٥٣١

ملاحظه ٥٣٥

اشاره ٥٣٥

العوامل الأربعة فى محروميه البشر: ٥٣٥

الآيات [سوره الملك (٦٧): الآيات ٢٢ الى ٢٧] ٥٣٦

اشاره ٥٣٦

التفسير ٥٣٦

اشاره ٥٣٦

السائر سويًا على جاذة التوحيد: ٥٣٦

الآيات [سوره الملك (٦٧): الآيات ٢٨ الى ٣٠] ٥٤٢

اشاره ٥٤٢

التفسير ٥٤٢

اشاره ٥٤٢

من الذى يأتيكم بالمياه الجارية؟ ٥٤٢

تعقيب ٥٤٥

سوره القلم ٥٤٧

اشاره ٥٤٧

محتوى السوره: ٥٤٩

فضيله تلاوه سوره القلم: ٥٥٠

الآيات [سوره القلم (٦٨): الآيات ١ الى ٧] ٥٥١

اشاره ٥٥١

التفسير ٥٥١

اشاره ٥٥١

عجبا لأخلاقك الساميه: ٥٥١

بحثان ٥٥٦

اشاره ٥٥٦

١- دور القلم فى حياه الإنسان ٥٥٦

٢- نموذج من أخلاق الرسول ٥٦٠

الآيات [سوره القلم (٦٨): الآيات ٨ الى ١٦] ٥٦٤

اشاره ٥٦٤

التفسير ٥٦٤

اشاره ٥٦٤

اجتنب أصحاب هذه الصفات: ٥٦٤

بحثنان ٥٧٠

اشاره ٥٧٠

١- الرذائل الأخلاقية ٥٧٠

٢- المداهنه و الصلح ٥٧١

الآيات [سوره القلم (٦٨): الآيات ١٧ الى ٢٥] ٥٧٢

اشاره ٥٧٢

التفسير ٥٧٢

اشاره ٥٧٢

قصه (أصحاب الجنة): ٥٧٢

الآيات [سوره القلم (٦٨): الآيات ٢٦ الى ٣٣] ٥٧٦

اشاره ٥٧٦

التفسير ٥٧٦

اشاره ٥٧٦

أصحاب البستان و المصير المؤلم: ٥٧٦

بحثنان ٥٨١

اشاره ٥٨١

١- الاستغفار بالنعم بلاء عظيم ٥٨١

٢- العلاقه بين (الرزق) و (الذنوب) ٥٨٢

الآيات [سوره القلم (٦٨): الآيات ٣٤ الى ٤١] ٥٨٣

اشاره ٥٨٣

التفسير ٥٨٣

اشاره ٥٨٣

١- استجواب كامل: ٥٨٣

الآيات [سوره القلم (٦٨): الآيات ٤٢ الى ٤٥] ٥٨٧

اشاره ٥٨٧

التفسير ٥٨٧

اشاره ٥٨٧

العجز عن السجود: ٥٨٧

الآيات [سوره القلم (٦٨): الآيات ٤٦ الى ٥٠] ٥٩٢

اشاره ٥٩٢

التفسير ٥٩٢

اشاره ٥٩٢

لا تستعجل بعذابهم: ٥٩٢

الآيتان [سوره القلم (٦٨): الآيات ٥١ الى ٥٢] ٥٩٧

اشاره ٥٩٧

التفسير ٥٩٧

اشاره ٥٩٧

يريدون قتلک..لکتم عاجزون ٥٩٧

بحث ٥٩٩

اشاره ٥٩٩

هل أنْ إصابه العين لها حقيقه؟ ٥٩٩

سوره الحاقه ٦٠٢

اشاره ٦٠٢

محتوى السوره: ٦٠٤

فضيله تلاوه سوره الحاقه ٦٠٤

الآيات [سوره الحاقه (٦٩): الآيات ١ الى ٨] ٦٠٥

اشاره ٦٠٥

التفسير ٦٠٥

اشاره ٦٠٥

الطغاه و العذاب الأليم: ٦٠٥

الآيات [سوره الحاقه (٦٩): الآيات ٩ الى ١٢] ٦١٠

اشاره ٦١٠

التفسير ٦١٠

اشاره ٦١٠

أين الآن الواعيه؟ ٦١٠

تعقيب ٦١٣

اشاره ٦١٣

١- فضيله اخرى من فضائل الإمام على عليه السلام ٦١٣

٢- التناسب بين (الذنب) و(العقاب) ٦١٤

الآيات [سوره الحاقه (٦٩): الآيات ١٣ الى ١٧] ٦١٥

اشاره ٦١٥

التفسير ٦١٥

اشاره ٦١٥

الضحى العظيمه: ٦١٥

الآيات [سوره الحاقه (٦٩): الآيات ١٨ الى ٢٤] ٦٢٠

اشاره ٦٢٠

التفسير ٦٢٠

اشاره ٦٢٠

يا أهل المحشر: اقرؤا صحيفه أعمالى ٦٢٠

ملاحظات ٦٢٣

اشاره ٦٢٣

١- تفسير آخر لكلمه (العرش) ٦٢٣

٢- مقام الإمام على عليه السلام و شيعته ٦٢٤

٣- جواب على سؤال ٦٢٤

الآيات [سوره الحاقه (٦٩): الآيات ٢٥ الى ٢٩] ٦٢٥

اشاره ٦٢٥

التفسير ٦٢٥

٦٢٥ اشارة

٦٢٥ يا ليتنى متّ قبل هذا:

٦٢٧ ملاحظه

٦٢٧ اشارة

٦٢٧ بعض القصص المثيره:

٦٣٠ الآيات [سوره الحاقه (٦٩): الآيات ٣٠ الى ٣٧]

٦٣٠ اشارة

٦٣٠ التفسير

٦٣٠ اشارة

٦٣٠ خذوه فغلّوه:

٦٣٤ ملاحظه

٦٣٤ اشارة

٦٣٤ بدايه وضع الحركات على حروف القرآن الكريم:

٦٣٦ الآيات [سوره الحاقه (٦٩): الآيات ٣٨ الى ٤٣]

٦٣٦ اشارة

٦٣٦ التفسير

٦٣٦ اشارة

٦٣٦ القرآن كلام الله قطعاً:

٦٤١ الآيات [سوره الحاقه (٦٩): الآيات ٤٤ الى ٥٢]

٦٤١ اشارة

٦٤١ التفسير

٦٤٥ ملاحظه

٦٦٢ تعريف مركز

سرشناسه : مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور : الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست : [ویرایش ۲]

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۲۰

شابک : ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۱۰(ج.۱۰) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱۱(ج.۱۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۱۲(ج.۱۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۱۳(ج.۱۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۱۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی : فهرست نویسی قبلی

یادداشت : کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت : کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت : کتابنامه

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره : BP۹۸/م ۷ت ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۹-۱۰۳۹۱

نزلت هذه السوره فى المدينه، وادّعى البعض الإجماع على ذلك، لذا فإنّ خصائصها هى نفس خصائص السور المدينه، فإنّها بالإضافة إلى تحكيم الضوابط العقائديه فإنّها تستعرض تعليمات عمليه عديده خصوصا فى المجادلات الاجتماعيه و الحكوميه، كما نشاهد نماذج لذلك فى الآيات (١٠، ١١، ٢٥) من هذه السوره.

و نستطيع أن نقسّم موضوعات هذه السوره إلى سبعة أقسام:

الأول: الآيات الاولى من هذه السوره لها بحث جامع و لطيف حول التوحيد و صفات الله تعالى، و تذكّر ما يقرب من عشرين صفه من الصفات الإلهيه، حيث تجعل الإنسان المدرك لها فى مستوى عال من المعرفة الإلهيه.

الثانى: يتحدّث عن عظمه القرآن، هذا النور الإلهي الذى أشرق فى ظلمات الشرك.

الثالث: يستعرض وضع المؤمنين و المنافقين فى يوم القيامه، حيث أنّ القسم الأول يأخذ طريقه إلى الجنّه فى ظلّ نور إيمانهم، و القسم الثانى يبقى فى ظلمات الشرك و الكفر، و بهذا تعكس السوره فى أبحاثها الأصول الإسلاميه الثلاثه:

التوحيد و النبوه و المعاد.

الرابع: تتحدّث الآيات فيه عن الدعوى إلى الإيمان و الخروج من الشرك، و عن مصير الأقوام الضالّه من الأمم السابقه.

الخامس: جزء مهمّ من هذه السوره يتحدّث حول الإنفاق فى سبيل الله،

و خصوصاً في تقويه أسس الجهاد في سبيل الله، و أنّ مال الدنيا ليس له وزن و قيمه.

السادس: في قسم قصير من الآيات -إلاّ أنّه واف و مستدلّ- يأتي الحديث عن العداله الاجتماعيه و التي هي إحدى الأهداف الأساسيه للأنبياء.

السابع: و فيه تتحدّث الآيات عن سلبيه الرهبانيه و الانزواء الاجتماعى و أنّ ذلك يمثّل ابتعادا عن الخطّ الإسلامى.

و من الطبيعى أنّ بين ثنانيا هذه البحوث و ردت نقاط اخرى متناسبه شكلت في النهايه مجموعه اتّجاهات بناءه في مجال الإيقاظ و الهدايه.

و بالضمن فإنّ تسميه هذه السوره ب(سوره الحديد) هو لما جاء في الآيه ٢٥ من السوره من ذكر كلمه الحديد.

فضيله تلاوه سوره الحديد:

وردت في الروايات الإسلاميه نقاط جديره بالملاحظه حول فضيله تلاوه سوره الحديد، و ممّا لا شكّ فيه أنّ المقصود في التلاوه هي تلاوه التدبّر و التفكير الذى يكون توأماً، مع العمل.

قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: (من قرأ سوره الحديد كتب من الذين آمنوا بالله و رسوله) (١).

و نقل

في حديث آخر عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه كان يتلو (المسبّحات) قبل النوم (و المسبّحات هي السور التي تبدأ ب(سبح لله، أو يسبح لله. و هي خمس سور: سوره الحديد و الحشر و الصفّ و الجمع و التغابن) و يقول: «إنّ فيهنّ آيه

ص: ٨:

أفضل من ألف آية» (١).

و طبعى أنّ الرّسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلم لم يعيّن هذه الآية، إلّا أنّ بعض المفسّرين احتمل أن تكون آخر آية في سورة الحشر، بالرغم من عدم وجود دليل واضح على هذا المعنى (٢).

و نقرأ حديثاً

عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: (من قرأ المسبّحات كلّها قبل أن ينام لم يمت حتّى يرى القائم، وإن مات كان في جوار رسول الله).

ص: ٩

١- ١) -نفس المصدر إضافه إلى الدرّ المنثور ج ٦، ص ١٧.

٢- ٢) -مجمع البيان بدايه سورة الحديد.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)

التفسير

اشاره

آيات للمتفكرين:

قلنا: إنّ هذه السوره بدأت بقسم التوحيد،الذى يشتمل على عشرين صفه من صفات الله سبحانه،تلك الصفات التى بمعرفتها يصل الإنسان إلى مستوى عال من المعرفة الإنسانيه بالله،و تعمق معرفته بذاته المقدسه،وهذه الأوصاف و التى تشير إلى جانب من صفات جلاله و جماله،كلما تعمق العلماء و أهل الفكر فيها توصلوا إلى حقائق جديده عن الذات الإلهيه المقدسه.

عند ما

سئل الإمام على بن الحسين عليه السلام عن التوحيد أجاب:«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَ جَلَّ

علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل الله تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، و الآيات في سورة الحديد إلى قوله: عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ و من رام وراء ذلك فقد هلك» (١).

يستفاد من هذا الحديث أن هذه الآيات تعطى للظمأى من طلاب الحقيقة أقصى حد للمعرفة الممكنة.

و على كل حال فإن أول آية من هذه السورة بدأت بتسبيح و تنزيه الله عز و جل حيث يقول سبحانه: سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ .

لقد انتهت السورة السابقة بأمر التسبيح، و ابتدأت هذه السورة المباركة بالتسبيح الإلهي أيضا. و الجدير بالملاحظة أن في سور المسبِّحات الخمس جاءت كلمة التسبيح ثلاث مرّات بصيغته الماضي (سَبِّحَ) في سور الحديد و الحشر و الصف، و في موردين جاءت بصيغته المضارع (يسبِّح) في سور الجمعة و التغابن، و هذا الاختلاف في التعبير قد يكون إشارة إلى أن جميع الكائنات في العالم قد سبّحت و تسبّح لذاته المقدّسه في الماضي و المستقبل.

و حقيقة «التسبيح» عبارته عن نفى كلّ عيب و نقص (٢) عن الذات الإلهيّة، و شهادته جميع الكائنات في هذا العالم بطهاره ذاته من كلّ عيب، حيث أنّ النظم و الحساب و الحكمه و العجائب في نظام الكائنات..هذه جميعها تذكر (الله) بلسان حالها و تسبّحه و تحمده و تنزّهه و تؤكد أنّ لخالقها قدره لا متناهيه، و حكمه لا محدوده.

و لذا جاء في نهايه هذه الآية: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

كما يحتمل أن تتمّع جميع ذرّات الوجود بنوع من الإدراك و الشعور بحيث

ص: ١١

١- ١) -أصول الكافي طبقا لنقل تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٣١.

٢- ٢) -«التسبيح» في الأصل من مادّه (سبح) على وزن (مسح) بمعنى الحركة السريعه في الماء و الهواء. و التسبيح أيضا هو الحركة السريعه في مسير عباده الله عزّ و جلّ (الراغب في المفردات).

تسبح و تحمد الله عز و جل في عالمها الخاص، بالرغم من عدم معرفتنا لذلك بسبب محدودية علمنا و اطلاعنا.

من أجل تفصيل أكثر حول حمد و تسبح الكائنات أجمع يراجع نهايه الآية (٤٤) من سورة الإسراء.

و يجدر الانتباه إلى أنّ (ما) في جملة (سبح لله ما في السماوات) لها معنى واسع بحيث تشمل كلّ موجودات العالم، أعمّ من ذوى العقول و الأحياء و الجمادات (١).

و بعد ذكر صفتين من صفات الذات الإلهيه يعنى (العزّه و الحكمه) يتطرّق إلى (مالكيته و تدبيره، و قدرته في عالم الوجود) و التى هى من مستلزمات قدره و الحكمه، حيث يقول تعالى: لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

إنّ مالكيه الله عزّ و جلّ لعالم الوجود ليست مالكيه اعتباريه و تشريعيه، إذ أنّها مالكيه حقيقيه و تكوينيه. و هذا يعنى أنّ الله سبحانه محيط بكلّ شىء، و أنّ جميع العالم فى قبضته و قدرته و تحت إرادته و أوامره، لذا فقد جاء الحديث بعد هذا الكلام عن (الإحياء و الإفناء) و القدره على كلّ شىء.

إلى هنا ذكرت فى الآيتين الآنفيتين ستّة أوصاف من صفاته الكريمه.

الاختلاف بين «العزّه» و «القدره» هو أنّ العزّه أكثر دلالة على تحطيم المقابل و القدره تعنى توفير الأسباب و إيجادها. و بناء على هذا فإنّهما يعدّان و صفتين مختلفين بالرغم من أنّهما مشتركان فى أصل القدره (يرجى ملاحظه ذلك).

مسأله (الإحياء و الإماتة) قد ذكرت فى آيات عديده فى القرآن الكريم، و فى الواقع أنّهما من الموضوعات التى لم تتوضّح أسرارهما المعقّده لأى شخص، كما

ص: ١٢

١- ١) - بالرغم من أنّ (سبح) فعل متعدّد بدون حرف جرّ حيث يقال مثلاً سبّحوه إلّا أنّه هنا قد عدى باللام، و من المحتمل أن يكون ذلك للتأكيد.

لا يوجد شخص يعلم-بوضوح-حقيقه الحياه و لا حقيقه الموت، إلا أنّ الذى نعلمه عنهما هو آثارهما.و العجيب أنّ الحياه أقرب شىء لنا و لكننا لا نعرف أى شىء عن حقيقتها و أسرارها.

و النقطه الجديره بالملاحظه هنا أنّ جملة (يحيى و يميت) جاءت بصورة فعل مضارع مّما يدلّ على استمرار مسأله الحياه و الموت على طول الأزمنه،و إطلاق هذين المعنيين لا يشمل حياه و موت الإنسان فى هذا العالم فقط،بل يشمل كلّ حياه و ممات بدءا من الملائكه و انتهاء بكلّ موجود حيّ من الحيوانات و النباتات المختلفه، كما أنّها لا تقتصر على الحياه الدنيا فقط،بل تشمل حياه البرزخ و القيامة أيضا.

نعم، إنّ الموت و الحياه بكلّ أشكالها بيد القدره الإلهيه المتعالیه.

ثم يتطرّق سبحانه إلى ذكر خمس صفات اخرى حيث يقول: هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْبَاطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

الوصف هنا بـ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ تعبير رائع عن أزليّته و أبديّته تعالى،لأننا نعلم أنّه وجود لا-متناهى و أنّه(واجب الوجود)أى أنّ وجوده من نفس ذاته، و ليس خارجا عنه حتّى تكون له بدايه و نهايه،و بناء على هذا فإنّه كان من الأزل و سيبقى إلى الأبد.

إنّه بدايه عالم الوجود،و هو الذى سيبقى بعد فناء العالم أيضا.

و بناء على هذا فإنّ التعبير بـ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ ليس له زمان خاصّ أبدا، و ليس فيه إشارة إلى مدّه زمنيه معيّنه.

و الوصف بـ الظَّاهِرُ وَ الْبَاطِنُ هو تعبير آخر عن الإحاطه الوجوديه-أى وجود الله-بالنسبه لجميع الموجودات،أى أنّه أظهر من كلّ شىء لأنّ آثاره شملت جميع مخلوقاته فى كلّ مكان،و هو خفىّ أكثر من كلّ شىء أيضا لأنّ كنه ذاته لم يتّضح لأحد.

و لقد عبّر بعض المفسرين عن ذلك بأنّه:الأوّل بلا ابتداء،و الآخر بلا انتهاء، و الظاهر بلا اقتراب،و الباطن بلا احتجاب.

و عبّر البعض الآخر عنه تعبيرا رائعا آخر:الأوّل ببرّه،و الآخر بعفوه، و الظاهر بإحسانه و توفيقه إذا أطعته،و الباطن بستره إذا عصيته.

و باختصار فإنّه محيط بكلّ شيء،و إنّّه (بدايه و نهايه،و ظاهر و باطن)عالم الوجود.

و فسّر بعض المفسرين (الظاهر) هنا بمعنى «الغالب» (من الظهور بمعنى الغلبه) و نلاحظ في بعض خطب نهج البلاغه قرينه على هذا المعنى حيث يقول عليه السّلام حول خلق الأرض:

«هو الظاهر عليها بسلطانها و عظمتها،و هو الباطن لها بعلمه و معرفته» (١).

و لا مانع من جمع هذين التفسيرين.

و على كلّ حال فإنّ أحد نتائج هذه الصفات المتقدّمه هو ما جاء في نهايه الآيه الكريمه: وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ إذ أنّ من كان في البدايه و يبقى في النهايه، و موجود في ظاهر و باطن العالم..سيكون عالما بكلّ شيء قطعاً.

بحث

اشاره

جمع الأضداد في صفات الله:

من الواضح أنّ الكثير من الصفات لا يمكن جمعها فينا نحن البشر،و كذا الأمر بالنسبه للموجودات الاخرى.فمثلا:من كان في أوّل الصفّ لا يمكن أن يكون في نفس الوقت في آخره،و كذلك إذا كنت ظاهرا فليس بالمقدور أن تكون

ص: ١٤

١- (١) -نهج البلاغه،خطبه ١٨٦.

فى نفس الوقت باطنا و العكس صحيح أيضا. و السبب فى ذلك هو محدوديه وجودنا، فالوجود المحدود لا يستطيع أن يكون غير ذلك، إلا أن الحديث عند ما يكون عن صفات الله فسيتغير الأمر، حيث يمكن الجمع فى هذه الحاله بين الظاهر و الباطن، و بين البدايه و النهايه، و ذلك لطبيعته صفات الذات الإلهيه المقدسه اللامتناهيه، و لذلك فلا عجب هنا.

و قد وردت أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أتته أهل البيت عليهم السلام فيها توضيحات رائعه تساعد على تفسير هذه الآيات ذات المحتوى العميق، و من جملتها ما

ورد فى صحيح مسلم عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، و أنت الآخر فليس بعدك شيء، و أنت الظاهر فليس فوقك شيء، و أنت الباطن فليس دونك شيء» (١).

و

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ليس لأوليته ابتداء، و لا لأزليته انقضاء، هو الأول لم يزل، و الباقي بلا أجل.. الظاهر لا يقال مم؟ و الباطن لا يقال فيم؟» (٢).

و

يقول الإمام المجتبى عليه السلام فى خطبه له: «الحمد لله الذى لم يكن فيه أول معلوم، و لا آخر متناه... فلا- تدرك العقول و أوهامها، و لا الفكر و خطراتها. و لا الأبواب و أذهانها صفته، فتقول متى و لا بدع ممّا؟ و لا ظاهر على ما؟ و لا باطن فيما؟» (٣).

ص: ١٥

١- ١) -تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٤٠٦.

٢- ٢) -نهج البلاغه، خطبه ١٦٣.

٣- ٣) -تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٣٦.

اشاره

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)

التفسير

اشاره

على عرش القدره دائما:

تحدثت الآيات السابقة عن إحدى عشره صفه للذات الإلهيه المقدسه، و تبين الآيات أعلاه أوصافا اخرى حيث أشير في الآيه الاولى مورد البحث إلى خمسه أوصاف اخرى من صفات جلاله و جماله.

و يبدأ الحديث عن مسأله الخلقه حيث يقول سبحانه: هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .

لقد ذكرت مسأله الخلقه فى (ستّه أيام) سبع مرّات فى القرآن الكريم، المرّه الاولى فى الآيه ٥٤ من سورة الأعراف، والأخيره هى هذه الآيه مورد البحث (الحديد-الآيه ٤).

و كما قلنا سابقا فإنّ المقصود من (اليوم) فى هذه الآيات ليس المعنى المتعارف (لليوم)، بل المقصود هو (الزمان) سواء كان هذا الزمان قصيرا أو طويلا- حتّى لو بلغ ملايين السنين، وهذا التعبير يستعمل أيضا فى لغه العرب و اللغات المختلفه، كما يقال مثلا: اليوم يحكم فلان، و غدا سيكون لغيره، بمعنى دوره الزمنيه.

و قد بيّنا هذا المعنى مع شرح و أمثله فى نهايه الآيه ٥٤ من سورة الأعراف.

و طبيعى أنّه لا يوجد أى مانع لله عزّ و جلّ من خلق جميع العالم فى لحظه واحده، و لكن فى هذه الحاله سوف لا تتجلّى عظمه الله و قدرته و علمه بشكل جيّد، و بعكس عظمه و قدره و علم الله بصوره أقلّ، ذلك خلق هذه العوالم خلال مليارات السنين و فى أزمنه و حالات مختلفه و وفقا لبرامج منظّمه و محسوبه سيدلل أكثر على قدرته و حكمته، بالإضافة إلى أنّ التدرّج فى الخلق سيكون نموذجا للسير التكاملى للإنسان، و عدم السرعه و الاستعجال فى الوصول إلى الأهداف المختلفه.

ثمّ تتطرّق الآيات إلى مسأله الحكومه و تدبير العالم حيث يقول سبحانه: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ .

إنّ زمام حكومه و تدبير العالم كانت دائما بيده و لا زالت، و بدون شكّ فإنّ الله تعالى ليس جسما، و لذا فليس معنى «العرش» هنا هو عرش السلطه، و التعبير كناية لطيفه عن الحاكميه المطلقه لله سبحانه و نفوذ تدبيره فى عالم الوجود.

«عرش» فى اللغه بمعنى الشئ المسقوف، و تطلق أحيانا للسقف نفسه، و يعنى أيضا التخوت العاليه (عرش السلاطين).

و تستعمل هذه اللفظه كناية عن القدره أيضا كما يقال فى اللغة العربيه:(فلان ثلّ عرشه) (١).

و على كلّ حال-و خلافا لما يتصوّره البعض ممّن أعمى الله بصيرتهم أنّه سبحانه و تعالى قد خلق العالم و تركه و شأنه-فإنّ زمام تدبير العالم و تسيير حكومته فى كفّ قدرته،و ارتباط أنظمه العالم،بل كلّ فرد من أفراد الوجود بذاته المقدّسه،بحيث إذا أعرض لحظه واحده عن الكائنات و قطع فيضه عنهم فإنّ الوجود سينتهى.

و التوجّه إلى هذه الحقيقه يعطى للإنسان إدراكا و بصيره،و هى أنّ الله تعالى فى كلّ مكان و مع كلّ شىء،و هو يرى و يسمع و يراقب و يدير الوجود بحكمته و لطفه.

ثمّ يستعرض نوعا آخر من علمه اللامتناهى بقوله تعالى: يَغْلَمُ مَا يَدْجُجُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرِجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَرْجُجُ فِيهَا .

و بالرغم من أنّ جميع هذه الأمور التى ذكرت فى الآيات السابقه قد جمعت فى تعبير وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ إلاّ أنّ توضيح هذه الأمور يعطى للإنسان توجّها أكثر فى مجال سعه علم الله.

نعم،إنّ جميع ما ينفذ فى الأرض يعلم به الله،سواء قطرات المطر و السيول.

و من بذور النبات التى تنتشر فى الأرض بمساعدته الهواء و الحشرات.

و من جذور الأشجار التى تنفذ-بحثا عن الماء و الغذاء-إلى أعماق الأرض.

و من أنواع المعادن و الذخائر التى كانت يوما على سطح الأرض ثمّ دفنت فيها.

من أجساد الموتى و أنواع الحشرات...نعم أنّه يعلم بكلّ ذلك.

ص: ١٨

١ - ١) -لقد ذكرنا توضيحات أكثر حول حقيقه العرش فى نهايه الآيه(٥٤)من سوره الأعراف،و فى نهايه الآيه(٢٥٥)من سوره البقره.

ثمَّ انه يعلم بالنباتات التى تخرج من الأرض.

و بالعيون التى تفور من أعماق التراب و الصخور.

و بالمعادن و الكنوز التى تظهر.

و بالبشر الذين ظهوروا ثمَّ ماتوا.

و بالبراكين التى تخرج من أعماقها.

و بالحيشرات التى تخرج من بيوتها و جحورها.

و بالغازات التى تتصاعد منها.

و بأمواج الجاذبيه التى تصدر منها الجاذبيه..اللّٰه تعالى يعلم بذلك جزءا جزءا و ذرّه ذرّه.

و كذلك ما ينزل من السماء من قطرات المطر إلى أشعّه الشمس الباعثه للحياه.

و من الأعداد العظيمه من الملائكه إلى أنوار الوحي و الكتب السماويه.

و من أشعّه الكونيه إلى الشهب و النيازك المنجذبه نحو الأرض،إنّه عالم بأجزاء كلّ ذلك.

و كذلك ما يصعد إلى السماء،أعمّ من الملائكه،و أرواح البشر،و أعمال العباد، و أنواع الأدعيه،و أقسام الطيور،و الأبخره،و الغيوم و غير ذلك،مّمّا نعلمه و ممّا لا نعلمه،فإنّه واضح عند اللّٰه و فى دائره علمه.

و إذا فكّرنا قليلا- بأنّ فى كلّ لحظه تدخل الأرض ملايين الملايين من الموجودات المختلفه،و ملايين الملايين من الموجودات تخرج منها،و ملايين الملايين تنزل من السماء أو تصعد إليها،حيث تخرج عن العدّ و الحصر و الحدّ،و لا يستطيع أى مخلوق أن يحصيها..إذا فكّرنا بهذا الموضوع قليلا فسنعرف مدى اتّساع علمه سبحانه.

و أخيرا فى رابع و خامس صفه له سبحانه يركّز حول نقطه مهمّه حيث يقول:

و كيف لا- يكون معنا فى الوقت الذى نعتمد عليه، ليس فى إيجادنا فحسب بل فى البقاء لحظه بلحظه- أيضا- ونستمد منه العون، إنه روح عالم الوجود، بل هو أعلى من ذلك و أسمى.

فالله معنا فى كلّ الحالات و فى كلّ الأوقات، فهو معنا يوم كنّا ذرّة تراب مهملة، و هو معنا يوم كنّا أجنّة فى بطون أمّهاتنا، و هو معنا طيله عمرنا، و فى عالم البرزخ... فهل بالإمكان- مع هذا- ألا يكون مطلعا علينا؟ الحقيقة أنّ الإحسان بأنّ الله معنا فى كلّ مكان يعطى للإنسان عظمه و جلّالا من جهه، و من جهه اخرى يخلق فيه اعتمادا على النفس و شجاعه و شهامه، و من جهه ثالثه فإنه يثير إحساسا شديدا بالمسؤوليه، لأنّ الله حاضر معنا فى كلّ مكان، و ناظر و مراقب لأعمالنا، و هذا أكبر درس تربوى لنا. و هذا الاعتقاد يمثّل دافعا جدّيا للتقوى و الطهاره و العمل الصالح فى الإنسان، و يعتبر رمز عظمته و عزّته.

أجل: إنّ مسأله أنّ الله تعالى معنا دائما و فى كلّ مكان هى حقيقه و ليست كنايه و مجازا، حقيقه مقبوله للنفس و مربّيه للروح، و مولده للخوف و المسؤوليه.

و لذا

ورد عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ من أفضل إيمان المرء أن يعلم أنّ الله تعالى معه حيث كان» (١).

و نقرأ

فى حديث آخر أنّ موسى عليه السّلام قال: «أين أجدك يا ربّ، قال عزّ و جلّ:

يا موسى إذا قصدت إلّى فقد وصلت إلّى» (٢).

و فى الأساس فإنّ هذه (المعنيّه) أى كون الله عزّ و جلّ مع عباده، ظريفه و دقيقه بحيث أنّ كلّ إنسان مؤمن متفكّر يدركها بقدر فكره و إيمانه.

و بعد مسأله الحاكميه و التدبير يأتى الحديث عن مسأله مالكيته سبحانه فى

ص: ٢٠٠

١- ١) - الدر المنثور، ج ٦، ص ١٧١.

٢- ٢) - روح البيان، ج ٩، ص ٣٥١.

كُلِّ عَالَمِ الْوُجُودِ، حَيْثُ يَقُولُ: لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

و أخيرا يشير إلى مسأله مرجعته فيقول تعالى: وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

نعم، عند ما يكون الخالق و المالك و المدبر معنا في كُلِّ مكان، فمن البديهي أن يكون رجوعنا و رجوع أعمالنا إليه كذلك.

نحن سلكننا طريق عشقه و محبته، و بدأنا المسير حاملين معنا الأمل من نقطه العدم باتجاهه، و قد سلكننا شوطا طويلا إلى أن وصلنا إلى مرتبه الوجود..نحن من الله سبحانه، و إليه نرجع، لما ذا؟ لأنه هو المبدئ و إليه المنتهى.

و الجدير بالذكر أن الآيات الثلاث الآنفه الذكر قد جاء فيها مثل هذا الوصف أيضا: لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

و يمكن أن يكون التكرار هنا بلحاظ أن الحديث كان فقط -عن مسأله حياه و موت الموجودات الحيّه، و هنا نلاحظ توسيع البحث و شموليته في رجوع كُلِّ شَيْءٍ لِّلَّهِ سبحانه.

و في تلك الآيات مقدّمه عن بيان قدره الله عزّ و جلّ على كُلِّ شَيْءٍ، و هنا مقدّمه لرجوع كُلِّ شَيْءٍ إليه، و هاتان القضيتان تستلزمان مالكيه الله عزّ و جلّ للأرض و السماء.

التعبير بـ«الأمور» جاء -هنا- بصيغه الجمع، أي: أن جميع الموجودات - و ليس الإنسان فحسب- تتحرّك باتجاهه حركه دائمه و غير قابله للتوقّف.

و بناء على هذا فإن معنى الآيه لا ينحصر فقط -برجوع البشر إليه في الآخره، بالرغم من أن موضوع المعاد من المصاديق البارزه لذلك الرجوع العام.

و في آخر مورد للبحث يشير إلى صفتين أخريين بقوله تعالى: يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ (١) .

ص: ٢١

١ - ١) -«يولج» من مادّه (إيلاج) و هي الاخرى مأخوذه من مادّه (ولج) و الولوج بمعنى الدخول و النفوذ، و الإيلاج بمعنى الإدخال و الإنفاذ.

نعم، بالتدريج ينقص أحد الوقتين (الليل و النهار) ليضيف للآخر، و تبعا لذلك يتغير طول النهار و الليل فى السنه، و هذا التغير يكون مصحوبا بالفصول الأربعة فى السنه مع كل البركات التى تكون مختصه فى هذه الفصول لبنى الإنسان.

و هناك تفسير آخر لهذه الآيه و هو: إن شروق و غروب الشمس لن يحدثا فجأه و دون مقدمات حتى لا تجلب هذه الحاله المشاكل للإنسان و الموجودات الحيه الاخرى، بل يتم هذا التغير بصورة تدريجيّه، و تنتقل الموجودات رويدا رويدا من عالم الضوء فى النهار إلى ظلمه الليل، و من ظلمه الليل إلى ضوء النهار، و يعلن كل منهما وصولهما قبل مدّه حتى يتهيأ الجميع لذلك.

و الجمع بين التفسيرين لمفهوم الآيه ممكن أيضا.

و يضيف سبحانه فى النهايه: وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

فكما أنّ أشعّه الشمس الباعثه للحياه تنفذ فى أعماق ظلمات الليل، و تضيء كل مكان، فإنّ الله عزّ و جلّ ينفذ كذلك فى كلّ زوايا قلب و روح الإنسان، و يطلع على كلّ أسرارهِ.

و النقطه الجديره بالملاحظه فى الآيات السابقه أنّ الحديث كان عن علم الله سبحانه بأعمالنا (و الله بصير عليم) و هنا الكلام عن علم الله عزّ و جلّ بأفكارنا و عقائدنا و ما تكنّه صدورنا، وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

كلمه (ذات) فى الاصطلاح الفلسفى تعنى (عين الشئ و حقيقته) إلا أنّها فى اللغه بمعنى (صاحب الشئ) و بناء على هذا فإنّ (ذات الصدور) إشاره إلى التيات و الاعتقادات التى استولت على قلوب البشر.

و كم هو رائع أن يؤمن الإنسان بكلّ هذه الصفات الإلهيه من أعماق نفسه، و يحسّ حضوره سبحانه فى كلّ أعماله و نيّاته و عقائده، إحساسا لا يخرجهُ عن جادّه الطاعه و طريق العبوديه، إحساسا يبعده عن طريق العصيان و السوء و الانحراف..

آيات الاسم الأعظم:

قسّم الفلاسفه و المتكلمون الصفات الإلهية إلى قسمين:

أحدهما: «صفات الذات» و التي تبين أوصاف جلاله و جماله. و الأخرى:

«صفات الفعل» التي تبين الأفعال الصادرة من ذاته المباركه، كما جاء في الآيات الست في بدايه هذه السوره المباركه، و التي يجدر أن تسمى ب: (آيات المتعمقين) تماشياً مع حديث في هذا الصدد.

و قد وردت عشرون صفه من أوصاف الذات الإلهية و الأفعال بدءاً من علمه و قدرته و حكمته و أزليته و أبديته سبحانه، إلى خلقه و تدبيره و ملكيته و إحاطته عزّ و جلّ بكلّ الموجودات و حضوره في كلّ مكان، هذه الأوصاف و التعبيرات تعطينا عمقا أكثر في التوجّه إلى الإيمان و السعي لإضائه مشعل وجودنا و أفكارنا المحدوده ليكون عوناً أفضل في إمدادنا بما يجعلنا في المسير التكاملي نحو الله سبحانه.

و

جاء في حديث «براء بن عازب» أنّه قال: قلت لعلي عليه السلام: يا أمير المؤمنين، أسألك بالله و رسوله ألا خصصتني بأعظم ما خصّك به رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و اختصّه به جبرائيل، و أرسله به الرحمن، فقال عليه السلام: «إذا أردت أن تدعو باسمه الأعظم، فاقرأ من أول سورة الحديد إلى آخر ست آيات منها عليم بذات الصدور، و آخر سورة الحشر يعني أربع آيات ثم ارفع يديك فقل: يا من هو هكذا أسألك بحقّ هذه الأسماء أن تصلي على محمد و أن تفعل بي كذا و كذا - ممّا تريد - فوالله الذي لا إله غيره لتنقلبن بحاجتك إن شاء الله» (١).

ص: ٢٣

و فى عظمه هذه الآيات و أهميّه محتواها نكتفى بهذا الحديث، و يجب ألاّ ننسى أنّ اسم الله العظيم ليس بالألفاظ فقط، إذ يجب التخلّق بمعانيه أيضا.

ص: ٢٤

آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعِدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)

الإيمان والإنفاق أساسان للنجاح

بعد البيان الذى تقدّم حول دلائل عظمه الله فى عالم الوجود و أوصاف جماله و جلاله، تلك الصفات المحفّزه للحركة باتّجاه الله تعالى، ننتقل الآن إلى جوّ هذه الآيات المفعم بالدعوة للإيمان والعمل..

يقول سبحانه فى البدايه آمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ إِنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ دَعْوَةُ عَامَّةٍ لِّجَمِيعِ الْبَشَرِ، فهى تدعو المؤمنين إلى إيمان أكمل و أرسخ، و تدعو-أيضا-غير المؤمنين إلى التصديق و الإيمان بما جاء به الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلم، و هذه الدعوة إلى الإيمان جاءت توأما مع أدلّه التوحيد التى تناولتها الآيات التوحيدية السابقة.

ثمّ يدعو إلى أحد الالتزامات المهمّة للإيمان و هى: (الإنفاق فى سبيل الله) حيث يقول تعالى: وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ

إنّها دعوة إلى الإيثار و التضحية، و ذلك بالإنفاق و العطاء ممّا منّ الله به على الإنسان، و لكن هذه الدعوة مصحوبة بملاحظه، و هى أنّ المالك الحقيقى هو الله عزّ و جلّ، و هذه الأموال و الممتلكات قد وضعها الله عند الإنسان بعنوان أمانه لفتره محدوده، كما وضعت كذلك باختيار الأقوام السابقة.

و الحقيقه أنّها كذلك، إذ مرّ بنا فى الآيات السابقه أنّ المالك الحقيقى لكلّ العالم هو الله سبحانه، و أنّ الإيمان بهذه الحقيقه و العمل بها تبيّن أنّنا أمناء على ما استخلفنا به من قبل الله تعالى، و لا بدّ للمؤمن من أن يأخذ بنظر الإعتبار أمر صاحب الأمانه.

الإيمان بهذه الحقيقه يمنح الإنسان روح السخاء و الإيثار و يفتح قلبه و يديه على الإنفاق.

عباره (مستخلفين) قد تكون إشاره إلى أنّ الإنسان خليفه الله تعالى على الأرض، أو أنّه مستخلف عن الأقوام السابقه أو كلا المعنيين.

و تعبير (مَمًا) تعبير عام و لا يشمل الأموال فحسب بل كل الممتلكات و الهبات الإلهية. و هنا يعنى أن للإنفاق مفهوما واسعا و لا ينحصر بالمال فقط، بل يشمل - أيضا - العلم و الهدايه و السمعه الاجتماعيه و رؤوس الأموال المعنويه و الماديه.

ثم يقول تعالى فى الحث على الإنفاق: فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ .

إن وصف الأجر بأنه «كبير» إشاره إلى عظمه الألفاف الإلهيه و الهبات الإلهيه، و أبديتها و خلوصها و دوامها ليس فى الآخره فحسب، بل فى عالم الدنيا أيضا حيث أن قسما من الأجر سوف يكون من نصيب الإنسان فى الدنيا.

و بعد الأمر بالإيمان و الإنفاق يعطى بياننا لكل منهما، و هو بمثابة الاستدلال و البرهان، و ذلك بصورة استفهام توبيخى ابتداء، حيث يستفسر عن علّه عدم قبول دعوه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم حول الإيمان بالله فيقول سبحانه: وَ مَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولِ يُدْعَوُكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ يعنى أنكم إذا كنتم مستعدين حقيقه و صدقا لقبول الحق، فإن دلائله واضحه عن طريق الفطره و العقل، و كذلك عن طريق النقل.

و هذا رسول الله قد أتى لكم بدلائل واضحه و آيات و معجزات باهره، و هذه آثار الله سبحانه فى عالم الخلق و فى أنفسكم و قد أخذ نوعا من العهد التكوينى منكم، فآمنوا به، إلا أنكم - مع الأسف - لا تقيمون و زنا لعقلكم و فطرتكم، و كذلك لا تعيرون اهتماما لتوجيهات الوحى، و يبدو أنكم غير مستعدين و مهينين للإيمان أصلا، و قد غلب الجهل و التعصب و التقليد الأعمى على أفكاركم و نفوسكم.

و يتوضح ممّا قلناه أن المقصود من جمله إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ هو أنكم إذا كنتم مستعدين للإيمان بشىء و تقبلون أدلته فهذا هو محلّه، لأن دلائله واضحه من كل جهه.

و النقطه الجديره بالملاحظه هنا هى معرفه السبب الذى يمنع هؤلاء الذين

شاهدوا الرسول الأكرم صَلَّى الله عليه وآله وآله و سلم و سمعوا دعوته مباشرة و بلا واسطه، و شاهدوا معجزاته بأعينهم، من الإيمان بدعوته.

فى هذا الصدد نقرأ

الحديث التالى: أَنَّ الرَّسُولَ الْأَكْرَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمًا: (أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيْمَانًا؟) قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ. قَالَ: «وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قَالُوا: الْأَنْبِيَاءُ. قَالَ: «وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَ الْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟» قَالُوا: نَحْنُ. قَالَ: «وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ وَ أَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ؟» لَكِنْ أَعْجَبَ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَانًا قَوْمٌ يَجِئُونَ بَعْدَكُمْ يَجِدُونَ صَحَافًا يُؤْمِنُونَ بِهَا» (١).

و هذه حقيقه لا غبار عليها، و هى أَنَّ الأشخاص الذين يطلّون على عالم الوجود بعد سنوات طويله من رحله الرسول صَلَّى الله عليه وآله و سلم و يشاهدون آثاره فى الكتب - فقط - و يؤمنون بأحقّيه دعوته، فإنّ لهم ميزه كبيره على الآخرين.

إنّ التعبير ب«الميثاق» يمكن أن يكون إشاره إلى الفطره التوحيديه أو الدلائل العقليه التى بمعرفتها يتبين للإنسان (نظام الخلقه)، و عباره (بربّكم) إشاره إلى التدبير الإلهى فى عالم الخلقه، و هو شاهد على هذا المعنى أيضا.

و اعتبر البعض كلمه (ميثاق) إشاره إلى (عالم الذرّ) إلّا أنّ هذا المعنى مستبعد إلّا أن يراد به التفسير الذى ذكرناه سابقا لعالم الذرّ (٢).

و جاءت الآيه اللاحقه لتأكيد و توضيح نفس هذا المعنى حيث تقول: هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ .

فسير البعض آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ هنا بكلّ المعجزات، و قال قسم آخر: إنّه (القرآن الكريم) إلّا أنّ مفهوم الآيه واسع يستوعب كلّ ذلك، بالرغم من أنّ التعبير يُنَزِّلُ يناسب (القرآن) أكثر، هذا الكتاب العظيم الذى يمزّق حجب ظلام الكفر و الجهل

ص: ٢٨

١-١) -صحيح البخارى طبقا لنقل تفسير المراغى تفسير ظلال نهايه القرآن فى نهايه الآيات مورد البحث.

٢-٢) -راجع هذا التفسير، نهايه الآيه (١٧٢) من سوره الأعراف.

و الضلال و يشرق شمس الوعى و الإيمان فى النفوس، و الذى هو رحمه و نعمه إلهيه عظيمه.

أمّا التعبير بَ لَرُؤُفَ رَحِيمَ فهو إشاره لطيفه إلى حقيقه أنّ هذه الدعوه الإلهيه العظيمه إلى الإيمان و الإنفاق تمثّل مظهرًا من مظاهر الرحمه الإلهيه التى جاءت إليكم جميعًا، كما أنّ جميع بركاتها فى هذا العالم و العالم الآخر ترجع إليكم.

و سؤال يثار هنا و هو: هل يوجد اختلاف بين (الرؤوف) و بين (الرحيم)؟ و ما هى خصوصيات كلّ منهما؟ ذكر المفسرون فى ذلك آراء، و المناسب من بين كلّ الآراء التى ذكرت هو: أنّ كلمه (رؤوف) جاءت هنا إشاره إلى محبته و لطفه الخاص بالنسبه إلى المطيعين، فى حين أنّ كلمه (رحيم) إشاره إلى رحمته بخصوص العاصين.

قال البعض: إنّ «الرأفه» تقال للرحمه قبل ظهورها، و «الرحمه» تعبير يطلق على حاله بعد ظهورها.

ثمّ يأتى استدلال آخر على ضروره الإنفاق حيث يقول تعالى: وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ
أى أنّكم سترحلون عن هذه الدنيا و تتركون كلّ ما منحكم الله فيها، و تذهبون إلى عالم آخر، فلما ذا لا تستفيدون من هذه الأموال التى جعلها الله تحت تصرفكم بتنفيذ أمره بالإنفاق؟.

(ميراث) فى الأصل - كما قال الراغب فى المفردات - هى الأموال التى تنتقل للإنسان بدون اتفاق مسبق، و ما ينتقل من الميّت إلى ورثته هو أحد مصاديق ذلك، و لكن لكثرة استعمالها بهذا المعنى يتداعى لسامعها هذا المعنى عند إطلاقها.

و جملة لِّلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بمعنى ليست جميع الأموال و الثروات الموجوده فوق الأرض، بل كلّ ما هو فى السماء و الأرض و عالم الوجود يرجع إليه، حيث تموت جميع الخلائق و الله سبحانه هو الوارث لها جميعًا.

و لَأَنَّ لِلْإِنْفَاقِ قِيَمًا مُخْتَلِفَةً وَ أَحْوَالًا مُتَفَاوِتَةً الشَّرَاطِطُ وَ الظُّرُوفُ، يَضِيفُ سَبْحَانَهُ: لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قَاتَلَ (١).

هناك اختلاف بين المفسرين حول المقصود من كلمه «الفتح» التي وردت في الآية، فقد اعتبرها البعض إشارة لفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، و اعتبرها آخرون إشارة إلى فتح الحديبيه في السنة السادسة للهجرة.

و بالنظر إلى أَنَّ كلمه «الفتح» فسّرت (بفتح الحديبيه) في سورة: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا فالمناسب هنا أن يكون المقصود بها فتح الحديبيه أيضا. إلاَّ أَنَّ كلمه (قاتل) تناسب فتح مكة، لأنه لم يحصل قتال في صلح الحديبيه، بعكس فتح مكة الذي حصل فيه قتال سريع و قصير، إذ لم يواجه بمقاومه شديده.

و يحتمل أيضا أن يكون المراد من «الفتح» في هذه الآية هو جنس الفتح، و الذي يمثّل انتصار كلّ المسلمين في الحروب الإسلاميه. و المقصود إجمالاً أَنَّ الذين بذلوا المال و النفس في الظروف الحرجه مفضّلون على الذين ساعدوا الإسلام بعد سكون الموج و هدوء العاصفه، لذلك و للتأكيد أكثر يضيف تعالى:

أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قَاتَلُوا

و العجيب هنا أَنَّ بعض المفسرين الذين اعتبروا مقصود الآية هو فتح مكة، أو فتح الحديبيه، اعتبروا مصداق المنفق في هذه الآية هو «أبو بكر». في حين أنّه ممّا لا شكّ فيه أَنَّ عدّه حروب و غزوات حصلت بين هجره الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلّم و نزول آيه الفتح و الذي استغرق من (٦-٨) سنوات، و في هذه الفتره قاتل و أنفق الآلاف من الأشخاص في طريق الإسلام، إذ شارك في فتح مكة فقط عشره آلاف شخص، طبقا لما ورد في كتب التاريخ. و من الواضح أَنَّ أعدادا كبيره في هذه المجموعه قدّمت الكثير من الأموال في سبيل الله و أعانت الإسلام في المجهود الحربي،

ص: ٣٠

١- ١) -لآيه محذوف يستفاد من المذكور، و تقديره (لا يستوى من أنفق من قبل الفتح و قاتل و الذين أنفقوا بعد الفتح و قاتلوا).

و واضح أنّ كلمه (قبل) تعنى الإنفاق فى مشارف هذا الفتح و ليس فى بدايه الإسلام و قبل إحدى و عشرين سنه.

يجدر الانتباه إلى أنّ بعض المفسّرين يصرون على أنّ الإنفاق أفضل من الجهاد، و ذلك انسجاماً مع رأيهم السابق، و يدلّون على صحّته من خلال ما ورد فى الآيه أعلاه من تقديم الإنفاق المالى على الجهاد باعتبار أنّ الوسائل و المقدّمات و الآلات الحربيه، تنهياً بواسطته. إلا أنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ بذل النفس و التهيؤ للشهاده أعلى و أفضل من الإنفاق المالى.

□
و على كلّ حال، بما أنّ القسمين (الإنفاق و الجهاد) مشمولان بعنايه الحقّ تعالى مع اختلاف الدرجه، فيضيف فى النهايه وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى .

و هذا تقدير لعموم الأشخاص الذين ساهموا فى هذا الطريق.

و كلمه (حسنى) لها مفهوم واسع، حيث تشمل كلّ ثواب و جزاء و خير فى الدنيا و الآخره.

□
و لكون قيمه العمل بإخلاصه لله سبحانه فيضيف فى نهايه الآيه: وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

نعم، إنّّه يعلم بكيفيه و كمّيّه أعمالكم. و كذلك نياتكم و مقدار خلوصكم.

و لغرض الحثّ على ضروره الإنفاق فى سبيل الله، و من خلال تعبير رائع يؤكّد سبحانه ذلك فى الآيه مورد البحث بقوله: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُنْفِقَ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ .

إنّّه تعبير عجيب حقّاً، حيث إنّ الله الواهب لكلّ النعم و جميع ذرّات وجودنا- هى من بحر فيضه اللامتناهى. و بالإضافة إلى أنّنا عبيد له يعبّر عنّا بأننا أصحاب الأموال، و يدعونا لإقراضه ضمن شروط مغريه، حيث أنّ السائد أنّ الديون العاديه تسترجع بنفس مقاديرها، إلا أنّه سبحانه- بفضل منه- يضاعفها لنا بالمئات أحياناً و بالآلاف أحياناً اخرى.

و إضافه إلى ذلك فإنه قد وعدنا بأجر كريم أيضا، و هو جزاء عظيم لا يعلمه إلا هو.

بحوث

أشاره

١-بواعث الإنفاق

الشيء الجدير بالانتباه أننا نلاحظ في الآيات السابقة تعبيرات مختلفه للحث على الإنفاق، أعم من المساعدة و المساهمه في موضوع الجهاد أو أنواع الإنفاق الأخرى للمحتاجين، و التي يعتبر كل منها عاملا أساسيا و محرّكا باتّجاه تحقيق الهدف.

و تشير الآيه السابعة لمسأله استخلاف الناس بعضهم لبعض أو عن الله تعالى في هذه الثروه، و بما أنّ المالكيه الحقيقه لله تعالى، و الجميع نوابا له في هذه الأموال. فهذا الفهم يستطيع أن يفتح في الحقيقه يد الإنسان و قلبه للإنفاق و يكون عاملا للحركه في هذا المجال.

أمّا في الآيه العاشره فقد ورد مفهوم آخر يتحدّث فيه عن حاله عدم استقرار الأموال و الممتلكات و بقائها بعد فناء الناس جميعا، لذا يعبر عنها ب **مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ** و أنّها لله تعالى.

و في الآيه الحاديّه عشره ورد تعبير مرهف بالحساسيه، حيث يعتبر الله سبحانه الإنسان هو المقرض و أنّه تعالى هو المستقرض، و ليس في هذا القرض ربا، بل فيه أرباح مضاعفه، و أحيانا مضاعفه بالآلاف عوض هذا القرض، بالإضافة إلى الجزاء العظيم الذي لا نستطيع تصوّره.

إنّ هذا كلّه لإزالة النظرات الخاطئه و المنحرفه و دوافع الحرص و الحسد و حبّ الذات و طول الأمل التي تمنع من الإنفاق، لتكوين مجتمع على أسس وديّه و تعاون عميق و روح اجتماعيه بّناءه.

٢- شروط الإنفاق في سبيل الله!

إنَّ التعبير بقرضاً حسناً في الآية أعلاه يشير إلى هذه الحقيقة و هي أنَّ إعطاء القرض بحد ذاته (أقسام و أنواع) فبعضها يعتبر قرضاً حسناً، و الآخر قرضاً قليل الفائدة، أو حتى عديم الفائدة أيضاً.

و القرآن الكريم يبيِّن شروط القرض الحسن لله سبحانه كما وضح ذلك في الآيات المختلفة، و بعض المفسرين استنتجوا عشره شروط في مجموع الآيات القرآنيه التي تتحدث عن الإنفاق، و هي كما يلي:

الشرط الأول: انتخاب أجود الأموال للإنفاق و ليس من أرخصها شأنًا و قيمه، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١)﴾.

ثانياً: يجدر أن يكون الإنفاق و الإقراض من الأموال التي هي موضع حاجه الشخص المنفق، حيث يقول سبحانه: ﴿وَيُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (٢)﴾.

ثالثاً: يجب أن يكون الإنفاق للأشخاص الذين هم موضع حاجه شديده إليه، و تؤخذ بنظر الاعتبار الأولويات في إنفاقه، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٣)﴾.

رابعاً: الأفضل و الأولى في الإنفاق أن يكون محاطاً بالسريه و الكتمان قال تعالى: ﴿وَأِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ (٤)﴾.

ص: ٣٣

١-١) -البقره، الآية ٢٦٧.

٢-٢) -الحشر، الآية ٩.

٣-٣) -البقره، الآية ٢٧٣.

٤-٤) -البقره، الآية ٢٧١.

خامسا: أن لا يقترن الإنفاق من ولا أذى أبدا، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى (١).

سادسا: أن يكون توأما مع خلوص التيه قال تعالى: يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ (٢).

سابعا: الشعور بضئالة العطاء وأنه صغير لا قيمه له حتى وإن كان كثيرا ومهما، وذلك تلبية لأمر الله وانتظارا للجزاء الذي أعدّه للمنفقين. قال تعالى: وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٣) (٤).

ثامنا: أن يكون الإنفاق مما تعلق قلبه به من الأموال، وخاصة تلك التي تكون موضع تعلق وشغف، قال تعالى: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (٥).

تاسعا: أن لا يرى المنفق أنه هو المالك للأموال، حيث أن المالك الحقيقي هو الله سبحانه، ويعتبر المنفق نفسه واسطه بين الخالق والمخلوق، قال تعالى:

وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ

(٦)

عاشرا: أن يكون الإنفاق من المال الحلال، لأنه هو الذي يقبل فقط من قبل الله سبحانه، قال تعالى: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٧).

و

جاء في حديث أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يقبل الله صدقه من غلول» (٨).

والذي ذكرناه أعلاه هو قسم مهم من الضوابط والشروط اللازمة للإنفاق، ولا

ص: ٣٤

١-١) -البقرة، الآية ٢٦٤.

٢-٢) -البقرة، الآية ٢٦٥.

٣-٣) -لهذه الآية تفاسير متعدده، أحدها ما ذكر أعلاه وستطالعون بعون الله شرحا أكثر في تفسير سورة المدثر إن شاء الله.

٤-٤) -المدثر، الآية ٦.

٥-٥) -آل عمران، الآية ٩٢.

٦-٦) -الحديد، الآية ٧.

٧-٧) -المائدة، الآية ٢٧.

٨-٨) - ذكر الطبرسى قدّس سرّه هذه الشروط العشره فى مجمع البيان و الفخر الرازى فى التّفسير الكبير و الآلوسى فى روح المعانى و قد أدرجناها باختصار.

تنحصر به، و نستطيع من خلال التدقيق و التأمل فى الآيات الكريمه و الروايات الإسلاميه أن نتعرّف على شروط أخرى أيضا.

ثم إنّ ما قيل من الشروط بعضها واجب ك(عدم الأذى و المنّ و الإعلاء فى العطاء) و البعض الآخر مستحبّ و من شروط الكمال ك(الإيثار على النفس) حيث إنّ عدمه لا يقلل من قيمه الإنفاق، بالرغم من أنّ الإنفاق فى هذه الحاله لا يرتقى إلى مستوى الإنفاق العالى من حيث الدرجة.

و مع أنّ ما قيل هنا خاصّ فى الإنفاق فى سبيل الله (الإقراض لله) إلّا أنّه أيضا يصدق فى كثير من القروض العاديه، لأنّ هذه الشروط من الأمور اللازمه أو من شروط الكمال للقرض الحسن.

و حول أهمّيه الإنفاق فى سبيل الله فقد ذكرنا شرحا مفصّلا تفسير الآيات من (٢٦١-٢٦٧) من سوره البقره.

٣- السابقون فى الإيمان و الجهاد و الإنفاق

الأشخاص الذين يتقدّمون على غيرهم بالإيمان و العمل الصالح فهم ذوو و عى و شجاعه و إيثار و تضحيه أكثر من الآخرين بلا شكّ، و لذا فإنّ درجات المؤمنين غير متساويه عند الله، و الآيه الكريمه اعتمدت هذا المفهوم و ميزت بين الأشخاص الذين أنفقوا قبل الفتح: (سواء كان فتح مكّه أو الحديبيه أو مطلق الفتوحات الإسلاميه) و جاهدوا أيضا، و بين الذين أنفقوا و قاتلوا من بعد.

نقل فى حديث عن (أبى سعيد الخدرى) أنّه قال: «خرجنا مع رسول الله فى عام الحديبيه (السنه السادسه للهجره) حتّى إذا كان بعسفان-مكان قريب من مكّه- قال رسول الله: «يوشك أن يأتى قوم تحقّرون أعمالكم مع أعمالهم» قلنا: من يا رسول الله؟ أ قريش؟ قال: «لا» ولكنّهم أهل اليمن، هم أرقّ أفئده و ألين قلوبا» قلنا: أهم خير منّا يا رسول الله؟ قال: «لو كان لأحدكم جبل ذهب فأنفقه ما أدرك

مدّ (١) أحدكم ولا نصفه، إلا إن هذا فصل ما بيننا وبين النساء لا يتسوّى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل» (٢).

و النقطة التالية جديره بالملاحظه أيضا و هي: أنّ الإقراض لله تعالى هو كلّ إنفاق في سبيله، و أحد مصاديقه المهمّة الدعم الذي يقدّم للرسول صلى الله عليه وآله وسلم و أئمة المسلمين من بعده، كي يستعمل في الموارد اللازمة لإداره الحكومه الإسلاميه.

لذا

نقل في الكافي روايه عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله لم يسأل خلقه ممّا في أيديهم قرضا من حاجه به إلى ذلك، و ما كان لله من حقّ فإنّما هو لولّيه» (٣).

و

جاء في حديث آخر عن الإمام الكاظم عليه السلام حول نهايه الآيه مورد البحث:

□
مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...

أنّه قال: «نزلت في صله الإمام» (٤).

ص: ٣٦

١-١) -الظاهر أنّ المقصود من (المدّ الواحد من الطعام) هو أقلّ من الكيلو.

٢-٢) -الدّر المنثور، ج ٦، ص ١٧٢.

٣-٣) -تفسير الصافي، ص ٥٢٢.

٤-٤) -تفسير الصافي، ص ٥٢٢.

اشاره

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يَتَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَ لَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمْ الْآمَانَةُ حَتَّىٰ إِذَا أَمَرَ اللَّهُ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَ بئسَ الْمَصِيرُ (١٥)

التفسير

اشاره

انظرونا نقتبس من نوركم:

لقد بشر الله المنافقين في آخر آيه من الآيات السابقه بالأجر الكريم،

و استمرارا للبحث فالآيات أعلاه تتحدّث عن هذا الأجر، وتبين مدى قيمته و عظمته فى اليوم الآخر، يقول سبحانه: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بَايِمَانِهِمْ .

و بالرغم من أنّ المخاطب هنا هو الرسول الكريم صَلَّى الله عليه و آله و سلّم إلا أنّ من الواضح أنّ الآخرين يرقبون هذا المشهد أيضا، و لكن بما أنّ تشخيص المؤمنين من الأمور اللازمه للرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلّم ليتفقدهم فكانت هذه العلامه: (نورهم الذى يسعى بين أيديهم...) دالّه عليهم، و بذلك تكون معرفتهم أيسر.

و بالرغم من أنّ المفسّرين ذكروا احتمالات متعدّده لهذا «النور» إلا أنّ المقصود منه- فى الواقع - تجسيم نور الإيمان، لأنّه سبحانه عبّر بـ (نورهم) و لا عجب، لأنّ فى ذلك اليوم تتجسّد أعمال البشر، فيتجسّد الإيمان الذى هو نور هدايتهم بصوره نور ظاهرى، و يتجسّد الكفر الذى هو الظلام المطلق بصوره ظلمه ظاهريه. كما نقرأ فى الآية الكريمه: يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ (١).

و جاء فى الآيات القرآنيه الاخرى أنّ الله تعالى يهدى المؤمنين من الظلام إلى النور: يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .

التعبير بـ «يسعى» من مادّه (سعى)- بمعنى الحركه السريعه- دليل على أنّ المؤمنين أنفسهم يسرون بسرعه فى طريق المحشر باتجاه الجنّه حيث مركز السعاده السرمديه، ذلك لأنّ الحركه السريعه لنورهم ليست منفصله عن حركتهم السريعه.

و الجدير بالملاحظه هنا أنّ الحديث جاء عن (نورين) (النور الذى يتحرّك أمامهم، و النور الذى يكون عن يمينهم) و هذا التعبير يمكن أن يكون إشاره إلى

ص: ٣٨

قسمين مختلفين من المؤمنين:

قسم المقربين و أصحاب الوجوه النورانيه، و هؤلاء نورهم يتحرك أمامهم.

و القسم الثانى و هم أصحاب اليمين و يكون نورهم عن أيمانهم، و ذلك كناية عن صحيفه أعمالهم التى تعطى بأيديهم اليمينى و يخرج النور منها.

كما يوجد احتمال آخر أيضا و هو أن النورين إشاره إلى مجموعته واحده، و ما يقصد بنور اليمين هو كناية عن النور الذى يصدر عن أعمالهم الصالحه و يضىء جميع أطرافهم.

و على كل حال فإن هذا النور هو دليلهم إلى الجنه، و على ضوئه يسرون بسرعه إليها.

و من جهه ثالثه بما أن مصدر هذا النور الإلهى هو الإيمان و العمل الصالح فلا شك أنه يختلف باختلاف درجات الإيمان و مستوى الأعمال الصالحه للبشر، فالأشخاص ذوو الإيمان الأقوى فإن نورهم يضىء مسافه أطول، و الذين لهم مرتبه أقل يتمتعون بنور يناسب مرتبتهم، حتى أن نور بعضهم لا يضىء موضع أقدامهم، كما ورد فى تفسير على بن إبراهيم فى نهايه الآيه مورد البحث: «يقسم النور بين الناس يوم القيامه على قدر إيمانهم» (١).

و هنا يصدر هذا النداء الملائكى باحترام للمؤمنين: بُشِّرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

أما المنافقون الذين سلكوا طريق الظلام و الكفر و الذنوب و المعصيه، فإن صراخهم يعلو فى مثل تلك الساعه و يلتمسون من المؤمنين شيئا من النور، لكنهم يواجهون بالرد و النفي. كما فى قوله تعالى: يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُنافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ (٢).

ص: ٣٩

١- ١) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٤١، حديث ٦٠.

٢- ٢) -انظرونا من مادّه (نظر) فى الأصل بمعنى الفكر أو النظر لمشاهده إدراك شىء، و تأتى أحيانا بمعنى التأمل و البحث.

«اقتباس» فى الأصل من مادّة (قبس) بمعنى أخذ شعله من النار، ثمّ استعملت على أخذ نماذج اخرى أيضا.

المقصود من جملة (انظرونا) هو أن انظروا لنا كي نستفيد من نور وجوهكم لنجد طريقنا، أو انظروا لنا نظر لطف و محبّة و أعطونا سهما من نوركم، كما يحتمل أنّ المقصود هو أنّ (انظرونا) مشتقة من (الانتظار) بمعنى أعطونا مهلة قليلة حتّى نصل إليكم و فى ظلّ نوركم نجد الطريق.

و على كلّ حال يأتى الجواب على طلبهم بقوله تعالى: قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا .

كان من الممكن أن تحصلوا على النور من الدنيا التى تركتموها و وراءكم، و ذلك بإيمانكم و أعمالكم الصالحة، إلّا أنّ الوقت انتهى، و فاتت الفرصة عليكم و لا أمل هنا فى حصولكم على النور.

فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ

و هذا الباب أو هذا الجدار من نوع خاص و أمره فريد، حيث إنّ كلا من طرفيه مختلف عن الآخر تماما، حيث: [□]بَابُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ [□]ظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ .

«السور» فى اللغة هو الحائط الذى يحيط بالمدن - كما كان فى السابق - للمحافظة عليها، و فيه نقاط مراقبة عديدة يستقرّ بها الحراس للمحافظة و رصد الأعداء تسمّى بالبرج و الأبراج.

و النقطة الجديده بالملاحظه هنا حيث يقول تعالى: [□]بَابُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ [□]ظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ حيث أنّ المؤمنين كسكّان المدينه داخل البستان، و المنافقين كالغرباء القسم الصحراوى، فهم فى جَوَيْن مختلفين و عالَمين متفاوتين، و يحكى ذلك عن كون هؤلاء كانوا فى مجتمع واحد جنبا إلى جنب و لكن يفصل بينهم

(٢)

و كلّما تعدّت ب (إلى) فإنّها تأتى بمعنى النظر إلى شىء، و كلّما تعدّت ب (فى) فإنّها تأتى بمعنى التأمل و التدبّر، و عند ما لا تتعدّى بدون حرف جرّ كأن نقول: (نظريه و أنظرته و انتظرته) فإنّها تأتى بمعنى التأخير أو الانتظار (من المفردات للراغب).

ص: ٤٠

حاجز عظيم من الاعتقادات و الأعمال المختلفه،ففى يوم القيامه يتجسد نفس المعنى أيضا.

و لما ذا هذا«الباب»،و لأى الأهداف؟ للجواب على هذا التساؤل نقول:من الممكن أن يكون هذا الباب من أجل أن يرى المنافقون من خلاله نعم الجنه و يتحسّرون عليها،أو أنّ من كان قليل التلوّث بالذنوب و قد نال جزاءه من العذاب بإمكانه أن يدخل منها و يكون مع المؤمنين فى نعيمهم.

غير أنّ هذا الحائط ليس من النوع الذى يمنع عبور الصوت حيث يضيف سبحانه:أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ لَقَدْ كُنَّا نَعِيشُ مَعَكُمْ فِى هَذِهِ الدُّنْيَا فَمَا الَّذِى حَدَثَ وَ انْفَصَلْتُمْ عَنَّا وَ ذَهَبْتُمْ إِلَى الرُّوحِ وَ الرَّحْمَةُ إِلَهِهِ وَ تَرَكْتُمُونَا فِى قَبْضِهِ الْعَذَابِ؟
فَالْوَابِلِيُّ كُنَّا مَعَكُمْ فِى أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ فِى الْأَنْزَقَةِ وَ الْأَسْوَاقِ،فِى السَّفَرِ وَ الْحَضَرِ،وَ كُنَّا أحيانًا جيرانًا أَوْ فِى بَيْتٍ وَاحِدٍ..نعم كُنَّا معًا،إلاّ أنّ اختلافاتنا فى العقيدة و العمل كانت هى الفواصل بيننا،لقد كنتم تسировون فى خطّ منفصل عن خطّنا و كنتم غرباء عن الله فى الأصول و الفروع،لذا فأنتم بعيدون عَنَّا.ثمّ يضيفون:

لقد ابتليتم بخطايا و ذنوب كثيرة من جملتها:

١- وَ لَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ خَدَعْتُمُوهَا بِسُلُوكِ طَرِيقِ الْكُفْرِ وَ الضَّلَالِ.

٢- وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ انتظرتُم موت النبى و هلاك المسلمين و انهدام أساس الإسلام،بالإضافة إلى التهوّب من إنجاز كلّ عمل إيجابى و كلّ حركة صحيحه، حيث تتعلّلون و تماطلون و تسوّفون إنجازها.

٣- وَ ارْتَبْتُمْ فِى الْمَعَادِ وَ حَقَائِهِ دَعْوَةَ النَّبِىِّ وَ الْقُرْآنِ..

٤-و خدعتكم الآمال وَ غَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ .

نعم هذه الأمانى لم تعطكم مجالا-حتى لحظه واحده-للتفكير الصحيح،لقد

كنتم مغمورين في تصوّراتكم و تعيشون في عالم الوهم و الخيال، و استولت عليكم أمنيّة الوصول إلى الشهوات و الأهداف الماديّة.

□
٥- وَ عَزَّكُمْ بِاللّهِ الْعَزُّورُ إِنَّ الشَّيْطَانَ غَرَّكُمْ بِوَسْوَاسِهِ فِي مَقَابِلِ وَعْدِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ، فتاره صوّر لكم الدنّيا خالده باقيه و اخرى صوّر لكم القيامة بعيدة الوقوع. و في بعض الأحيان غرّكم بلطف الله و الرحمة الإلهية، و أحيانا جعلكم تشكّون في أصل وجود الله العظيم الخالق.

هذه العوامل الخمسة فهي التي فصلت خطّكم عنّا بصورة كليّة و أبعدتنا عنكم و أبعدتكم عنّا.

«فتنتم» من مادّه (فتنه) جاءت بمعاني مختلفه ك(الامتحان و الانخداع، و البلاء و العذاب، و الضلاله و الانحراف، و الشرك و عباده الأصنام) و المعنيان الأخيران هنا أنسب أى الضلال و الشرك.

«تربّصتم» من مادّه (تربّص) في الأصل بمعنى الانتظار، سواء كان انتظار البلاء و المصيبه أو الكثره و النعمه، و المناسب الأكثر هنا هو انتظار موت الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و انتكاسه الإسلام، أو أنّ الانتظار بمعنى التعلّل في التوبه من الذنوب و إنجاز كلّ عمل من أعمال الخير.

«و ارتبتم» من مادّه (ريب) تطلق على كلّ شكّ و ترديد و ما سيتوقّع فيما بعد، و المعنى الأنسب هنا هو الشكّ بالقيامة أو حقّانيه القرآن الكريم.

و بالرغم من أنّ مفهوم الكلمات المستعمله في الآيه واسع، إلّا أنّ من الممكن أن تكون لبيان المسائل المذكوره بالترتيب، من مسأله «الشرك» و انتظار «نهايه عمر الإسلام و الرّسول» و من ثمّ «الشكّ في المعاد» الذي يؤدّي إلى «التلوّث العملي» عن طريق «الانخداع بالأمانى» و الشيطان، و بناء على هذا فالجمل الثلاث الاولى من الآيه ناظره إلى الأصول الثلاثه للدين، و الجملتان الأخيرتان بعد هما ناظرتان إلى فروع الدين.

و أخيراً فإنّ المؤمنين-بلحاظ ما تقدّم-يخاطبون المنافقين بقولهم: فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا و بهذا الترتيب يواجه المنافقون نفس مصير الكفار أيضاً، وكلّهم رهينه ذنوبهم و أعمالهم القبيحة، ولا يوجد لهم أى طريق للخلاص. ثم يضيف سبحانه: مَا أَوَّاكُم النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ (١) وَ بُئْسَ الْمَصِيرُ .

الإنسان-عاده-لكى ينجو من العقوبة المتوقّعه فى الدنيا، يتوسّل للخلاص منها إمّا بالغرامه المالىه أو طلب العون و المساعدة من قوّه شفيعه، إلّا أنّه هناك-فى يوم القيامه-لا يوجد أى منهما ينقذ الكفار و المنافقين من العذاب المحتوم عليهم.

و فى يوم القيامه-عاده-تنقطع كلّ الأسباب و الوسائل الماديه المتعارف عليها فى هذا العالم للوصول إلى المقاصد المرجوه، كما تنفصم الروابط حيث يقول سبحانه: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوْا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (٢) .

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ فِيهِ وَلَا حُلَّةٌ

(٣)

و لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ

(٤)

يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً

(٥)

يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً

(٦)

فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ

(٧)

-
- ١-١) - «مولى» هنا من الممكن أن تكون بمعنى الولي، أو بمعنى الشخص أو الشيء الذى تكون له الأولوية للإنسان.
 - ٢-٢) - البقره، الآية ١٦٦.
 - ٣-٣) - البقره، الآية ٢٥٤.
 - ٤-٤) - البقره، الآية ٤٨.
 - ٥-٥) - الدخان، الآية ٤١.
 - ٦-٦) - الطور، الآية ٤٦.
 - ٧-٧) - المؤمنون، الآية ١٠١.

كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَهُ

(١)

و بهذه الصوره يوضح القرآن الكريم أنّ الوسيله الوحيده للنجاه فى ذلك اليوم هى الإيمان و العمل الصالح فى الدنيا، حتّى أنّ دائره الشفاعة محدوده للأشخاص الذين خلطوا عملا- صالحا و آخر سيئا و ليسوا من الغرباء مطلقا عن الإيمان و الذين قطعوا ارتباطهم بصوره كليته من الله و أوليائه و عصوا أوامرهم.

ملاحظه

اشاره

الإستغاثه العقيمه للمجرمين:

نظرا إلى أنّ الكثير من الناس فى يوم القيامة يجهلون طبيعه النظام المهيم هنا لك و يتصوّرون أنّ نفس أنظمه الدنيا تحكم هناك أيضا، فيحاولون استخدامها.

إلاّ أنّه سرعان ما يتبيّن الخطأ الكبير الذى وقعوا فيه.

فأحيانا يتوسّل المجرمون بالمؤمنين بقولهم لهم: اُنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ... إلاّ أنّه بسرعه يواجهون الردّ الحاسم، و هو أنّ منبع النور ليس هنا، إنّما فى دار الدنيا حيث تخلّفتم عنه بالغفله و عدم المعرفة.

و أحيانا يطلب كلّ منهم العون من الآخر (الأتباع من قائدهم) فيقولون:

فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ

(٢)

و هنا يواجهون الردّ المخيب لآمالهم أيضا.

ثمّ إنّهم يستنجدون و يلتمسون العون من خزنه جهنّم حيث يقولون: اذْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٣)

ص: ٤٤

١-١ (١) - المدثر، الآية ٣٨.

٢-٢ (٢) - إبراهيم، الآية ٢١.

٣-٣ (٣) - المؤمن، الآية ٤٩.

و أحيانا يتجاوزن ذلك و يلتمسون من الله أن يخفف عنهم حيث يقولون:

رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ

[\(١\)](#)

و لكن هذا الطريق هو الآخر مغلق عليهم أيضا، لأنَّ عهد التكليف قد انقضى و هذه دار الجزاء و العقاب.

ص: ٤٥

١ - ١) - المؤمنون، الآية ١٠٧.

إشاره

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمِمَّا نَزَّلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْمَوتُوتَ بَعِيدَ مَوْتِهِمْ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدَقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨)

سبب النزول

وردت لنزول الآية الاولى أعلاه عدّه أسباب: منها أنّ الآية المذكوره نزلت- بعد سنه من هجره الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلّم-تحدّث عن المنافقين، وذلك أنّهم سألوا سلمان الفارسي: حدّثنا عمّا فى التوراه، فخبّرهم أنّ القرآن أحسن القصص كما فى قوله تعالى: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى تَقْشَعُرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ

و عاودوا بعدها سؤال سلمان فجاءهم هذا التوبيخ و العتاب.

و قيل كان الصحابه بمكّه مجديين، فلما هاجروا أصابوا الخير و النعمه، فتغيّروا عما كانوا عليه، فقسّت قلوبهم فعوتبوا من ذلك (٢).

كما نلاحظ أسباب نزول اخرى للآيه، و بما أنّها تتحدّث عن نزول هذه الآيه في مكّه، لذا فإنّها غير قابله للاعتماد، لأنّ المشهور أنّ جميع هذه السوره قد نزلت في المدينه.

التفسير

اشاره

إلى متى هذه الغفله؟

بعد ما وُجّهت الآيات السابقه مجموعه من الإنذارات الصارمه و التنبّهات الموقظه، و بينت المصير المؤلم للكفار و المنافقين في يوم القيامه، جاءت الآيه الاولى مورد البحث بشكل استخلاص نتيجه كليّه من ذلك، فنقول: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ، وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٣).

«تخشع» من مادّه «خشوع» بمعنى حاله التواضع مقترنه بالأدب الجسمي و الروحي، حيث تتتاب الإنسان هذه الحاله-عاده-مقابل حقيقه مهمّه أو شخصيه كبيره.

و من الواضح أنّ ذكر الله عزّ و جلّ إذا دخل أعماق روح الإنسان، و سماع الآيات القرآنيه بتدبّر فإنّها تكون سببا للخشوع، و القرآن الكريم هنا يلوم بشدّه

ص: ٤٧

١- (١) - الزمر، الآيه ٢٣.

٢- (٢) - مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٣٧ كما جاء في تفسير الدر المنثور أيضا أسباب نزول كثيره للآيه من جملتها سبب النزول الثاني (الدر المنثور، ج ٦ ص ١٧٥) و أتى البيضاوي أيضا في تفسير (أنوار التنزيل) بنفس سبب النزول المذكور.

٣- (٣) - (يأن) من مادّه (أني) من مادّه (إنا) على وزن (ندا) و من مادّه (أنا) على وزن جفاء بمعنى الاقتراب و حضور وقت الشئ.

قسما من المؤمنين لعدم خشوعهم أمام هذه الأمور. لأنه قد ابتلى كثير من الأمم السابقه بمثل هذا من الغفله و الجهل. و هذه الغفله تؤدى إلى قساوه القلب و بالتالى إلى الفسق و العصيان.

و لهذا هل نقتنع بادعاء الإيمان، و العيش فى رفاه و الانشغال بالأكل و الشرب و نمرَ أمام هذه المسائل المهمه ببساطه؟ و هل أنّ أعمالنا و مسؤولياتنا تتناسب مع الإيمان الذى ندّعيه؟ هذه التساؤلات لا بدّ من الإجابة عنها مع أنفسنا بهدوء و موضوعيه.

جمله: [□] فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَلُ قد تكون إشاره إلى الفاصله الزمنيه بينهم و بين أنبيائهم، و يحتمل أن يكون المقصود بها طول العمر، أو طول الأمانى، أو عدم نزول العذاب الإلهى منذ مدّه طويله، أو كلّ ذلك، لأنّ كلّ واحد من هذه الأسباب يمكن أن تكون عاملا للغفله و القساوه، و هى بدورها تسبّب الذنب و الإثم.

جاء فى حديث للإمام على عليه السّلام: «لا تعالجوا الأمر قبل بلوغه فتندموا، و لا يطولنّ عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم» (١).

و نقرأ

فى حديث آخر عن لسان عيسى المسيح عليه السّلام: «لا تكثرُوا بالكلام بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم، فإنّ القلب القاسى بعيد من الله، و لا- تنظروا فى ذنوب العباد كأنّكم أرباب، و انظروا فى ذنوبكم كأنّكم عبيد، و الناس رجالان: مبتلى و معافى، فارحموا أهل البلاء، و احمداوا الله على العافيه» (٢).

و لأنّ إحياء القلوب الميتة لا- يكون إلّا- بالذكر الإلهى، الحياه الروحيه التى لن تكون إلّا بظلّ الخشوع و الخضوع و خاصّه فى أجواء القرآن الكريم.. لذا فإنّ القرآن يشبّه عمليه إحياء القلوب الميتة بإحياء الأراضى الميتة، فكما أنّ هذه تحيا ببركه نزول الأمطار كذلك فإنّ القلوب تحيا بذكر الله سبحانه.. حيث يضيف

ص: ٤٨

١- ١) -بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٨٣، الحديث ٨٥.

٢- ٢) -مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٣٨.

سبحانه فى الآيه اللاحقه: **إِغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** .

هذه الآيه تشير إلى إحياء الأراضى بوسيله المطر، كذلك فإنَّ إحياء القلوب الميتة يكون بواسطه ذكر الله و قراءه القرآن المجيد الذى نزل من سماء الوحي على القلب الطاهر للنبي محمد صلى الله عليه و آله و سلم و كلاهما جديران بالتدبر و التعقل، لذا أشير فى الروايات السابقه إلى كليهما.

و نقرأ

فى حديث للإمام الصادق عليه السلام فى تفسيره لهذه الآيه أنه قال: «لعدل بعد الجور» (١).

كما نقرأ

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسيره للآيه: **إِغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** قال: «يحيى الله تعالى الأرض بالقائم بعد موتها، يعنى بموتها كفر أهلها، و الكافر ميت» (٢).

و من الواضح أنَّ هذه التفاسير فى الحقيقة هى بيان لمصاديقها البارزه، و لا تحد من مفهوم الآيه أبداً.

و جاء

فى حديث آخر عن الإمام الكاظم عليه السلام: «فإنَّ الله يحيى القلوب الميتة بنور الحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر» (٣).

و يرجع مرّه اخرى فى الآيه اللاحقه إلى مسأله الإنفاق، و التى هى إحدى ثمار شجره الإيمان و الخشوع، حيث يتكرّر نفس التعبير الذى قرأناه فى الآيات السابقه مع إضافه، حيث يقول تعالى: **إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدَّقَاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ** (٤).

ص: ٤٩

١-١) -روضه الكافى مطابق لنقل الثقلين، ج ٥، ص ٢٤٣

٢-٢) -كمال الدين مطابق لنقل نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٤٢.

٣-٣) -بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٣٠٨.

٤-٤) -المصدقين و المصدقات بمعنى «المتصدقين و المتصدقات»، و عطف (أقرضوا الله) الذى هو «جمله فعلية» على «الجمله الاسمية» السابقه، لأن معنى هذه الجمله هو «الذين أقرضوا الله».

أمّا لما ذا طرحت مسأله الإنفاق بعنوان القرض الحسن لله سبحانه؟ ولما ذا كان الجزاء المضاعف الأجر الكريم؟ يمكن معرفه الإجابة على هذه التساؤلات فى البحث الذى بيّناه فى نهايه الآيه (١١) من نفس هذه السوره.

احتمل البعض أنّ المقصود من القرض الحسن لله فى هذه الآيات و الآيات المشابهه (١) بمعنى الإقراض للعباد، لأنّ الله تعالى ليس بحاجة للقرض، بل إنّ العباد المؤمنين هم الذين بحاجة إلى القرض، و لكن بملاحظه سياق الآيات يفهم أنّ المقصود من «القرض الحسن» فى كلّ هذه الآيات هو الإنفاق فى سبيل الله، بالرغم من أنّ القرض لعباد الله هو من أفضل الأعمال أيضا. و يرى «الفاضل المقداد» أيضا فى كنز العرفان فى تفسير القرض الحسن بأنّه كلّ الأعمال الصالحه (٢).

موعظه و توبه:

□
إنّ آيه: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ... من الآيات المثيره فى القرآن الكريم، حيث تلين القلب، و ترطب الروح و تمرق حجب الغفله و تعلن متبته: ألم يأن للقلوب المؤمنه أن تخشع مقابل ذكر الله و ما نزل من الحق! و تحذر من الوقوع فى شراك الغفله كما كان بالنسبه لمن سبق حيث آمنوا و تقبلوا آيات الكتاب الإلهى، و لكن بمرور الزمن قست قلوبهم.

لذلك نلاحظ بصوره مستمره أنّ أفرادا مذبنيين جدّا قد هداهم الله إلى طاعته بعد سماعهم هذه الآيه التى وقعت فى نفوسهم كالصاعقه، و أيقظتهم من سباتهم و غفلتهم التى كانوا فيها، و لهذا شواهد عديده حيث تنقل لنا كتب التاريخ العديد

ص: ٥٠

١- (١) -تراجع الآيه (٢٤٥ من سوره البقره) (الحديد الآيه ١١) و (التغابن آيه ١٧) و (المزمل آيه ٢٠).

٢- (٢) - كنز العرفان، ج ٢، ص ٥٨.

منها، حتّى أنّ البعض منهم أصبح فى صفّ الزّهّاد و العبّاد، و من جملتهم العابد المعروف «فضيل بن عيّاض» الزاهد.

حيث يحكى عنه أنّه كان فى أوّل أمره يقطع الطريق بين «أبيورد» و «سرخس»، و عشق جاريه، فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تاليا يتلو: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ قَالَ: (بلى و الله قد آن) فرجع و أوى إلى خربه فإذا فيها رفقه، فقال بعضهم: نرتحل، و قال بعضهم: حتّى نصبح، فإنّ فضيلا قد قطع الطريق علينا. فتاب الفضيل و أمّنهم.

و حكى أنّه جاور الحرم حتّى مات (١).

و نقل بعض المفسّرين أنّ أحد رجال البصرة المعروفين قال: بينما كنت أسير فى طريق فسمعت فجأه صيحه، فذهبت متتبعا آثارها، فشاهدت رجلا مغمى عليه على الأرض، قلت: ما هذا! قالوا: رجل واعى القلب سمع آيه من القرآن و اندهش، قلت: أى آيه؟ قالوا: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ... و فجأه أفاق الرجل عند سماع صوتنا و بدأ بقراءة هذا الشعر المؤثر:

أما آن للهجران أن ينصر ما

و للغصن غصن البان أن يتبسّما

و للعاشق الصبّ الذى ذاب و انحنى

ألم يأن أن يبكى عليه و يرحما

كتبت بماء الشوق بين جوانحي

كتابا حكى نقش الوشى المنمما

قال ذلك ثم سقط على الأرض. مدهوشا مرّه اخرى، فحرّكناه و إذا به قد سلّم روحه إلى بارئه و ربّه (٢).

ص: ٥١

١- (١) -سفينه البحار، ج ٢، ص ٣٦٩. و روح البيان، ج ٩، ص ٣٦٥. و تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٤٢.

٢- (٢) -تفسير نور المعاني، ج ٢٧، ص ١٥٦.

اشاره

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَعْجَبَ الْكُفَّارَ لِبَآئِهِ ثُمَّ يَهِيْجُ فَنَرَاهُ مُصِفًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)

التفسير

اشاره

الدنيا متاع الغرور:

استمرارا للبحث الذى تناولته الآيات السابقة فى بيان حال المؤمنين و أجرهم عند الله تعالى، تضيف الآيات التالية بهذا الصدد قوله تعالى: وَالَّذِينَ

آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ

«الصادق» صيغته مبالغه من (الصدق) بمعنى الشخص الذى يستوعب الصدق جميع وجوده، حيث يصدق عمله قوله، و هو النموذج التام للصدق.

«شهداء» جمع «شهيد» من مادّه (شهود) بمعنى الحضور مع المشاهده سواء كانت بالعين المجرّده أو البصيره، و إذا أطلقت على «الشاهد» كلمه شاهد و شهيد، فالسبب هو حضوره و مشاهدته فى المكان، كما يطلق هذا المصطلح على «الشهداء فى سبيل الله» بسبب حضورهم فى ميدان الجهاد.

إلا أنّ المراد من (الشهداء) فى الآيه مورد البحث قد يكون الشهاده على الأعمال، كما يستفاد من الآيات القرآنيه الاخرى، فالأنبياء شهداء على أعمال أمهم، و رسول الإسلام شاهد عليهم و على الامّه الإسلاميه، و المسلمون أيضا شهداء على أعمال الناس (١). و بناء على هذا، فإنّ الشهاده على الأعمال مقام عال، و الذى يكون من نصيب المؤمنين.

و احتمال البعض أنّ (شهداء) هنا هو الشهداء فى سبيل الله، أى الأشخاص المؤمنون الذين لهم أجر و ثواب الشهاده، يحسبون بمنزله الشهداء، لذا ذكر

فى حديث أنّ شخصا ذهب إلى الإمام الصادق عليه السلام، فقال له: ادع الله أن يرزقنى الشهاده. فقال الإمام عليه السلام أنّ المؤمن شهيد، ثم قرأ هذه الآيه: وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ.. (٢).

و من الطبيعى أنّه يمكن الجمع بين المعنيين، خصوصا أنّ القرآن الكريم أطلق مصطلح «شهيد و شهداء» فى الغالب على الأعمال و ما إلى ذلك.

و على كلّ حال، فإنّ الله تعالى يصف المؤمنين الحقيقيين هنا بوصفين: الأول:

ص: ٥٣

١-١) -يراجع التفسير الأمثل، تفسير الآيه (٧٨) من سوره الحجّ، و تفسير الآيه (٤١) من سوره النساء.

٢-٢) -تفسير العياشى طبقا لنقل نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٤٤.

«الصدّيق» و الآخر: «الشهيد»، وهذا يرينا أنّ المقصود من المؤمنين فى الآيه مورد البحث هم أصحاب الدرجات العاليه فى الإيمان لا المؤمن العادى (١).

ثم يضيف تعالى: لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ تُورُهُمْ .

إنّ هذا التعبير المختصر يشير إلى عظيم الأجر و النور الذى ينتظرهم.

و فى النهايه يضيف تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَ ذلك كى تتوضّح بهذه المقارنه النتيجة التى آلت إليها المجموعتان، و التى تتدرّج بين القمّه و القاع، حيث إنّ القسم الأوّل فى المقام العالى من دار الخلد، و القسم الثانى فى الدرك الأسفل من النار يندبون سوء حظّهم و انحطاط مصيرهم.

و بما أنّ المجموعه الاولى كانت فى أعلى مستويات الإيمان، ففى المقابل أيضا ذكرت الآيه أيضا الكفر بأسوأ صورته فى الجماعه الثانیه المقارن للتكذيب بآيات الله.

و لأنّ حبّ الدنيا مصدر كلّ رذيله، و رأس كلّ خطيئه، فالآيه اللاحقه ترسم بوضوح وضع الحياه الدنيا و المراحل المختلفه و المحفّزات و الظروف و الأجواء التى تحكم كلّ مرحله من هذه المراحل، حيث يقول سبحانه: اَعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَ لَهُوَ وَ زِينَةٌ وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ .

و بهذه الصوره فإنّ «الغفله» و «اللهو» و «الزينه» و «التفاخر» و «التكاثر» تشكّل المراحل الخمس لعمر الإنسان.

ففى البدايه مرحله الطفوله، و الحياه فى هذه مرحله عاده مقترنه بحاله من

ص: ٥٤

١ - ١) طبقا للتفسير أعلاه فإنّ جملة (أولئك هم الصدّيقون و الشهداء، عند ربهم) ليس لها أى تقدير، إذ أنّ هؤلاء الجماعه من المؤمنين اعتبروا مصداقا للصدّيقين و الشهداء، إلّا أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ هؤلاء بمنزله الصدّيقين و الشهداء، و لهم نفس الأجر، و لكن ليس لهم كامل مميّزاتهم و مفاخرهم. و يقولون: إنّ الآيه تقديرها (أولئك لهم مثل أجر الصدّيقين و الشهداء). تفسير روح المعانى، الميزان نهايه الآيات مورد البحث، و طبعا فإنّ مرجع الضمائر (لهم، و أجرهم) يختلف أيضا. إلّا أنّ هذا التفسير لا يتناسب مع ظاهر الآيه (يرجى الانتباه).

الغفلة و الجهل و اللعب.

ثمَّ مرحله المراهقه حيث يأخذ اللهو مكان اللعب، و فى هذه مرحله يكون الإنسان لاهثا وراء الوسائل و الأمور التى تلهيه و تبعده عن الأعمال الجدّيه.

و مرحله الثالثه هى مرحله الشباب و الحيويه و العشق و حبّ الزينه.

و إذا ما تجاوز الإنسان هذه مرحله فإنّه يصل إلى مرحله الرابعه حيث تتولّد فى نفسه دوافع العلو و التفاخر.

و أخيرا يصل إلى مرحله الخامسه حيث يفكّر فيها بزياده المال و الأولاد و ما إلى ذلك.

و المراحل الاولى تشخّص حسب العمر تقريبا، إلا أنّ المراحل اللاحقه تختلف عند الأشخاص تماما، و البعض من هذه المراحل تستمر مع الإنسان إلى نهايه عمره، كمرحله جمع المال، و بالرغم من أنّ البعض يعتقد أنّ كلّ مرحله من هذه المراحل الخمس تأخذ سنين من عمر الإنسان مجموعها أربعون سنه، حيث تثبّت شخصيه الإنسان عند وصوله إلى هذا العمر.

كما أنّ بعض الأشخاص يمكن أن تتوقّف شخصيتهم فى مرحله الاولى و الثانيه حتّى مرحله الهرم، و لذا فإنّ سمات هذه مرحله تبقى هى الشاخصه فى سلوكهم و تكوين شخصياتهم، حيث اللعب و الشجار و اللهو هو الطابع العامّ لهم، و تفكيرهم منهمك للغاية فى تهيئه البيت الأنيق و الملابس الفاخره و غير ذلك من متع الحياه الدنيا حتّى الموت.. إنّهم أطفال فى سنّ الكهوله، و شيوخ فى روحه الأطفال.

و يذكر سبحانه مثالا لبدايه و نهايه الحياه و يجسّد الدنيا أمام أعين الناس بهذه الصوره حيث يقول سبحانه: كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَبَائِهِ ثُمَّ يَهِيْجُ فَنَرَاهُ مُصْفَرًّا

ص: ٥٥

«كَفَّار» هنا ليس بمعنى الأشخاص غير المؤمنين، ولكن بمعنى «الزَّرَاع» لأنَّ أصل الكفر هو التغطية، وبما أنَّ الزارع عند ما ينثر البذور يغطّيها بالتراب، فقد قيل له كافر، و يقال أنَّ «الكر» جاء بمعنى القبر أحياناً، لأنّه يغطّي جسم الميت كما ورد في (سوره الفتح الآيه ٢٩/).

و في الحديث عن النمو السريع للنبات يقول تعالى: يُعْجِبُ الزُّرَّاعُ إِذْ وَرَدَتْ هُنَا كَلِمَةُ «الزَّرَاع» بدلا من الكفّار.

و يحتمل بعض المفسّرين أيضا أنَّ المقصود من «الكفّار» هنا هو نفس الكفر بالله تعالى و ذكروا عدّه توجيهات لهذا، و الظاهر أنَّ هذا التفسير لا يتناسب و سياق الآيه، إذ أنَّ المؤمن و الكافر شريكان في هذا التعجّب.

(حطام) من مادّه (حطم) بمعنى التكسير و التفتيت، و يطلق على الأجزاء المتناثره للتبن (حطام) و هي التي تأخذها الرياح باتّجاهات مختلفه.

إنَّ المراحل التي يمرّ بها الإنسان مدّه سبعين سنه أو أكثر تظهر في النبات بعدّه أشهر، و يستطيع الإنسان أن يسكن بجوار المزرعه و يراقب بدايه و نهايه العمر في وقت قصير.

ثُمَّ يَطْرُقُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى حَصِيلِهِ الْعَمْرِ وَ نَتِيجَتِهِ النَّهَائِيهِ حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ: وَ فِي الْمَآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٌ.

و أخيرا تنهى الآيه حديثها بهذه الجملة: وَ مَا الْحَيَاءُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ.

«غرور» في الأصل من مادّه (غرّ) على وزن «حرّ» بمعنى الأثر الظاهر للشيء، و يقال (غزه) للأثر الظاهر في جبهه الحصان، ثمّ أطلقت الكلمه على حاله الغفله، حيث أنَّ ظاهر الإنسان واع، و لكنّه غافل في الحقيقه، و تستعمل أيضا

بمعنى الخدعه و الحيله.

«المتاع» بمعنى كل نوع و وسيله يستفاد منها، و بناء على هذا فإن جملة (الدنيا متاع الغرور) كما جاءت فى قوله تعالى: وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ تعنى أنها وسيله و أداه للحيله و الخدعه للفرد و للآخرين.

و طبيعى أن هذا المعنى وارد فى الأشخاص الذين يعتبرون الدنيا هدفهم النهائى، و تكون منتهى غاياتهم، و لكن إذا كانت الهبات المادية فى هذا العالم وسيله للوصول بالإنسان للسعادة الأبدية، فذلك لا يعدّ من الدنيا، بل ستكون جسرا و قنطرة و مزرعه للآخره التى ستتحقق فيها تلك الأهداف الكبيره حقًا.

من البديهى أن النظر إلى الدنيا باعتبار أنها «مقرّ» أو «جسر» سوف يعطى للإنسان توجّهين مختلفين، الأول: يكون سببا للنزاع و الفساد و التجاوز و الظلم، و الطغيان و الغفله، و الثانى: وسيله للوعى و التضحيه و الاخوه و الإيثار.

تعقيب

اشاره

١- مقام الصديقين و الشهداء

وصف القرآن الكريم الأنبياء العظام و أمثالهم بأنهم (صديقون) و من جملتهم إبراهيم عليه السلام: إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (١).

و وصف إدريس عليه السلام بنفس الوصف قال تعالى: وَ أَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٢).

و حول امّ المسيح السيده مريم عليه السلام نقرأ قوله تعالى: وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ (٣).

ص: ٥٧

١- ١) - مريم، آيه ٤١.

٢- ٢) - مريم، الآيه ٥٦.

٣- ٣) - الجاثيه، الآيه ٧٥.

كما جاء ذكر (الصدّيقين) على مستوى الأنبياء أو من معهم في بعض الآيات القرآنية، كما في قوله تعالى: وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (١) وكما قلنا فإنّ هذا المصطلح صيغه مبالغه من مادّه (صدق) تقال للشخص الذى يحيط الصدق كلّ وجوده، و ينعكس الصدق فى أفكاره و أقواله و أعماله و كلّ حياته، و هذا يعكس لنا أهمّيته مقام الصدق.

أمّا (الشهداء) فكما قلنا يمكن أن يقصد بهم الشهداء على الأعمال أو بمعنى الشهداء فى سبيل الله، و فى الآيه مورد البحث يمكن الجمع بين الرأيين.

و من الطبيعى أن «الشهيد» فى الفكر الإسلامى لا ينحصر بالشخص الذى يقتل فى ميدان الجهاد، بالرغم من أنّه أوضح مصداق لمفهوم الشهيد، بل ينطبق على كلّ الأشخاص الذين يؤمنون بالعقيدة الإلهية و يسировون فى طريق الحقّ حتّى رحيلهم من الدنيا، و ذلك تماشياً مع الروايات الإسلاميه فإنّها تعدّ هؤلاء فى زمره الشهداء.

جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «العارف منكم هذا الأمر المنتظر له المحتسب فيه الخير، كمن جاهد و الله مع قائم آل محمّد بسيفه. ثمّ قال:

بل و الله كمن جاهد مع رسول بسيفه. ثمّ قال الثالث: بل و الله كمن استشهد مع رسول الله فى فسطاطه، و فيكم آيه من كتاب الله، قلت: و أى آيه جعلت فداك؟ قال: قول الله عزّ و جلّ: وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ... ثمّ قال: «صرتم و الله صادقين شهداء عند ربّكم» (٢).

و ننهى هذا الموضوع بحديث: لأمر المؤمنين (٣) عند ما كان بعض أصحابه

ص: ٥٨

١-١) -النساء، الآيه ٦٩.

٢-٢) -تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٣٨.

٣-٣) -نهج البلاغه، خطبه ١٩٠.

يستعجلون فى أمر الجهاد و نيل الشهاده..حيث

قال: «لا- تستعجلوا ما لم يعجله الله لكم، فإنه من مات منكم على فراشه و هو على معرفه حقّ ربّه و حقّ رسوله و أهل بيته مات شهيدا» (١).

٢-الحياه الدنيا..لهو و لعب

يصف القرآن الكريم-أحيانا-الحياه الدنيا بأنها لهو و لعب، كما فى قوله تعالى: وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ (٢).

و يصفها أحيانا باللهو و اللعب و الزينه و التفاخر و التكاثر، كما فى الآيات مورد البحث.

و يصفها أحيانا بأنها(متاع الغرور)كما فى قوله تعالى وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٣).

و يصفها أحيانا بأنها(متاع قليل)كما جاء فى:(الآيه ٧٧ من سوره النساء).

و أحيانا يصفها بأنها عارض ظاهرى سريع الزوال.«النساء»٩٤/.

و مجموع هذه التعبيرات و الآيات القرآنيه توضح لنا وجهه نظر الإسلام حول الحياه الماديه و نعمها، حيث إنه يعطيها قيمه المحدوده التى تتناسب مع شأنها، و يعتبر الميل إليها و الانشداد لها ناشئا من توجه غير هادف(لعب)و(لهو)و تجميل و(زينه)و حبّ المقام و الرئاسة و الأفضليه على الآخرين(تفاخر)و الحرص و طلب المال و الأولاد بكثره(التكاثر)و يعتبر التعلق بها مصدرا للذنوب و الآثام و المظالم.

أمّا إذا تحوّلت النظرة إلى هذه النعم الإلهيه،و أصبحت سلّما للوصول إلى

ص: ٥٩

١- ١) -نهج البلاغه،خطبه ١٩٠.

٢- ٢) -الأنعام،الآيه ٣٢.

٣- ٣) -آل عمران،الآيه ١٨٥.

الأهداف الإلهية، عندئذ تصبح رأسمال يشتريها الله من المؤمنين و يعطيهم عوضها جنة خالده و سعادته أبدية، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ... (١).

ص: ٦٠

١ - (١) - التوبة، الآية ١١١.

اشاره

سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَّا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِك عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مِمَّا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَ يُأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)

التفسير

اشاره

المسابقة المعنويه الكبرى!!

بعد ما بينت الآيات السابقة قيمه هذه الدنيا المتواضعه الفانيه،و كيف أنّ الناس فيها منهمكون فى اللذات و التكاثر و التفاخر و جمع الأموال...تأتى الآيات

مورد البحث لتدعو الناس إلى العمل للحصول على موقع في الدار الآخرة، ذلك الموقع المتسم بالثبات والبقاء والخلود، و تدعوهم إلى السباق في هذا المجال و بذل الجهد فيه، حيث يقول سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ .

و في الحقيقة أنَّ مغفرة الله هي مفتاح الجنَّة، تلك الجنَّة التي عرضها السماوات والأرض وقد أُعِدَّت من الآن لضيافه المؤمنين، حتَّى لا يقول أحد إنَّ الجنَّة نسيئه و دين و لا أمل في النسيئه، فعلى فرض أنَّها نسيئه فإنَّها أقوى من كلِّ نقد، لأنَّها ضمن وعد الله القادر على كلِّ شيء و أصدق من كلِّ وعد، فكيف الحال و هي موجودة الآن و بصورة نقد؟! و قد ورد نفس هذا المعنى في سورة آل عمران (الآية رقم ١٣٣) مع اختلاف بسيط، حيث إنَّ في الآية مورد البحث جاءت كلمه (سابقوا) من مادّه (المسابقه) و هنا لك وردت كلمه (سارعوا) من مادّه (المسارعه)، و كلاهما قريب من الآخر بالنظر إلى مفهوم باب «المفاعله» حيث تتجسّد غلبه شخصين أحدهما على الآخر.

و الاختلاف الآخر هو أنَّها هنا لك قد جاءت بوصف: عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ و هنا جاءت: عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ و إذا دَقَّقنا قليلا يتّضح أنَّ هذين التعبيرين يوضّحان حقيقة واحده أيضا. و يقول سبحانه هناك: أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ و هنا يقول: أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا .

و لأنَّ المتّقين ثمره شجره الإيمان الحقيقي، فإنَّ هذين التعبيرين في الواقع كلٌّ منها لازم و ملزوم للآخر.

و بهذه الصورة فإنَّ الإثنين يتحدّثان عن حقيقة واحده ببيانين مختلفين، و لهذا فما ذكره البعض من أنَّ الآية (سورة آل عمران تشير إلى «جنّة المقرّبين»، و آية مورد البحث تشير إلى «جنّة المؤمنين»، صحيح حسب الظاهر.

و على كل حال فالتعبير ب(عرض) هنا ليس في مقابل (الطول) كما قال بعض

المفسرين حيث كانوا يبحثون عن طول تلك الجنة التي عرضها مثل السماء و الأرض، و لهذا السبب فإنهم واجهوا صعوبة في توجيه ذلك، حيث إنّ العرض في مثل هذه الاستعمالات بمعنى «السعة».

و التعبير ب«المغفرة» قبل البشارة بالجنة-الذى ورد في الآيتين-هو إشارة لطيفه إلى أنه ليس من اللائق الدخول إلى الجنة و القرب من الله قبل المغفرة و التطهير.

و مما ينبغي ملاحظته أنّ المسارعة لمغفره الله لا بدّ أن تكون عن طريق أسبابها كالتوبة و التعويض عن الطاعات الفائتة، و أساسا فإن طاعة الله عزّ و جلّ يعنى تجنّب المعاصي، و لكننا نجد في بعض الأحاديث تأكيد على القيام بالواجبات و بعض المستحبات كالتقدّم للصفّ الأول في الجماعة، أو الصفّ الأول في الجهاد، أو تكبيره الإحرام مع إمام الجماعة، أو الصلاة في أوّل وقتها، فهذه من قبيل بيان المصداق و لا يقلل شيئا من المفهوم الواسع للآية.

و يضيف تعالى في نهايه الآيه: ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

و من المؤكّد أنّ جنة بذلك الاتّساع و بهذه النعم، ليس من السهل للإنسان أن يصل إليها بأعماله المحدودة، لذا فإنّ الفضل و اللطف و الرحمة الإلهية-فقط-هى التى تستطيع أن تمنحه ذلك الجزاء العظيم فى مقابل السير من أعماله، إذ أنّ الجزاء الإلهى لا يكون دائما بمقياس العمل، بل إنّهُ بمقياس الكرم الإلهى.

و على كلّ حال فإنّ هذا التعبير يرينا بوضوح أنّ الثواب و الجزاء لا يتناسب مع طبعه العمل، حيث أنّه نوع من التفضل و الرحمة.

و لمزيد من التأكيد على عدم التعلّق بالدنيا، و عدم الفرح و الغرور عند إقبالها، أو الحزن عند إدبارها، يضيف سبحانه: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ

(١)

نعم، إنَّ المصائب التي تحدث في طبيعته كالزلازل و السيول و الفيضانات و الآفات المختلفه، و كذلك المصائب التي تقع على البشر كالموت و أنواع الحوادث المؤلمه التي تشمل الإنسان، فإنَّها مقدَّره من قبل و مسجَّله في لوح محفوظ.

و الجدير بالانتباه أنَّ المصائب المشار إليها في الآيه هي المصائب التي لا يمكن التخلص منها، و ليست ناتجه عن أعمال الإنسان. (بتعبير آخر الحصر هنا حصر إضافي).

و الشاهد في هذا الكلام قوله تعالى: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٢) و بملاحظه أنَّ الآيات يفسر بعضها البعض الآخر يتبين لنا عند ما نضع هاتين الآيتين جنباً إلى جنب أنَّ المصائب التي يبتلى بها الإنسان على نوعين:

الأول: المصائب التي تكون مجازاه و كفاره للذنوب، كالظلم و الجور و الخيانه و الانحراف و أمثالها، فإنَّها تكون مصدراً للكثير من مصائب الإنسان.

الثاني: من المصائب هو ما لا تكون للإنسان يد فيه، و تكون مقدَّره و حتميه و غير قابله للاجتناح حيث يبتلى فيها الفرد و المجتمع، لذا فإنَّ الكثير من الأنبياء و الأولياء و الصالحين يبتلون بمثل هذه المصائب.

إنَّ هذه المصائب لها فلسفه دقيقه حيث أشرنا إليها في أبحاث معرفه الله و العدل الإلهي و مسأله الآفات و البلايا.

ص: ٦٤

١- ١) - بالنسبه لعود الضمير في (نبرأها) فقد ذكروا احتمالات متعدده حيث اعتبر البعض أنَّ مرجعها للأرض و الأنفس، و البعض الآخر اعتبرها للمصيبه، و بعض جميعها، إلّا- أنّه بالنظر إلى ذيل الآيه فإنَّ المعنى الأوّل هو الأنسب لأنّه يريد أن يقول: حتّى قبل خلق السماء و الأرض و خلقكم فإنَّ هذه المصائب مقدَّره.

٢- ٢) - الشورى، الآيه ٣٠.

و نقرأ في هذا الصدد القصصه التاليه:عند ما أدخل الإمام على بن الحسين عليه السلام مغلولاً- مكبلاً- في مجلس يزيد بن معاويه،فالتفت يزيد إلى الإمام،و قرأ آيه سوره الشورى: مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَظْهَرَ أَنَّ مَصَائِبَكُمْ كَانَتْ نَتِيجَةً أَعْمَالِكُمْ،و بهذا أراد الطعن،بالإمام عليه السلام بهذا الكلام،إلا أن الإمام ردّ عليه فوراً و قال:كلاً،ما نزلت هذه فينا،إنما نزلت فينا: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا (١).

و لنا بحث مفصّل في هذا المجال في تفسير الآيه رقم ٣٠ من سوره الشورى (٢).

أتباع أهل البيت أيضا عرفوا نفس المعنى،في هذه الآيه،إذ نقل أن الحجاج عند ما جىء له بسعيد بن جبیر و صمّم على قتله،بكى رجل من الحاضرين.قال سعيد:و ما يبكيك؟فأجاب:للمصاب الذى حلّ بك،قال:لا تبك فقد كان في علم الله أن يكون ذلك،ألم تسمع قوله تعالى: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا (٣).

و من الطبيعي أن كلّ الحوادث التى تحدث في هذا العالم مسجله في لوح محفوظ و في علم الله عزّ و جلّ اللامحدود،و إذا أشرنا هنا إلى المصائب التى تقع في الأرض و في الأنفس فقط،فلأنّ موضوع الحديث بهذا الاتجاه،كما سنرى في الآيه اللاحقه التى يستنتج منها الموضوع نفسه.

و بالضمن فإنّ جمله: إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ تشير إلى تسجيل و حفظ كلّ هذه الحوادث في لوح محفوظ مع كثرتها البالغه،و ذلك سهل يسير على الله تعالى.

و المقصود من «اللوح المحفوظ»هو:العلم اللامتناهى لله سبحانه،أو صحيفه

ص: ٦٥

١- ١) -تفسير على بن إبراهيم مطابق لنقل نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٤٧.

٢- ٢) -كان لدينا بحث آخر في نهايه الآيه (٧٨)،(٧٩) من سوره النساء و التى تتناسب مع الآيات مورد البحث.

٣- ٣) -روح البيان ج ٩، ص ٣٧٥.

عالم الخلقه و نظام العلّه و المعلول، و التى هى مصداق العلم الفعلى لله سبحانه «فتدبر».

و لنلاحظ الآن ما هى فلسفه تقدير المصائب فى اللوح المحفوظ، و من ثم بيان هذه الحقيقه فى القرآن الكريم؟ الآيه اللاحقه تزيح هذا الحجاب عن هذا السرّ المهمّ حيث يقول تعالى:

لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ

هاتان الجملتان القصيرتان تحلّان فى الحقيقه-إحدى المسائل المعقّده لفلسفه الخلقه، لأنّ الإنسان يواجه دائما مشاكل و صعوبات و حوادث مؤسفه فى عالم الوجود، و يسأل دائما نفسه هذا السؤال و هو: رغم أنّ الله رحمن رحيم و كريم... فلما ذا هذه الحوادث المؤلمه؟! و يجب سبحانه أنّ هدف ذلك هو: ألا- تأسرکم مغريات هذه الدنيا و تنشّدوا إليها و تغفلوا عن أمر الآخره.. كما ورد فى الآيه أعلاه.

و المطلوب أن تتعاملوا مع هذا المعبر و الجسر الذى اسمه الدنيا بشكل لا تستولى على لباب قلوبكم، و تفقدوا معها شخصيّتكم و كيانكم و تحسبون أنّها خالده و باقيه، حيث إنّ هذا الانشداد هو أكبر عدوّ لسعادتكم الحقيقه، حيث يجعلكم فى غفله عن ذكر الله و يمنعكم من مسيره التكامل.

هذه المصائب هى إنذار للغافلين و سوط على الأرواح التى تعيش الغفله و السبات، و دلالة على قصر عمر الدنيا و عدم خلودها و بقائها.

و الحقيقه أنّ المظاهر البرّاقه لدار الغرور تبهر الإنسان و تلهيه بسرعه عن ذكر الحقّ سبحانه، و قد يستيقظ فجأه و يرى أنّ الوقت قد فات و قد تخلف عن الركب.

هذه الحوادث كانت و لا تزال فى الحياه، و ستبقى بالرغم من التقدّم العلمى العظيم، و لن يستطيع العلم أن يمنع حدوثها و نتائجها المؤلمه، كالزلازل و الطوفان و السيول و الأمطار و ما إلى ذلك.. و هى درس من قسوه الحياه و صرخه مدوّيه

فيها..

و هذا لا- يعنى أن يعرض الإنسان عن الهبات الإلهيه فى هذا العالم أو يمتنع من الاستفادة منها،و لكن المهمّ ألاّ يصبح أسيرا فيها،و ألاّ يجعلها هى الهدف و النقطة المركزيه فى حياته.

و الجدير بالملاحظه هنا أنّ القرآن الكريم استعمل لفظ (فاتكم) للدلاله على ما فقده الإنسان من أشياء،أمّا ما يخصّ الهبات و النعم التى حصل عليها فإنّه ينسبها لله،(بما آتاكم)،و حيث أنّ الفوت و الفناء يكمن فى ذات الأشياء،و هذا الوجود هو من الفيض الإلهى.

نعم،إنّ هذه المصائب تكسر حدّه الغرور و التفاخر و حيث يقول سبحانه فى نهايه الآيه: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ .

«مختال»من مادّه (خيال)بمعنى متكبر،لأمنّ التكبر من التخيّل،أى من تخيّل الإنسان الفضل لنفسه،و تصوّره أنّه أعلى من الآخرين.و(فخور)صيغه مبالغه من مادّه(فخر)بمعنى الشخص الذى يفتخر كثيرا على الآخرين.

و الشخص الوحيد الذى يتلى بهذه الحالات هو المغرور الذى أسكرته النعم، و هذه المصائب و الآفات بإمكانها أن توقظه عن هذا السكر و الغفله و تهديه إلى سير التكامل.

و من ملاحظه ما تقدّم أعلاه فإنّ المؤمنين عند ما يرزقون النعم من قبل الله سبحانه فإنّهم يعتبرون أنفسهم مؤتمنين عليها،و لا يأسفون على فقدانها و فواتها، و لا يغفلون و يسكرون بوجودها.إذ يعتبرون أنفسهم كالأشخاص المسؤولين عن بيت المال إذ يستلمون فى يوم أموالا كثيره و يدفعونها فى اليوم الثانى،و عندئذ لا يفرحون باستلامها،و لا يحزنون على إعطائها.

و كم هو تعبير رائع ما

قاله أمير المؤمنين عليه السلام حول هذه الآيه: «الزهد كلّ بين كلمتين فى القرآن الكريم قال تعالى: لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَ لَا تَفْرَحُوا بِمَا

و من لم يأْس على الماضى و لم يفرح بالآتى فقد أخذ الزهد بطرفيه» (١).

و النقطة الاخرى الجديده بالملاحظه هى أنَّ هذا الأصل-وجود المصائب- فى حياه الإنسان أمر قدّر عليه طبقا لسنّه حكيمة، حيث أنَّ الدنيا فى حاله غير مستقرّه، و هذا الأصل يعطى للإنسان الشجاعه لتحمل المصائب و يمنحه الصلاه و السكينه أمام الحوادث و يكون مانعا له من الجزع و الضجر..

و تؤكّد مرّه اخرى أنَّ هذا يتعلّق فقط-بالمصائب المقدّره و الغير قابله للردّ، و إلّا فإنّ المصائب و المصاعب التى تكون بسبب ذنوب الإنسان و تسامحه فى الطاعات، و الالتزامات الإلهيّة، فإنّها خارجه عن هذا البحث، و لمواجهتها لا بدّ من وضع برنامج صحيح فى حياه الإنسان.

و ننهى هذا البحث بما ذكر فى التاريخ حيث نقل عن بعض المفسّرين ما يلى:

قال: «قتيبه بن سعيد» (٢): دخلت على إحدى قبائل العرب فرأيت صحراء مملوءه بجمال ميّته لا تعدّ، و كانت بقربى امرأه عجوز فسألتها: لمن هذه الجمال؟ قالت: لذلك الرجل الجالس فوق التل الذى تراه يغزل، فذهبت إليه و قلت: هل هذا كلّ لك؟ قال: كانت باسمى، قلت: ما الذى جرى و أصبحن بهذا الحال؟ فأجابنى -دون الإشارة إلى علّه موتهنّ- إنّ المعطى قد أخذ. قلت: هل ضجرت لما أصابك؟ و هل قلت شيئا بعد مصابك؟ قال: بلى. و أنشد هذين البيتين:

لا و الذى أنا عبد من خلّائقه

و المرء فى الدهر نصب الرزء و المحن

ما سرّنى أنّ إبلى فى مباركها

و ما جرى من قضاء الله لم يكن

أنا راض برضى الله تعالى فقط و كلّما يقدر فأنا أقبله (٣).

و فى آخر آيه مورد البحث نلاحظ توضيحا و تفسيراً لما جاء فى الآيات

ص: ٦٨

١- ١) -نهج البلاغه، كلمات قصار ٤٣٩.

٢- ٢) -قتيبه بن سعيد أحد المحدثين الذى يروى عن مالك بن أنس (منتهى الأرب).

٣- ٣) -تفسير أبو الفتوح الرازى، ج ١١، ص ٥٣ و جاء نظير هذا المعنى فى تفسير روح البيان، ج ٩، ص ٣٧٦.

السابقة،و الذى يوضح حقيقه الإنسان المختال الفخور حيث يقول عنه تعالى:

الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ

(١)

نعم،إنّ الانشداد العميق لرخارف الدنيا ينتج التكبر و الغرور،و لازم التكبر و الغرور هو البخل و دعوه الآخرين للبخل.أمّا البخل فلأنّ التكبر و الغرور كثيرا ما يكون بسبب ثراء الإنسان الذى يدفعه إلى أن يحرص عليه،و بالتالى يبخل فى إنفاقه،و من هنا فإنّ لازمه الغرور و التكبر هو البخل.

أمّا دعوه الآخرين إلى البخل،فلأنّ سخاء الآخرين سيفضح غيرهم من البخلاء،هذا أولا،و الثانى أنّ البخل يحبّ البخل،لذا فإنّه يدعو للشئ الذى يرغب فيه.

و لكى لا- يتصور أنّ تأكيد الله سبحانه على الإنفاق و ترك البخل،أو كما عبّرت عنه الآيات السابقة ب(القرض لله)مصدره احتياج ذاته المقدسه،فإنّه يقول فى نهايه الآيه: وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

بل نحن كلّنا محتاجون إليه و هو الغنى عنّا جميعا،لأنّ جميع خزائن الوجود عنده و تحت قبضته،و لأنّه جامع لصفات الكمال فإنّه يستحقّ كلّ شكر و ثناء.

و بالرغم من أنّ الآيه أعلاه تتحدّث عن البخل المالى.إلاّ أنّه لا ينحصر عليه، لأنّ مفهوم البخل واسع يستوعب فى دائرته البخل فى العلم و أداء الحقوق و ما إلى ذلك أيضا.

ص: ٦٩

١ - ١) -«الذين»بدل من(كلّ مختال فخور)و تفسير الكشّاف ذيل الآيه مورد البحث)و بالضمن يجدر الانتباه إلى أنّ البدل و المبدّل منه ليس بالضروره أن يتطابقا فى المعرفه و النكره.

اشاره

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَ
لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)

التفسير

اشاره

الهدف الأساس من بعثه الأنبياء:

ابتدأ الله سبحانه و تعالى عباده بالنعم فكانت رحمته و لطفه و مغفرته،و نعمة الكثيره التي لا تحصى و التي أشير إليها في الآيات
السابقه..ولأَنَّ هذه النعم تحتاج إلى تقنين في استعمالها،و نظم و شرائط لنيل نتائجها المرجوّه،لذا فأنّه يحتاج إلى قياده تقوم
بمباشرتها و الإشراف عليها و إعطاء التوجيهات الإلهيه بشأنها،و هؤلاء القاده يجب أن يكونوا(قاده إلهيين)و الآيه مورد البحث-
التي تعتبر من أكثر الآيات القرآنيه محتوى-تشير إلى هذا المعنى،و تبين هدف إرسال الأنبياء و مناهجهم بصوره دقيقه،حيث
يقول سبحانه: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ

«البيّنات» هي الدلائل الواضحه، و لها معنى واسع يشمل المعجزات و الدلائل العقلية التي تسلّح بها الأنبياء و الرسل الإلهيون.

المقصود من (كتاب) هو نفس الكتب السماويه، و لأنّ روح و حقيقه الجميع شيء واحد، لذا فإنّ التعبير ب (كتاب) جاء بصيغه مفرد.

و أمّا «الميزان» فيعنى وسيله للوزن و القياس، و مصداقها الحسنى هو الميزان الذى يقاس به وزن البضائع، و من الواضح أنّ المقصود هو المصداق المعنوى، أى الشىء الذى نستطيع أن نقيس به كلّ أعمال الإنسان، و هى الأحكام و القوانين الإلهية أو الأفكار و المفاهيم الرّبانيه، أو جميع هذه الأمور التى هى معيار لقياس الأعمال الصالحه و السيئه.

و بهذه الصوره فإنّ الأنبياء كانوا مسلّحين بثلاث وسائل و هى: «الدلائل الواضحه»، و «الكتب السماويه»، و «معيار قياس الحقّ من الباطل» و الجيّد من الردىء. و لا يوجد مانع من أن يكون القرآن (بيّنه) أى معجزه، و هو كذلك كتاب سماوى و مبين للأحكام و القوانين، أى أنّ الأبعاد الثلاثه تصبّ فى محتوى واحد و هى موجوده فى القرآن الكريم.

و على كلّ حال، فإنّ الهدف من تعبئه هؤلاء الرجال العظام بهذه الأسلحه الأساسيه، هو إقامه القسط و العدل.

و فى الحقيقه أنّ هذه الآيه تشير إلى أحد الأهداف العديده لإرسال الرسل، لأننا نعلم أنّ بعث الأنبياء و سعيهم كان من أجل أهداف عدّه:

منها: التعليم و التريبه، كما جاء فى الآيه التاليه: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ... (١).

ص: ٧١

و الهدف الآخر كسر الأغلال و القيود التى أسرت الإنسان، كما قال تعالى:

و يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ

(١)

و الهدف الثالث إكمال القيم الأخلاقية، كما

جاء فى الحديث المشهور: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (٢).

و الهدف الرابع إقامه القسط و العدل، الذى أشير إليه فى الآيه مورد البحث.

و بهذا الترتيب نستطيع تلخيص بعثه الأنبياء فى الأهداف التالية: (الثقافيه، الأخلاقية، السياسيه، الاجتماعيه).

و من الواضح أنّ المقصود من الرسل فى الآيه مورد البحث، و بقرينه إنزال الكتب، هم الأنبياء أولى العزم و من يمثلهم.

و ممّا يجدر ذكره أنّ المقصود من التعبير القرآنى: لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ أى أن يتحرّك الناس أنفسهم لتحقيق القسط، و ليس المقصود أن يلزم الأنبياء على إقامه القسط، و لهذا يمكن القول بأنّه المراد من الآيه و هدفها هو أن يعمل الناس بمفاهيم القسط و يتحرّكوا لتطبيقها.

و المهمّ أن يتربّى الناس على العدل و القسط بحيث يصبحون و أعين له داعين إليه، منفّذين لبرامجه و سائرين فى هذا الاتجاه بأنفسهم.

ثمّ إنّ أى مجتمع إنسانى مهما كان مستواه الأخلاقى و الاجتماعى و العقائدى و الروحى عاليا، فإنّ ذلك لا يمنع من وجود أشخاص يسلكون طريق العتو و الطغيان، و يقفون فى طريق القسط و العدل، و استمرارا لمنهج الآيه هذه يقول سبحانه: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ .

نعم، إنّ هذه الأسلحة الثلاثه التى وضعت تحت تصرّف الأنبياء هى بهدف أن تكون الأفكار و المفاهيم التى جاء بها الأنبياء فاعله و مؤثّره، و تحقّق أهدافها

ص: ٧٢

(١-١) -الأعراف، الآيه ١٥٧.

(٢-٢) -بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٧٢ باب حسن الخلق نهايه الحديث الأوّل.

المنشوده، فقد وضع الحديد و البأس الشديد فى خدمه رسل الله.

و بالرغم من أنّ البعض يتصوّر أنّ تعبير (أنزلنا) يعكس لنا أنّ الحديد جاء من كرات سماويه إلى الأرض، إلا أنّ الصحيح أنّ التعبير ب(الإنزال) فى مثل هذه الحالات هو إشارة إلى الهبات التى تعطى من المقام الأعلى إلى المستوى الأدنى، و لأنّ خزائن كلّ شىء عند الله تعالى فهو الذى خلق الحديد لمنافع مختلفه، فعبر عنه بالإنزال، و هنا حديث لأمير المؤمنين عليه السلام فى تفسيره لهذا القسم من الآيه حيث

قال: «إنزاله ذلك خلقه إياه» (١).

كما نقرأ فى الآيه (٦) من سوره الزمر حول الحيوانات حيث يقول سبحانه:

وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الظَّالِمِ تَمَاثِيَةً أَزْوَاجٍ .

و فسر البعض (أنزلنا) بأنّها من مادّه (نزل) على وزن (شبر) بمعنى الشىء الذى يهيأ لاستقبال الضيوف، و لكن الظاهر أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب.

«البأس» فى اللغة بمعنى الشدّه و القسوه و القدره، و يقال للحرب و المبارزه (بأس) أيضا، و لذا فإنّ المفسّرين فسروها بأنّها الوسائل الحربيه، أعّم من الدفاعيه و الهجوميه، و

نقل فى روايه عن أمير المؤمنين عليه السلام فى تفسير هذه الآيه أنّه قال:

«يعنى السلاح و غير ذلك» (٢).

و الواضح أنّ هذا من قبيل بيان المصداق.

و المقصود من «المنافع» هنا هو كلّ ما يفيد الإنسان من الحديد، و تتبيّن الأهميه البالغه للحديد فى حياه الإنسان أنّ البشريه قد بدأت عصرا جديدا بعد اكتشافه، سمى بعصر الحديد، لأنّ هذا الاكتشاف قد غيّر الكثير من معالم الحياه فى أغلب المجالات، و هذا يمثّل أبعاد كلمه (المنافع) فى الآيه الكريمه أعلاه.

و قد أشير إلى هذا المعنى بآيات مختلفه فى القرآن، منها قوله تعالى بشأن

ص: ٧٣

١- ١) -تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٥٠، حديث ١٠٠.

٢- ٢) -تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٥٠، حديث ١٠١.

تصميم ذى القرنين على صنع سده العظيم: آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ (١).

و كذلك قوله سبحانه: وَ أَذِّنْ لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ (٢) و ذلك عند ما شمل لطفه عزّ و جلّ داود عليه السّلام بتليين الحديد له ليستطيع أن يصنع دروعا منه يقلّل فيها أخطار الحروب و هجمات العدو.

ثمّ يشير سبحانه إلى هدف آخر من أهداف إرسال الأنبياء و إنزال الكتب السماويه، و خلقه و تسخير الوسائل المفيده للإنسان كالحديد مثلا، حيث يقول تعالى: وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .

المقصود من (علم الله) هنا هو التحقق العيني ليتوضّح من هم الأشخاص الذين يقومون بنصره الله و مبدئه، و يقومون بالقسط؟ و من هم الأشخاص الذين يتخلفون عن القيام بهذه المسؤوليه العظيمه؟ و مفهوم هذه الآيه يشبه ما ورد فى قوله تعالى: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ (٣).

و بهذه الصوره نلاحظ أنّ المسأله هنا مسأله اختبار و تمحيص و استخراج الصفوه التى استجابت لمسؤوليتها و القيام بواجبها الإلهى، و هذا هو هدف آخر من الأهداف الأساسيه فى هذا البرنامج.

و من الطبيعى أنّ المقصود ب(نصره الله) أنّها نصره الدين و المبدأ و الحاملين و حى رساله، و إقامه الحقّ و القسط..و إلّا فإنّ الله ليس بحاجة إلى نصره أحد، بل الكلّ محتاج إليه، و لتأكيد هذا المعنى تنتهى الآيه بقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

حيث بإمكانه سبحانه أن يغيّر ما يشاء من العالم، بل يقلبه رأسا على عقب

ص: ٧٤

١-١) -الكهف، الآيه ٩٦.

٢-٢) -سبأ، الآيه ١٠-١١.

٣-٣) -آل عمران، الآيه ١٧٩.

بإشاره واحده، و يهلك أعداءه، و ينصر أوليائه.. و بما أنّ الهدف الأساس له سبحانه هو الترييه و تكامل البشر، لذا فقد دعاهم عزّ و
جلّ إلى نصره مبدأ الحقّ.

تعقيب

إشاره

١- الحدود بين القوّه و المنطق

رسمت الآيه أعلاه صوره وافيّه و مفضّله من وجهه النظر الإسلاميه فى مجال الترييه و التعليم، و توسعه دائره العدل و إقامه القسط
فى المجتمع الإنسانى.

ففى البدايه أكدت الآيه على ضروره الاستفاده من الدلائل و البيّنات و الكتب السماويه، و ضوابط القيم، و بيان الأحكام و
القوانين.. و ذلك لترسى أساسا لثوره فكريه و ثقافيه متينه مرتكزه على قاعده من العقل و المنطق.

إلاّ أنّه فى حاله عدم جدوى تلك الوسائل و الأساليب، و حين الوصول إلى طريق مغلق فى الاستفاده من الأسلوب المتقدّم بسبب
تعتّ الطواغيت، و مواجهه الاستكبار لرسل الحقّ و القسط، و الإعراض عن قيم و ضوابط و أحكام (الكتاب و الميزان).. فهنا يأتى
دور «الحديد» الذى فيه «بأس شديد» حين يوجّه صفعه قويّه على رؤوس الجبابره بهذا السلاح كى يستسلموا للقسط و العدل و دعوه
الحقّ التى جاء بها الأنبياء عليهم السّلام، و من الطبيعى أنّ نصره المؤمنين أساسيّه فى هذا المجال.

و

ورد حديث عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم فى هذا الصدد حيث قال: «بعثت بالسيف بين يديّ الساعة، حتّى يعبد الله
وحده لا شريك له، و جعل رزقى، تحت ظلّ رمحى» (١).

و هذا الحديث إشاره إلى أنّ الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم مأمور بحمل السلاح أمام الكفر

ص: ٧٥

و الاستكبار، و لكن لا بلحاظ أنّ هذا هو الأصل و الأساس في المنهج الإسلامي كما جاء ذلك صراحة في الآية الكريمه أعلاه.

و نقرأ في حديث آخر

عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «الخير كلّهُ في السيف، و تحت السيف، و في ظلّ السيف» (١).

و

جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في هذا الصدد: «إنّ الله عزّ و جلّ فرض الجهاد و عظّمه و جعله نصره و ناصره، و الله ما صلحت دنيا و لا دين إلّا به» (٢).

و نختم حديثنا

بقول آخر لرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: «لا يقيم الناس إلّا بالسيف، و السيوف مقاليد الجنّة و النار» (٣).

و بناء على هذا فإنّ القادة الإلهيين يحملون في يد الكتب السماويه و هي مشعل الحقّ، و باليد الاخرى السيف. يدعون الناس أولاً بالعقل و المنطق إلى الحقّ و العدل، فإنّ أعرض الطواغيت عن المنطق، و رفض المستكبرون الاستجابة لنهج الحقّ و العقل عندئذ يأتي دور السيف و القوّه لتحقيق أهدافهم الإلهيه.

٢- الحديد و احتياجات الحياه الأساسيه

بعض المفسّرين شرح هدف الآية أعلاه بما يلي:

إنّ الحياه الإنسانيه بصوره عامّه تتقوّم بأربعة مرتكزات (الزراعه، و الحياكه، أى الصناعه،-و السكن، و السلطه)، و لهذا السبب فإنّ الحاجات الأساسيه للإنسان باعتباره موجودا اجتماعيا تتركّز ب (الغذاء و السكن و اللباس) و التى لا يستطيع أن يوفّرها لنفسه بصوره فرديه، و مسأله تأمينها بشكل عام لا- بدّ أن تكون بواسطه المجتمع و لأنّ كلّ مجتمع لا- يخلو من تزاخم المصالح، و كذلك العديد من المشاكل

ص: ٧٤

١- (١) -فروع الكافي، ج ٥، ص ٨، حديث ١١، ١٥.

٢- (٢) -المصدر السابق.

٣- (٣) -فروع الكافي، ج ٥، ص ٢، حديث ١.

والتعقيدات. لهذا، فإنه بحاجة إلى (سلطه) تَجْرَى العدل فيه و ترعى الحقوق و تنظّم الحياه...و الملفت هنا أنّ هذه الاسس الأربعه المتقدمه الذكر تعتمد جميعها بشكل أساسى على الحديد،و علينا أن نتصوّر كم ستكون حياه الإنسان صعبه لو لم يكن هذا المعدن(الحديد)فى خدمتها.

و لأنّ الحاجه إليه ماسّه و متزايد،فإنّ الله سبحانه قد وفّره بحيث سهّل و ييسّر عمليه الحصول عليه،و بالرغم من عدم إغفال الدور المفيد لكلّ من الفلزات الاخرى،إلا أنّ الحديد يبقى له دور أساس فى حياه الإنسان.

و من هنا يتوضّح مقصود قول الله عزّ و جلّ: فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (١).

ص: ٧٧

اشاره

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)

التفسير

اشاره

تعاقب الرسل واحدا بعد الآخر:

للقرآن الكريم منهجه المتميز، و من خصوصياته أنه بعد بيان سلسله من الأصول العامه يشير و يذكر بمصير الأقسام السابقه، لكي يكون ذلك شاهدا و حجة.

و هنا أيضا يتجسد هذا المنهج: حيث يشير في المقدمه إلى إرسال الرسل مع

البينات و الكتاب و الميزان و الدعوه إلى الإيمان بالحق، لنيل مرضاته سبحانه و الفوز بالسعادة الأبدية.. ثم يتحدث عن بعض الأمم السابقة و أنبيائهم و يعكس هذه الاسس فى منهج دعوتهم.

و يبدأ بشيوخ الأنبياء و بدايه سلسله رسل الحق، نوح و إبراهيم عليهما السلام، حيث يقول سبحانه: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَ إِبْرَاهِيمَ وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ .

و مِمَّا يؤسف له أَنَّ الكثيرين لم يستفيدوا من هذا الميراث العظيم، و النعم الإلهية الفياضة، و الهبات و الألطاف العميمة، حيث يقول عزّ و جلّ: فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

نعم، لقد بدأت النبوه بنوح عليه السلام توأما مع الشريعة و المبدأ، و من ثم إبراهيم عليه السلام من الأنبياء اولى العزم فى امتداد خطّ الرساله، و هكذا حلقات متواصله على مرّ العصور و القرون، فإنّ القاده الإلهيين من ذريّه إبراهيم عليه السلام يتصدّون للقيام بمسؤوليه الرساله، إلّا أَنَّ المستفيد من هذا النور الإلهي العظيم هم القلّه أيضا، فى حين أَنَّ الغالبية سلكت طريق الانحراف.

ثمّ يشير إشاره مختصره إلى قسم آخر من سلسله الأنبياء الكرام التى تختتم بعيسى عليه السلام آخر رسول قبل نبينا محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم حيث يقول سبحانه: ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا .

حيث حملوا نور الهدايه للناس ليضيئوا لهم الطريق، و تعاقبوا فى حملها الواحد بعد الآخر، حتّى وصل الدور إلى السيّد المسيح عليه السلام: وَ قَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .

«قفينا» من (قفا) بمعنى الظهر، و يقال للقافيه قافيه بسبب أَنَّ بعضها يتبع بعضا، و تطلق عاده على الحروف المتشابهه فى آخر كلّ بيت من بيوت الشعر، و المقصود فى الجملة من الآيه أعلاه أَنَّ الأنبياء جاءوا بلحن واحد و أهداف منسجمه، الواحد تلو الآخر، و بدأوا و أكملوا التعليمات التى حملوها من الله إلى أقوامهم..

و هذا التعبير جميل جداً، وهو إشارة لطيفه إلى مبدأ وحده الرسالات و توحيد النبوه.

ثُمَّ يَشِيرُ هُنَا إِلَى الْكِتَابِ السَّمَاوِيِّ لِلسَّيِّدِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ يَقُولُ: وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَ يَسْتَمِرُّ مُتَحَدِّثًا عَنْ خُصُوصِيَّاتِ أَتْبَاعِهِ
فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: وَ جَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً .

و يرى بعض المفسرين أنَّ مصطلحي «الرأفة» و «الرحمة» بمعنى واحد، إلاَّ أنَّ قسما آخر اعتبرهما مختلفين و قالوا: إنَّ «الرأفة» تعني الرغبة في دفع الضرر، و «الرحمة» تعني الرغبة في جلب المنفعة.

ولهذا تذكر الرفاه قبل الرحمة غالبا، لأنَّ قصد الإنسان ابتداء هو دفع الضرر و من ثمَّ يفكر في جلب المنفعة.

وَمِمَّا يَدُلُّ بِهِ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ مَا اسْتَفِيدَ مِنْ آيَةِ حَدِّ الزَّانِي وَالزَّانِيَةِ حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ: وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ (١)

إِنَّ مَوْضُوعَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَتْبَاعِ الْحَقِيقِيِّينَ لِلسَّيِّدِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَذْكُرْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَقَطْ، بَلْ وَرَدَ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَلْتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِذَا نَصَبْنَا رَأْيَكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّاتٍ وَرُهْبَانًا وَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٢)** وبالرغم من أَنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ أَخَذَتْ بِنَظَرِ الْإِعْتِبَارِ مَسِيحِيَّ الْحَبْشَةِ وَشَخْصَ «النَّجَاشِيِّ» بِالذَّاتِ، حَيْثُ آوَى الْمُسْلِمِينَ وَعَامِلَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَ مَحَبَّةٍ خَاصَّةٍ، إِلَّا أَنَّهَا بِشَكْلِ عَامٍ تُشِيرُ إِلَى الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعَوَاطِفِ الْإِيجَابِيَّةِ لِلْمَسِيحِيِّينَ الْحَقِيقِيِّينَ.

و من الطبيعي ألا يكون المقصود هنا المسيحيين الذين يمارسون أقدر

(١ - ١) - النور، الآية ٢.

(٢-٢) - المائدة، الآية ٨٢.

الأعمال و أكثرها إجراما و انحطاطا بحق الشعوب المستضعفه، هؤلاء الذين تلبسوا بلباس الإنسانيه، و هم فى الحقيقه ذئاب مفترسه تصيغ حياه المحرومين بلون الدم و الظلام.. ثم يضيف سبحانه: وَ رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١).

و مما تقدم يتضح لنا أنّ هؤلاء ليسوا ممن لم يراعوا مبدأ التوحيد للسيد المسيح عليه السلام فقط، بل دنسوه بأنواع الشرك، و لم يراعوا أيضا حتى حقّ الرهبانيه التى ابتدعوها باسم الزهد، حيث وضعوا مكائد فى طريق خلق الله، و جعلوا من الأديرة و الكنائس مراكز لأنواع الفساد، و أوجدوا انحرافا خطيرا فى رساله السيد المسيح عليه السلام.

و من مفهوم الآيه يتضح لنا أنّ الرهبانيه لم تكن جزءا من رساله السيد المسيح عليه السلام، إلا أنّ أتباعه هم الذين ابتدعوها من بعده، حيث بدأت بشكل معتدل ثم مالت نحو الانحراف.

و طبقا لتفسير آخر فإنّ نوعا من الرهبانيه و الزهد كان من مبدأ السيد المسيح عليه السلام، إلا أنّ أتباعه و أصحابه ابتدعوا نوعا آخر من الرهبانيه لم يقرّها الله لهم (٢).

ص: ٨١

١- ١) -حول تركيب و معنى هذه الآيه يوجد اختلاف كثير بين المفسرين، حيث اعتبرها البعض عطفًا على الرأفة و الرحمة، و أخذوا بنظر الاعتبار (حبّ) قبل الرهبانيه تقديرًا، لأنّ الرهبانيه ليست شيئًا يكون فى القلب، بل أنّ حبّها و التعلّق بها يكون فى القلب، و اعتبرها آخرون منصوبه بفعل مضمر حيث إنّ (ابتدعوها) تفسّر ذلك فى تقدير: ابتدعوا رهبانيه، ابتدعوها. و بالنسبه ل (إلاّ) ابتغاء رضوان الله (توجد وجهتا نظر: الاولى: أنّها استثناء منقطع، و مفهومه هو: (و لكنّهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله). و الاخرى: أنّها استثناء متّصل و مفهومها أنّنا قرّرنا و وضعنا نوعا من الرهبانيه عليهم، و الهدف من ذلك هو جلب رضى الله تعالى، و لكنّهم حرّفوا الرهبانيه إلى نوع آخر كان خلافا لرضى الله، و الظاهر أنّ التفسير الأوّل فى كلا الموردين مناسب أكثر، لذا يرجى الانتباه هنا.

٢- ٢) -طبقا للتفسير الأوّل حسب الرأى الذى يقول بأنّه استثناء منقطع، و التفسير الثانى يقول بالاستثناء المتّصل.

والتفسير الأول هو الأكثر شهرة، والمناسب أكثر من بعض الجهات.

و على كل حال، فالمستفاد من الآية أعلاه إجمالاً هو أنّ الرهبانية لم تكن في شريعة السيد المسيح عليه السلام، وأن أصحابه ابتدعوها من بعده، و كان ينظر إليها في البدايه على أنّها نوع من أنواع الزهد و الإبداعات الخيره لكثير من السنن الحسنه التي تشيع بين الناس. و لا تتخذ عنوان التشريع أو الدستور الشرعي، إلا أنّ هذه السنّه تعرّضت إلى الانحراف-فيما بعد-و تحريف التعاليم الإلهيه، بل اقترنت بممارسات قبيحه على مرّ الزمن.

و التعبير القرآني بجملة: **فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا** دليل على أنّه لو اعطى حقّها لكانت سنّه حسنه.

و ما ورد في الآية التاليه التي تتحدّث عن الرهبان و القساوسه يتناول هذا المعنى حيث يقول تعالى: **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عِدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا، الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى** ذلك بأنّ منهم قسيسين و رهباناً و أنّهم لا يستكبرون (١) (يرجى ملاحظه ذلك).

و هكذا يتبين أنّ كلمه «الرهبانية» كلّما كانت بمعنى الرأفه و الرحمه فإنّها تشكّل دليل إضافيا على صحّه الادّعاء أعلاه، لأنّها ستكون بمعنى مستوى الرأفه و الرحمه التي وضعها الله في قلوبهم بعنوان أنّها صفة حميده.

و مختصر الكلام هو: إذا وجدت سنّه حسنه بين الناس تكون أصولها الكليّة و خطوطها العريضه في دائره المبدأ الحقّ (كالزهد، مثلاً، فإنّ ذلك ليس عملاً قبيحاً، بل يعتبر مصداقاً من مصاديق الخطّ العام للمبدأ، خاصّه إذا لم تنسب هذه

(٢)

و هذه النقطة أيضاً جديره بالملاحظه و هي: إذا كانت الرهبانية عطف على الرأفه و الرحمه كما اخترناه في المتن، فإنّ المقصود من جعلها في القلوب هو نفس الميل القلبي لهم إلى هذه المسأله، في حين أنّ المقصود من (ما كتبناها) هو أنّ مسأله الرهبانيه لم تكن حكم الله في دين السيد المسيح، بالرغم من أنّ الله تعالى قد وضع حبّها في قلوبهم، و بناء على هذا فلا تتنافى مع جملة (ابتدعوها).

ص: ٨٢

السَّنة إلى المبدأ الإلهي..و لسوء الحظَّ فَإِنَّ جملة من الإفراطات و التفریطات وجدت بين ظهرانينا تحت قناع الدين و تحوّلت إلى سَنَةٍ سيّئة.

إنَّ مراسم الأعياد و التعازى و الوفيات الخاصّة بعظماء الإسلام و ما يتعلّق بإحياء ذكرى الشهداء و الأحبّه الراحلين-سواء فى يوم استشهادهم،أو اليوم السابع،أو بعد مرور أربعين يوما من الشهاده أو الوفاء،و كذا ما يتعلّق بذكرهم السنويه-هو مصداق للمفاهيم الكليّة فى الإسلام حول تعظيم شعائر الله تعالى، و إحياء ذكر قاده الإسلام و عموم شهداء المسلمين،و بغضّ النظر عن الجزئيات و التفاصيل فَإِنَّ هذه المراسم مصداق من الأصل الكلى فقط،و لا يمكن اعتبارها مبادئ شرعية.

و كلّما أنجزت هذه المراسم بدون تجاوز للحدود الشرعية و عدم تدنيسها بالخرافات و الممارسات اللاشرعيّة،فإنّها-من المسلّم-مصداق لابتغاء رضوان الله،و مصداق سنّة حسنه،و فى غير هذه الصورة فإنّها ستكون بدعه الشؤم و السنّة السيّئة.

«الرهبانيه»من مادّه(رهب)مأخوذه من معنى الخوف من الله،و يفهم أنّها كانت فى البدايه مصداقا للزهد و عدم الاهتمام بشؤون الدنيا،إلاّ أنّها تعرّضت فيما بعد لانحرافات واسعه،و إذا ما لا حظنا موقف الإسلام المناهض و المقاوم للرهبانيه بشدّه فمن هذا الباب و بهذا اللحاظ. كما سنستعرض ذلك فيما يلى:

بحوث

اشاره

١-الإسلام و الرهبانيه

ذكرنا أنّ الرهبانيه أخذت من «الرهبه»التي جاءت بمعنى الخوف من الله، و كما يقول الراغب فى المفردات،الخوف الذى يكون ممزوجا بالزهد

و الاضطراب و الترهّب يعنى:(التعبّد و العباده)..و الرهبانيه بمعنى:(شدّه التعبّد).

و إذا فسّرنا الآيه أعلاه بأى شكل،فإنّها ترينا أنّها كانت نوعا من الرهبانيه الممدوحه بين المسيحيين،بالرغم من أنّها لم تكن أصلا و إلزاما فيما جاء به السيّد المسيح من عند الله تعالى،إلا أنّ أتباع السيّد المسيح عليه السّلام أخرجوا(الرهبانيه)من حدودها و جرّوها إلى الانحراف و التحريف،و لهذا فإنّ الإسلام ندّد فيها بشدّه، حتّى أنّ الكثير من المصادر الإسلاميه أوردت

الحديث المعروف: «لا رهبانيه فى الإسلام» (١).

و من جملة الممارسات القبيحه للمسيحيين فى مجال الرهبانيه تحريم الزواج للنساء و الرجال بالنسبه لمن يتفرّع(للهبته)و الانزواء الاجتماعى،و إهمال كافّه المسؤوليات الإنسانيه فى المجتمع،و الركون إلى الصوامع و الأديره البعيده، و العيش فى محيط منزو عن المجتمع..بالإضافه إلى جملة من المفاسد التى حصلت فى الأديره و مراكز الرهبان،كما سنشير إلى جوانب منها فى هذا البحث إن شاء الله.

و بالرغم من أنّ هؤلاء الرجال البعيدين عن الدنيا(الرهبان و الراهبات)قد أدّوا خدمات إيجابيه كثيره كتمريض المصابين بأمراض خطره كالجدام و ما شابهه،بالإضافه إلى القيام بالتبليغ و الإرشاد بين أقوام بدائيه متوحّشه،و قيامهم ببرامج للدراسه و التحقيق..إلا أنّ هذه الأمور تعتبر قليله الأهميه قياسا إلى المفاسد التى اقترنت معها.

و أساسا فإنّ الإنسان مخلوق اجتماعى،و تكامله المادى و المعنوى مبتن على هذا الأساس،و ما جاءت به الأديان السماويه لا ينفى دور الإنسان فى المجتمع،بل يحكم قواعده و أسسه بصوره أفضل.

ص: ٨٤

(١- ١) -جاء هذا الحديث فى مجمع البحرين فى مادّه(رهب)كما ذكر ذلك فى النهايه لابن الأثير.

إِنَّ اللَّهَ سبحانه أوجد الغريزة الجنسيه فى الإنسان لحفظ النسل، و كلّ مذهب أو قانون يتعارض مع هذه الغريزة فإنّه باطل.

الزهد الإسلامى الذى يعنى البساطه فى الحياه و الابتعاد عن الكماليات، و عدم الوقوع فى أسر المال و الموقع -لا يرتبط أصلاً بمسأله الرهبانيه، لأنّ الرهبانيه تعنى الانفصال و الغربه عن المجتمع، و الزهد يعنى التحرّر من المادّيّات و الترفّع عن المغريات لكى تتمّ المعاشه بصوره اجتماعيه أفضل.

و نقرأ فى قصّه «عثمان بن مظعون» فى موت ولده أنّه لم يعد يخرج للعمل حزناً عليه، و انشغل فى العباده و ترك كلّ عمل سواها و جعل من بيته مسجداً...

فعند ما وصل خبره للرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم، أحضره و

قال له: «يا عثمان، إنّ الله تبارك و تعالى لم يكتب علينا الرهبانيه، إنّما رهبانيه امتى الجهاد فى سبيل الله» (١).

و ذلك إشاره إلى أنّ الإعراض عن الحياه الماديّه و الانزواء الاجتماعى، و تعطيل الأعمال بصوره سليبه، يجب أن يصبّ فى مسير إيجابى، و ذلك بالجهاد فى سبيل الله. ثمّ أنّ الرّسول الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم يبيّن له بعض فضائل صلاه الجماعه، و التى هى تأكيد على نفى الرهبانيه فى الشرع الإسلامى.

و

فى حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام عند ما سأله أخوه على بن جعفر:

الرجل المسلم هل يصلح أن يسيح فى الأرض أو يترهب فى بيت لا يخرج منه قال عليه السّلام: «لا».

و توضيح ذلك: إنّ السياحه التى نهى عنها فى هذه الروايه، هى تلك الممارسه التى تكون على مستوى الرهبانيه و يمكن أن نطلق عليها (الرهبانيه السيّاره) و ذلك أنّ بعض الأفراد قبل أن يوفّروا لأنفسهم المستلزمات الأساسيه لحياتهم من سكن أو عمل أو مصدر عيش.. فإنّهم يقومون بالسياحه و التجوّل فى ربوع الدنيا

ص: ٨٥

و بدون تهيئه مستلزمات الطريق من الزاد و المال..بل يعتمدون على أخذ المساعدات من الناس عند كل نقطه يصلون إليها،ظانين أن ذلك نوعا من الزهد و ترك الانشغال بالدنيا.

إلا أن الإسلام كما نفى الرهبانيه الثابته،فإنه قد نفى الرهبانيه السياره أيضا انسجاما مع التعاليم الإسلاميه،فإن الزهد و الصلاح مهم للإنسان المسلم،شريطه أن يكون فى قلب المجتمع و ليس فى الانزواء و الغربه عنه و البعد منه.

٢-المصدر التاريخى للرهبانيه

لم تكن الرهبانيه موجوده بشكلها الحالى فى القرون الاولى للتاريخ المسيحى،و قد ظهرت بعد القرن الميلادى الثالث فى حكم الإمبراطور الرومانى (ديسيوس)-و قتاله الشديد لأتباع السيد المسيح عليه السلام،و نتيجته لما لحق بهم من الأذى من قبل هذا الإمبراطور المتعطش للدماء،فإنهم لجأوا إلى الجبال و الصحارى (١).

و جاء هذا المعنى بصوره أدق فى الروايات الإسلاميه حيث

نقل عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال لابن مسعود: «هل تدرى من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانيه؟ فقلت:الله و رسوله أعلم.

فقال صلى الله عليه و آله و سلم:«ظهرت عليهم الجبابره بعد عيسى يعملون بمعاصى الله،فغضبت أهل الإيمان فقاتلوهم، فهزم أهل الإيمان ثلاث مّرات،فلم يبق منهم إلا القليل، فقالوا:إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا و لم يبق للدين أحد يدعو إليه،فتعالوا نتفرّق فى الأرض إلى أن يبعث الله النّبي الذى و عدنا به عيسى عليه السلام(يعنون محمّدا)-فتفرّقوا فى غيران الجبال و أحدثوا رهبانيه،فمنهم من تمسك بدينه،و منهم من كفر».

ص: ٨٦

ثم قال: «أ تدرى ما رهبانيه أمتى؟» قلت: الله و رسوله أعلم.

قال: «الهجره و الجهاد و الصلاه و الصوم و الحجّ و العمره» (١).

و المؤرّخ المسيحي المشهور (ويل دورانت) ينقل في تأريخه المعروف في ج ١٣ بحثاً مفصّلاً حول الرهبانيه، حيث يعتقد أنّ ارتباط الراهبات (النساء) التاركات للدنيا بالربان بدأ منذ القرن العاشر الميلادي (٢).

و بدون شكّ فإنّ هذه الظاهره الاجتماعيه - كما هو شأن كلّ ظاهره اخرى لها أسسا روحيه بالإضافة إلى الاسس التأريخيه، حيث يمكن الإشارة إلى هذه الحقيقه، و هي أنّ مسأله ردّ الفعل الروحي للأشخاص و الأقوام تختلف فيما بينها مقابل الاندحارات و المصاعب التي يواجهوها. حيث يميل البعض نتيجة لذلك إلى الانزواء و الانشغال بالأمور الشخصيه فقط، و يبعدون أنفسهم بصوره كامله عن المجتمع و النشاطات الاجتماعيه، في الوقت الذي يتعلّم آخرون من الانتكاسات و المصاعب دروس الاستقامه و الصلابه و قدره على تحدّي المشاكل و مقاومتها.

و من هنا فإنّ القسم الأوّل يلتمس طريق الرهبانيه أو أى سلوك مشابه له، بعكس القسم الثاني الذي يصبح أكثر تماسا بالمجتمع و أقوى في مواجهه تحدّياته.

٣- المفاصد الأخلاقيه و الاجتماعيه الناشئه من الرهبانيه

إنّ الانحراف عن قوانين الخلقه غالبا ما يكون مصحوبا بانفعالات سلبيه، و بناء على هذا فلا عجب فيمن يتعد عن الحياه الاجتماعيه التي هي جزء من

ص: ٨٧

١- (١) - تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٤٣ بتلخيص قليل، و نقل حديث آخر شبيه بهذا في الدر المنثور، ج ٦، ص ١٧٧.

٢- (٢) - تاريخ ويل دورانت، ج ١٣، ص ٤٤٣.

فطرته أن يصاب بردود فعل شديده، لذلك فإنّ الرهبانيه-لأنّ منهجها خلافا لطبيعته الإنسان و فطرته-فإنّها استبطنت مفسد كثيره من جملتها:

أولاً: أنّ الرهبانيه تتعارض مع طبيعته الإنسان المدينه و بالتالى فإنّها تؤدّى بالمجتمعات الإنسانيه إلى الانحطاط و التخلف.

ثانياً: ليست الرهبانيه عائقاً عن كمال النفس و تهذيب الروح و الأخلاق فقط، بل تجرّ إلى الانحرافات الأخلاقية و الكسل و سوء الظنّ و الغرور و العجب و التشاؤم و ما إلى ذلك، و على فرض أنّ الإنسان استطاع أن يصل إلى فضيله أخلاقية فى حاله الانزواء، فإنّها فى الواقع لا تعدّ كذلك، إذ أنّ الفضيله أن يحزّر الإنسان نفسه من التلوث الأخلاقى فى قلب المجتمع.

ثالثاً: إنّ ترك الزواج و الإعراض عنه، و الذى هو من مبادئ الرهبانيه، ليس فقط يعوق عن الكمال، بل هو سبب لظهور العقد و الأمراض النفسيه و ما إلى ذلك.

و نقرأ فى دائره المعارف أنّ بعض الرهبان كانوا يعتبرون الاهتمام بجنس المرأة عمل شيطاني، لحدّ أنّهم منعوا وجود أنثى أى حيوان فى الدير خوفاً من الروح الشيطانيه لهذه الأنثى التى قد تدنّس روحائيتهم و تسبّب لها انتكاسه.

و مع هذه الحاله فإنّ التأريخ يذكر لنا فضائح عديده من الأديره إلى حدّ أن وصفها (ويل دورانت) بأنّها بيوت للفحشاء و الدعاره، و مراكز لتجمّع عبّاد البطون و طلاب الدنيا و اللاهين، بحيث أنّ أفضل المشروبات كانت توجد فى الأديره.

و طبقاً لشهادته التأريخ فإنّ السيّد المسيح عليه السّلام لم يتزوّج أبداً، و هذا لم يكن بسبب موقف له من سنّه الزواج، بل لقصر عمره، و انشغاله المستمر فى مسئولياته الرساليه التى كانت تستدعى منه السفر و التجوّل و التبليغ فى المناطق النائية فى العالم، و هى التى لم تسمح له بالزواج.

إنّ البحث حول الرهبانيه يستحقّ كتاباً مستقلاً، و إذا أردنا أن نستفيض فى هذا البحث فإنّنا سنخرج عن بحث التّفسير.

و ننهى بحثنا هذا بحديث للإمام على عليه السّلام تعقيباً على المفهوم الذى طرحته الآيه التاليه حيث تقول الآيه: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١) فقد

قال عليه السّلام فى تفسيرها: «هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم فى السوارى» (٢).

٤- إنجيل أم أناجيل!

«الإنجيل» فى الأصل مصطلح يونانى بمعنى البشاره أو تعليم جديد، و هو اسم الكتاب الذى نزل على السيّد المسيح عليه السّلام، و جاء هذا المصطلح اثنى عشره مرّه فى القرآن الكريم، و قد استعمل بهذا المعنى.

و الجدير بالملاحظه هنا أنّ ما يعرف باسم الإنجيل اليوم كتب كثيره يعبر عنها بالأناجيل، و المشهور منها أربعة و هى «لوقا» و «مرقس» و «متّى» و «يوحنا» و يعتقد المسيحيون أنّ هذه الأناجيل كتبت بواسطه أربعة من أصحاب السيّد المسيح عليه السّلام أو طلابه، و تأريخ تأليفها يرجع إلى ثمان و ثلاثين سنه بعد السيّد المسيح عليه السّلام إلى غايه قرن بعده، و بناء على هذا فإنّ الكتاب الأصلى للسيّد المسيح -الذى هو كتاب سماوى مستقل- قد اندثر، وبقى بعضه فى ذاكره طلابه الأربعة، حيث مزج مع أفكارهم و حرّرت هذه الأناجيل.

و لدينا بحث مفصّل أكثر فى هذا المجال فى نهايه الآيه (٣) من سوره آل عمران.

ص: ٨٩

١- ١) -الكهف، الآيه ١٠٣-١٠٤.

٢- ٢) -كنز العمال، ج ٢، و الحديث ٤٤٩٦.

إشاره

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
(٢٨) لئلاَّ يَغْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْعِدُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ
(٢٩)

سبب النزول

نقل كثير من المفسرين أنَّ للآيات أعلاه سببا للنزول خلاصته ما يلي:

بعث رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم جعفرا في سبعين راكبا إلى النجاشي يدعوه، فقدم عليه و دعاه فاستجاب له، و آمن به، فلما كان عند انصرافه، قال ناس ممن آمن به من أهل مملكته، وهم أربعون رجلا: ائذن لنا فنأتى هذا النبي فنسلم به، فقدموا مع جعفر، فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصه، استأذنوا وقالوا: يا نبي الله إنَّ لنا أموالا و نحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصه، فإن أذنت لنا انصرفنا، فجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها، فأذن لهم فانصرفوا، فأتوا بأموالهم فواسوا بها

المسلمين، فأنزل الله تعالى فيهم: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: .. وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١) فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين.

فَلَمَّا سَمِعَ أَهْلَ الْكِتَابِ مِمَّنْ يُوْمنُ بِهِ قَوْلَهُ: أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا فَخَرُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ: أَمَا مِنْ آمَنَ بِكِتَابِكُمْ وَكُتِبْنَا لَهُ أَجْرٌ كَأَجْرِكُمْ فَمَا فَضْلُكُمْ عَلَيْنَا، فَتَزَلَّتْ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ الْآيَةَ، فَجَعَلَ لَهُمْ أَجْرَيْنِ وَزَادَهُمُ النُّورَ وَالْمَغْفِرَةَ (٢).

التفسير

إشارة

الذين لهم سهمان من الرحمة الإلهية:

بما أَنَّ الْحَدِيثَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ كَانَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَسِيحِيِّينَ، فَإِنَّ الْآيَاتِ مُورِدَ الْبَحْثِ مَكْمَلُهُ لَمَّا جَاءَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ .

و لِلْمُفَسِّرِينَ رَأْيَانِ حَوْلَ طَبِيعَةِ الْمَخَاطَبِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:

الأول: إِنَّ الْمَخَاطَبَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، حَيْثُ يَبَيِّنُ لَهُمْ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْإِيمَانَ الظَّاهِرَ غَيْرَ كَافٍ لِلْفَرْدِ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ الْإِيمَانُ عَمِيقًا تَوَاقًا مَعَ التَّقْوَى وَالْعَمَلِ، كَيْ يَنَالُوا الْأَجْرَ الْعَظِيمَ وَالَّذِي سَتَعَرَّضَ لَهُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ.

الثاني: إِنَّ الْمَخَاطَبَ هُنَا هُمُ الْمُؤْمِنُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَ يَعْنِي: يَا مَنْ آمَنْتُمْ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْكِتَابِ السَّابِقَةِ آمَنُوا بِرَسُولِ الْإِسْلَامِ، وَ لَتَكُنْ تَقْوَى اللَّهِ نَصَبَ أَعْيُنِكُمْ كَيْ يَشْمَلَكُمْ سُبْحَانَهُ بِأَنْوَاعِ أَجْرِهِ وَ جَزَائِهِ.

ص: ٩١

١- ١) -القصص، الآية ٥٢-٥٤.

٢- ٢) -مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٤٤، ونقل نفس المعنى في تفسير أبو الفتوح الرازي و روح المعاني مع بعض الاختلاف في نهايه الآيات مورد البحث.

و الذى يؤيد الرأى الثانى هو ذكر (الأجر المضاعف) و الذى ورد فى نهايه الآيه و المقصود به جزاء الإيمان بالأنبياء السابقين، و جزاء الإيمان برسول الإسلام.

إلا أنَّ هذا التفسير إضافه إلى أنه لا يتناسب مع الآيه اللاحقه- كما سنوضح- فإنه كذلك لا ينسجم مع سبب نزول الآيه و طبيعه الإطلاق الذى ورد فيها بقوله:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

و بناء على هذا فلا بد من تبني الرأى القائل بأنَّ المقصود بالمخاطب هم جميع المؤمنين الذين قبلوا-بالظاهر-دعوه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و لكنهم لم يؤمنوا بها الإيمان الراسخ الذى يضىء أعماق النفوس و يتجسد فى أعمالهم و ممارساتهم.

و تكمله للآيه الكريمه يشير القرآن الكريم إلى ثلاث نعم عظيمه تحصل فى ظل الإيمان العميق و التقوى حيث يقول تعالى: يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

«كفل» على وزن (طفل) بمعنى الحصه التى توفر للإنسان حاجته، و يقال للضامن «كفيل» أيضا بهذا اللحاظ، حيث يكفل الطرف المقابل و يضمه بنفسه (١).

و المقصود من هاتين الحصتين أو النصيين هو ما جاء فى قوله تعالى: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً .

و احتمال أيضا أنَّ هذين النصيين يمكن أن يكون أحدهما الإيمان برسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم و الآخر الإيمان بالأنبياء السابقين، لأنَّ كلَّ مسلم ملزم بموجب

ص: ٩٢

١- ١) -يعتقد البعض أنَّ هذا المصطلح مأخوذ من (كفل) على وزن «عسل» و المقصود به هو ما يضعونه على كفل-القسم الأخير من الظهر-الحيوانات كى لا- يسقط الراكب، و لذلك فإنه يقال لكلَّ شىء يسبب الحفاظ (كفل)، و من هنا أطلق على الضامن اسم «الكفيل» بسبب هذا المعنى. (أبو الفتوح الرازى نهايه الآيه مورد البحث). و يستفاد من الراغب أنَّ لهذا المصطلح معنيين: الأول هو المعنى أعلاه، و المعنى الثانى يطلق على الشىء الردى الذى لا- قيمه له، و التشبيه بكفل الحيوانات يكون بلحاظ أنَّ كلَّ شخص يركب على كفلها فاحتمال سقوطه وارد (يرجى ملاحظه ذلك).

اعتقاده أن يؤمن بكل الأنبياء السابقين و الكتب السماويه و يحترمها.

و ذكر البعض أن المقصود هو الأجر المستمر و المتعاقب و المضاعف.

إلا أن الجمع بين جميع هذه المعاني ممكن أيضا.

و حول القسم الثانى من الجزاء و الأجر يقول تعالى: وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ قال بعض المفسرين: إن المقصود بذلك هو نور الإيمان الذى سبق المؤمنين فى سيرهم يوم القيامة، و يبدد ظلمات الحشر، حيث يتقدمون إلى الجنة و السعاده الأبدية. كما جاء فى الآية الكريمة: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بَايِمَانِهِمْ (١).

فى الوقت الذى اعتبرها البعض الآخر إشارة إلى نور القرآن الذى يشع على المؤمنين فى الدنيا، كما جاء فى قوله تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ (٢).

إلا أن للآية مفهوما مطلقا واسعا حسب الظاهر و لا يختص بالدنيا فقط و لا بالآخرة فحسب، و بتعبير آخر فإن الإيمان و التقوى هى التى تسبب زوال الحجب عن قلوب المؤمنين، حيث يتبين لهم وجه الحقيقة واضحاً و بدون حجاب، و فى ظل الإيمان و التقوى هذين سيكون للإنسان وعى و بصره حرّ غير المؤمنين منها.

جاء فى روايات أهل البيت عليهم السلام أن المقصود بالنور فى الآية أعلاه هو:

«إمام تأتون به»، و هو فى الحقيقة بيان واحد من المصاديق الواضحة (٣).

و أخيراً فإن ثالث جزاء للمؤمنين المتقين هو (غفران الذنوب) لأن بدونه لا يكون للإنسان هناء بأى نعمه من الله عليه، حيث يجب أن يكون فى البدايه فى

ص: ٩٣

١- ١) - الحديد، الآية ١٢.

٢- ٢) - المائدة، الآية ١٥.

٣- ٣) - نقلت هذه الروايات فى تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٥٣، ٢٥٢.

مَأْمَنَ مِنَ الْعَذَابِ الْإِلَهِيِّ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الْمَسِيرِ فِي طَرِيقِ النُّورِ وَالتَّقْوَى لِيُنَالِ الرَّحْمَةَ الْإِلَهِيَةَ الْمُضَاعَفَةَ.

وَفِي الْآيَةِ الْإِلَاحَةِ-وَالَّتِي هِيَ آخِرُ آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ-بَيَانٌ وَدَلِيلٌ لِمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ الْآتِفَةِ الذِّكْرَ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: لِيُتَلَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١).

إِنَّهُ جَوَابٌ لِهَؤُلَاءِ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ زَعَمَ قَسَمَ مِنْهُمْ: أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا وَاحِدًا كِبَقِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ حِينَمَا رَفَضُوا الْإِيمَانَ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ فَلَهُمْ أَجْرَانِ: أَجْرُ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ السَّابِقِينَ، وَأَجْرُ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، حَيْثُ يَجِيبُهُمُ الْقُرْآنُ وَيُرَدُّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْآيَةِ هُمُ الْمُسْلِمُونَ.

فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَهُمْ أَجْرَانِ، لِأَنَّهُمْ آمَنُوا جَمِيعًا بِرَسُولِ اللَّهِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى إِيْمَانِهِمْ بِكُلِّ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، وَأَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِ اللَّهِ فَلَيْسَ لَهُمْ أَى نَصِيبٍ أَوْ سَهْمٍ مِنَ الْأَجْرِ، ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ الرَّحْمَةَ الْإِلَهِيَةَ لَيْسَتْ فِي اخْتِيَارِهِمْ حَتَّى يَهْبُوا مَا يَشَاءُونَ مِنْهَا وَفَقَ مُشْتَهَاتِهِمْ، وَيَمْنَعُوهَا عَنِ الْآخَرِينَ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ تَتَضَمَّنُ كَذَلِكَ جَوَابًا لِمَا وَرَدَ مِنْ ادِّعَاءَاتِ وَاهِيَةٍ مِنْ بَعْضِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ اعْتَبَرُوا الْجَنَّةَ وَالرَّحْمَةَ الْإِلَهِيَةَ مَنَحَصَرَةً بِهِمْ، ظَانِّينَ أَنَّ غَيْرَهُمْ

ص: ٩٤

١ - ١) - فِي (لَا) فِي (لِئَلَّا) يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ زَائِدُهُ أَوْ أَصْلِيهِ، يَوْجَدُ نِقَاشَ بَيْنِ الْمَفْسِّرَيْنِ حَوْلَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، حَيْثُ اعْتَبَرَ الْكَثِيرُونَ أَنَّ (لَا) زَائِدُهُ وَتَفِيدُ التَّأَكِيدَ (كَمَا ذَكَرْنَا أَعْلَاهُ) وَبَنَاءٌ عَلَى أَنَّ (لَا) أَصْلِيهِ، فَقَدْ وَرَدَتْ مَعَانِي مُخْتَلِفَةٌ لِلْآيَةِ مِنْ جَمَلَتِهَا أَنَّ الْمَقْصُودَ سَيَكُونُ كَالتَّالِيِ وَهُوَ: أَنَّ يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ بِأَنَّهُ إِذَا قَبِلُوا الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ فَإِنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَهَيَّؤُوا الْفَضْلَ الْإِلَهِيَّ لَهُمْ. وَبَتَعْبِيرٍ آخَرَ فَإِنَّ نَفْيَ النَّفْيِ هُنَا بِمَعْنَى (الْإِثْبَاتِ) أَوْ يَكُونُ الْمَقْصُودُ كَالتَّالِيِ: نَحْنُ الَّذِينَ أَعْطَيْنَا كُلَّ هَذِهِ الْهَبَاتِ لِلْمُسْلِمِينَ حَتَّى لَا يَتَصَوَّرُوا أَهْلَ الْكِتَابِ أَنَّ لَا نَصِيبَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْفَضْلِ الْإِلَهِيِّ. إِلَّا أَنَّهُ بِمُلَاحَظَةِ نَهَايَةِ الْآيَةِ الَّتِي تَقُولُ: وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ وَكَذَلِكَ بِمُلَاحَظَةِ سَبَبِ نَزُولِهَا الَّذِي مَرَّبَّنَا سَابِقًا فَإِنَّ كَوْنَ (لَا) زَائِدُهُ هُوَ الْأَنْسَبُ ظَاهِرًا، بَلْ وَحَسَبَ إِعْتِقَادِ الْبَعْضِ أَنَّهُ فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْمَوَارِدِ الَّتِي تَشْتَمِلُ الْجُمْلَةَ عَلَى نَفْيٍ، فَإِنَّ: (لَا) تَكُونُ زَائِدَةً كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ الْأَعْرَافَ ١٢/، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى أَيْضًا: وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ الْأَنْعَامَ، الْآيَةَ ١٠٩ (يَرْجَى مُلَاحَظَةَ ذَلِكَ).

محروم منها، حيث يقول سبحانه: وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ الْأُمَمُ مِن قَبْلُ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١)

بحث

إشارة

التقوى والوعى:

لقد بين القرآن الكريم آثارا كثيرة للتقوى، و من جملتها إزالة الحجب عن فكر الإنسان و قلبه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ارتباط «الإيمان و التقوى» مع «البصيرة» منها قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا (٢) و منها قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمَكُمُ اللَّهُ (٣) و جاء هذا المعنى صراحه فى الآيات مورد البحث حيث قال تعالى: إِن تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَكُمْ نُورًا عَلَى ضَوْئِهِ تَسْتَطِيعُونَ السَّيْرَ.

و العلاقة بين هاتين الآيتين -بالإضافة إلى الجوانب المعنوية التى بقيت مجهولة لنا- قابله للإدراك العقلى أيضا، لأن أكبر حاجز عن المعرفة و أهم مانع لها هو الحجاب الذى يغطى قلب الإنسان، و الذى هو هوى النفس و النزعات الذاتيه و الأمنى الفارغه، و الآمال البعيده، و الوقوع فى أسر المادّه و مغريات الدنيا، حيث لا تسمح للإنسان أن يرى الحقائق بصورتها الطبيعیه، و بالتالى فإنّ الحكم على الأشياء يكون بعيدا فى منطق العقل و الصواب.

إلا أنّ استقرار الإيمان و التقوى فى القلوب يبدّد هذه الحجب و يزيل عتمتها

ص: ٩٥

١-١) -البقره، الآية ١١١.

٢-٢) -الأنفال، الآية ٢٩.

٣-٣) -البقره، الآية ٢٨٢.

و ظلامها عن صفحه القلب، و يجعل الروح الإنسانيه تفيض بشمس الحقيقه و تتعرّف على الحقائق بصورتها الناصعه و تشعر باللذّه و النشوه من هذا الإدراك الصحيح و العميق للأشياء، و تتفتّح أمامه السبل السليمه للأهداف المقدّسه التى يسعى نحوها و يتقدّم باتّجاهها.

نعم إنّ التقوى هى التى تعطى للإنسان الوعى و الوضوح، كما أنّ الوعى يعطى للإنسان التقوى، أى أنّ لكلّ من التقوى و الوعى تأثير متبادل بعضهما على البعض الآخر.

و نقرأ هنا

فى حديث معروف يقول: «لو لا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات».

و لإدراك هذا الحديث نصغى لما

قاله الإمام على عليه السّلام: «لا دين مع هوى، لا عقل مع هوى، من اتّبع هواه أعماه و أصمّه، و أذلّه و أضلّه» (١).

ربّاه، احفظنا من هوى النفس و تفضّل علينا بالتقوى و البصيره.

إلهنا، كلّ الفضل و الرحمه بيدك، فلا تحرمنا من فضلك العظيم.

ربّنا، وفّقنا لإقامه الحقّ و العدل و القسط و حراسه حدود الكتاب و الميزان و الوقوف بوجه الظالمين.

آمين ربّ العالمين نهايه سوره الحديد

ص: ٩٤

بدايه الجزء الثامن و العشرون من القرآن الكريم

سوره المجادلہ

اشاره

مدنيہ و عدد آياتها اثنان و عشرون آيه

ص: ٩٧

محتوى السوره:

نزلت هذه السوره فى المدينه، و انسجاما مع موضوعات السوره المدينيه فإنّها تتحدّث فى الغالب عن الأحكام الفقهيّه، و نظام الحياه الاجتماعيه، و العلاقات بين المسلمين و غيرهم.. و نستطيع أن نلخص أهمّ أبحاثها فى ثلاثه أقسام:

القسم الأوّل: يتحدّث عن حكم (الظهار) الذى كان يعتبر نوعا من الطلاق و الانفصال الدائم، حيث قومه الإسلام و جعله فى الطريق الصحيح.

الثانى: يتحدّث عن مجموعه من التعليمات الخاصّه بآداب المجالسه، و التى منها: «التفّسّح» فى المجالس و منع النجوى.

الثالث: يتعرّض إلى بحث واف و مفضّل عن المنافقين، تلك الفئه التى تتظاهر بالإسلام، إلّا أنّها تتعاون مع أعدائه، و يحذّر المسلمين المؤمنين من الدخول فى حزب الشيطان و النفاق، و يدعوهم إلى الحبّ فى الله و البغض فى الله و الالتحاق بحزب الله.

و قد سمّيت هذه السوره ب(سوره المجادله) و ذلك بسبب اللفظه التى وردت فى الآيه الاولى منها.

فضيله تلاوه سوره المجادله:

لقد نقلت روايتان فى فضيله تلاوه سوره المجادله إحداهما عن الرّسول

الأعظم صَلَّى الله عليه وآله وسلم، والثانيه عن الإمام الصادق عليه السلام.

جاء في الروايه الاولى: «من قرأ سورة المجادله كتب من حزب الله في يوم القيامه».

و

جاء في الروايه الثانيه: «من قرأ سورة الحديد و المجادله في صلاه فريضه و أدمنها لم يعذبّه الله حتّى يموت أبداً، ولا يرى في نفسه ولا في أهله سوءاً أبداً، ولا خصاصه في بدنه».

و حيث أنّ موضوعات هذه السوره تتناسب مع الجزاء المرتقب من الله تعالى، لذلك فإنّ الروايات أعلاه توضّح لنا الهدف من التلاوه من أجل العمل بمحتوياتها، وليس بتلك التلاوه الخاليه من الفكر و العمل.

ص: ١٠٠

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ
(١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكُمْ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)

سبب النزول

نقل أغلب المفسرين أن للآيات الاولى فى هذه السوره سببا للنزول،

و مضمونها بشكل عام واحد، بالرغم من وجود اختلافات في الجزئيات، إلا أن هذه الاختلافات لا تؤثر على ما نحتاجه من البحث التفسيري.

و

جاء في تفسير القمي: حدثنا علي بن الحسين قال: حدثنا محمد بن أبي عبد الله، عن الحسن بن محبوب، عن أبي ولادة، عن حمران، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن امرأة من المسلمات أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله إن فلان زوجي قد نثر له بطني وأعنته على دنياه وآخرته، لم ير مني مكروها أشكوه إليك. قال:

فيم تشكينه؟ قالت: إنه قال: أنت علي حرام كظهر أمي، وقد أخرجني من منزلي فانظر في أمري. فقال لها رسول الله: ما أنزل الله تبارك وتعالى كتابا أفضى فيه بينك وبين زوجك، وأنا أكره أن أكون من المتكلفين، فجعلت تبكي وتشتكي ما بها إلى الله عز وجل وإلى رسول الله وانصرفت.

قال: فسمع الله تبارك وتعالى مجادلتها لرسول الله في زوجها وما شكت إليه وأنزل الله في ذلك قرآنا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا - إلى قوله - وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ .

قال فبعث رسول الله إلى المرأة، فأنته فقال لها: جيئي بزواجك، فأنته فقال له:

أقلت لامرأتك هذه: أنت حرام علي كظهر أمي؟ فقال: قد قلت لها ذلك. فقال له رسول الله قد أنزل الله تبارك وتعالى فيك وفي امرأتك قرآنا وقرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا - إلى قوله تعالى - إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ، فضم إليك امرأتك فإنك قد قلت منكرا من القول وزورا، وقد عفى الله عنك وغفر لك ولا تعد.

قال: فانصرف الرجل وهو نادم على ما قاله لامرأته، وكره الله عز وجل ذلك للمؤمنين بعد وأنزل الله: وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا يَعْنِي مَا قَالَ الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي.

قال: فمن قالها بعد ما عفى الله وغفر للرجل الأول فإن عليه «تحرير رقبه من

قبل أن يتماسًا-يعنى مجامعتها-ذلكم توعظون به و الله بما تعملون خير فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسًا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا، قال: فجعل الله عقوبه من ظاهر بعد النهى هذا. ثم قال: «ذلك لتؤمنوا بالله و رسوله و تلك حدود الله» قال: هذا حد الظهار» (١).

و كما قلنا فإن كثيرا من المفسرين ذكروا لها هذا السبب للنزول، و من جملتهم القرطبي، و روح البيان، و روح المعاني، و الميزان، و الفخر الرازي، و فى ظلال القرآن، و أبو الفتوح الرازي و كنز العرفان، و كثير من كتب الحديث و التاريخ مع وجود اختلافات.

التفسير

اشاره

الظهار عمل جاهلى قبيح:

بالنظر إلى ما قيل فى سبب النزول، و كذلك طبيعه الموضوعات التى وردت فى السوره، فإن الآيات الاولى منها واضحه فى دلالتها حيث يقول سبحانه: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا .

«تجادل» من المجادله مأخوذه من مادّه (جدل) و تعنى فى الأصل (قتل الحبل) و لأنّ الجدل بين الطرفين و إصرار كلّ منهما على رأيه فى محاوله لإقناع صاحبه، اطلق على هذا المعنى لفظ (المجادله).

ثمّ يضيف تعالى: وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا .

«تحاور» من مادّه (حور) على وزن (غور) بمعنى المراجعة فى الحديث أو الفكر، و تطلق كلمه «المحاوره» على بحث بين طرفين.

ص: ١٠٣

نعم إِنَّ اللَّهَ عالم بكلّ المسموعات و المرئيات، بدون أن يحتاج إلى حواس نظر أو سمع، لأنه حاضر و ناظر في كلّ مكان، يرى كلّ شيء و يسمع كلّ حديث.

ثمّ يستعرض تعالى حكم الظهار بجمل مختصره و حاسمه تقضى بقوّه على هذا المفهوم الخرافى حيث يقول سبحانه: الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ .

«الائم» و«الولد» ليس بالشىء الذى تصنعه الألفاظ، بل إنَّهما حقيقة واقعيه عينيه خارجيه لا- يمكن أن تكون من خلال اللعب بالألفاظ، و بناء على هذا فإذا حدث أن قال الرجل لزوجته مرّه: (أنت على كظهر امي) فإنّ هذه الكلمه لا تجعل زوجته بحكم والدته، إنّه قول هراء و حديث خرافه.

و يضيف تعالى مكملًا الآية: وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَ زُورًا (١).

و بالرغم من أنّ قائل هذا الكلام لا- يريد بذلك الإخبار، بل إنّ مقصوده إنشائي، يريد أن يجعل هذه الجملة بمنزله (صيغه الطلاق) إلّا أنّ محتوى ذلك واه، و يشبه بالضبط خرافه (جعل الولد) حين كانوا فى زمن الجاهليه يتبنون طفلًا معيّنًا كولد لهم، و يجرون أحكام الولد عليه، حيث أدان القرآن الكريم هذه الظاهره و اعتبرها عملاً باطلا و لا أساس له، حيث يقول عزّ و جلّ: ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ (٢)، و ليس له أى واقعيه.

و تماشيا مع مفهوم هذه الآية فإنّ «الظهار» عمل محرّم و منكر، و مع أنّ التكاليف الإلهيه لا تشمل الممارسات السابقه، إلّا أنّها ملزمه لحظه نزول الحكم، و لا بدّ عندئذ من ترتيب الأثر، حيث يضيف الله سبحانه هذه الآية:

ص: ١٠٤

-
- ١- ١) -«زور» فى الأصل بمعنى الانحناء الموجود على الصدر و جاءت أيضا بمعنى الانحراف، و لأنّ حدود الكذب و الباطل منحرفه عن الحق، فيقال له (زور) كما يطلق على الصنم أيضا بهذا اللحاظ.
- ٢- ٢) -الأحزاب، الآية ٤.

و بناء على هذا فإذا كان المسلم قد ارتكب مثل هذا العمل قبل نزول الآية فلا بأس عليه لأن الله سيعفو عنه.

و يعتقد بعض الفقهاء و المفسرين أن «الظهار» ذنب مغفور الآن، كما في الذنوب الصغيره حيث وعد الله بالعفو عنها (١) - في صورته ترك الكبائر - إلا أنه لا دليل على هذا الرأي، و الجملة أعلاه لا تقوى أن تكون حجة في ذلك.

و على كل حال فإن مسألة الكفار باقية بقوتها.

و في الحقيقة أن هذا التعبير شبه لما جاء في الآية (٥) من سورة الأحزاب، حيث يقول سبحانه: وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً .

و ذلك بعد نهيه عن مسألة التبني.

و يثار تساؤل عن الفرق الموجود بين (العفو) و (الغفور).

قال البعض: (العفو) إشاره إلى الله تعالى (الغفور) إشاره إلى تغطيه الذنوب إذ أن من الممكن أن يعفو شخص عن ذنب ما، و لكن لا يستره أبداً، غير أن الله تعالى يعفو و يستر في نفس الوقت.

و قيل أن «الغفران» هو الستر من العذاب، حيث أن مفهومها مختلف عن العفو بالرغم من أن النتيجة واحده.

إلا أن مثل هذا العمل القبيح (الظهار) لم يكن شيئاً يستطيع الإسلام أن يغض النظر عنه، لذلك فقد جعل له كفاره ثقيله نسبياً كي يمنع من تكراره، و ذلك بقوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا .

ص: ١٠٥

وقد ذكر المفسِّرون احتمالات عديدة في تفسير جملة: ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا حيث ذكر المقداد في كنز العرفان سته تفاسير لها، إلا أن الظاهر - خصوصا بالنظر إلى جملة: مِنْ قَلِيلٍ أَنْ يَتَمَاسَّ - أَنَّ هَؤُلَاءِ قد ندموا لقولهم و أرادوا الرجوع إلى حياتهم العائلية، وقد ذكر هذا المعنى في روايات أهل البيت عليهم السلام أيضا (١).

و ذكرت تفاسير أخرى لهذا المقطع من الآية، إلا أنها لا تتناسب بصورة تامّة مع معنى الآية و نهايتها. منها أن المراد من «العود» هو تكرار الظهار، أو أن المقصود من العود هو العوده إلى السنّه الجاهليه في مثل هذه الأمور، أو أن العود بمعنى تدارك و تلافي هذا العمل و ما إلى ذلك (٢).

«رقبه» جاءت هنا كناية عن الإنسان، و هذا بلحاظ أن الرقبه أكثر أعضاء الجسم حساسيه، كما تأتي كلمه «رأس» بهذا المعنى، لذا فإنّه يقال بدلا من خمسة أشخاص -مثلا- خمسة رؤوس.

ثُمَّ يَضِيفُ تَعَالَى: ذَلِكُمْ تُوَعِّظُونَ بِهِ .

أى يجب ألا تتصوّروا أن مثل هذه الكفّاره في مقابل الظهار، كفّاره ثقيله و غير متناسبه مع الفعل. إنّ المقصود بذلك هو الموعظه و الإيقاظ لنفوسكم، و الكفّاره عامل مهمّ في وضع حدّ لمثل هذه الأعمال القبيحه و المحرّمه، و من ثمّ السيطرة على أنفسكم و أقوالكم.

و أساسا فإنّ جميع الكفّارات لها جنبه روحيه و تربويه، و الكفّارات الماليه يكون تأثيرها غالبا أكثر من التعزيرات البدنيه.

و لأنّ البعض يحاول أن يتهرّب من إعطاء الكفّاره بأعذار واهيه في موضوع الظهار، يضيف عزّ و جلّ أنّه يعلم بذلك حيث يقول في نهايه الآية:

ص: ١٠٦

١- ١) -مجمع البيان نهايه الآية مورد البحث.

٢- ٢) -يراجع كنز العرفان، ج ٢، ص ٢٩٠، و مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٤٧.

إنَّه عالم بالظاهر، وكذلك عالم بالذين يتَهَرَّبون من الكفَّاره، وكذلك بِنِيَّاتِكُمْ! ولكن كفَّاره تحرير (رقبه) قد لا تَنَسِيْر لجميع من يرتكب هذا الذنب كما لا - حفظنا ذلك - في موضوع سبب نزول هذه الآية المباركه، حيث أنَّ «أوس بن الصامت» -الذى نزلت الآيات الاولى بسببه- قال لرسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم: إِنِّي غير قادر على دفع مثل هذه الكفَّاره الثقيله، وإذا فعلت ذلك فقدت جميع ما أملك. وقد يتعذَّر وجود المملوك. ليقوم المكلف بتحرير رقبته حتَّى مع قدرته المالىه، كما فى عصرنا الحاضر، لهذا كله ولأنَّ الإسلام دين عالمى خالد فقد عالج هذه المسأله بحكم آخر يعوِّض عن تحرير الرقبه، حيث يقول عزَّ وجلَّ: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا .

و هذا اللون من الكفَّاره فى الحقيقه له أثر عميق على الإنسان، حيث أنَّ الصوم بالإضافه إلى أنَّه وسيله لتنقيه الروح و تهذيب النفس، فإنَّ له تأثيرا عميقا و فاعلا فى منع تكرَّر مثل هذه الأعمال فى المستقبل.

و من الواضح -كما فى ظاهر الآية- أنَّ مدَّه الصوم يجب أن تكون سَتَيْن يوما متتابعاً، و كثير من فقهاء أهل السنَّه أفتوا طبقا لظاهر الآية، إلاَّ أنَّه قد ورد فى روايات أئمَّه أهل البيت عليهم السَّلام أنَّ المكلف إذا صام أيَّام قلائل حتَّى و لو يوما واحدا بعد صوم الشهر الأوَّل، فإنَّ مصداق التتابع فى الشهرين يتحقَّق، و هذا الرأى حاكم على ظاهر الآية (١).

و هذا يوضَّح لنا أنَّ المقصود من التتابع فى الآية أعلاه و الآية (٩٢) من سوره النساء فى موضوع كفَّاره القتل غير المتعمِّد. أنَّ المقصود هو التتابع بصوره إجماليه.

ص: ١٠٧

و طبيعي أن مثل هذا التفسير لا يسمع إلا من إمام معصوم، حيث أنه وارث لعلوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم و هذا النوع من الصيام يكون سهيلاً للمكلفين.

(تراجع الكتب الفقهية في الصوم و أبواب الظهار و كفارة القتل، للحصول على شرح أو في حول هذا الموضوع) (١).

و ضمناً فإن المقصود من جملة: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ لا يعنى عدم وجود أصل المال لديه، بل المقصود منه ألا يوجد لديه فائض على احتياجاته و ضروريات حياته كي يشتري عبداً و يحزره.

و لأن الكثير من الناس غير قادرين على الوفاء بالكفارة الثانية، و هي صوم الشهرين المتتابعين، فقد ذكر لذلك بديل آخر حيث يقول سبحانه: فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا .

و الظاهر من الإطعام أن يعطى غذاء يشبع الشخص في وجبه طعام، إلا- أن الروايات الإسلامية ذكرت أن المقصود بذلك هو (مد) لإطعام كل واحد (و المد يعادل ٧٥٠ غم) رغم أن بعض الفقهاء قد حددها بمدين أى ما يعادل (٥٠٠، ١) غم (٢).

ثم يشير تعالى في تكمله الآية مره أخرى إلى الهدف الأساس لمثل هذه الكفارات: ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ .

نعم إن إزالة الذنوب بوسيلة الكفارات تقوى أسس الإيمان، و تربط الإنسان

ص: ١٠٨

١- ١) -إذا كان المقصود هو توالى الشهرين و ليس توالى جميع أيامها، فإن هذا النوع من التوالى يحصل بمجرد البدء في الشهر الثاني (يرجى ملاحظه ذلك).

٢- ٢) -المشهور بين الفقهاء- كما قلنا سابقا- هو (مد واحد) و دليله روايات كثيره لعلها بلغت حد التواتر، فقد ورد بعضها في كفارة القتل الخطأ، و بعض في كفارة القسم، و بعض في كفارة شهر رمضان، بضميمه أن الفقهاء لم يوجدوا أى فرق بين أنواع الكفارات، إلا أنه نقل عن المرحوم الطوسى في الخلاف و المبسوط و النهايه و التبيان أن مقدار الكفارة (مدان)، و في هذا المجال يستدل الشيخ رحمه الله بروايه أبى بصير التى وردت في كفارة الظهار حيث عيّن حدّها (مدّين). إلا أن هذه الروايه إمّا أن تكون مخصوصه في كفارة الظهار، أو أنّها تحمل على الاستحباب.

بالتعاليم الإلهية قولا و عملا.

و في نهايه الآيه يؤكّد سبحانه بصوره قاطعه على الالتزام بأوامره حيث يقول:

و تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ

و يجدر الانتباه إلى أنّ مصطلح (الكفر) له معانى مختلفه، منها «الكفر العملى» الذى يعنى المعصيه و اقتراف الذنوب، و قد أريد فى الآيه الكريمه هذا المعنى، و كما جاء فى الآيه (٩٧) من سوره آل عمران بالنسبه للمتخلفين عن أداء فريضه الحج، حيث يقول سبحانه: وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

«حدّ» بمعنى الشئ الذى يفصل بين شيئين، و من هنا يقال لحدود البلدان (حدود) و بهذا اللحاظ يقال للقوانين الإلهيه إنّها حدود، و ذلك لحرمه تجاوزها، و لدينا شرح أوفى فى هذا المجال فى نهايه الآيه (١٨٧) من سوره البقره.

ملاحظات

اشاره

١- قسم من أحكام الظهار

أشير للظهار بآيتين فى القرآن الكريم (الآيه مورد البحث، و الآيه رقم (٤) من سوره الأحزاب) و هو من الأعمال و العادات القبيحه فى عصر الجاهليه، حيث يمارس هذا الفعل فى حاله سأم و ضجر الرجل من زوجته، و كى يوقعها فى حرج و يركعها لإرادته يقول لها (أنت علىّ كظهر أمي) (١) و كانوا يعتقدون بعد إطلاق هذه الصيغه أنّ الزوجه تحرم على زوجها إلى الأبد، و لا تستطيع أن تختار زوجا آخر

ص: ١٠٩

١ - ١) - «ظهر» فى العبارة أعلاه ليس بمعناها المتعارف عليه كما قال بعض المفسرين، بل إنّها كناية عن طبيعه العلاقه الزوجيه الجاهليه، و بناء على هذا فإنّ معنى الجملة يصبح هكذا (الزوجيه معك كالزوجيه مع أمي) (يراجع لسان العرب مادّه ظهر و التفسير الكبير للفخر الرازى).

لها.

و قد أدان الإسلام هذا التصرف و شرّع له حكم الكفّاره.

و بناء على هذا فكلّما جعل الرجل على زوجته ظهارا فإنّ الزوجه تستطيع أن تراجع الحاكم الشرعى و تلزمه، إمّا أن يطلقها بصورة شرعيه، أو يرجعها إلى حالتها الزوجيه السابقه، بعد دفعه للكفّاره بالصوره التى مرّت بنا سابقا، و هى إمّا تحرير رقبه فى حاله القدره، أو صوم شهرين متتابعين فى حاله الاستطاعه، و إلّا فإطعام ستّين مسكينا، و هذا يعنى أنّ خصال الكفّاره ليست مخيّره، بل مرتّبّه.

٢-الظهار من كبائر الذنوب

لحن الآيات أعلاه شاهد معبّر عن هذا المضمون، و البعض يعتبرونه من الصغائر و مورد عفو، إلّا أنّها نظره خاطئه.

٣-إذا كان الشخص غير قادر على أداء الكفّاره بمختلف صورها، فهل يستطيع أن يرجع إلى حياته الزوجيه السابقه بالتوبه و الاستغفار فقط؟ هنالك وجهات نظر مختلفه بين الفقهاء حول هذه المسأله، فقسم منهم - بالاستناد على الحديث المنقول عن الإمام الصادق عليه السّلام (١) - يعتقد أنّ التوبه و الاستغفار تكفى فى الكفّارات - عند عدم القدره - إلّا فى كفّاره الظهار حيث لا تكفى التوبه و تجب الكفّاره.

فى حين يرى البعض الآخر أنّ الاستغفار و التوبه تعوضان عن الكفّاره، و دليلهم هو الروايه الأخرى التى نقلت عن الإمام الصادق عليه السّلام فى هذا المجال (٢).

و يعتقد آخرون بوجوب صوم ثمانية عشر يوما فى هذه الصوره (٣).

ص: ١١٠

١-١) - وسائل الشيعه، ج ١٥، ص ٥٤٤، (حديث ١ باب ٦).

٢-٢) - وسائل الشيعه، ج ١٥، ص ٥٥٥، حديث ٤.

٣-٣) - كنز العرفان، ج ٢، ص ٢٩٢.

و الجمع بين الروايات لا يستبعد أيضا، ففي صورته عدم قدرته بكل شكل من الأشكال السابقة، فإنه يستطيع أن يرجع إلى حياته الزوجية مستغفرا لله، بالرغم من أن المستحب في مثل هذه الحالة أن يطلق زوجته (لأن مثل هذا الجمع جمع معروف و توجد له مظان كثيرة في الفقه، و ذلك بالنظر إلى صحه سند الحديثين).

٤- يرى الكثير من الفقهاء أن الشخص إذا كرّر الظهار عدّه مرّات (يعنى الجملة السابقة بقصد جدّى) يجب أن يدفع عدّه كفّارات، بالرغم من أن التكرار حدث في جلسته واحده. إلا أن يكون مقصوده من التكرار هو التأكيد، وليس الظهار الجديد.

٥- إذا قارب زوجته قبل الكفّاره وجبت عليه كفّارتان، كفّاره للظهار و كفّاره للمواقعه الجنسيه، و هذا الحكم مورد اتفاق بين الفقهاء، و الآيات أعلاه لم تذكر هذه المسأله، إلا أن روايات أهل البيت عليهم السّلام أشارت إليها (١).

٦- التعامل القاطع الجدّى مع مسأله الظهار، تؤكّد على حقيقه أن الإسلام لا يسمح أبدا أن تهضم حقوق المرأة عن طريق تسلّط الرجال و استبدادهم، و ذلك باستثمار الأعراف و التقاليد الظالمه، حيث أن السنّه الخاطئه و الخرافيه في هذا المجال كلّما كانت مستحكمه كان تأثيرها المدمّر أقوى.

٧- بالنسبه لموضوع (تحرير الرقبه) و التى هى أوّل كفّاره للظهار، فبالإضافه إلى كونها إجراء مناسبا للقضاء على ظاهره المرأة في قبضه الاستبداد، فإنّما تمثّل رغبه الإسلام في القضاء على العبوديه بكلّ طريق، و ذلك ليس فقط في كفّاره الظهار بل في كفّاره القتل الخطأ، و كفّاره عدم صيام شهر رمضان- الإفطار المتعمّد - و كذلك في كفّاره مخالفه القسم، أو عدم الوفاء بالندر.

ص: ١١١

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَخِصَّةُ اللَّهِ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثِهِ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَهُ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧)

التفسير

اشاره

أولئك أعداء الله:

إذا كانت آخر جملة في الآيات السابقة تحت الجميع بضروره الالتزام بالحدود الإلهية و عدم تجاوزها، فإن الآيات مورد البحث لا تتحدث عن

الأشخاص الذين تجاوزوا حدود الله فحسب، بل عن الذين حاربوا الله ورسوله، و توضّح عاقبتهم و مصيرهم في هذه الدنيا و العالم الآخر كذلك.

يقول سبحانه في البدايه: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُتِبُوا [□] كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .

«يحادون» من مادّه (محاده) بمعنى الحرب المسلّحه و الاستفاده من الحديد و قال أيضا للحرب غير المسلّحه.

و قال البعض: إنّ (المحاده) في الأصل بمعنى الممانعه من مادّه (حدّ) و التي تجيء بمعنى المانع بين شيئين، و لذلك يقال للحارس (حداد)، و المعنيان من حيث النتيجة متقاربان بالرغم من أنّهما مأخوذان من أصلين مختلفين.

«كتبوا» من مادّه (كبت) على وزن (ثبت) بمعنى المنع بذلّه، و (كتبوا) إشاره إلى أنّ الله تعالى يجعل جزاء المحاربين لله و رسوله الذلّه و الهوان و يمنعهم من لطفه الشامل (١) .

و هذا التعبير شبيه ما ورد في الآيه (١١٤) من سوره البقره التي تتحدّث عن الأشخاص الذين يمنعون الناس من المساجد و عباد الله سبحانه، و يحاربون مبدأ الحقّ حيث يقول سبحانه: لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

أو كما ورد في الآيه (٣٣) من سوره المائده في الحديث عن مصير الأشخاص الذين يحاربون الله و رسوله و يفسدون في الأرض حيث يقول: ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

ثمّ يضيف الباري سبحانه: وَ قَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .

و بناء على هذا فقد تمّت الحجّه بشكل كامل، و لم يبق عذر، و حجّه للمخالفه، و مع ذلك فإن خالفوا، فلا بدّ من أن يجازوا، ليس في هذه الدنيا فحسب، بل في

ص: ١١٣

١- ١) -فسّر بعض المفسّرين (كتبوا) بمعنى اللعنه، و لأنّ اللعنه من قبل الله تعالى القادر على كلّ شيء دليل على تحقيقها، فالنتيجه هي الذلّه و الهوان لهذه المجموعه في الدنيا، إلّا أنّ ظاهر تعبير الآيه أنّها جملة خبريّة و ليست إنشائيّه.

القيامة: وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ .

و بهذه الصورة فقد أشير إلى عذابهم الدنيوى فى الجملة السابقة، و فى هذه الجملة إلى العذاب الاخرى، و الشاهد على هذا المعنى فى الآية الكريمه التاليه:

كَلَّمَ كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

كما أَنَّ الآية اللاحقه تؤكد هذا المعنى أيضا.

و على كلِّ حال فإنَّ هذا التهديد الإلهى للأشخاص الذين يقفون بوجه الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و القرآن الكريم قد تحقّق، حيث واجهوا الذلّ و الانكسار فى غزوه بدر و خيبر و الخندق و غير ذلك، و أخيرا فى فتح مكّه حيث كسرت شوكتهم و أحبط كيدهم بانتصار الإسلام فى كلِّ مكان.

و الآية اللاحقه تتحدّث عن استعراض زمان وقوع العذاب الاخرى عليهم حيث يقول عزّ و جلّ: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا (١) نعم أخصّاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ .

و لذا فعند ما تقدّم لهم صحيفه أعمالهم يصرخون: مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا (٢) .

و هذا بحدّ ذاته عذاب مؤلم، لأنّ الله تعالى يذكرهم بذنوبهم المنسيّه و يفضّحهم فى مشهد الحشر أمام الخلائق.

و فى نهايه الآية يقول البارئ سبحانه: وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

و هذه فى الحقيقه بمشابه الدليل على ما ورد فى الجملة السابقه، فإنّ حضور الله سبحانه فى كلِّ مكان و فى كلِّ زمان و فى الداخل و الخارج، يوجب ألاّ يحصى أعمالنا-فقط-بل تياتنا و عقائدنا، و فى ذلك اليوم الكبير الذى هو «يوم البروز» يعرف كلُّ شىء. و لكى يعلم الإنسان السبب فى صعوبة الجزاء الإلهى.

ص: ١١٤

١-١) -يوم ظرف و متعلّق بالكافرين أو بالمهمين، و الاحتمال الأوّل أنسب، و اختاره كثير من المفسّرين. و احتمال البعض أنّ المتعلّق مقدّر بمعنى (اذكر) مستبعد.

٢-٢) -الكهف، الآية ٤٩.

ولتأكيد حضور الله سبحانه في كل مكان و علمه بكل شىء ينتقل الحديث إلى مسأله «النجوى» حيث يقول سبحانه: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ .

بالرغم من أَنَّ المخاطب في هذه الآيه هو الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم إِلَّا أَنَّ المقصود هو عموم الناس (١) ، و مقدمه لبيان مسأله النجوى.

ثُمَّ يَضِيفُ تَعَالَى: مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثِهِ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ، وَ لَا خَمْسَهُ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لَا أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢) .

نلاحظ هنا عدّه نقاط تستحقّ الانتباه:

١- «النجوى» و «النجاه» في الأصل بمعنى المكان المرتفع الذى انفصل عن أطرافه و جوانبه بسبب ارتفاعه، ولأنّ الإنسان إذا أراد التكتّم على حديثه يعتزل في مكان بعيد عن الآخرين، أو بلحاظ أنّ المتحدث بالنجوى يريد أن ينجى أسرارَه من الكشف و يبعدها عن تناول أسماع الآخرين.

٢- يرى البعض أنّ «النجوى» يجب أن تكون بين ثلاثه أشخاص أو أكثر، و إذا كانت بين شخصين فيقال لها (سرار) على وزن (ستار) إِلَّا أَنَّ هذا خلاف ظاهر الآيه، لأنّ الجملة: وَ لَا أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ تشير إلى أقلّ من ثلاثه أشخاص - أى شخصين - و من الطبيعي أنّه إذا تناجى شخصان فلا بدّ من أن يكون شخص ثالث قريب منهما، و إلا فلا ضروره للنجوى. إِلَّا أَنَّ ذلك لا يرتبط بما ذكرنا.

٣- و النقطة الجديره بالملاحظه هنا هي أنّ الآيه أعلاه تحدّثت في البدايه عن نجوى ثلاثه، و من ثمّ عن نجوى خمسه، و لم يرد الكلام عن نجوى أربعه أشخاص و التى هي بين المرتبتين (ثلاثه و خمسه)، و بالرغم من أنّ كلّ ذلك جاء من باب

ص: ١١٥

١- ١) - «ألم تر»: من مادّه (رؤيه) في الأصل بمعنى المشاهده الحسيّه، إِلَّا أنّها في كثير من الموارد جاءت بمعنى الشهود القلبي و العلم و المعرفه.

٢- ٢) - «نجوى» بالرغم من أنّها مصدر إِلَّا أنّها جاءت هنا اسم فاعل، أى من قبيل (زيد عادل).

المثال، إلا- أن بعض المفسرين ذكروا له وجوها مختلفة، وأنسبها أن المقصود بذلك رعايه الفصاحه في الكلام و عدم التكرار، لأنه إذا قال تعالى (كلّ ثلاثة أشخاص يتناجون فإنّ الله رابعهم، و كلّ أربعة أشخاص يتناجون فإنّ الله خامسهم) فإنّ العدد (أربعة) يتكرّر هنا، وهذا بعيد عن البلاغه. و قال البعض: إنّ هذه الآيات نزلت حول مجموعه من المنافقين الذين كان عددهم نفس العدد المذكور.

٤- المقصود من أنّ «الله» رابعهم أو سادسهم هو أنّ الله عزّ و جلّ موجود حاضر و ناظر في كلّ مكان و عالم بكلّ شيء، و إلاّ فإنّ ذاته المقدّسه لا مكان لها، و لا يوصف بالعدد أبداً، و وحدانيّته أيضاً ليست وحده عدديّه، بل بمعنى أنّه لا شبيه له، و لا نظير و لا مثيل.

٥- و جدير بالذكر أنّ الحديث في ذيل الآيه يتجاوز النجوى، حيث تؤكد الآيه أنّ الله مع الإنسان في كلّ مكان، و سوف يطلع الإنسان على أعماله يوم القيامة.. و تنتهي الآيه بالإحاطه العلميه لله سبحانه، كما ابتدأت بالإحاطه العلميه بالنسبه لكلّ شيء.

٦- نقل بعض المفسرين أنّ سبب نزول الآيه، ما ورد عن ابن عباس أنّه قال:

إنّ الآيه نزلت حول ثلاثه أشخاص، هم (ربيعه و حبيب و صفوان) كانوا يتحدّثون مع بعضهم، و قال أحدهم للآخر: هل يعلم الله ما نقول؟ قال الثاني: قسم يعلمه و قسم لا- يعلمه. و قال الثالث: إذا كان يعلم قسماً منه فإنّه يعلم جميعه، فنزلت الآيه و أعلنت أنّ الله تعالى حاضر في كلّ نجوى و في كلّ مكان في الأرض و في السماء، كي يتّضح خطأ الغافلين عمى القلوب (١).

ص: ١١٦

حضور الله سبحانه في كلّ نجوى:

تقدّم آنفا أنّ الله تعالى ليس جسما و ليست له عوارض جسمانية، و من هنا فلا يمكن أن تتصوّر له زمانا أو مكانا، و لكن توهم أن يوجد مكان لا يكون لله عزّ و جلّ فيه حاضرا و ناظرا يستلزم القول بتحديد سببانه.

و بتعبير آخر فإنّ لله سبحانه إحاطة علميه بكلّ شيء في الوقت الذي لا يكون له مكان، مضافا إلى أنّ ملائكته حاضرون في كلّ مكان، و يسمعون كلّ الأقوال و الأعمال و يسجلونها.

لذا نقرأ

في حديث لأمر المؤمنين عليه السّلام في تفسير هذه الآية أنّه قال: «إنّما أراد بذلك استيلاء أمناؤه بالقدره التي ركبها فيهم على جميع خلقه، و إن فعلهم فعله» (١).

و طبيعي أنّ هذا هو بعد من أبعاد الموضوع، و أمّا البعد الآخر فيطرح فيه حضور ذات الله عزّ و جلّ، كما نقرأ

في حديث آخر هو أنّ أحد كبار علماء النصارى سأل عن أمير المؤمنين عليه السّلام: أين الله؟ قال عليه السّلام: هو هاهنا و هاهنا و فوق و تحت، و محيط بنا و معنا، و هو قوله: «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ» (٢).

و

في الحديث المعروف (الإهليلج) نقرأ عن الإمام الصادق عليه السّلام: إنّ الله تعالى سمّى «السميع» بسبب أنّه لا يتناجى ثلاثة أشخاص إلّا هو رابعهم... ثمّ أضاف:

يسمع ديب النمل على الصفا و خفقان الطير في الهواء، لا- يخفى عليه خافيه، و لا شيء ممّا تدركه الأسماع و الأبصار، و ما لا تدركه الأسماع و الأبصار، ما جلّ من ذلك و ما دقّ و ما صغر و ما كبر (٣).

ص: ١١٧

١- (١) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٥٨، حديث ٢٠.

٢- (٢) -تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٥٩، الحديث ٢٣.

٣- (٣) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٥٨، حديث ٢١.

اشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِاللَّائِمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جِئُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِاللَّائِمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)

سبب النزول

نقلت روایتان حول سبب نزول الآیه الاولى أعلاه، و کل واحدہ منهما تخصّص

قسما من الآية الكريمة.

تقول الرواية الاولى: إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَالْمُنافِقِينَ حَيْثُ كَانُوا يَتَنَاجَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَيْهِمْ بِأَعْيُنِهِمْ غَمْرًا، فَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ نَجْوَاهُمْ ظَنُّوا أَنَّ سُوءَ حَصْلِ لِإِخْوَانِهِمْ فِي السَّرَايَا فَحَزَنُوا لِذَلِكَ، وَبَثُّوا حُزْنَهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَهُمُ الرَّسُولُ أَلَّا يَتَنَاجَوْا دُونَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمْ يَنْتَهَوْا عَنْ ذَلِكَ وَعَادُوا إِلَى مَنَاجَاتِهِمْ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ أَعْلَاهُ وَهَدَّدَتْهُمْ بِشِدَّةٍ (١).

أما الرواية الثانية

فقد نقل في صحيح مسلم و البخارى و كثير من كتب التفسير أَنَّ قَسَمًا مِنَ الْيَهُودِ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَبَدَلَا مِنْ قَوْلِهِمْ لَهُ: السَّيِّئَاتُ عَلَيْكُمْ، قَالُوا: أَسَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ (وَالَّتِي تَعْنِي الْمَوْتَ عَلَيْكَ أَوْ الْمَلَالَةَ وَالتَّعَبَ) فَكَانَ رَدُّ الرَّسُولِ عَلَيْهِمْ (وَعَلَيْكُمْ) تَقُولُ عَائِشَةُ: إِنِّي فَهِمْتُ مَرَادَهُمْ وَقُلْتُ: (عَلَيْكُمْ السَّامُ وَ لَعْنُكُمْ اللَّهُ وَ غَضَبُ عَلَيْكُمْ).

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا عائشة عليك بالرفق و إياك العنف و الفحش، فقلت:

أَلَا تَسْمَعُهُمْ يُولُونَ السَّامَ؟ فَقَالَ: وَ أَمَا سَمِعْتَ مَا أَقُولُ عَلَيْكُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: إِذَا جَاؤُكَ حَيُّوكَ... (٢).

التفسير

إشارة

النجوى من الشيطان:

البحث في هذه الآيات هو استمرار لأبحاث النجوى السابقة، يقول سبحانه:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ يُتَنَاجَوْنَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ الْمُحْضَرِّينَ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ

و يستفاد من هذه الآية بصورة جليّة أَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَ الْيَهُودَ قَدْ نُهُوا مِنْ قَبْلِ

ص: ١١٩

(١ - ١) - مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٤٩.

(٢ - ٢) - تفسير المراغى، ج ٢٨، ص ١٣.

و منعوا من النجوى التى تولد سوء الظن عند الآخرين و تسبب لهم القلق، إلا- أنهم لم يعيروا أى اهتمام لمثل هذا التحذير، و الأدهى من ذلك أن نجواهم كانت تدور حول ارتكاب الذنوب و مخالفه أوامر الله و رسوله.

و الفرق بين «الإثم» و «العصيان» و «معصية الرسول»، هو أن «الإثم» يشمل الذنوب التى لها جانب فردى كشرب الخمر، أما «العدوان» فإنها تعنى التجاوز على حقوق الآخرين، و أما «معصية الرسول» فإنها ترتبط بالأمور و التعليمات التى تصدر من شخص الرسول صلى الله عليه و آله و سلم باعتباره رئيسا للدولة الإسلامية، و يتصدى لمصالح المجتمع الإسلامى. و بناء على هذا فإنهم يطرحون فى نجواهم كل عمل مخالف، و هو أعظم من الأعمال التى تكون مرتبطه بهم أو بالآخرين أو الحكومه الإسلاميه و شخص الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

و التعبير ب(يعودون) و (يتناجون) جاء هنا بصيغه مضارع، حيث يوضح لنا أن هذا العمل يتكرر باستمرار، و قصدهم به إزعاج المؤمنين.

و على كل حال، فالآيه جاءت بعنوان إخبار غيبى يكشف مخالفاتهم و يظهر خطهم المنحرف.

و استمرارا لهذا الحديث فإن القرآن الكريم يشير إلى مورد آخر من أعمال التجاوز و المخالفه للمنافقين و اليهود، حيث يقول تعالى: وَإِذَا جَاؤُكَ حَيُّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ .

«حيوك» من مادّه (تحية) مأخوذه فى الأصل من الحياه بمعنى الدعاء بالسلام و الحياه الاخرى، و المقصود بالتحية الإلهيه فى هذه الآيه هو: (السلام عليكم) أو (سلام الله عليك) و التى وردت نماذج منها فى الآيات القرآنيه عن الأنبياء و أصحاب الجنّه، و من جملة قولها تعالى: سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١).

ص: ١٢٠

و أما التحية التى لم يحى بها الله، و لم يكن قد سمح بها هى جملة: (أسام عليك).

و يحتمل أيضا أن تكون التحية المقصوده بالآيه الكريمه هى تحية الجاهليه حيث كانوا يقولون: (أنعم صباحا) و (أنعم مساء) و ذلك بدون أن يتوجهوا بكلامهم إلى الله سبحانه و يطلبون منه السلامه و الخير للطرف الآخر.

هذا الأمر مع أنه كان سائدا فى الجاهليه، إلا أن تحريمه غير ثابت، و تفسير الآيه أعلاه له بعيد.

ثم يضيف تعالى أن هؤلاء لم يرتكبوا مثل هذه الذنوب العظيمه فقط بل كانوا مغرورين متعاليين و كأنهم سكارى فيقول عز و جل: وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ و بهذه الصوره فإنهم قد أثبتوا عدم إيمانهم بنبوه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و كذلك عدم إيمانهم بالإحاطه العلميه لله سبحانه.

و بجملة قصيره يرد عليهم القرآن الكريم: حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

و الطبيعى أن هذا الكلام لا ينفى عذابهم الدنيوى، بل يؤكد القرآن على أنه لو لم يكن لهؤلاء سوى عذاب جهنم، فإنه سيكفيهم و سيرون جزاء كل أعمالهم دفعه واحده فى نار جهنم.

و لأن النجوى قد تكون بين المؤمنين أحيانا و ذلك للضروره أو لبعض الميول، لذا فإن الآيه اللاحقه تخاطب المؤمنين ستكون مناجاتهم فى مأمن من التلوث بذنوب اليهود و المنافقين حيث يقول البارئ عز و جل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ، وَ تَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَ التَّقْوَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

يستفاد من هذا التعبير-بصوره واضحه- أن النجوى إذا كانت بين المؤمنين فيجب أن تكون بعيده عن السوء و ما يثير قلق الآخرين، و لا بد أن يكون مسارها

التواصى بالخير و الحسنى، و بهذه الصورة فلا مانع منها.

و لكن كلما كانت النجوى بين أشخاص كاليهود و المنافقين الذين يهدفون إلى إيذاء المؤمنين، فنفس هذا العمل حرام و قبيح، فكيف الحال إذا كانت نجواهم شيطانيه و تأمریه، و لذلك فإن القرآن يحذر منها أشد تحذير فى آخر آیه مورد للبحث، حيث يقول تعالى: إِنَّمَّا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزِنَ الَّذِينَ آمَنُوا و لكن يجب أن يعلموا أن الشيطان لا يستطيع إلحاق الضرر بأحد إلا أن يأذن الله بذلك و لَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ .

ذلك لأن كل مؤثر فى عالم الوجود يكون تأثيره بأمر الله حتى إحراق النار و قطع السيف.

و عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

إذ أنهم-بالروح التوكليه على الله، و بالاعتماد عليه سبحانه-يستطيعون أن ينتصروا على جميع هذه المشاكل، و يفسدوا خطط أتباع الشيطان، و يفسلوا مؤامراته.

بحثان

اشاره

١-أنواع النجوى

لهذا العمل من الوجهه الفقهيّ الاسلاميه أحكام مختلفه حسب اختلاف الظروف، و يصنّف إلى خمس حالات تبعا لطبيعته الأحكام الإسلاميه فى ذلك.

فتاره يكون هذا العمل «حراما» و فيما لو أدى إلى أذى الآخرين أو هتك حرمتهم-كما أشير له فى الآيات أعلاه-كالنجوى الشيطانيه حيث هدفها إيذاء المؤمنين.

و قد تكون النجوى أحيانا(واجبه)و ذلك فى الموضوعات الواجبه السريه، حيث أن إفشاءها مضرّ و يسبب الخطر و الأذى، و فى مثل هذه الحاله فإنّ عدم

العمل بالنجوى يستدعى إضاعه الحقوق و إلحاق خطر بالإسلام و المسلمين.

و تتصف النجوى فى صورته اخرى بالاستحباب، و ذلك فى الأوقات التى يتصدى فيها الإنسان لأعمال الخير و البرّ و الإحسان، و لا يرغب بالإعلان عنها و إشاعتها و هكذا حكم الكراهه و الإباحه.

و أساساً، فإنّ كلّ حاله لا يوجد فيها هدف مهمّ فالنجوى عمل غير محمود، و مخالف لآداب المجالس، و يعتبر نوعاً من اللامبالاه و عدم الاكتراث بالآخرين.

قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: «إذا كنتم ثلاثه فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإنّ ذلك يحزنه» (١).

كما نقرأ

فى حديث عن أبى سعيد الخدرى أنّه قال: كنّا نتناوب رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم يطرقه أمر أو يأمر بشيء فكثير أهل الثوب المحتسبون ليله حتّى إذا كنّا نتحدّث فخرج رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم من الليل فقال: ما هذه النجوى ألم تنهوا عن النجوى» (٢).

و يستفاد من روايات أخرى أنّ الشيطان-لإيذاء المؤمنين-يستخدم كلّ وسيله ليس فى موضوع النجوى فقط، بل أحياناً فى عالم النوم حيث يصوّر لهم مشاهد مؤلمه توجب الحزن و الغم، و لا-بدّ للإنسان المؤمن فى مثل هذه الحالات أن يلتجئ إلى الله و يتوكّل عليه، و يبعد عن نفسه هذه الوسوس الشيطانيه (٣).

٢- كيف تكون التحية الإلهية؟

من المتعارف عليه اجتماعياً فى حاله الدخول إلى المجالس تبادل العبارات

ص: ١٢٣

١ - (١) - تفسير مجمع البيان نهايه الآيه مورد البحث، و الدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٨٤ و اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٨٣ (باب المناجاة) حديث ١، ٢.

٢ - (٢) - الدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٨٤.

٣ - (٣) - للاطلاع الأكثر على هذه الروايات يراجع تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٦١-٢٦٢، حديث ٣١، ٣٢.

التي تعبّر عن الودّ و الاحترام بين الحاضرين - كلّ منهم للآخر - و يسمّى هذا بالتحية، إلا أنّ الاستفادة من الآيات أعلاه أن يكون للتحية محتوى إلهي، كما في بقيّة القواعد الخاصّة بآداب المعاشرة.

ففي التحية بالإضافة إلى الاحترام و الإيـكـرام لا بدّ أن تـقـرن بذكر الله في حاله اللقاء، كما في (السّلام) الذي تطلب فيه من الله السلامه للطرف الآخر.

و قد ورد في تفسير علي بن إبراهيم -في نهايه الآيات مورد البحث- أنّ مجموعه من أصحاب الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم عند ما كانوا يقدمون عليه يحيونه بقولهم (أنعم صباحا) و (أنعم مساء) و هذه تحيه أهل الجاهليه فأنزل الله: وَإِذَا جَاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ

فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: «قد أبدلنا الله بخير تحية أهل الجنّة السّلام عليكم» (١).

كما أنّ من خصوصيات السّلام في الإسلام أن يكون مقترنا بذكر الله تعالى، هذا من جهة، و من جهة اخرى ففي السّلام سلامه كلّ شيء أعمّ من الدين و الإيمان و الجسم و الروح... و ليس منحصر بالراحه و الرفاه و الهدوء (٢).

(و حول حكم التحية و السّلام و آدابها كان لدينا بحث مفصّل في نهايه الآيه (٨٦) في سورة النساء).

ص: ١٢٤

١- ١) - نور الثقلين، ج ٥، حديث ٣٠.

٢- ٢) - في كتاب «بلوغ الإرب في معرفه أحوال العرب» جاء بحث مفصّل حول تحية العرب في الجاهليه و تفسير عبارته (أنعم صباحا) و (أنعم مساء)، ج ٢، ص ١٩٢.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)

سبب النزول

نقل العلامة الطبرسي في مجمع البيان، والآلوسی فی روح المعانی، و جمع آخر من المفسرين، أنَّ هذه الآية نزلت يوم الجمعة و كان رسول الله يومئذ في (الصفه) و كان يكرم أهل بدر من المهاجرين و الأنصار، فجاء ناس من أهل بدر.

قد سبقوا إلى المجالس، فقاموا حيال رسول الله فقالوا: السلام عليك أيها النبي و رحمه الله و بركاته. فردّ النبي عليهم، ثمّ سلّموا على القوم بعد ذلك فردّوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينظرون أن يوسّع لهم، فعرف النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم ما يحملهم على القيام، فشقّ ذلك على النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم، فقال لمن حوله من المهاجرين و الأنصار من غير أهل بدر! قم يا فلان، قم يا فلان، فلم يزل يقيمهم بعدّه نفر الذين هم قيام بين

يديه من المهاجرين و الأنصار-أهل بدر-فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، و عرف النبي صلى الله عليه و آله و سلم الكراهه فى وجوههم، فقال المنافقون: أ لستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس؟ و الله ما رأيناه قد عدل على هؤلاء! إن قوما أخذوا مجالسهم و أحبوا القرب من نبيهم، فأقامهم و أجلس من أبطأ عنه.. فبلغنا

أن رسول الله قال: «رحم الله رجلا يفسح لأخيه» فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا، فيفسح القوم لإخوانهم و نزلت هذه الآية (١).

التفسير

اشاره

احترام أهل السابقه و الإيمان:

تعقيا على الموضوع الذى جاء فى الروايات السابقه حول ترك (النجوى) فى المجالس، يتحدث القرآن عن أدب آخر من آداب المجالس حيث يقول سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا (٢) يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ .

«تفسّحوا» من مادّه (فسح) على وزن قفل بمعنى المكان الواسع، و بناء على هذا، فإنّ التفسّح بمعنى التوسّع، و هذه واحده من آداب المجالس، فحين يدخل شخص إلى المجلس فإنّ المرجو من الحاضرين أن يجلسوا بصوره يفسحوا بها مجالا له، كى لا يبقى فى حيره و خجل، و هذا الأدب أحد عوامل تقويه أواصر المحبّه و الودّ على عكس النجوى التى أشير إليها فى الآيات السابقه، و التى هى أحد عوامل التفرقه و الشحناء، و إثارة الحساسيات و العداوه.

ص: ١٢٦

١ - ١) - تفسير روح المعانى، ج ٢٨، ص ٢٥. و مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٥٢، و نقل مفسّرون آخرون نفس النصّ باختلاف قليل كالفخر الرازى و القرطبى و السيوطى فى الدر المنثور و فى ظلال القرآن أيضا فى نهايه الآيه مورد البحث.

٢ - ٢) - إنّ اختلاف التعبيرين -تفسّحوا و افسحوا- عن الآخر و هو أنّ أحدهما من تفعل، و الآخر من الثلاثى المجرد، و يمكن أن يكون الفرق أنّ الأول له صفه التكلف، و الآخر خال من هذه الصفه، يعنى كما لو قال قائل: افسحوا للشخص الذى يقدم تّوا، فإنّ الجالسين بدون أن يشعروا بالتكلف يتفسّحون، (يرجى ملاحظه ذلك).

و الشيء الملاحظ أنّ القرآن الكريم، الذى هو بمثابة دستور لجميع المسلمين لم يهمل حتى هذه المسائل الجزئية الأخلاقية فى الحياه الاجتماعيه للمسلمين، بل أشار إليها بما يناسبها ضمن التعليمات الأساسيه، حتى لا يظنّ المسلمون أنّه يكفيهم الالتزام بالمبادئ الكليه.

□
جمله يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ فَسَّرَهَا بعض المفسِّرين بتوسّع المجالس فى الجنّه، و هو ثواب يعطيه الله تعالى للأشخاص الذين يراعون هذه الآداب فى عالم الدنيا، و يلتزمون بها، و بلحاظ كون الآيه مطلقه و ليس فيها قيد أو شرط فإنّ لها مفهوما واسعا، و تشمل كلّ سعه إلهيه، سواء كانت فى الجنّه أو فى الدنيا أو فى الروح و الفكر أو فى العمر و الحياه، أو فى المال و الرزق، و لا عجب من فضل الله تعالى أن يجازى على هذا العمل الصغير بمثل هذا الأجر الكبير، لأنّ الأجر بقدر كرمه و لطفه لا بقدر أعمالنا.

و بما أنّ المجالس تكون مزدحمه أحيانا بحيث أنّه يتعدّد الدخول إلى المجلس فى حاله عدم التفسّح أو القيام، و إذا وجد مكان فإنّه غير متناسب مع مقام القادمين و استمرارا لهذا البحث يقول تعالى: [□]وَ إِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا (١) أى إذا قيل لكم قوموا فقوموا.

و لا ينبغي أن تضجروا أو تسأموا من الوقوف، لأنّ القادمين أحيانا يكونون أحوج إلى الجلوس من الجالسين فى المجلس، و ذلك لشده التعب أو الكهوله أو للاحترام الخاصّ لهم، و أسباب اخرى.

و هنا يجب أن يؤثّر الحاضرون على أنفسهم و يتقيّدوا بهذا الأدب الإسلامى، كما مرّ بنا فى سبب نزول الآيه، حيث كان رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قد أمر المجموعه التى

ص: ١٢٧

١ - ١) - «انشزوا» من مادّه (نشز) على وزن (نصر) مأخوذه من معنى الأرض العاليه، لذلك استعمل بمعنى القيام، و «المرأه الناشزه» تطلق على كلّ من تعتبر نفسها أعلى من أن تطيع أمر زوجها، و استعمل هذا المصطلح أحيانا بمعنى الإحياء، لأنّ هذا الأمر سبب للقيام من القبور.

كانت جالسه بالقرب منه بالتفّسّح للقادمين الجدد لأنّهم كانوا من مجاهدى بدر، و أفضل من الآخرين من ناحيه العلم و الفضيله.

كما فسّر بعض المفسّرين (انشزوا) بمعناها المطلق و بمفهوم أوسع، حيث تشمل أيضا القيام للجهد و الصلاه و أعمال الخير الاخرى، إلّا أنّه من خلال التمعن و التدقيق فى الجملة السابقه لها و التى فيها قيد «فى المجالس»، فالظاهر أنّ هذه الآيه مقنّده بهذا القيد، فيمتنع إطلاقها بسبب وجود القرينه.

ثمّ يتطرّق سبحانه إلى الجزاء و الأجر الذى يكون من نصيب المؤمنين إذا التزموا بالأمر الإلهى، حيث يقول عزّ و جلّ: يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (١). □

و ذلك إشاره إلى أنّ الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم إذا أمر البعض بالقيام و إعطاء أماكنهم للقادمين، فإنّه لهدف إلهى مقدّس، و احتراماً للسابقين فى العلم و الإيمان.

و التعبير ب(درجات) بصوره نكره و بصيغه الجمع، إشاره إلى الدرجات العظيمه و العاليه التى يعطيها الله لمثل هؤلاء الأشخاص، الذين يتميّزون بالعمل و الإيمان معاً، أو فى الحقيقة أنّ الأشخاص الذين يتفسيّحون للقادمين لهم درجه، و أولئك الذين يؤثرون و يعطون أماكنهم و يتّصفون بالعلم و التقوى لهم درجات أعلى.

و بما أنّ البعض يؤدّى هذه التعليمات و يلتزم بهذه الآداب عن طيب نفس و رغبه، و الآخرون يؤدّونها عن كراهيه أو للرياء. و التظاهر.. فيضيف تعالى فى نهايه الآيه: وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

ص: ١٢٨

١- ١) - «يرفع» فى الآيه أعلاه مجزومه بسبب صيغه الأمر التى جاءت قبلها، و التى فى الحقيقة تعطى مفهوم الشرط، و يرفع بمنزله جزاء هذا الشرط.

١- مقام العلماء

بالرغم من أنّ الآيه نزلت في مورد خاص، إلا أنّ لها مفهوماً عاماً، وبملاحظه أنّ ما يرفع مقام الإنسان عند الله شيئان: الإيمان، و العلم. وبالرغم من أنّ «الشهيد» في الإسلام يتمتع بمقام سام جداً، إلا أنّنا نقرأ حديثاً للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يبيّن لنا فيه مقام أهل العلم حيث

قال: «فضل العالم على الشهيد درجه، وفضل العالم على سائر الناس، كفضلي، على أدناهم» (١).

و

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام نقرأ الحديث التالي: «من جاءته متيته و هو يطلب العلم فيبنيه و بين الأنبياء درجه» (٢).

و معلوم أنّ الليالي المقمره لها بهاء و نضرة، خصوصاً ليله الرابع عشر من الشهر، حيث يكتمل البدر و يزداد ضوءه بحيث يؤثّر على ضوء النجوم.. هذا المعنى الظريف

ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليله البدر على سائر الكواكب» (٣).

و الظريف هنا أنّ العابد ينجز عبادته التي هي الهدف من خلق الإنسان، و لكن بما أنّ روح العبادته هي المعرفة، لذا فإنّ العالم مفضّل عليه بدرجات.

و ما جاء حول أفضليه العالم على العابد في الروايات أعلاه يقصد منه بيان الفرق الكبير بين هذين الصنفين، لذا ورد في حديث آخر حول الاختلاف بينهما بدلا من درجه واحده مائه درجه، و المسافه بين درجه و اخرى بمقدار عدو الخيل في سبعين سنه (٤).

ص: ١٢٩

١-١) -مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٥٣.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -جوامع الجامع، مطابق لنقل نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٦٤، و القرطبي، ج ٩، ص ٦٤٧٠.

٤-٤) -المصدر السابق.

و واضح أيضا أنّ مقام الشفاعة لا يكون لأى شخص فى يوم القيامة، بل هى مقام المقرّبين فى الحضرة الإلهية، و لكن نقرأ

فى حديث للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم:

«يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء» (١).

و فى الحقيقة أنّ الموقّقيه فى طريق التكامل و جلب رضا الله و القرب منه مرهون بعاملين أساسيين هما: الإيمان و العلم، أو الوعى و التقوى و كلّ منهما ملازم للآخر، و لا تتحقّق الهدايه بأحدهما دون الآخر.

٢- آداب المجلس فى القرآن الكريم

أشار القرآن الكريم مرّات عديده إلى الآداب الإسلاميه فى المجالس ضمن المسائل الأساسيه، و منها آداب التحيّيه، و الدخول إلى المجلس، و آداب الدعوه إلى الطعام. و آداب التكلّم مع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و آداب التفسّح للأشخاص القادمين، خصوصا ذوى الفضيله و السابقين فى العلم و الإيمان (٢).

و هذا يرينا بوضوح أنّ القرآن الكريم يرى لكلّ موضوع فى محلّه أهمّيّه و قيمه خاصّه، و لا- يسمح لتساهل الأفراد و عدم اهتمامهم أن تؤدّى إلى الإخلال بالآداب الإنسانيه للمعاشره.

و قد نقلت فى كتب الحديث مئات الروايات عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و الأئمّه الأطهار عليهم السلام حول آداب المعاشره مع الآخرين. جمعها المحدث الكبير الشيخ الحرّ العاملى فى كتابه وسائل الشيعة، ج ٨، حيث ربّتها فى ١٦٦ بابا.

و ملاحظه الجزئيات الموجوده فى هذه الروايات ترشدنا إلى مبلغ اهتمام الإسلام بالآداب الاجتماعيه. حيث تتناول هذه الروايات حتّى طريقه الجلوس،

ص: ١٣٠

(١- ١) -روح المعانى، ج ٢٨، ص ٢٦، و القرطبي، ج ٩، ص ٦٤٧٠.

(٢ - ٢) -جاءت هذه التعليمات من خلال التسلسل فى الآيات التالیه: آداب التحيّيه و السّلام. النساء ٨٦، آداب الدعوه إلى الطعام. الأحزاب ٥٣، آداب التكلّم مع الرسول. الحجرات ٢، و آداب التفسّح. فى الآيات مورد البحث.

و طريقه التكلّم و الابتسامه و المزاح و الإطعام، و طريقه كتابه الرسائل، بل حتّى طريقه النظر إلى الآخرين، و قد حدّدت التعليمات المناسبه لكلّ منها، و الحديث المفصّل عن هذه الروايات يخرجنا عن البحث التفسيري، إلّا أنّنا نكتفى بحديث واحد

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام حيث يقول: «ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس، و الاستغناء عنهم، فيكون افتقارك إليهم في لين كلامك و حسن سيرتك، و يكون استغناؤك عنهم في نزاهه عرضك و بقاء عزّك» (1).

ص: ١٣١

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَهُ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
(١٢) أَسْأَلُكُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)

سبب النزول

نقل العلامة الطبرسى فى مجمع البيان و كذلك جمع آخر من المفسرين أنَّ هذه الآية أنزلت فى الأغنياء، و ذلك أنَّهم كانوا يأتون النبى صلى الله عليه و آله و سلم فيكثرّون مناجاته - و هذا العمل بالإضافه إلى أنَّه يشغل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و يأخذ من وقته فإنّه كان يسبّب عدم ارتياح المستضعفين منه، و حيث يشعروهم بامتياز الأغنياء عليهم - فأمر سبحانه ب(الصدقه) عند المناجاه، فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته، فنزلت آيه الرخصه التى لامت الأغنياء و نسخت حكم الآية الاولى و سمح للجميع بالمناجاه،

ص: ١٣٢

حيث أنّ النجوى هنا حول عمل الخير و طاعه المعبود (١).

و صرّح بعض المفسّرين أيضا أنّ هدف البعض من «النجوى» هو الاستعلاء على الآخرين بهذا الأسلوب. وبالرغم من أنّ الرّسول الأكرم صلّى الله عليه وآله و سلم كان غير مرتاح لهذا الأسلوب، إلّا أنّه لم يمنع منه، حتّى نهاهم القرآن من ذلك (٢).

التفسير

إشارة

الصدقة قبل النجوى (اختبار رائع):

فى قسم من الآيات السابقه كان البحث حول موضوع النجوى، و فى الآيات مورد البحث استمرارا و تكمله لهذا المطلب.

يقول سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَيَّسْتُمْ الرُّسُولَ فَكُذِّبُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَهُ وَ كَمَا ذَكَرْنَا فِى سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ وَ خَاصَّةَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْهُمْ كَانُوا يَزَاحِمُونَ الرُّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِاسْتِمْرَارٍ وَ يَتَنَاجُونَ مَعَهُ... وَ لَمَّا كَانَ هَذَا الْعَمَلُ يَسَبِّبُ إِزْعَاجًا لِلرُّسُولِ بِالإِضَافَةِ إِلَى كَوْنِهِ هَدْرًا لَوْقَتِهِ الثَّمِينِ، وَ فِيهِ مَا يَشْعُرُ بِالْخُصُوصِيَّةِ لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَنَاجَوْنَهُ بِدُونِ مَبَرَّرٍ لِذَا نَزَلَ الْحُكْمُ أَعْلَاهُ، وَ كَانَ امْتِحَانًا لَهُمْ، وَ مَسَاعِدَةً لِلْفُقَرَاءِ، وَ وَسِيلَةً مُؤَثِّرَةً لِلْحَدِّ مِنْ مَضَايِقِهِ هَؤُلَاءِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

ثمّ يضيف بقوله تعالى: ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَ أَطْهَرُ.

أمّا كون الصدقة «خير» فإنّها كانت للأغنياء موضع أجر و للفقراء مورد مساعدته، و أمّا كونها (أطهر) فإنّها تغسل قلوب الأغنياء من حبّ المال، و قلوب الفقراء من الغلّ و الحقد، لأنّه عند ما تكون النجوى مقرونة بالصدقة تكون دائرتها أضيق ممّا كانت عليه فى الحاله المجانيه، و بالتالى فإنّها نوع من التصحيح

ص: ١٣٣

١- (١) -مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٥٢، و كثير من التفاسير الأخرى نهايه الآيات مورد البحث.

٢- (٢) -روح المعاني، ج ٢٨، ص ٢٧.

و لكن لو كان التصدق قبل النجوى واجبا على الجميع، فإنّ الفقراء عندئذ سيحرمون من طرح المسائل المهمّة كاحتياجاتهم و مشاكلهم أمام الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم فلذا جاء فى ذيل الآية إسقاط هذا الحكم عن المجموعه المستضعفه ممّا مكنهم من مناجاه الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و التحدّث معه فإنّ لم تجدوا فإنّ الله غفورٌ رحيمٌ .

و بهذه الصورة فإنّ دفع الصدقه قبل النجوى كان واجبا على الأغنياء دون غيرهم.

و الطريف هنا أنّ للحكم أعلاه تأثيرا عجيبا و امتحانا رائعا أفرزه على صعيد الواقع من قبل المسلمين فى ذلك الوقت، حيث امتنع الجميع من إعطاء الصدقه إلاّ شخص واحد، ذلك هو الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام، و هنا اتّضح ما كان يجب أن يتّضح، و أخذ المسلمون درسا فى ذلك، لذا نزلت الآية اللاحقه و نسخت الحكم حيث يقول سبحانه: أَسْأَلُكُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ .

حيث اتّضح أنّ حبّ المال كان فى قلوبكم أحبّ من نجواكم للرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و اتّضح أيضا أنّ هذه النجوى لم تكن تطرح فيها مسائل أساسيه، و إلاّ فما المانع من أن تقدّم هذه المجموعه صدقه قبل النجوى، خاصّه أنّ الآية لم تحدّد مقدار الصدقه فبإمكانهم دفع مبلغ زهيد من المال لحلّ هذه المشكله!! ثمّ يضيف تعالى: فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

و يعكس لنا التعبير ب(التوبه) أنّهم فى نجواهم السابقه كانوا قد ارتكبوا ذنوبا، سواء فى النّظاير و الرياء، أو أذى الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أو أذى المؤمنين الفقراء.

و بالرغم من عدم التصريح بجواز النجوى فى هذه الآية بعد هذا الحادث، إلاّ أنّ تعبير الآية يوضّح لنا أنّ الحكم السابق قد رفع.

أمّا الدعوه لإقامه الصلاه و إيتاء الزكاه و إطاعه الله و رسوله فقد أكّد عليها

بسبب أهميتها، وكذلك هي إشاره إلى أنه إذا تناجيتم فيما بعد فيجب أن تكون في خدمه الأهداف الإسلامية الكبرى و في طريق طاعه الله و رسوله.

بحوث

إشارة

١-الملتزم الوحيد بآيه الصدقه قبل النجوى

إنَّ الشخص الوحيد الذى نفَّذ آيه الصدقه فى النجوى- كما فى أغلب كتب مفسِّرى الشيعة و أهل السنّه-و عمل بهذه الآيه هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، كما

ينقل ذلك الطبرسى فى روايه عنه عليه السَّلام أنَّه قال: «آيه من كتاب الله لم يعمل بها أحد قبل و لم يعمل بها أحد بعدى، كان لى دينار فصرفته بعشره دراهم، فكنْتُ إذا جئت إلى النِّبى تصدَّقت بدرهم» (١).

كما نقل هذا المضمون «الشوكانى» عن «عبد الرزاق» و «ابن المنذر» و «ابن أبى حاتم» و «ابن مردويه» (٢).

و نقل «الفخر الرازى» هذا الحديث أيضا عن بعض المحدثين عن ابن عباس و العامل الوحيد بمضمون الآيه هو الإمام على عليه السلام (٣).

و جاءت فى الدرّ المنثور- أيضا- روايات متعدده بهذا الصدد، فى نهايه تفسير الآيات أعلاه (٤).

و فى تفسير روح البيان نقل عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أنَّه قال: «كان لعلی ثلاثه! لو كانت فى واحد منهنَّ لكانت أحبَّ إلى من حمر النعم: تزويجه

ص: ١٣٥

١-١) -تفسير الطبرى، ج ٢٨، ص ١٥.

٢-٢) - (البيان فى تفسير القرآن)، ج ١، ص ٣٧٥، و نقل سيد قطب أيضا هذه الروايه فى ظلال القرآن، ج ٨، ص ٢١.

٣-٣) -تفسير الفخر الرازى، ج ٢٩، ص ٢٧١.

٤-٤) -تفسير الدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٨٥.

فاطمه، و إعطاؤه الرايه يوم خيبر و آيه النجوى» (١).

إنَّ ثبوت هذه الفضيله العظيمة للإمام على عليه السَّلام قد جاء فى أغلب كتب التفسير، و هى مشهوره بحيث لا حاجه لشرحها أكثر.

٢- فلسفه تشريع و نسخ حكم الصدقه

لما ذا كانت الصدقه قبل النجوى مع الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ تشريعيه؟ ثمَّ لما ذا نسخت بعد فتره و جيزه؟ يمكن الإجابة على هذا التساؤل-بصوره جيده-من خلال القرائن الموجوده فى الآيه محلّ البحث و من سبب النزول كذلك.

الهدف هو اختبار الأفراد المدّعين الذين يتظاهرون بحبّ رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ بهذه الوسيله، فاتّضح أنّ إظهار الحبّ هذا إنّما يكون إذا كانت النجوى مجانيه، و لكن عند ما أصبحت النجوى مقترنه بدفع مقدار من المال تركوا نجواهم.

و مضافا إلى ذلك فإنّ هذا الحكم قد ترك تأثيره على المسلمين، و وُضِّح حقيقه عدم إشغال وقت الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ و كذلك القاده الإسلاميين الكبار فى النجوى، إلّا لضرورات العمل الأساسيه، لأنّ ذلك تضييعا للوقت و جلبا لسخط الناس و عدم رضاهم. فكان هذا التشريع فى الحقيقه تقنيا للنجوى المستقبليه.

و بناء على هذا فالحكم المذكور كان فى البدايه مؤقتا، و بعد ما تحقّق المطلوب نسخ، لأنّ استمراره سيثير مشكله، لأنّ هناك بعض المسائل الضروريه التى تستدعى أن يُطْلَع عليها النبى على انفراد. و مع بقاء حكم الصدقه فقد تهمل بعض المسائل الضروريه، و بصوره عامّه فى موارد النسخ يكون للحكم منذ

ص: ١٣٦

١- ١) -تفسير روح البيان، ج ٦، ص ٤٠٦، كما نقل هذا الحديث الطبرسى فى مجمع البيان، و الزمخشري فى الكشاف، و القرطبي فى تفسير الجامع و ذلك فى نهايه الآيات مورد البحث.

البدايه جانب محدود و مؤقت بالرغم من أنّ الناس أحيانا لا يعلمون بذلك و يتصوّرونه بصورة دائمه.

٣- هل الالتزام بالصدقه فضيله؟

مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الإمام على عليه السَّلام لم يكن من طائفه الأغنياء من أصحاب الرُّسول صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ حيث البساطه فى حياته و زهده فى عيشه، و مع هذا الحال و احتراماً للحكم الإلهي، تصدَّق فى تلك الفتره القصيره -و لمَرَّاتٍ عديده، و ناجى الرُّسول صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ، و هذه المسأله واضحه و مسلّمه بين المفسّرين و أصحاب الحديث كما أسلفنا.

إِلَّا- أَنَّ البعض -مع قبول هذا الموضوع- يصرّون على عدم اعتبار ذلك فضيله و حجتهم فى ذلك أَنَّ كبار الصحابه عند ما أحجموا عن هذا العمل فذلك لأنّهم لم تكن لهم حاجه عند رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ، أو لم يكن لديهم وقت كاف، أو أنّهم كانوا يفكّرون بعدم إحراج الفقراء.. و بناء على هذا فإنّها لا تحسب فضيله للإمام على، أو أنّها لا تسلب فضيله من الآخرين (١).

و يبدو أنّهم لم يدقّقوا فى متن الآيه التاليه حيث يقول سبحانه موبّخاً:

أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ

حتّى أنّه سبحانه يعبّر فى نهايه الآيه بالتوبه، و التى ظاهرها دالّ على هذا المعنى، و يتّضح من هذا التعبير أَنَّ الإقدام على الصدقه و النجوى مع الرُّسول صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ كانت عملاً حسناً، و إلّا فلا ملامه و لا توبه.

و بدون شكّ فإنّ قسماً من أصحاب الرُّسول المعروفين قبل هذا الحادث كانت لهم نجوى مع الرُّسول (لأنّ الأفراد العاديين و البعيدين قلّما احتاجوا إلى

ص: ١٣٧

إلا أنّ هؤلاء الصحابه المعروفين بعد حكم الصدقه، امتنعوا من النجوى، و الشخص الوحيد الذى احترم و نفّذ هذا الحكم هو الإمام على عليه السّلام.

و إذا قبلنا ظاهر الآيات و الروايات التى نقلت فى هذا المجال و فى الكتب الإسلاميه المختلفه و لم نقم أهمّيه للاحتتمالات الضعيفه الواهيه فلا بدّ أن نضمّ صوتنا إلى صوت عبد الله بن عمر بن الخطاب الذى جعل هذه الفضيله بمنزله تزويج فاطمه، و إعطاء الرايه يوم فتح خيبر، و أغلى من حمر النعم.

٤- مدّه الحكم و مقدار الصدقه:

و حول مدّه الحكم بوجوب الصدقه قبل النجوى مع الرسول توجد أقوال مختلفه، فقد ذكر البعض أنّها ساعه واحده، و قال آخرون: إنّها ليله واحده، و ذكر البعض أنّها عشره أيام، إلا أنّ الأقوى هو القول الثالث، لأنّ الساعه و الليله لا تكفى أبدا لمثل هذا الامتحان، لأنّ بالإمكان الاعتذار فى هذه المدّه القصيره عن عدم وجود حاجه للنجوى، إلا أنّ مدّه عشره أيام تستطيع أن توضّح الحقائق و تهىء أرضيه للوم المتخلفين.

أمّا مقدار الصدقه فإنّها لم تذكر فى الآيه و لا فى الروايات الإسلاميه، و لكن المستفاد من عمل الإمام على عليه السّلام هو كفايه الدرهم الواحد فى ذلك.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)

حزب الشيطان:

هذه الآيات تفضح قسما من تآمر المنافقين و تعرض صفاتهم للمسلمين، و ذكرها بعد آيات النجوى يوضح لنا أن قسما ممن ناجوا الرسول كانوا من المنافقين، حيث كانوا بهذا العمل يظهرين قربهم للرسول صلى الله عليه وآله و سلم و يتسترون على مؤامراتهم، و هذا ما سبب أن يتعامل القرآن مع هذه الحالة بصورة عامه.

يقول تعالى في البدايه: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .

هؤلاء القوم الذين «غضب الله عليهم» كانوا من اليهود ظاهرا كما عرفتهم الآية (٦٠) من سورة المائدة بهذا العنوان حيث يقول تعالى: قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ (١).

ثم يضيف تعالى: مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ فهم ليسوا أعوانكم في المصاعب و المشاكل، و لا أصدقاءكم و ممن يكونون لكم الود و الإخلاص، إنهم منافقون يغيرون وجوههم كل يوم و يظهرين كل لحظة لكم بصورة جديدة.

و طبعي أن هذا التعبير لا يتنافى مع قوله تعالى: وَ مَنِ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ (٢)، لأن المقصود هناك أنهم بحكم أعدائكم، بالرغم من أنهم في الحقيقة ليسوا منهم.

و يضيف- أيضا- استمرارا لهذا الحديث أن هؤلاء و من أجل إثبات وفاءهم لكم فإنهم يقسمون بالأيمن المغلظه: وَ يَخْلُقُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ .

و هذه طريقه المنافقين، فيقومون بتغطيه أعمالهم المنفرة و وجوههم القبيحه بواسطه الأيمان الكاذبه و الحلف الباطل، في الوقت الذي تكون أعمالهم خير كاشف لحقيقتهم.

ص: ١٤٠

١- (١) - المائدة، الآية ٦٠.

٢- (٢) - المائدة، الآية ٥١.

ثم يشير تعالى إلى العذاب المؤلم لهؤلاء المنافقين المصّرّين على الباطل و المعاندين للحقّ، حيث يقول تعالى: **أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا و بدون شك فإنّ هذا العذاب عادل و ذلك: إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .**

ثمّ للتوضيح الأكثر حول بيان سمات و صفات المنافقين يقول سبحانه:

إِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

(١)

يحلفون أنّهم مسلمون و ليس لهم هدف سوى الإصلاح، في حين أنّهم منهمكون بفسادهم و تخريبهم و مؤامراتهم.. و في الحقيقة فإنّهم يستفيدون من الاسم المقدّس لله للصدّ و المنع عن سبيل الله تعالى...

نعم، إنّ الحلف الكاذب هو أحد علائم المنافقين، حيث ذكره سبحانه أيضا في سورة المنافقين الآية (٢) في معرض بيان أوصافهم.

و يضيف تعالى في النهاية: **فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** أى مذلّ.

إنّهم أرادوا بحلفهم الكاذب تحسين سمعتهم و تجميل صورتهم، إلّا- أنّ الله سيبتليهم بعذاب أليم مذلّ، و قبل ذلك عبّر عنه سبحانه بأنّه «عذاب شديد»، كما في الآية (١٥) من هذه السورة، لأنّهم يحزنون قلوب المؤمنين بشدّه.

و الظاهر أنّ كلا العذابين مرتبط بالآخرة، لأنّهما ذكرا بوصفين مختلفين:

(مهين و شديد) فليس تكرارا، لأنّ وصف العذاب بهذين الوصفين في القرآن الكريم يأتي عادة لعذاب الآخرة، بالرغم من أنّ بعض المفسّرين احتملوا أنّ العذاب الأوّل مختصّ بالدنيا أو عذاب القبر، و أنّ الثاني مختصّ بعذاب الآخرة.

و لأنّ المنافقين يعتمدون في الغالب على أموالهم و أولادهم و هما (القوّة الاقتصاديّة و القوّة البشريّة) في تحقيق مآربهم و حلّ مشاكلهم، فإنّ القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى بقوله تعالى: **لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**

ص: ١٤١

(١ - ١) - «جنه» في الأصل من ماده (جن) على وزن (فن) بمعنى تغطيه الشىء، و لأن الدرع يغطى الإنسان من ضربات العدو فيقال له (جنه و مجن و مجنه).

و هذه الأموال ستصبح لعنه عليهم و طوقا فى أعناقهم و سببا لعذابهم المؤلم، كما يوضح الله سبحانه و تعالى ذلك فى قوله: سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٢).

و كذلك بالنسبة لأولادهم الضالّين فإنّهم سيكونون سببا لعذابهم، و أمّا الصالحون و المؤمنون فيستبرءون منهم.

نعم، فى يوم القيامة لا- ملجأ إلا- الله، و حينئذ يتجلّى خواء الأسباب الاخرى، كما يتبيّن ذلك فى قوله تعالى: وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (٣) و فى ذيل الآية يهدّدهم و يقول: أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

و بهذه الصورة فقد و صف القرآن الكريم عذابهم أحيانا بأنّه «شديد»، و أحيانا بأنّه مذلّ و «مهين»، و ثالثه بأنّه «خالد»، و كلّ واحد من هذه الصفات متناسبه مع طبيعه أعمالهم.

و العجيب أنّ المنافقين لا- يتخلّون عن نفاقهم حتّى فى يوم القيامة أيضا، كما يوضح الله سبحانه ذلك فى قوله: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخَلِّفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ (٤).

إنّ يوم القيامة يوم تتجلّى فيه الأعمال، و حقيقه الإنسان التى كان عليها فى الدنيا، و لأنّ المنافقين أخذوا هذه الحالة النفسية معهم إلى القبر و البرزخ، فإنّها ستتضح يوم القيامة أيضا، و مع علمهم بأنّ الله سبحانه لا يخفى عليه شىء و أنّه

ص: ١٤٢

١ - ١) - اعتبر بعض المفسّرين أنّ كلمه «عذاب» هنا مقدره و قالوا: إنّ المقصود هو (من عذاب الله)، (القرطبي و روح البيان و الكشف)، و يوجد هنا احتمال آخر، و هو أنّ الآية ليس لها تقدير و المراد من كلمه (الله) هو أنّهم لا يجدون ملجأ آخر غيره.

٢ - ٢) - آل عمران، الآية ١٨٠.

٣ - ٣) - البقره، الآية ١٦٦.

٤ - ٤) - «يوم» ظرف و متعلّق ب (اذكر) المحذوفه، أو متعلّق بما قبله يعنى «لهم عذاب مهين»، أو «أولئك أصحاب النار»، إلا- أنّ الاحتمال الأوّل أنسب.

علام الغيوب، إلا أنهم-انسجما مع سلوكهم المعهود-فإنهم يحلفون أمام الله حلفا كاذبا.

و طبعى أن هذا لا يتنافى مع اعترافهم و إقرارهم بذنوبهم فى بعض محاضر محكمه العدل الإلهى، لأن فى يوم القيامة محطّات و مواقف مختلفه و فى كلّ واحد منها برنامج.

ثمّ يضيف عزّ و جلّ أنهم بهذا اليمين الكاذب يظنون أنه بإمكانهم كسب منفعه أو دفع ضرر: وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ .

إنّ هذا التصور الواهى ليس أكثر من خيال، إلا أنّ تطبّعهم على هذه الأساليب فى الدنيا و تخلصهم ممّا يحدق بهم من أخطار بواسطه الأيمان الكاذبه و نيّل بعض المنافع الدنيويه لأنفسهم، و بذلك فإنّهم يحملون هذه الملكات السيئه معهم إلى هناك، حيث تفصح عن حقيقتها.

و أخيرا تنتهى الآيه بهذه الجملة: أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ .

و يمكن أن يكون التصريح مرتبطا بالدنيا، أو القيامة، أو كليهما، و بهذه الصورة سيفتضح.

و فى آخر آيه مورد البحث يبيّن البارى عزّ و جلّ المصير النهائى للمنافقين العمى القلوب بقوله تعالى: إِسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ فَأَنَّهُمْ ذِكْرُ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

«استحذو» من مادّه (حوذ) على وزن (موز) فى الأصل بمعنى الجزء الخلفى لفخذ البعير، و لأنّ أصحاب الإبل عند ما يسوقون جمالهم يضرّبونها على أفخاذها، فقد جاء هذا المصطلح بمعنى التسلّط أو السوق بسرعه.

نعم، إنّ المنافقين المغرورين بأموالهم و مقامهم، ليس لهم مصير سوى أن يكونوا تحت سيطره الشيطان و إختياره و وساوسه بصوره تامّه، و ينسون الله بصوره كليّه، إنّهم ليسوا منحرفين فحسب، بل إنّهم فى زمره الشيطان و هم أنصاره

و حزبه و جيشه في إضلال الآخرين.

يقول الإمام علي عليه السلام في بدايه وقوع الفتن و الخلافات «أيها الناس، إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، و أحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، يتولّى فيها رجال رجالات، فلو أنّ الباطل خالص لم يخف على ذي حجب، و لو أنّ الحقّ خالص لم يكن اختلاف، و لكن يؤخذ من هذا ضعف، و من هذا ضعف فيمزجان فيجيئان معاً، فهناك استحوذ الشيطان على أوليائه، و نجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى» (١).

كما يلاحظ نفس هذا التعبير

في كلام الإمام الحسين عليه السلام عند ما شاهد صفوف أهل الكوفة بكربلاء كالليل المظلم و السيل العارم أمامه، حيث قال: «فنعلم ربّ ربنا و بنس العباد، أنتم أقررتم بالطاعة و آمنتم بالرّسول محمّد ثمّ أنكم رجعتُم إلى ذريته و عترته تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم ثمّ أضاف عليه السلام: فتبا الموت لكم و لما تريدون، إنّنا لله و إنّنا إليه راجعون» (٢).

و سنتطرّق إلى بحث تفصيلي حول حزب الشيطان و حزب الله، في نهاية الآيات اللاحقه إن شاء الله.

ص: ١٤٤

١-١) -أصول الكافي مطابق لنقل نور الثقلين، ج ٥ ص ٢٦٧.

٢-٢) -تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٦٦.

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَّا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)

التفسير

اشاره

حزب الله..و النصر الدائم!!

كان الحديث عن المنافقين و أعداء الله و بيان بعض صفاتهم و خصائصهم في الآيات السابقة، و استمرارا لنفس البحث-في هذه الآيات التي هي آخر آيات

سوره المجادلہ-تطرح خصوصیات اخرى لهم،و يتضح المصير الحتمى لهم حيث الموت و الاندحار،يقول تعالى فى البدايه: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُؤْتِيكَ فِي الْأَذَلِّينَ أَى أَذَلَّ الْخَلَائِقِ (١).

و الآيه اللاحقه فى الحقيقه دليل على هذا المعنى حيث يقول سبحانه: كَتَبَ اللَّهُ لِلَّهِ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ.

و بنفس القدر الذى يكون فيه الله قويا عزيزا فَإِنَّ أَعْدَاءَهُ يَكُونُونَ ضَعْفَاءَ أَذْلَاءَ،و هذا بنفسه بمثابة الدليل على ما ورد فى الآيه السابقه من وصف الأعداء بأنهم فى الْأَذَلِّينَ .

و التعبير ب(كتب)يعنى التأكيد على أَنَّ الْإِنْتِصَارَ قَطْعِيٌّ.

و جملة «لَأَغْلِبَنَّ»مع (لام التأكيد)و(نون التوكيد الثقليه)،هى دلالة تأكيد هذا النصر بصوره لا يكون معه أى مجال للشك و الريبه.

و هذا التشبيه هو نفس الذى ورد فى قوله تعالى: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ، وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (٢).

و لقد اتضح على مَرَّ العصور هذا الانتصار للمرسلين الإلهيين فى أوجه مختلفه،سواء فى أنواع العذاب الذى أصاب أعداءهم و صورته المختلفه كطوفان نوح و صاعقه عاد و ثمود و الزلازل المدمره لقوم لوط و ما إلى ذلك،و كذلك فى الانتصارات فى الحروب المختلفه كغزوات بدر و حنين و فتح مكه،و سائر غزوات رسول الإسلام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

و أهم من ذلك كله انتصارهم الفكرى و المنطقى على أفكار الشيطان و أعداء الحق و العداله،و من هنا يتضح الجواب على تساؤل من يقول:إذا كانت هذه

ص: ١٤٦

١- ١) -«يُحَادُّونَ»من مادّه(محاذّه)بمعنى الحرب المسلّح و غير المسلّح،أو بمعنى الممانعه(و قد أعطينا توضيحا آخر فى هذا المجال فى نهايه الآيه(٥)من نفس السوره).

٢- ٢) -الصفات،الآيه ١٧٣،١٧١.

الوعد قطعيه فلما ذا استشهد الكثير من الرسل الإلهيين و الأئمه المعصومين و المؤمنين الحقيقيين دون تحقيق النصر؟ هؤلاء المنتقدين و المتسائين لم يشخصوا في الحقيقه معنى الانتصار بصوره صحيحه، فمثلا هل يمكن أن نتصور أن الإمام الحسين عليه السلام قد اندحر لأنه استشهد في كربلاء هو و أصحابه، في حين نعلم جيدا بأنه عليه السلام قد حقق هدفه النهائي في فضح بنى اميه، و بنى صرح العقيده و الحريه، و أعطى الدروس لكل أحرار العالم، و إنه يعتبر الآن زعيم أحرار عالم الإنسانيه و سيد شهداء الدنيا، بالإضافة إلى انتصار خطه الفكرى و منهجه بين أوساط مجموعه عظيمه من الناس؟ (١).

و الجدير بالذكر أن هذا الانتصار القطعى ثابت وفقا للوعد الإلهى بالنصر للسائرين على خط الأنبياء و الرساله، و هذا يعنى انتصار مضمون و أكيد من قبل الله تعالى، كما فى قوله عز و جل: **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** (٢).

و من الطبيعى أن كل من يطلب العون من الله فإن الله سوف ينصره، إلا أنه يجب ألا ننسى أن هذا الوعد الحقيقى لله سبحانه لن يكون بدون قيد أو شرط، حيث أن شرطه الإيمان و آثاره، شرطه ألا يجد الضعف طريقه إلى نفوسنا، و لا نخاف و لا نحزن من المصائب، و نجسد قوله تعالى: **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** (٣).

و الشرط الآخر أن نبدأ التغيير من داخل نفوسنا، لأن الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم قال تعالى:

ص: ١٤٧

١- ١) - للتوضيح الأشمل فى هذا المجال يراجع تفسير الآيه (١٧١) من سوره الصافات.

٢- ٢) - المؤمن، الآيه ٥١.

٣- ٣) - آل عمران، الآيه ١٣٩.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

(١)

كما يجب أن نوثق علاقتنا بالسلسلة المرتبطة بالخطّ الإلهي و نوحّد صفوفنا، و نجنّد قوانا و نخلص نياتنا، و نكون مطمئنين بأنّ كلّما كان العدو قويّا، و كنّا قليلي العدد و العدد.. فإنّنا سننتصر بالجهاد و السعى و التوكّل على الله تعالى.

و ذكر بعض المفسّرين أنّ سبب نزول الآية أعلاه أنّ قسما من المسلمين تتبأوا أنّ الله سيفتح لهم أرض الروم و فارس، بعد ما شاهدوا بعض قرى الحجاز، إلّا أنّ المنافقين و المرجفين قالوا لهم: أتنصّرون أنّ فارس و الروم كقرى الحجاز، و أنّ بإمكانهم فتحها، عند ذلك نزلت الآية أعلاه و وعدتهم بالنصر.

آخر آية مورد البحث -و التي هي آخر آية من سورة المجادلة- تعدّ من أقوى الآيات القرآنية التي تحذّر المؤمنين من إمكانيه الجمع بين حبّ الله و حبّ أعدائه، إذ لا بدّ من إختيار طريق واحد لا غير، و إذا ما كانوا حقّا مؤمنين صادقين فعليهم اجتناب حبّ أعداء الله، يقول تعالى: لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ .

نعم، لا- يجتمع حبان متضادان في قلب واحد، و الذين يدّعون إمكانيه الجمع بين الإثنين، فإنّهم إمّا ضعفاء الإيمان أو منافقون، و لذلك نلاحظ في الغزوات الإسلامية أنّ جمعا من أقرباء المسلمين كانوا في صفّ المخالفين و الأعداء، و مع ذلك قاتلهم المسلمون حتّى قتلوا قسما منهم.

إنّ حبّ الآباء و الأبناء و الاخوان و العشيره شىء ممدوح، و دليل على عمق العواطف الإنسانية، إلّا أنّ هذه المحبّه حينما تكون بعيدة عن حبّ الله فإنّها ستفقد خاصيّتها.

ص: ١٤٨

و طبعى أنّ من يتعلّق بهم الإنسان ليس مختصاً بالأقسام الأربعة التى استعرضتها الآية الكريمة، و لكن هؤلاء أقرب عاطفياً من غيرهم للإنسان، و بملاحظه الموقف من هؤلاء سيّضح الموقف من الآخرين.

و لذلك لم يأت الحديث عن الزوجات و الأموال و التجاره و الممتلكات، فى حين أنّ ذلك قد لوحظ فى الآية (٢٤) من سوره التوبه، حيث يقول سبحانه: قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

و السبب الآخر فى عدم ذكر المتعلّقات الاخرى بالإنسان فى الآية مورد البحث، هو ما ورد فى سبب نزول الآية الكريمة و التى من جملتها أنّ «حاطب بن أبى بلتع» كتب رساله إلى أهل مكّه يندرهم بقدوم رسول الله إليهم، و لما انكشفت الوشايه و عرف أنّ حاطب بن أبى بلتع وراه هذا الأمر، اعتذر قائلاً: «أهلى بمكّه أحببت أن يحوطوهم بيد تكون لى عندهم» (١).

و قيل: إنّ هذه الآية قد نزلت بشأن «عبد الله بن أبى»، الذى كان له ولد مؤمن أراد الخير لأبيه، حيث رأى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم يوماً يشرب الماء، فطلب من رسول الله سؤره المتبقّى فى الإناء ليعطيه لأبيه، عسى أن يطهر قلبه، إلا أنّ الأب امتنع من شربه و تجاسر على رسول الله. عند ذلك جاء الولد يطلب من رسول الله الإذن فى قتل أبيه، فلم يسمح له صلى الله عليه و آله و سلّم بذلك و قال: «بل ترفّق به» يداريه، (و أن يتبرأ من أعماله فى قلبه).

ثمّ يتطرّق القرآن الكريم إلى الجزاء العظيم لهذه المجموعه التى سخرت قلوبها لعشق الله تعالى، حيث يستعرض خمس من أوصافهم و التى يمثّل بعضها

ص: ١٤٩

مددا و توفيقا من الله تعالى،و الآخر نتيجه العمل الخالص له سبحانه...

و فى بيان القسم الأول و الثانى يقول تعالى: أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ .

و من الطبيعى أنّ هذا الإمداد و اللطف الإلهى لا يتنافى أبدا مع أصل حريه الإراده و إختيار الإنسان،لأنّ الخطوات الاولى فى ترك أعداء الله قد قرّرها المؤمنون ابتداء،ثم جاء الإمداد الإلهى بصوره استقرار الإيمان حيث عبّر عنه ب (كتب).

هل هذه الروح الإلهيه التى يؤيّد الله سبحانه المؤمنين بها هى تقويه الاسس الإيمانيه،أو أنّها الدلائل العقليه،أو القرآن،أو أنّها ملك إلهى عظيم يسمّى بالروح؟ ذكرت لذلك احتمالات و تفاسير مختلفه،إلاّ أنّه يمكن الجمع بينهما،و خلاصه الأمر أنّ هذه الروح نوع من الحياه المعنويه الجديده التى أفاضها الله تعالى على المؤمنين.

و يقول تعالى فى ثالث مرحله: وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا .

و يضيف فى رابع مرحله لهم: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ .

إنّ أعظم ثواب معنوى و جزاء روحانى لأصحاب الجنّه فى مقابل النعم الماديّه العظيمه فى القيامه من جنان و حور و قصور هو شعورهم و إحساسهم أنّ الله راض عنهم و أنّ رضى مولاهم و معبودهم يعنى أنّهم مقبولون عنده،و فى كنف حمايته و أمنه،حيث يجلسهم على بساط قربه،و هذا أعظم إحساس ينتابهم، و نتيجه رضاهم الكامل عن الله سبحانه.

نعم،لا- تصل أى نعمه إلى هذا الرضا ذى الجانبين المادى و المعنوى،و الذى هو مفتاح للهبات و العطايا الإلهيه الاخرى،لأنّه سبحانه عند ما يرضى.عن عبد فإنّه يعطيه ما يطلب منه،فهو القادر و الكريم.

و ما أروع التعبير القرآني: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أَيْ أَنَّ مقامهم رفيع إلى درجه بحيث أَنَّ أسماءهم تكون مقترنه باسمه، و رضاهم إلى جانب رضاه تعالى.

و في آخر مرحله يضيف تعالى بصوره إخبار عام يحكى عن نعم و هبات اخرى حيث يقول: **أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** .

و ليس المقصود بالفلاح هنا ما يكون في عالم الآخرة و نيل النعم الماديه و المعنويه في يوم القيامة فحسب، بل كما جاء في الآيات السابقه أَنَّ اللَّهَ تعالى ينصرهم بلطفه في هذه الدنيا أيضا على أعدائهم و ستكون بأيديهم حكمه الحقّ و العدل التي تستوعب هذا العالم أخيرا

بحثان

اشاره

١-العلامه الفارقه بين حزب الله و حزب الشيطان

أشير في القرآن الكريم إلى حزب الله بآيتين، الآيه مورد البحث، و الآيه (٥٦) من سوره المائده، و قد أشار في آيه واحده إلى حزب الشيطان، و في كلا الآيتين التي تحدّث فيهما عن حزب الله، أكّـد على مسأله «الحبّ في الله و البغض في الله» و موالاه أهل الحقّ.

ففي آيه سوره المائده و بعد بيان مسأله الولايه و الحكم و وجوب طاعه الله و طاعه الرسول ﷺ، و طاعه الذين أعطوا الزكاه في صلاه (الإمام على عليه السلام) يقول سبحانه: **وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** .

و في الآيات مورد البحث-أيضا-أكّـد سبحانه على قطع (الودّ) مع أعداء الله، و بناء على هذا فإنّ خطّ «حزب الله» هو خطّ الولايه نفسه، و البراءه من غير الله و رسوله و أوصيائه.

و فى المقابل عند ما يصف «حزب الشيطان» الذى أشير إليه فى الآيات الآنفه الذكر من هذه السوره، فإنّ أهم ميزه لهم هى النفاق و عداء الحقّ و الكذب و المكر، و نسيان ذكر الله.

و النقطه الجديره بالذكر هنا قوله سبحانه: فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ و فى مورد آخر يقول سبحانه: أَلَا- إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ و بالنظر إلى أنّ الفلاح يقترب دائما مع النصر و الغلبه، لذا فإنّ معنى الآيتين واحد مع وجود قيد، هو أنّ للفلاح مفهومًا أعمق من مفهوم الغلبه، لأنّه يشخص مسأله الوصول إلى الهدف أيضا.

على عكس حزب الشيطان، حيث وصفهم سبحانه بالهزيمة و الخيبه و عدم الموفقيه فى برامجهم و التخلف عن أهدافهم.

إنّ مسأله الولايه بالمعنى الخاصّ، و مسأله الحبّ فى الله و البغض فى الله بالمعنى العامّ، ورد التأكيد عليهما فى كثير من الروايات الإسلاميه حتّى أنّ الصحابى الجليل سلمان الفارسى قال لأمر المؤمنين عليه السّلام: يا أبا الحسن، ما اطلعت على رسول الله إلاّ ضرب بين كتفى، و قال يا سلمان «هذا- و أشار إلى الإمام على- و حزبه هم المفلحون» (١).

و حول المورد الثانى- يعنى الولايه نقرأ

فى حديث عن الرّسول الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم:

«وَدَّ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ فِي اللَّهِ مِنْ أَكْثَرِ شَعْبِ الْإِيمَانِ» (٢).

و

جاء فى حديث آخر أنّه: «قال الله تعالى لموسى: هل علمت فى عملا قطّ، قال: صليت لك، و صمت و تصدّقت، و ذكرت لله. قال الله تبارك و تعالى: و أمّا الصلاه فلك برهان، و الصوم جته، و الصدقه ظلّ و الزكاه و الذكر نور، فأى عمل عملت لى؟ قال موسى عليه السّلام: دلّنى على العمل الذى هو لك. قال يا موسى: هل

ص: ١٥٢

١- ١) -نقل هذا الحديث فى تفسير البرهان عن كتب أهل السنّه (البرهان ج ٤ ص ٣١٢).

٢- ٢) -اصول الكافى ج ٢ باب الحبّ فى الله حديث ٣.

واليت لى وليا؟ وهل عاديت لى عدواً قط، فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب في الله و البغض في الله» (١).

و

جاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا يمحض رجل الإيمان في الله حتى يكون الله أحب إليه من نفسه و أبيه و أمه و ولده و أهله و ماله و من الناس كلهم» (٢).

كما توجد روايات كثيرة حول هذا الموضوع في جانبه الإيجابي (حب أولياء الله) وكذلك الجانب السلبي (البغض لأولياء الله) و يطول بنا ذكرها هنا، و من المناسب أن ننهي الحديث عنها

بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فانظر إلى قلبك، فإن كان يحب أهل طاعة الله عز و جل و يبغض أهل معصيته، ففبك خير و الله يحبك، و إن كان يبغض أهل طاعة الله و يحب أهل معصيته فليس فيك خير و الله يبغضك، و المرء مع من أحب» (٣).

٢- جزاء الحب في الله و البغض في الله

رأينا في الآيات أعلاه أن الله تعالى يثيب الأشخاص الذين يجعلون أساس كل علاقته و ود هو الحب المرتبط بالله، و من هنا يحبون أحباء الله و يعادون أعداءه، و هذا الجزاء العظيم يكون على خمسة أنواع، ثلاثة في الدنيا، و اثنان في يوم القيامة.

و أول هذه النعم في عالم الدنيا هو استقرار و ثبات إيمانهم، حيث يجعل الإيمان في قلوبهم بحيث لا- تستطيع الحوادث و الأعاصير أن تؤثر عليه، و مضافاً إلى ذلك فإن الله تعالى يؤيدهم و يقويهم بروحيه متساميه، و في المرحله الثالثه

ص: ١٥٣

١-١) -سفينة البحار ج ١ ص ٢٠١.

٢-٢) -سفينة البحار، ج ١، ص ٢٠١.

٣-٣) -المصدر السابق.

يجعلهم فى حزبه و ينصرهم على أعدائه.

كما يمنحهم فى الآخرة جنة خالده مع جميع نعمها، و بالإضافة إلى ذلك فإنه يعلن عن رضاه المطلق عنهم.

و

جاء فى حديث للإمام الصادق عليه السلام بهذا الصدد: «ما من مؤمن إلا و لقلبه أذنان فى جوفه، اذن ينفذ فيها الوسوس الخناس، و اذن ينفذ فيها الملك، فيؤيد الله المؤمن بالملك فذلك قوله: وَ أَيْدُهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ « (١).

و

فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسيره لكلام الرسول صلى الله عليه و آله و سلم حيث قال: «إذا زنى الرجل فارقه روح الإيمان» قال عليه السلام: «هذه روح الإيمان التى ذكرها الله فى كتابه حيث يقول: وَ أَيْدُهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ « (٢).

و يتضح من الأحاديث أعلاه سعه معنى «روح الإيمان» و شمولها للملك و المرتبة العاليه للروح الإنسانيه، و فى الضمن توضح هذه الحقيقه و هى أن وجود هذه المرحله من الإيمان للإنسان يمنعه من التلوث بالمعاصى كالزنا و شرب الخمر و أمثالها، حيث تصبح لديه حصانه تمنعه من ذلك.

نهايه سورة المجادله

ص: ١٥٤

١-١) -الكافى مطابق لنقل تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٢٨٨.

٢-٢) -المصدر السابق.

مدنيہ و عدد آياتها أربع و عشرون آيه

ص: ۱۵۵

محتوى السوره:

تأخذ هذه السوره بصوره متميزه قصه حرب المسلمين مع بعض اليهود (يهود بنى النضير) و التى انتهت بإخراجهم من المدينه و تطهير هذه المدينه المقدسه منهم.

و هذه السوره من السور المهمه و المثيره و الموقظه فى القرآن الكريم، و لها انسجام قريب جدًا مع الآيات الأخيره مع السوره السابقه، و التى وعدت «حزب الله» بالنصر. و النصر الوارد فى هذه السوره يعدّ مصداقا بارزا لذلك النصر الموعود.

و يمكن تلخيص موضوعات هذه السوره فى ستّ أقسام هى:

الأول: من هذه السوره-الذى هو آيه واحده فقط-يعتبر مقدّمه للأبحاث المختلفه التى وردت فى هذه السوره، فتتحدث الآيه عن تسبيح الله الحكيم العليم من قبل الموجودات جميعا.

الثانى: الذى يبدأ من الآيه الثانيه إلى الآيه العاشره، و الذى يشمل تسع آيات -فإنّه يوضّح قصه اشتباك المسلمين مع ناقضى العهد من يهود المدينه.

الثالث: و الذى يتكوّن من الآيه الحاديه عشره إلى الآيه السابعه عشر-و فيه يستعرض القرآن قصه منافقى المدينه مع اليهود و التعاون بينهما.

الرابع: الذى يتجاوز بضع آيات-يشمل مجموعه من التوجيهات و النصائح العامه لعموم المسلمين، و هى تمثّل استنتاجا للأحداث أعلاه.

الخامس:الذى يشمل آيه واحده فقط و هى الآيه الحاديه و العشرون-فهو عبارته عن وصف بليغ للقرآن الكريم و بيان أثره فى تطهير الروح و النفس.

القسم الأخير-الذى هو آخر قسم من السوره،و يبدأ من الآيه الثانيه و العشرين إلى الآيه الرابعه و العشرين-فيتناول قسما مهمّا من أوصاف جلال و جمال الذات الإلهيه المقدّسه،و بعض أسمائه الحسنى،و هذه الصفات تكون عوناً للإنسان فى طريق معرفه الله سبحانه.

و بالضمن فإنّ اسم هذه السوره مأخوذ من الآيه الثانيه فيها،و التى تتحدّث عن «الحشر»،و الذى يعنى هنا تجمّع اليهود للرحيل عن المدينه،أو حشر المسلمين اليهود لطردهم منها،و من هنا يتّضح أنّ مقصود هذه الكلمه هنا لا يرتبط بيوم القيامه.

كما أطلق البعض على هذه السوره اسم(سوره بنى النضير)لأنّ قسما كبيرا من آياتها تتحدّث عنهم.

و أخيرا فإنّ هذه السور هى إحدى(سور المسبّحات)و التى بدأت بتسبيح الله،و انتهت بتسبيح الله أيضا.

فضيله تلاوه هذه السوره:

ذكرت لهذه السوره فضائل عديده منها:

ورد فى الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سوره الحشر لم يبق جَنّ و لا- نار،و لا عرش و لا كرسى و لا حجاب،و لا السماوات السبع و لا الأرضون السبع،و الهوام و الرياح و الطير و الشجر و الدواب،و الشمس و القمر و الملائكه،إلا صلّوا عليه،و استغفروا له،و إن مات من يومه أو ليلته مات شهيدا» (١).

ص: ١٥٨

كما نقرأ

في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من قرأ إذا أمسى الرحمن و الحشر، وكَلَّ الله بداره ملكا شاهرا سيفه حتّى يصبح» (١).

و ممّا لا شكّ فيه أنّ هذا من آثار التفكّر و التدبّر في محتوى هذه السوره و عند قراءتها.

ص: ١٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)

ذكر المفسرون و المحدثون و المؤرخون بصوره مفصّله سبب نزول هذه الآيات، و خلاصه ما ذكره هي ما يلي:

كان في المدينة ثلاث قبائل من اليهود و هم: «بنو النضير»، و «بنو قريظه»، و «بنو قينقاع»، و يذكر أنّهم لم يكونوا من أهل الحجاز أصلاً، و إنّما قدموا إليها و استقرّوا فيها، و ذلك لما قرءوه في كتبهم العقائديه من قرب ظهور نبي في أرض المدينة، حيث كانوا بانتظار هذا الظهور العظيم.

و عند ما هاجر الرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم إلى المدينة عقد معهم حلفاً بعدم تعرّض كلّ منهما للآخر، إلّا أنّهم كلّما وجدوا فرصه مناسبه لم يألوا جهداً في نقض العهد.

و من جمله ذلك أنّهم نقضوا العهد بعد غزوه احد، التي وقعت في السنه الثالثه للهجره.

فقد ذهب «كعب بن الأشرف» زعيم قبيله «بنى النضير» مع أربعين فارساً إلى مكّه، و هنالك عقد مع قريش حلفاً لقتال محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم، و جاء أبو سفيان مع أربعين شخصاً، و كعب بن الأشرف مع أربعين نفراً من اليهود، و دخلاً معاً إلى المسجد الحرام و وثقوا العهد في حرم الكعبه، فعلم النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم بذلك عن طريق الوحي.

و المؤامره الاخرى هي أنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم دخل يوماً مع شيوخ الصحابه و كبارهم إلى حى بنى النضير، و ذلك بحجّه استقراض مبلغ من المال منهم كدّيّه لقتيلين من طائفه بنى عامر، قتلتهما (عمرو بن اميّه) أحد المسلمين، و ربّما كان الهدف من ذلك هو معرفه أخبار اليهود عن قرب حتّى لا يباغت المسلمون بذلك.

فبينما كان رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم يتحدّث مع كعب بن الأشرف إذ حيكت مؤامره يهوديه لاغتيال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و تنادى القوم: إنكم لا- تحصلون على هذا الرجل بمثل هذه الحاله و ها هو قد جلس بالقرب من حائطكم، فليذهب أحدكم إلى السطح و يرميه بحجر عظيم و يريحنا منه، فقام «عمرو بن جحاش» و أبدى

استعداده لتنفيذ الأمر، وذهب إلى السطح لتنفيذ عمله الإجرامى، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علم عن طريق الوحى بذلك، فقفّل راجعا إلى المدينة دون أن يتحدث بحديث مع أصحابه، إلا أن الصحابه تصوّروا أن الرسول سيعود مرّه اخرى، ولما عرفوا فيما بعد أن الرسول فى المدينة عاد الصحابه إليها أيضا.

و هنا أصبح من المسلم لدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نقض اليهود للعهد، فأعطى أمرا للاستعداد و التهيؤ لقتالهم. وجاء فى بعض الروايات أيضا أن أحد شعراء بنو النضير هجا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشعر يتضمّن مسّا بكرامه الرسول و هذا دليل آخر لنقضهم العهد.

و بدأت خطّه المسلمين فى مواجهه اليهود و كانت الخطوه الاولى أن أمر رسول الله (محمّد بن سلمه) أن يقتل كعب بن الأشرف زعيم اليهود، إذ كانت له به معرفه، وقد نفّذ هذا العمل بعد مقدّمات و قتله.

إنّ قتل كعب بن الأشرف أوجد هزّه و تخلخلا فى صفوف اليهود، عند ذلك أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمرا للمسلمين أن يتحرّكوا لقتال هذه الفئه الباغيه الناقضه للعهد.

و عند ما علم اليهود بهذا لجأوا إلى قلاعهم المحكمه و حصونهم القويّه، و أحكموا الأبواب، إلا أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أمر أن تقلع أشجار النخيل القريبه من القلاع.

لقد أنجز هذا العمل لأسباب عدّه: منها أنّ حبّ اليهود لأموالهم قد يخرجهم من قلاعهم بعد رؤيه تلف ممتلكاتهم، و بالتالى يكون اشتباك المسلمين معهم مباشره، كما يوجد احتمال آخر، و هو أنّ هذه الأشجار كانت تضايق المسلمين فى مناوراتهم مع اليهود قرب قلاعهم و كان لا بدّ من أن تقلع.

و على كلّ حال، فقد ارتفع صوت اليهود عند ما شعروا بالضيق، و هم محاصرون فى حصونهم.. فقالوا: يا محمّد، لقد كنت تنهى عن هذا، فما الذى حدا

بك لتأمر قومك بقطع نخيلنا؟ فنزلت الآية (٥) من الآيات محلّ البحث وبيّنت بأنّ هذا العمل هو أمر من الله عزّ وجلّ.

واستمرّت المحاصره لعدّه أيام، ومنعاً لسفك الدماء اقترح رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم عليهم أن يتركوا ديارهم و أراضيهم و يرحلوا من المدينه، فوافقوا على هذا و حملوا مقداراً من أموالهم تاركين القسم الآخر.. واستقرّ قسم منهم في «أذرعات الشام»، و قليل منهم في «خير»، و جماعه ثالثه في «الحيره»، و تركوا بقيّ أموالهم و أراضيهم و بساتينهم و بيوتهم بيد المسلمين بعد أن قاموا بتخريب ما يمكن لدى خروجهم منها.

و قد حدثت هذه الحادثه بعد غزوه (احد) بسّته أشهر، إلّا أنّ آخرين قالوا:

إنّها وقعت بعد غزوه بدر بسّته أشهر (١).

التفسير

إشاره

نهايه مؤامره يهود بنى النضير:

بدأت هذه السوره بتنزيه و تسبيح الله و بيان عزّته و حكمته، يقول سبحانه:

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

و هذه فى الحقيقه مقدّمه لبيان قصّه يهود بنى النضير، أولئك الذين انحرفوا عن طريق التوحيد و معرفه الله و صفاته، و بالإضافة إلى كونهم مغرورين بإمكاناتهم و قدرتهم و عزّتهم و يتآمرون على الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلم.

التسبيح العامّ الوارد فى الآية لجميع موجودات الأرض و السماء، أعمّ من

ص: ١٦٣

الملائكة و البشر و الحيوانات و النباتات و الجمادات يمكن أن يكون بلسان «القال» و يمكن أن يكون بلسان «حال» هذه المخلوقات حول دقّه النظام المثير للعجب لها فى خلق كلّ ذرّه من ذرّات هذا الوجود، و هو التسليم المطلق لله سبحانه و الاعتراف بعلمه و قدرته و عظّمته و حكمته.

و من جهة اخرى فإنّ قسما من العلماء يعتقدون أنّ كلّ موجود فى العالم له نصيب و قدر من العقل و الإدراك و الشعور، بالرغم من أنّنا لم ندركه و لم نطلع عليه، و بهذا الدليل فإنّ هذه المخلوقات تسبّح بلسانها، بالرغم من أنّ آذاننا ليس لها القدره على سماعها، و العالم بأجمعه منشغل بحمد الله و تسبيحه و إن كنّا غير مطلّعين على ذلك.

الأولياء الذين فتحت لهم عين الغيب يتبادلون أسرار الوجود مع كلّ موجودات العالم، و يسمعون نطق الماء و الطين بصورة واضحة، إذ أنّ هذا النطق محسوس من قبل أهل المعرفة. (و هناك شرح أكثر حول هذا الموضوع فى تفسير الآيه ٤٤ من سوره الإسراء).

و بعد بيان المقدّمه أعلاه نستعرض أبعاد قصّه يهود بنى النضير فى المدينه حيث يقول سبحانه: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ .

«حشر» فى الأصل تحريك جماعه و إخراجها من مقرّها إلى ميدان حرب و ما إلى ذلك، و المقصود منه هنا اجتماع و حركه المسلمين من المدينه إلى قلاع اليهود، أو اجتماع اليهود لمحاربه المسلمين، و لأنّ هذا أوّل اجتماع من نوعه فقد سمّى فى القرآن الكريم بأوّل الحشر، و هذه بحدّ ذاتها إشاره لطيفه إلى بدايه المواجهه المقبله مع يهود بنى النضير و يهود خيبر و أمثالهم.

و العجيب أنّ جمعا من المفسّرين ذكروا احتمالات للآيه لا تتناسب أبدا مع محتواها، و من جملتها أنّ المقصود بالحشر الأوّل ما يقع مقابل حشر يوم القيامه،

و هو القيام من القبور إلى الحشر، والأعجب من ذلك أنّ البعض أخذ هذه الآية دليلاً على أنّ حشر يوم القيامة يقع في أرض الشام التي أبعد اليهود إليها، وهذه الاحتمالات الضعيفة ربّما كان منشؤها من وجود كلمه «الحشر»، في حين أنّ هذه الكلمه لم تكن تستعمل هذا بمعنى الحشر في القيامه، بل تطلق على كلّ اجتماع و خروج إلى ميدان ما، قال تعالى: وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ (١).

و كذلك ما ورد في الاجتماع العظيم لمشاهده المحاجه التي خاضها موسى عليه السلام مع سحره فرعون حيث يقول سبحانه: وَ أَنَّ يُحْشَرَ النَّاسَ ضُحًى (٢).

و يضيف البارئ عزّ و جلّ: مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ لَقَدْ كَانُوا مَغْرُورِينَ و راضين عن أنفسهم إلى حدّ أنّهم اعتمدوا على حصونهم المنيعة، و قدرتهم الماديّه الظاهريه. إنّ التعبير الذي ورد في الآية يوضّح لنا أنّ يهود بنى النضير كانوا يتمتّعون بإمكانات واسعه و تجهيزات و عدد كثيره في المدينه، بحيث أنّهم لم يصدّقوا أنّهم سيغلبون بهذه السهوله، و ذلك ظنّ الآخرين أيضاً.

و لأنّ الله سبحانه يريد أن يوضّح للجميع أن لا قوّه في الوجود تقاوم إرادته، فإنّ إخراج اليهود من أراضيهم و ديارهم بدون حرب، هو دليل على قدرته سبحانه، و تحدّد لليهود الذين ظنّوا أنّ حصونهم مانعتهم من الله.

و لذلك يضيف-استمراراً للبحث الذي ورد في الآية- قوله تعالى: فَآتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يُحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ نَعَمْ، إنّ هذا الجيش غير المرئى هو جيش الخوف الذي يرسله الله تعالى في كثير من الحروب لمساعدته المؤمنين، و قد خيم على قلوبهم، و سلب منهم قدره

ص: ١٦٥

١-١) -النمل، الآية ١٧.

٢-٢) -سوره طه، الآية ٥٩.

الحركة و المقاومة، لقد جهّزوا و هيّئوا أنفسهم لقتال المهاجرين و الأنصار غافلين عن إرادة الله تعالى، حيث يرسل لهم جيشا من داخلهم و يجعلهم فى مأزق حرج إلى حدّ ينهمكون فيه على تخريب بيوتهم بأيديهم و أيدي أعدائهم من المسلمين.

صحيح أنّ مقتل زعيمهم «كعب بن الأشرف»-قبل الهجوم على قلاعهم و حصونهم- كان سببا فى إرباكهم و اضطراب صفوفهم، إلا أنّ من الطبيعى أنّ مقصود الآية غير ما تصوّره بعض المفسّرين، فإنّ ما حدث كان نوعا من الإمداد الإلهى للمسلمين الذين حصل لهم مرّات عديدة حين جهادهم ضدّ الكفّار و المشركين.

و الطريف هنا أنّ المسلمين كانوا يخربون الحصون من الخارج ليدخلوا إلى عمق قلاعهم، و اليهود كانوا يخربونها من الداخل حتّى لا يقع شىء مفيد منها بأيدي المسلمين، و نتيجة لهذا فقد عمّ الخراب التامّ جميع قلاعهم و حصونهم.

و ذكرت لهذه الآية تفاسير اخرى أيضا منها: أنّ اليهود كانوا يخربونها من الداخل لينهزموا، أمّا المسلمون فتخريبهم لها من الخارج ليظفروا باليهود و يجهّزوا عليهم (إلا أنّ هذا الاحتمال مستبعد).

أو يقال إنّ لهذه الآية معنى كئائى، و ذلك كقولنا: إنّ الشخص الفلانى هدم بيته و حياته بيده، يعنى أنّه بسبب جهله و تعنّته دمرّ حياته.

أو أنّ المقصود من تخريب اليهود لبعض البيوت، هو من أجل إغلاق الأزقة الموجودة داخل القلاع و منع المسلمين من التقدّم و لكى لا يستطيعوا السكن فيها.

أو أنّهم هدموا قسما من البيوت داخل القلعه حتّى إذا ما تحوّلت الحرب إلى داخلها يكون هنا لك مكان كاف للمناورة و الحرب.

أو أنّ مواد بناء بعض البيوت كان ثمينا فخرّبوها لكى يحملوا ما هو مناسب منها، إلا أنّ التفسير الأوّل أنسب من الجميع.

و فى نهايه الآية-بعنوان استنتاج كلّى-يقول تعالى: فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى

«اعتبروا» من مادّه (اعتبار) وفي الأصل مأخوذه من العبور، أى العبور من شىء إلى شىء آخر، و يقال لدمع العين «عبره» بسبب عبور قطرات الدموع من العين، وكذلك يقال (عبارة) لهذا السبب، حيث أنّها تنقل المطالب و المفاهيم من شخص إلى آخر، و إطلاق «تعبير المنام» على تفسير محتواه، بسبب أنّه ينقل الإنسان من ظاهره إلى باطنه.

و بهذه المناسبة يقال للحوادث التى فيها دروس و عظات (عبر) لأنّها توضّح للإنسان سلسله من التعاليم الكليه و تنقله من موضوع إلى آخر.

و التعبير بـ «أولى الأبصار» إشاره إلى الأشخاص الذين يتعاملون مع الحوادث بعين واقعیه و يتوغلون إلى أعماقها.

كلمه (بصر) يقال دائما للعين الباصره، و «البصيره» يقال للإدراك و الوعي الداخلى (1).

و فى الحقيقة أنّ «أولى الأبصار» هم أشخاص لهم القابليه على الاستفادة من (العبر)، لذلك فإنّ القرآن الكريم يلفت نظرهم للاستفادة من هذه الحادّثه و الاتّعاظ بها.

و ممّا لا شكّ فيه أنّ المقصود من الاعتبار هو مقياسه الحوادث المتشابهه من خلال أعمال العقل، كمقارنه حال الكفّار مع حال ناقضى العهد من يهود بنى النضير، إلّا أنّ هذه الجملة لا ترتبط أبدا بـ «القياسات الظنيّه» التى يستفيد منها البعض فى استنباط الأحكام الدينيه.

و العجيب هنا أنّ بعض فقهاء أهل السنّه استفادوا من الآيه أعلاه لإثبات هذا المقصود، بالرغم من أنّ البعض الآخر لم يرتضوا ذلك.

ص: ١٦٧

و الخلاصه أنّ المقصود من العبره و الإعتبار فى الآيه أعلاه هو الانتقال المنطقى و القطعى من موضوع إلى آخر، و ليس العمل على أساس التصوّر و الخيال.

و على كلّ حال فإنّ مصير طائفه «بنى النضير» بتلك القدره و العظمه و الشوكه، و بتلك الصوره من الاستحكامات القويّه، صار موضع (عبره) حيث أنّهم استسلموا لجماعه من المسلمين لا- تقارن قوّاتها بقوّاتهم، و بدون مواجهه مسلّحه، بحيث كانوا يخزّبون بيوتهم بأيديهم و تركوا بقيه أموالهم للمسلمين المحتاجين، و تفرّقوا فى بقاع عديده من العالم، فى حين أنّ اليهود سكنوا فى المدينه من أجل أن يدركوا النبى الموعود الذى ورد فى كتبهم، و يكونوا فى الصفّ الأوّل من أعوانه كما ذكر المؤرّخون ذلك.

و بهذا الصدد نقرأ حديثاً

ورد عن الإمام الصادق حيث يقول: «كان أكثر عباده أبى ذرّ رحمه الله التفكّر و الإعتبار» (١).

و مع الأسف فإنّ كثير من الناس يفضّلون تجربه الشدائد و المحن و المصائب بأنفسهم و يذوقوا مراره الخسائر شخصيّاً، و لا يعتبرون و لا يتّعظون بوضع الآخرين و ما يواجهونه فى أمثال هذه الموارد، و

يقول الإمام على عليه السّلام «السعيد من وعظ بغيره» (٢).

و تضيف الآيه اللاحقه وَ لَوْ لَا أَنَّ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا .

و بدون شكّ فإنّ الجلاء عن الوطن و ترك قسم كبير من رؤوس الأموال التى جهدوا جهداً بليغاً فى الحصول عليها، هو بحدّ ذاته أمر مؤلم لهم، و بناء على هذا فإنّ مراد الآيه أعلاه أنّه لو لم يحلّ بهم هذا العذاب، فإنّ بانتظارهم عذاباً آخر هو القتل أو الأسر بيد المسلمين... إلّا أنّ الله سبحانه أراد لهم التيه فى الأرض

ص: ١٦٨

١- ١) - كتاب الخصال مطابق لنقل نور الثقلين، ج ٥ ص ٢٧٤.

٢- ٢) - نهج البلاغه، خطبه ٨٦.

والتشرّد في العالم، لأنّ هذا أشدّ ألما و أسى على نفوسهم، إذ كلّما تذكّروا أرضهم و ديارهم و مزارعهم و بساتينهم التي أصبحت بيد المسلمين. و كيف أنّهم شردوا منها بسبب نقضهم العهد و مؤامراتهم ضدّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم، فإنّ ألمهم و حزنهم و متاعبهم تضاعف و خاصّه على المستوى النفسى.

نعم، إنّ الله أراد لهذه الطائفة المغروره و الخائنه، أن تبلى بمثل هذا المصير البائس.

و كان هذا عذابا دنيويا لهم، إلّا أنّ لهم جوله اخرى مع عذاب أشدّ و أخزى، ذلك هو عذاب الآخرة، حيث يضيف سبحانه في نهايه الآيه وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ .

هذه عاقبتهم في الدنيا و الآخرة، و هى درس بليغ لكلّ من أعرض عن الحقّ و العدل و ركب هواه، و غرّته الدنيا و أعماه حبّ ذاته.

و بما أنّ ذكر هذه الحادثه مضافا إلى تجسيد قدره الله و صدق الدعوه المحمّديه، فهى في نفس الوقت تمثّل إنذارا و تنبيها لكلّ من يروم القيام بأعمال مماثله لفعل بنى النضير، لذا ففى الآيه اللاحقه يرشدنا سبحانه إلى هذا المعنى:

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

(١)

«شاقّوا» من مادّه (شقاق) و هى فى الأصل بمعنى الشقّ و الفصل بين شيئين، و بما أنّ العدو يكون دائما فى الطرف المقابل، فإنّ كلمه (شقاق) تطلق على هذا العمل.

و جاء مضمون هذه الآيه باختلاف جزئى جدّا فى سورة الأنفال الآيه ١٣، وذلك بعد غزوه بدر و انكسار شوكة المشركين، و التى تبين عموميه محتواها من كلّ جهه، فى قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ، وَ مَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

ص: ١٦٩

و الشىء الجدير بالملاحظه أن بدايه الآيه الكريمه طرحت مسأله العداة لله و رسوله، إلا أن الحديث فى ذيل الآيه اقتصر عن العداة لله سبحانه فقط، و هو إشاره إلى أن العداة لرسول الله هو عداة لله أيضا.

و التعبير ب شديدا العقاب لا يتنافى مع كون الله «أرحم الراحمين» لأنه فى موضع العفو و الرحمة فالله أرحم الراحمين، و فى موضع العقاب و العذاب فإن الله هو أشد المعاقبين، كما

جاء ذلك فى الدعاء: «و أيقنت أنك أرحم الراحمين فى موضع العفو و الرحمة، و أشد المعاقبين فى موضع النكال و النقمه» (١)

و فى الآيه الأخيره من الآيات مورد البحث نلاحظ جوابا على اعتراض يهود بنى النضير على قطع المسلمين لنخيلهم- كما ورد فى شأن النزول- بأمر من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لتهيئه ظروف أفضل لقتال بنى النضير أو لزياده حزنهم و ألمهم، فيضطروا للنزول من قلاعهم و منازل المسلمين خارج القلعه.. و قد أثار هذا العمل غضب اليهود و حنقهم، فقالوا: يا محمد، ألم تكن الناهى عن مثل هذه الأعمال؟ فنزلت الآيه الكريمه مبينه لهم أن ذلك من أمر الله سبحانه حيث يقول البارئ:

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ (٢) وَ لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ

«لينه» من مادّه (لون) يقال لنوع جيّد من النخل، و قال آخرون: إنها من مادّه (لين) بمعنى الليونه التى تطلق على نوع من النخل، و التى لها أغصان لينه قريبه من الأرض و ثمارها لينه و لذيذه.

و تفسر (لينه) أحيانا بألوان و أنواع مختلفه من شجر النخيل، أو النخل الكريم، و التى جميعها ترجع إلى شىء واحد تقريبا.

ص: ١٧٠

١- ١) -دعاء الافتتاح (من أدعيه شهر رمضان المبارك).

٢- ٢) -«ما» فى الآيه أعلاه شرطيه و جزاؤها (فبإذن الله).

و على كلّ حال فإنّ قسما من المسلمين أقدموا على قطع بعض نخيل بنى النضير، فى الوقت الذى خالف البعض الآخر ذلك، و هنا نزلت الآية أعلاه و فصلت نزاعهم فى هذا الموضوع (١).

و قال البعض الآخر: إنّ الآية دالّة على عمل شخصين من الصحابه، و قد كان أحدهم يقوم بقطع الجيد من شجر النخل ليغضب اليهود و يخرجهم من قلاعهم، و الآخر يقوم بقطع الردىء من الأشجار كى يبقى ما هو جيد و مفيد، و حصل خلاف بينهم فى ذلك، فنزلت الآية حيث أخبرت أنّ عملهما بإذن الله (٢).

و لكن ظاهر الآية يدلّ على أنّ المسلمين قطعوا بعض نخل (اللينه) و هى نوع جيد من النخل، و تركوا قسما آخر، ممّا أثار هذا العمل اليهود، فأجابهم القرآن الكريم بأنّ هذا العمل لم يكن عن هوى نفس، بل عن أمر إلهى صدر فى هذا المجال، و فى دائره محدوده لكى لا تكون الخسائر فادحه.

و على كلّ حال فإنّ هذا العمل كان استثناء من الأحكام الإسلاميه الأوليه التى تنهى عن قطع الأشجار و قتل الحيوانات و تدمير و حرق المزارع.. و العمل أعلاه كان مرتبطا بمورد معيّن حيث أريد إخراج العدو من القلعه و جزّه إلى موقع أنسب للقتال و ما إلى ذلك - و عادة توجد استثناءات جزئيه فى كلّ قانون، كما فى جواز أكل لحم الميت عند الضروره القصوى و الإجبار.

جمله و لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ^١ ترينا على الأقل أنّ أحد أهداف هذا العمل هو خزى ناقضى العهد هؤلاء، و كسر لشوكتهم و تمزيق لروحيتهم.

ص: ١٧١

١-١) - تفسير أبو الفتوح الرازى، ج ١١، ص ٩٣، و جاء هذا المعنى فى الدرّ المنثور، ج ٩، ص ١٨٨.

٢-٢) - تفسير الفخر الرازى، ج ٢٩، ص ٢٨٣.

١- الجيوش الإلهية اللامرئية:

فى الوقت الذى تعتبر القوى الماديّة أكبر سلاح لتحقيق الإنتصار من وجهه نظر الماديّين، فإنّ اعتماد المؤمنين يتمركز حول محوريّين (القيم المعنوية و الإمكانيات الماديّة) و الذى قرأنا نموذجا منه فى قصّه اندحار بنى النضير كما بيّنت ذلك الآيات السابقة.

و نقرأ فى هذه الآية أحد العوامل المؤثّره فى هذا الإنتصار حيث ألقى الله سبحانه الرعب فى قلوب اليهود، بحيث أخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم، و تخلّوا عن ديارهم و أموالهم مقابل السماح لهم بالخروج من المدينه.

و قد ورد هذا المعنى بصورة متكرّره فى القرآن الكريم، منها ما ورد فى قصّه اخرى حول قسم آخر من اليهود و هم (بنو قريظه). حيث اشتبكوا اشتباكا شديدا مع المسلمين بعد غزوه الأحزاب، و فى هذا المعنى يقول سبحانه: **وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيّاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقًا .**

و جاء هذا المعنى فى غزوه بدر حيث يقول تعالى: **سَأَلِقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ .**

و بعض هذا الخوف الذى هو عبارته عن جيش إلهى غير مرئى يكاد يكون أمرا طبيعيا، و لكن بعضه يمثّل سرا من الأسرار غير الواضحه لنا، أمّا الطبيعى منه فإنّ المؤمنين يرون أنفسهم منتصرين سواء قتل أو تغلب على العدو. و الشخص الذى يؤمن بهذا الاعتقاد لا يجد الخوف طريقا إليه، و مثل هذا الإنسان سيكون أعجوبه فى صموده و ثباته كما يكون- أيضا- مصدر خوف و قلق لأعدائه، و الذى نلاحظه فى عالم اليوم أنّ بلدانا عديده تملك قدرات هائله من الإمكانيات العسكريه المتطوره و الماديّه الكبيره، تخشى من ثلّه من المؤمنين الصادقين

الذائدين عن الحق، ويحاولون دائما تحاشي مواجهتهم.

و

فى حديث حول هذا المعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» (١).

يعنى أنّ الرعب لم يصب الأعداء فى خطّ المواجهه فحسب، بل أصاب من كان من الأعداء على مسافه شهر واحد من جيش الإسلام.

و حول جيوش الإمام المهدي عليه السلام نقرأ أنّ ثلاثه جيوش تحت أمره وهم:

(الملائكه،و المؤمنون،و الرعب) (٢).

و فى الحقيقه، إنّ الأعداء يبدّلون كافّه إمكاناتهم لتجنّب الضربه من الخارج، إلّا- أنّهم غفلوا عن أنّ الله سبحانه يهزمهم داخلياً، حيث أنّ الضربه الداخليه أوجع للنفس، ولا- يمكن تداركها بسهولة، حتّى لو وضعت تحت تصرّفهم كلّ الأسلحه و الجيوش، فإنّها غير قادره على أن تحقّق النصر مع فقدان المعنويه العاليه و الروحيه المؤهّله لخوض القتال، و بالتالى فإنّ الفشل و الخسران أمر متوقّع جدّاً لأمثال هؤلاء.

٢- مؤامرات اليهود المعاصره

إنّ التاريخ الإسلامى اقترن منذ البدايه بمؤامرات اليهود، ففى كثير من الحوادث الأليمه و الفجائع الداميه ترى أصابعهم مشهوده بشكل مباشر أو غير مباشر. و العجيب أنّ هؤلاء نزحوا إلى ديار الحجاز طمعا فى أن يكونوا فى الصفّ الأوّل من أصحاب النّبى الموعود إلّا أنّهم بعد ظهوره أصبحوا من الدّ أعدائه.

و عند ما نستقرئ حالتهم المعاصره فإنّنا نلاحظ أيضا أنّهم متورّطون فى أغلب المؤامرات المدبّره ضدّ الإسلام، و يتجسّد موقفهم هذا فى داخل الأحداث

ص: ١٧٣

١- (١) -مجمع البيان، ج ٢، ص ٥١٩، (نهايه الآيه / ١٥١ آل عمران).

٢- (٢) -إثبات الهداه، ج ٧، ص ١٢٤.

تاره و من خارجها اخرى،و فى الحقيقه فإنّ هذا هو موضع تأمل و اعتبار لمن كان له قلب و بصيره.

و الطريق الوحيد لكسر شوكتهم كما يؤكده تاريخ صدر الإسلام،هو التعامل الحدى و الجدى معهم،خصوصا مع الصهاينه الذين لا-يتعاملون بمبادئ العدل و الحقّ أبدا،بل منطقهم القوّه،و غيرها لا يمكن التفاهم معهم،و مع هذا فإنّ خوفهم الحقيقى هو من المؤمنين الصادقين.

و إذا كان المسلمون المعاصرون مسلّحين بالإيمان و الاستقامه المبدئيه- كأصحاب رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم-فإنّ الرعب سيستحوذ على قلوب اليهود و نفوسهم، و بالإمكان عندئذ إخراجهم من الأرض الإسلاميه التى اغتصبوها بهذا الجيش الإلهى.

و هذا درس علّمنا رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم إيّاه قبل أربعه عشر قرنا.

ص: ١٧٤

اشاره

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِإِثْنَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَهُ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)

سبب النزول

بما أن هذه الآيات تكمله للآيات القرآنية السابقة التي تتحدث عن اندحار يهود بنى النضير، لذا فإن سبب نزولها هو استمرار لنفس أسباب نزول الآيات السابقة. و التوضيح كما يلي:

بعد خروج يهود بنى النضير من المدينة بقيت بساتينهم و أراضيهم و بيوتهم

و قسم من أموالهم في المدينة، فأشار بعض شيوخ المسلمين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تماشيا مع سَنَه جاهليه- حيث قالوا له خذ الصفوه من أموالهم و ربع ممتلكاتهم، و اترك لنا المتبقي كي نقسِّمه بيننا، فنزلت الآيات أعلاه حيث أعلنت صراحه أنَّ هذه الغنائم التي لم تكن بسبب قتال، و لم تكن نتيجة حرب، فإنَّها جميعا من مختصات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم باعتبارها رئيسا للدولة الإسلامية، و يتصرَّف بها كما يشاء، وفقا لما يقدره من المصلحه في ذلك.

و سنلاحظ أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قسَّم هذه الأموال بين المهاجرين الفقراء في المدينة، و على قسم من الأنصار من ذوى الفاقه (١).

التفسير

اشاره

حكم الغنائم بغير الحرب:

إنَّ هذه الآيات- كما ذكر سابقا- تبين حكم غنائم بنى النضير، كما أنَّها في نفس الوقت توضِّح حكما عاما حول الغنائم التي يحصل عليها المسلمون بدون حرب، كما ذكر ذلك في كتب الفقه الإسلامي بعنوان (الفىء).

يقول الله تعالى: وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ (٢).

«أفاء» من مادَّة (فـى) على وزن شىء- و هى فى الأصل بمعنى الرجوع، و إطلاق كلمه (فـى) على هذا اللون من الغنائم لعلَّه باعتبار أنَّ الله سبحانه قد خلق هذه النعم و الهبات العظيمه فى عالم الوجود فى الأصل للمؤمنين، و على رأسهم

ص: ١٧٦

١- ١) -مجمع البيان نهايه الآيات مورد البحث و تفاسير اخرى.

٢- ٢) - «ما» فى (ما أفاء الله و رسوله) موصوله فى محلّ رفع مبتدأ و ما فى فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ نافية، و مجموع هذه الجمله خبر، و هنالك احتمال ثان: و هو أنَّ (ما) فى (ما أفاء) شرطيه، و (ما) الثانيه مع جملتها تكون جوابا للشرط و مجىء (الفاء) فى صدر جمله الخبر حينما تكون فيها شبهه بالشرط، فلا إشكال فيه.

الرَّسُولَ الْأَعْظَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ الْكَائِنَاتِ، وَبَنَاءٌ عَلَى هَذَا فَإِنَّ الْجَاهِدِينَ لَوْجُودَ اللَّهِ وَالْعَاصِينَ لَهُ بِالرَّغْمِ مِنْ امْتِلَاكِهِمْ لِلْبَعْضِ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ بِمُوجِبِ الْقَوَاعِدِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْعُرْفِيَّةِ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ غَاصِبِينَ لَهَا، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ عَوْدَهُ هَذِهِ الْأَمْوَالِ إِلَى أَصْحَابِهَا الْحَقِيقِيِّينَ (وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ) يُسَمَّى (فِيئًا) فِي الْحَقِيقَةِ.

«أَوْجَفْتُمْ» مِنْ مَادَّةٍ (إِيْجَافٍ) بِمَعْنَى السُّوقِ السَّرِيعِ الَّذِي يَحْدُثُ غَالِبًا فِي الْحُرُوبِ.

«خَيْلٌ» بِمَعْنَاهُ الْمُتَعَارَفُ عَلَيْهِ (وَهِيَ اسْمُ جَنْسٍ وَجَمْعُهَا خِيُولٌ) (١).

«رُكَّابٌ» مِنْ مَادَّةٍ (رُكُوبٍ) وَتَطْلُقُ فِي الْغَالِبِ عَلَى رُكُوبِ الْجَمَالِ.

وَالْهَدَفُ مِنْ مَجْمُوعِ الْجُمْلَةِ أَنَّ جَمِيعَ الْمَوَارِدِ الَّتِي لَمْ يَحْدُثْ فِيهَا قِتَالٌ وَفِيهَا غَنَائِمٌ، فَإِنَّهَا لَا تُوزَعُ بَيْنَ الْمُقَاتِلِينَ، وَتُوضَعُ بِصُورِهِ تَامَّةً تَحْتَ تَصَرُّفِ رَئِيسِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَهُوَ يَصْرِفُهَا فِي الْمَوَارِدِ الَّتِي سَيَأْتِي الْحَدِيثُ عَنْهَا لَا حَقًّا.

ثُمَّ يَضِيفُ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْإِنْتِصَارَاتِ لَا تَكُونُ غَالِبًا لَكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

نَعَمْ، لَقَدْ تَحَقَّقَ الْإِنْتِصَارُ عَلَى عَدُوِّ قُوَى وَشَدِيدِ كَيْهود (بَنِي النَّضِيرِ) وَذَلِكَ بِالْمَدَدِ الْإِلَهِيِّ الْغَيْبِيِّ، وَتَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَيَسْتَطِيعُ سُبْحَانَهُ بِلَحْظِهِ وَاحِدِهِ أَنْ يَذِلَّ الْأَقْوِيَاءَ، وَيَسَلِّطَ عَلَيْهِمْ فَتَهُ قَلِيلَهُ تَوَجَّهَ لَهُمْ ضَرْبَاتٌ مُوجِعَةٌ وَتَسْلُبُ جَمِيعَ إِمْكَانَاتِهِمْ.

وَلَا بَدَّ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَعَلَّمُوا مِنْ ذَلِكَ دُرُوسَ الْمَعْرِفَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَيُلَاحِظُوا عِلَاقَتَهُمُ حَقَّانِيَّةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَيَلْتَزِمُوا مِنْهُجَ الْإِحْلَاصِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ

ص: ١٧٧

١ - ١) - يَقُولُ الرَّائِغُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: إِنَّ الْخَيْلَ فِي الْأَصْلِ مِنْ مَادَّةٍ (خَيْالٍ) بِمَعْنَى التَّصَوُّرَاتِ الذَّهْنِيَّةِ، وَخَيْلَاءُ بِمَعْنَى التَّكَبُّرِ وَالتَّعَالَى عَلَى الْآخَرِينَ لِأَنَّهُ نَاتِجٌ مِنْ تَخَيُّلِ الْفَضِيلَةِ، وَلِأَنَّ رُكُوبَ الْإِنْسَانِ عَلَى الْحِصَانِ يَشْعُرُ بِالْإِحْسَاسِ بِنَوْعٍ مِنَ الْفَخْرِ وَالزَّهْوِ غَالِبًا، لِذَلِكَ أُطْلِقَ لَفْظُ الْخَيْلِ عَلَى الْحِصَانِ، وَالنَّقْطَةُ الْجَدِيرَةُ بِالْمُلَاحَظَةِ أَنَّ خَيْلَ تَطْلُقُ عَلَى الْحِصَانِ وَكَذَلِكَ عَلَى رَاكِبِيهِ.

فى جميع ممارساتهم.

و هنا قد يتبادر سؤال و هو: إنَّ الحصول على غنائم بنى النضير لم يتم بدون حرب، بل إنَّ المسلمين زحفوا بجيشهم نحو قلاعهم و حاصروها، و قيل أنَّ اشتباكا مسلحا قد حصل فى حدود ضيقه بين الطرفين.

و فى مقام الجواب نقول: بأنَّ قلاع بنى النضير- كما ذكروا- لم تكن بعيدة عن المدينة، و ذكر بعض المفسرين أنَّ المسافه بين المدينة و القلاع ميلان و أنَّ المسلمين ذهبوا إليها سيرا على أقدامهم، و بناء على هذا فلم يواجهوا مشقَّه حقيقه. أمَّا بالنسبه لموضوع الاشتباك المسلح فإنَّه لم يثبت من الناحيه التاريخيه، كما أنَّ الحصار لم يستمر طويلا، و بناء على هذا فإنَّنا نستطيع القول بأنَّه لم يحدث شىء يمكن أن نسّميه قتالا، و لم يرق دم على الأرض.

و الآيه اللاحقه تبين بوضوح مورد صرف (الفىء) الوارد فى الآيه السابقه و تقول بشكل قاعده كليّه: مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِدَى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ .

و هذا يعنى أنَّ هذه الغنائم ليست كباقي الغنائم الحربيه التى يكون خمس منها فقط تحت تصرّف الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و سائر المحتاجين، و الأربعة الأخماس الاخرى للمقاتلين.

و إذا ما صرّحت الآيه السابقه برجوع جميع الغنائم لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فلا يفهم من ذلك أن يصرفها جميعا فى موارد الشخصيه، و إنّما أعطيت له لكونه رئيسا للدولة الإسلاميه، و خاصّه كونه المتصدّى لتغطيه حاجات المعوزين، لذا فإنَّ القسم الأكبر يصرف فى هذا المجال.

و قد ذكر فى هذه الآيه بصوره عامّه ستّ مصارف للفىء.

١- سهم لله، و من البديهى أنَّ الله تعالى مالك كل شىء، و فى نفس الوقت غير محتاج لأى شىء، و هذا نوع من النسبه التشريفيه، حتّى لا يحس بقيه الأصناف

اللاحقه بالحقاره و الذله، بل يرون سهمهم مرادفا لسهم الله عز و جل، فلا ينقص من قدرهم شىء أمام الناس.

٢-سهم الرسول:و من الطبيعى أن يصرف لتأمين احتياجاته الشخصيه صلى الله عليه و آله و سلم و ما يحتاجه لمقامه المقدس و توقعات الناس منه.

٣-سهم ذوى القربى:و المقصود بهم هنا و بدون شك أقرباء الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و بنى هاشم، حيث أنهم مستثنون من أخذ الزكاه و التى هى جزء من الأموال العامه للمسلمين (١).

و أساسا لا- دليل على أن المقصود من ذوى القربى هم أقرباء الناس جميعا، لأنه فى هذه الحاله ستشمل جميع المسلمين، لأن الناس بعضهم أقرباء بعض.

و لكن هل هناك شرط يقضى أن يكون ذوو القربى من المحتاجين و الفقراء أو لا يشترط ذلك؟ لقد اختلف المفسرون فى ذلك بالرغم من أن القرائن الموجوده فى نهايه هذه الآيه و الآيه اللاحقه توضّح لزوم شرط الحاجه.

(٤،٥،٦):«سهم اليتامى»و«المساكين»و«أبناء السبيل»،و هل أن جميع هؤلاء يلزم أن يكونوا هاشميين أو أنها تشمل عموم اليتامى و المساكين و أبناء السبيل؟ اختلف المفسرون فى ذلك،ففقهاء أهل السنّه و مفسّروهم يعتقدون أن هذا الأمر يشمل العموم،فى الوقت الذى اختلفت الروايات الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام فى هذا المجال،إذ استفاد من قسم منها أن هذه الأسهم الثلاثه تخصّ اليتامى و المساكين و أبناء السبيل من بنى هاشم فقط،فى حين صرّحت روايات اخرى بعموميه هذا الحكم،و

نقل أن الإمام الباقر عليه السلام قال: «كان أبى يقول:لنا سهم رسول

ص: ١٧٩

١- ١) -هذا التفسير لم يأت به الشيعة فقط،حيث جاء ذكره فى تفاسير أهل السنّه أيضا،كما ذكر ذلك الفخر الرازى فى التفسير الكبير،و البرسونى فى روح البيان،و سيّد قطب فى ظلال القرآن،و المراغى فى تفسيره و الألوسى فى روح المعانى.

اللّه، وسهم ذى القربى و نحن شركاء الناس فيما بقى» (١).

و الآيات الثامنة و التاسعة من هذه السورة، التى هى توضيح لهذه الآية، تؤيد أيضا أنّ هذا السهم لا يختص ببني هاشم، لأنّ الحديث دالّ على عموم فقراء المسلمين من المهاجرين و الأنصار.

و بالإضافة إلى ذلك، فقد نقل المفسّرون أنّ الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم بعد حادثه بنى النضير قسّم الأموال المتبقية بين المهاجرين من ذوى الحاجة و المسكنه، و على ثلاثه أشخاص من طائفة الأنصار، و هذا دليل آخر على عموميه مفهوم الآية. و إذا لم تكن بعض الروايات متناسبه معها، فينبغى ترجيح ظاهر القرآن (٢).

ثمّ يستعرض سبحانه فلسفه هذا التقسيم الدقيق بقوله تعالى: كَيْ لَا يَكُونَ دُولُهُ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ فَيَتَدَاوَلُوا الْأَغْنِيَاءُ الثَّرَوَاتِ فيما بينهم و يحرم منها الفقراء (٣).

و ذكر بعض المفسّرين سببا لنزول هذه الجملة بشكل خاصّ، و أشير له بشكل إجمالى فى السابق، و هو أنّ مجموعه من زعماء المسلمين قد جاؤوا لرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم بعد واقعه بنى النضير، و قالوا له: خذ المنتخب و ربع هذه الغنائم، و دع الباقي لنا نفتسمه بيننا، كما كان ذلك فى زمن الجاهليه. فنزلت الآية أعلاه تحذّرهم من تداول هذه الأموال بين الأغنياء فقط.

و المفهوم الذى ورد فى هذه الآية يوضّح أصلا أساسيا فى الإقتصاد الإسلامى و هو: وجوب التأكيد فى الإقتصاد الإسلامى على عدم تمرکز الثروات بيد فئة محدوده و طبقه معيّنه تتداولها فيما بينها، مع كامل الاحترام للملكيه

ص: ١٨٠

١- ١) -مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٦١، و وسائل الشيعه، ج ٣، ص ٣٦٨، حديث ١٢ و باب واحد من أبواب الأنفال.

٢- ٢) -وسائل الشيعه، ج ٦، ص ٣٥٦، (حديث ٤، باب واحد من أبواب الأنفال).

٣- ٣) - (دوله) بفتح الدال و ضمّها بمعنى واحد، و فرق البعض بين الإثنين و ذكر أنّ (دوله) بفتح الدال تعنى الأموال، أمّا بضمّها فتعنى الحرب و المقام، و قيل أنّ الأوّل اسم مصدر، و الثانى مصدر، و على كلّ حال فإنّ لها أصلا مشتركا من مادّه «تداول» بمعنى التعامل من يد إلى اخرى.

الشخصية، و ذلك بإعداد برنامج واضح بهذا الصدد يحرك عملية تداول الثروه بين أكبر قطاع من الأمه.

و من الطبيعي ألا نقصد من ذلك وضع قوانين و تشريعات من تلقاء أنفسنا و نأخذ الثروات من فئه و نعطيهها لآخرين، بل المقصود تطبيق القوانين الإسلاميه فى مجال كسب المال، و الالتزام بالتشريعات الماليه الاخرى كالخمس و الزكاه و الخراج و الأنفال بصورة صحيحه، و بذلك نحصل على النتيجة المطلوبه، و هى احترام الجهد الشخصى من جهه، و تأمين المصالح الاجتماعيه من جهه اخرى، و الحيلولة دون انقسام المجتمع إلى طبقتين: (الأقلية الثريه و الأكثرية المستضعفه).

و يضيف سبحانه فى نهايه الآيه: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

و بالرغم من أن هذا القسم من الآيه نزل بشأن غنائم بنى النضير، إلا أن محتواها حكم عام فى كل المجالات، و مدرك واضح على حججه سنه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

و طبقا لهذا الأصل فإن جميع المسلمين ملزمون باتباع التعاليم المحمديه، و إطاعه أوامر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و اجتناب ما نهى عنه، سواء فى مجال المسائل المرتبطه بالحكومه الإسلاميه أو الاقتصاديه أو العباديه و غيرها، خصوصا أن الله سبحانه هدّد فى نهايه الآيه جميع المخالفين لتعاليمه بعذاب شديد.

بحوث

اشاره

١- مصارف الفىء

«الفىء» كما قلنا هو الغنائم التى يحصل عليها المسلمون بدون حرب، و هذه الأموال كانت توضع تحت تصرف الرسول صلى الله عليه و آله و سلم باعتبارها رئيسا للدولة

الإسلاميه، و هي أموال كثيره فى الغالب، و خاصّه فى بدايه الفتوحات الإسلاميه و يقدر لهذه الأموال أن تلعب دورا هاما فى تنميه الثروه فى المجتمع الإسلامى، خلافا لما كان متبعا فى الجاهليه حيث تقسّم هذه الأموال بين أغنياء القوم فقط، فى حين أنّها وضعت مباشره تحت تصرّف رئيس الدوله الإسلاميه فى التشريع الإسلامى فيصرفها كما يرى حسب الأولويات.

و كما قلنا فى بحث الأنفال فإنّ هذه الأموال تشكّل قسما من «الفىء»، و القسم الآخر من الفىء هو كلّ الأموال التى يكون مالکها مجهولا، كما وضّح ذلك فى الفقه الإسلامى، و تبلغ اثنتا عشره فقره، و بهذا فإنّ قسما كبيرا من النعم و الهبات الإلهيه توضع تحت تصرّف رئيس الدوله الإسلاميه عن هذا الطريق، و من ثمّ تحت تصرّف المحتاجين (1).

و يتّضح ممّا تقدّم أن لا- تضادّ بين الآيه الاولى و الآيه الثانيه، بالرغم من أنّ الآيه الاولى تضع الفىء تحت تصرّف شخص الرسول، و الآيه الثانيه توضّح لنا

ص: ١٨٢

١- ١) -الموارد الإثنى عشر للأنفال هى: ١-الأراضى التى تركها أهلها و رحلوا عنها ك(أراضى يهود بنى النضير). ٢-الأراضى التى تركها أصحابها برغبه منهم إلى رئيس الدوله الإسلاميه مثل (فدك). ٣-أراضى الموات. ٤-سواحل البحار. ٥-مجم الجبال. ٦-الوديان. ٧-الغابات و الآجام. ٨-الغنائم الحريه الثمينه الخاصّه بالملوك. ٩-ما يختاره قائد المسلمين من الغنائم العامه لنفسه. ١٠-الغنائم الحاصله من الحروب التى لم يأذن بها الحاكم الشرعى. ١١-المعادن. ١٢-ميراث من لا- وارث له. و من الطبيعى أنّ فى بعض الموارد أعلاه قد حصلت اختلافات بين الفقهاء إلّا أنّ الأكثريه الغالبه قد اعتبرت هذه الموارد، و يمكن مراجعه ذلك فى الكتب الفقهيّه.

ستهُ أبواب لمصارف الفىء، على أن يراعى فى صرفها الأولويات الخاصه.

و بتعبير آخر، فإنّ الرّسول صلّى الله عليه وآله و سلّم لا يريد الأموال لاموره الشخصيه، بل بعنوان قائد المسلمين و رئيس دولتهم يصرفها فى الأمور التى تحقّق مصلحه الدوله الإسلاميه بشكل عامّ.

و ممّا يجدر بالملاحظه أنّ هذا الحقّ ينتقل من بعد الرّسول صلّى الله عليه وآله و سلّم إلى الأئمّه المعصومين عليهم السّلام، و من بعدهم إلى نوابهم، يعنى (كلّ مجتهد جامع للشرائط) لأنّ الأحكام الإسلاميه لا تعطلّ، و الحكومه الإسلاميه من أهمّ المسائل التى يتعامل المسلمون معها. و قسم من هذه الاسس قننت ضمن الهيكل الاقتصادى العامّ للمجتمع الإسلامى، كما أنّها تمثّل مبدأ أساسيًا فى النظام الاقتصادى للدوله الإسلاميه.

٢- جواب على سؤال:

يمكن أن يطرح هذا السؤال: كيف ألزم الله سبحانه جميع الناس -بدون استثناء- بقبول التعاليم الصادره من قبل الرّسول صلّى الله عليه وآله و سلّم بدون قيد و شرط؟ و يتّضح الجواب على هذا السؤال بملاحظه أنّنا نعتبر الرّسول صلّى الله عليه وآله و سلّم معصوما، لذا كان هذا الحقّ له و لخلفائه المعصومين من بعده ضمن هذا الفهم أيضا.

و الملفت للنظر أنّ الروايات العديده قد أشارت لهذه المسأله أيضا، و هى أنّ الله سبحانه منح كلّ تلك الامتيازات للرّسول صلّى الله عليه وآله و سلّم لأنّ الله عزّ و جلّ اختبره و امتحنه بشكل كامل و لما له من خلق عظيم و سجايا حميده، لذا فوّض له مثل هذا الحقّ (١).

ص: ١٨٣

١- (١) -الروايات التى تناولت هذا البحث عديده يمكن مراجعتها فى ج ٥، ص ٢٧٩-٢٨٣ من تفسير نور الثقلين.

«فدك»: إحدى القرى المثمرة في أطراف المدينة، و تبعد ١٤٠ كم عن خيبر تقريبا، و لمّا سقطت قلاع «خير» في السنة السابعة للهجرة، الواحد تلو الاخرى أمام قوّه المسلمين، و اندحر اليهود.. جاء ساكنو فدك يطلبون الصلح مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و أعطوا نصف أراضيهم و بساتينهم لرسول الله و احتفظوا بالقسم الآخر لأنفسهم، و تعهدوا للرسول بزراعه أراضيهم و أخذ الاجره عوض الجهد الذي يبذلونه.

و من خلال ملاحظه التفاصيل التي وردت حول (الفىء) في هذه السوره، فإنّ هذه الأرض كانت من مختصات الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم و من صلاحيته أن يصرفها في شؤون الشخصيه، أو ما يراه من المصارف الاخرى التي أشير إليها في الآية السابعة من نفس هذه السوره، لذلك فإنّ الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم وهبها لابنته فاطمه عليها السلام.

و هذا الحديث صرح به الكثيرون من المؤرخين و المفسرين من أهل السنّه و الشيعه، و من جمله ما ورد في تفسير الدر المنثور، نقلا عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ (١) أنّه صلى الله عليه و آله و سلّم عند ما نزلت هذه الآية عليه أعطى فدكا لفاطمه. (أقطع رسول الله فاطمه فدكا) (٢).

و جاء في كتاب كنز العرفان، أنّه جاء في حاشيه مسند (أحمد) حول مسأله صله الرحم أنّه نقل عن أبى سعيد الخدرى أنّ الآية أعلاه عند ما نزلت على الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم دعا الرسول فاطمه، و قال: «يا فاطمه لك فدك» (٣).

و قد أورد الحاكم النيسابورى هذا المعنى في تأريخه (٤).

ص: ١٨٤

١- ١) - الروم، الآية ٣٨.

٢- ٢) - الدر المنثور، ج ٤، ص ١٧٧.

٣- ٣) - كنز العمال، ج ٢، ص ١٥٨.

٤- ٤) - يراجع كتاب فدك، ص ٤٩.

و قد ذكر ابن أبي الحديد قصّه فدك بصورة مفصّله فى شرح نهج البلاغه (١) ، كما ذكرت كذلك فى كتب اخرى كثيره.

إلا أنّ بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم كان يعتقد أنّ وجود (فدك) بيد زوجه الإمام على عليه السلام تمثّل قدره اقتصاديه يمكن أن تستخدم فى مجال التحرك السياسى الخاصّ بالإمام على عليه السلام. و من جهة اخرى كان هنالك موقف و تصميم على تحجيم حركه الإمام عليه السلام و أصحابه فى المجالات المختلفه، لذا تمّت مصادره تلك الأرض بذريعه

الحديث الموضوع: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث). مع أنّ (فدك) كانت بيد فاطمه عليها السلام، و ذو اليد لا يطالب بشهاده أو بينه. و الجدير بالذكر أنّ الإمام على عليه السلام قد أقام الشهاده على أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم قد منح فدكا إلى فاطمه.

إلا أنّهم مع كلّ هذا لم يرتّبوا أثرا على هذه الشهاده.

و قد استعملت قضيه فدك عبر العصور التاريخيه المختلفه كموضوع يراد التظاهر من خلاله بالودّ لأهل البيت عليهم السلام من قبل بعض الخلفاء و ذلك لمآرب سياسيه، فكانوا يرجعون فدكا لآل الرسول تاره، و يصادرونها ثانيه، و قد تكرر هذا الفعل عدّه مرّات فى فترات حكم خلفاء بنى اميه و بنى العباس.

و قصّه فدك و ما رافقها من أحداث مؤلمه وقعت فى صدر الإسلام هى من أكثر القصص ألما و حزنا، و فى نفس الوقت تكاد أن تكون من أكثر حوادث التاريخ عبره، و لا بدّ من التوقّف عندها و التأمل فى أحداثها المختلفه ضمن بحث محايد دقيق.

و الجدير بالملاحظه أنّه

روى مسلم فى صحيحه قال: (حدّثنى محمد بن رافع، أخبرنا حجين، حدّثنا ليث بن عقيل، عن ابن شهاب عن عروه بن الزبير عن عائشه، أنّها أخبرته أنّ فاطمه بنت رسول أرسلت إلى أبى بكر الصديق تسأله

ص: ١٨٥

ميراثها من رسول الله ممّا أفاء الله عليه بالمدينة و فدك و ما بقى من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إنّ رسول الله قال: «لا نورث ما تركناه صدقه إنّما يأكل آل محمّد فى هذا المال» و أنّى و الله لا اغتير شيئاً من صدقه رسول الله عن حالها التى كانت عليها فى عهد رسول الله... فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمه شيئاً، فوجدت فاطمه على أبى بكر فى ذلك. قال: فهجرته فلم تكلمه حتّى توفيت (١).

ص: ١٨٦

١-١) - صحيح مسلم، ج ٣ ص ١٣٨٠، حديث ٥٢ عن كتاب الجهاد.

اشاره

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ
يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٠)

التفسير

اشاره

السمات الأساسية للأنصار والمهاجرين والتابعين:

ص: ١٨٧

هذه الآيات-التي هي استمرار للآيات السابقة-تتحدث حول طبيعه مصارف الفىء السّته،التي تشمل الأموال و الغنائم التي حصل عليها المسلمون بغير حرب،وقد أوضحت الآيه المعنى باليتامى و المساكين و أبناء السبيل،مع التأكيد على المقصود من أبناء السبيل بلحاظ أنّهم يشكّلون أكبر رقم من عدد المسلمين المهاجرين فى ذلك الوقت،حيث تركوا أموالهم و وطنهم نتيجة الهجره، و كانوا فقراء بعد أن هجروا الدنيا من أجل دينهم.

يقول تعالى: **لِّلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ (١) يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ .**

هنا بيّنت الآيه ثلاثه أوصاف مهمّه و أساسيه للمهاجرين الأوائل،تتلخص ب (الإخلاص و الجهاد و الصدق).

ثمّ تتناول الآيه مسأله (ابتغاء فضل الله و رضاه)حيث تؤكد هذه الحقيقه و هى:أنّ هجرتهم لم تكن لدنيا أو لهوى نفس،و لكن لرضا الله و ثوابه.

و بناء على هذا ف(الفضل)هنا بمعنى الثواب.و«الرضوان»هو رضا الله تعالى الذى يمثّل مرحله أعلى من مرتبه الثواب.كما بيّنت ذلك آيات عديده فى القرآن الكريم،و منها ما جاء فى الآيه ٢٩ من سوره الفتح،حيث وصف أصحاب رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم بهذا الوصف **ثَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا .**

و لعلّ التعبير ب(الفضل)إشاره إلى أنّ هؤلاء المؤمنين يتصوّرون أنّ أعمالهم قليله جدّا لا تستحقّ الثواب،و يعتقدون أنّ الثواب الذى غمّهم هو لطف إلهى.

و يرى بعض المفسّرين«الفضل»هنا بمعنى الرزق،أى رزق الدنيا،فقد ورد فى بعض الآيات القرآنيه بهذا المعنى أيضا،و لكن بما أنّ المقام هو مقام بيان إخلاص المهاجرين،لذا فإنّ هذا المعنى غير مناسب،و المناسب هو الجزاء

ص: ١٨٨

كما لا يستبعد أن يكون المراد من «الفضل» إشارته للنعم الجسميه، و«الرضوان» هو إشارته للنعم الروحيه و المعنويه، و الجميع مرتبط بالآخره و ليس بالدنيا.

ثم إنَّ «المهاجرين» ينصرون المبدأ الحقَّ دائماً، و عوناً لرسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و لم يتوقفوا في جهادهم بهذا السبيل لحظه واحده (يرجى ملاحظه: أن فعل (ينصرون) بصيغه المضارع، و هو دليل على الاستمرار).

و من هنا يتضح أن هؤلاء المهاجرين ليسوا من أصحاب الادعاءات الفارغه، بل هم رجال حق و جهاد، و قد صدقوا الله بإيمانهم و تضحياتهم المستمره.

و في مرحله ثالثه يصفهم سبحانه بالصدق، و مع أن الصدق له مفهوم واسع، إلا أن صدق هؤلاء يتجسّد في جميع الأمور: بالإيمان، و في محبّه الرسول، و في التزامهم بمبدأ الحقّ..

و من الواضح أن هذه الصفات كانت لأصحاب الرسول في زمن نزول هذه الآيات، إلا أننا نعلم أن أشخاصاً من بينهم قد فرطوا بالنعم الإلهيه التي غمرتهم، و سلكوا سبيل الضلال كالذين أشعلوا نار حرب الجمل في البصره، و صنفين في الشام، و حاربوا خليفه رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم الذي كان واجب الطاعه بإجماع المسلمين، و أراقوا دماء الآلاف من المسلمين...

و في الآيه اللاحقه يستعرض سبحانه ذكر مورد آخر من موارد صرف هذه الأموال، و من بين ما يستعرضه في الآيه الكريمه أيضاً وصف رائع و معبر جدّاً عن طائفه الأنصار، و يكمل البحث الذي جاء في الآيه السابقه حول المهاجرين، فيقول سبحانه: وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ .

«تبوّؤا» من مادّه (بواء) على وزن (دواء) و هي في الأصل بمعنى تساوى أجزاء المكان، و بعبارة اخرى يقال: (بواء) لترتيب و تسويه مكان (ما)، هذا التعبير

كنايه لطيفه لهذا المعنى، و هو أنّ طائفه الأنصار-أهل المدينه-قد هَيَّؤوا الأرضيه المناسبه للهجره، و كما يخبرنا التاريخ فإنّ الأنصار قد مَوا مَرَّتَيْن إلى «العقبه»- و هى مضيق قرب مكّه- و بايعوا رسول الله متكرّرين، و رجعوا إلى المدينه مبلّغين، و معهم «مصعب بن عمير» ليعلمهم امور دينهم و ليهيئ الأرضيه المناسبه لهجره الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم.

و بناء على هذا فإنّ الأنصار لم يهيئوا بيوتهم لاستقبال المهاجرين فحسب، بل إنهم فتحوا قلوبهم و نفوسهم و أجواء مجتمعهم قدر المستطاع للتكيف فى التعامل مع وضع الهجره المرتقب.

و التعبير مِنْ قَبْلِهِمْ يوضح لنا أنّ كلّ تلك الأمور كانت قبل هجره مسلمى مكّه، و هذا أمر مهمّ.

و انسجاما مع هذا التفسير، فإنّ أنصار المدينه كانوا مستحقّين لهذه الأموال، و هذا لا يتنافى مع ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم أنّه أعطى شخصين أو ثلاثه أشخاص من الأنصار-فقط-من أموال بنى النضير، إذ من الممكن أن لا يكون بين الأنصار أشخاص فقراء و مساكين غير هؤلاء، بعكس المهاجرين فإنهم إن لم يكونوا مصداقا للفقير، فيمكن اعتبارهم مصداقا لأنباء السبيل (١).

ثمّ يتطرّق سبحانه إلى بيان ثلاث صفات اخرى توضّح روحيه الأنصار بصوره عامّه، حيث يقول تعالى: يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ .

فلا- فرق بين المسلمين فى وجهه نظرهم و المهمّ لديهم هو مسأله الإيمان و الهجره و هذا الحبّ كان يعتبر خصوصيه مستمرّه لهم.

و الأمر الآخر: وَ لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا فَهَمْ لَا- يطمعون بالغنائم التى أعطيت للمهاجرين، و لا يحسدونهم عليها، و لا حتّى يحسّون بحاجه

ص: ١٩٠

١- ١) -إلا أنّه و طبقا لتفسير آخر فإنّ (و الذين تبوؤوا الدار) تكون مبتدأ، و (يحبّون) خبرها، و إجمالا فإنّها تشكّل جمله مستقلّه، و لا ترتبط بالجمله السابقه التى تتحدّث حول مصاريف الفىء، إلا أنّ من الواضح أنّ التفسير الأوّل هو الأنسب.

إلى ما أعطى للمهاجرين منها، وأساساً فإنّ هذه الأمور لا- تخطر على بالهم. وهذه الصورة تعكس لنا منتهى السمو الروحي للأنصار.

و يضيف تعالى في المرحلة الثالثة إلى وصفهم وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (١).

و من هذه السمات الثلاث: «المحبّة» و«عدم الطمع» و«الإيثار»، كانت تتشكّل خصوصية الأنصار المتميّزة.

و نقل المفسّرون قصصاً متعدّدة في شأن نزول هذه الآيه:

يقول ابن عباس: إنّ الرّسول بيّن للأنصار يوم الانتصار على يهود بنى النضير، إذا كنتم ترومون المشاركة في حصّة المهاجرين من الغنائم فشاطروهم بتقسيم أموالكم و بيوتكم، وإذا أردتم أن تبقى بيوتكم و أموالكم لكم فلا شيء لكم من هذه الغنائم؟ فقال الأنصار: علام نتقاسم بيوتنا و أموالنا معهم، نقدّم المهاجرين علينا و لا نطمع بشيء من الغنائم؟ فنزلت هذه الآية تعظّم هذه الروح العالية (٢).

و نقراً

في حديث آخر أنّ شخصاً أتى رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلّم فتشكا إليه الجوع، فبعث رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلّم إلى منزله، فقالت زوجته: ما عندنا إلّا الماء، فقال رسول الله:

من لهذا الرجل الليلة، فتعجّده رجل من الأنصار و صحبه إلى بيته، و لم يكن لديه إلّا القليل من الطعام لأطفاله. و طلب أن يؤتى بالطعام إلى ضيفه و أطفأ السراج، ثم قال لزوجته: نؤمى الصبي، ثم جلس الرجل و زوجته على سباط الطعام فتظاهروا بالأكل و لم يضعوا شيئاً في أفواههم، و ظنّ الضيف أنّهم يأكلون معه، فأكل حتّى شبع و ناموا الليلة، فلمّا أصبحوا قدموا على رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلّم فنظر إليهم و تبسّم (دون أن يتكلّم)، فنزلت الآية أعلاه و أثنت على إيثارهم.

ص: ١٩١

١- ١) -«خصاصه» من مادّة (خصاص) على وزن (أساس) بمعنى الشقوق التي توجد في جدران البيت، و لأنّ الفقر في حياه الإنسان يمثّل شقاً، لذا عبّر عنه بالخصاصه.

٢- ٢) -مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٦٠.

و نقرأ فى الروايات التى وصلتنا عن طريق أهل البيت عليهم السّلام أنّ المضيف هو الإمام على عليه السّلام و أطفاله الحسن و الحسين عليهم السّلام، والمرأه التى نومت الصبيه جياعا هى فاطمه الزهراء عليها السّلام (١).

و يجدر الانتباه هنا إلى أنّ القصّه الاولى يمكن أن تكون سببا لنزول الآيه، و القصّه الثانيه من مصاديق تطبيق هذه الآيه الكريمه.

و بناء على هذا فإنّ نزول الآيات حول الأنصار لا يتنافى مع كون المضيف هو الإمام على عليه السّلام.

و ذكر البعض-أيضا- أنّ هذه الآيه نزلت فى مقاتلى غزوه احد، حيث أنّ سبعة أشخاص منهم جرحوا فى المعركه و قد أنهكهم العطش، فجىء بماء يكفى لأحدهم، فأبى أن يشرب و أوماً إلى صاحبه، و كان الساقى كلّمّا ذهب إلى أحدهم يشير إلى الآخر و يؤثّر على نفسه مع شدّه عطشه، إلى أن وصل إلى الأخير فوجده قد فارق الحياه ثمّ رجع إلى الأوّل فوجده قد فارق الحياه أيضا، و حتّى انتهى إليهم جميعا و هم موتى فأثنى الله تعالى على إثّارهم هذا (٢).

و لكن من الواضح أنّ هذه الآيه نزلت فى بنى النضير، و بسبب عموميه مفهومها فإنّها قابله للتطبيق فى موارد متشابهه.

و فى نهايه الآيه-و لمزيد من التأكيد لهذه الصفات الكريمه، و بيان تأثيرها الإيجابى العميق-يضيف سبحانه: وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

«الشحّ» كما يقول الراغب فى المفردات: البخل مقترنا بالحرص عاده.

«يوق» من مادّه وقايه، و بالرغم من أنّه بصيغه فعل مجهول، إلّا أنّه من الواضح أنّ الفاعل هو الله سبحانه، و يعنى أنّ كلّ شخص حفظه الله سبحانه من هذه الصفه الذميمه فإنّه سيفلح.

ص: ١٩٢

(١-١) -المصدر السابق.

(٢-٢) -مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٦٠.

و نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لأحد أصحابه: أ تدرى ما الشَّخُّ؟ فأجاب: هو البخيل، قال عليه السلام: «الشَّخُّ أشدُّ من البخل، إنَّ البخيل يبخل ممَّا فى يده، والشَّحِيح يشخُّ بما فى أيدي الناس، و على ما فى يده، حتَّى لا يرى فى أيدي الناس شيئاً إلَّا تمَنَّى أن يكون له بالحلِّ و الحرام، و لا يقنع بما رزقه الله عزَّ و جلَّ» (١).

و نقرأ

فى حديث ثانٍ: «لا- يجتمع الشَّخُّ و الإيمان فى قلب رجل مسلم، و لا يجتمع غبار فى سبيل الله و دخان جهنم فى جوف رجل مسلم» (٢).

و بالجملة، فما يستفاد بوضوح من الآيه أعلاه أنَّ ترك المرء للشَّخِّ يوصله إلى الفلاح، و من يتَّصف بهذه الصفه المذمومه فإنَّه يهدم بناء سعادته.

و فى آخر آيه مورد البحث يأتى الحديث عن آخر طائفه من المسلمين، الذين عرفوا بيننا باصطلاح القرآن الكريم بـ(التابعين)، و الذين يشكِّلون المجموعه الغالبه من المسلمين بعد المهاجرين و الأنصار الذين تحدَّث عنهم الآيات السابقه.

يقول تعالى: **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ .**

بالرغم من أنَّ بعض المفتِّرين قد حدَّد مفهوم هذه الآيه بمجموعه من الأشخاص الذين التحقوا بالمسلمين بعد انتصار الإسلام و فتح مكه، إلَّا أنَّه لا يوجد دليل على هذه المحدوديه الخاصه بل تشمل جميع المسلمين إلى يوم القيامه، و على فرض أنَّ هذه الآيه ناضره إلى فئه خاصه، إلَّا أنَّها عامه من حيث الملاك و المعيار و النتيجة.

و بهذا فإنَّ الآيات الثلاثه المتقدِّمه تشمل جميع مسلمى العالم، الذين

ص: ١٩٣

١- ١) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٩١، حديث ٦٤.

٢- ٢) -مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٦٢.

ينضون إلى واحد من هذه الطوائف الثلاثة، وهم: (المهاجرون و الأنصار و التابعون).

جمله وَ الَّذِينَ جَاءُوا... حسب الظاهر عطف على لِفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ و ذلك لبيان هذه الحقيقة، و هي أَنَّ أموال «الفىء» لا تنحصر بمحتاجى المهاجرين و الأنصار فقط، بل تشمل سائر المحتاجين من المسلمين على مرّ العصور.

و يحتمل أيضا أَنَّ الجملة مستقلة (بأن تكون جملة وَ الَّذِينَ جَاءُوا... مبتدأ (و يقولون) خبر) إِلَّا أَنَّ التفسير الأول - بالنظر إلى انسجامه مع الآيات السابقة - هو الأنسب.

و الملاحظ هنا هو أَنَّ الآية تذكر ثلاث صفات للتابعين:

الاولى: أَنَّهُمْ يَفْكُرُونَ فى إصلاح أنفسهم، و طلب العفو و المغفرة و التوبة من الله تعالى.

و الثانية: النظره المقترنه بالإكبار و الإجلال و الاحترام إلى من سبقهم بالإيمان، و يطلبون لهم أيضا العفو و المغفرة من الله تعالى.

الثالثة: أَنَّهُمْ يَسْعُونَ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ إلى تهذيب أنفسهم و تطهيرها من الحقد و الحسد و البغض و العدا، و يطلبون العون من الله الرؤوف الرحيم لمساعدتهم فى هذا الطريق.

و بهذا الترتيب فَإِنَّ خصوصياتهم هي: (تربيته النفس) و (الاحترام للسابقين فى الإيمان) و (الابتعاد عن الحسد و البغضاء).

«غَلٌّ» على وزن (سَلٌّ)، جاءت فى الأصل بمعنى نفوذ الشئ بخفيه، و لذا يقال للماء الجارى بين الأشجار (غلل) و لَأَنَّ الحسد و العداوة و البغضاء تنفذ فى قلب الإنسان بصورة خفيّة، يقال لها: «غل». و بناء على هذا فَإِنَّ (الغلّ) ليس فقط بمعنى الحسد، و لكنّه مفهوم واسع يشمل الكثير من الصفات الخفيّة و القبيحه أخلاقيا.

و التعبير ب(إخوان) والاستمداد من الرؤوف الرحيم فى نهايه الآيه يحكى عن روح المحبّه و الصفاء و الاخوّه التى يجب أن تسود المجتمع الإسلامى أجمع. فكلّ شخص يتمنّى صفه حسنه لا- يتمنّاها لنفسه فحسب، بل للآخرين أيضا، و لتشمل المجتمع بصورة عامّه، و بذلك تطهّر القلوب من كلّ أنواع العدا و البغضاء و الحسد و الحرص، و هذا هو المجتمع الإسلامى النموذجى.

بحث

اشاره

الصحابه فى ميزان القرآن و التاريخ:

يصرّ بعض المفسّرين -بدون الالتفات إلى الصفات التى مرّت بنا فى الآيات السابقه لكلّ من المهاجرين و الأنصار و التابعين- على اعتبار جميع الصحابه بدون استثناء متّصفين بجميع الصفات الإيجابيه (للمهاجرين و الأنصار و التابعين) و أنّهم نموذج يقتدى بهم من حيث نزاهتهم و طهرهم و التسامح فيما بينهم، و كلّ خلاف صدر منهم أحيانا سواء فى زمن الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أو من بعده فإنّهم يغضّون النظر عنه، و بهذا اعتبروا كلّ مهاجر و أنصارى و تابع شخصا محترما و مقدّسا بصورة عامّه، دون الالتفات إلى أعمالهم و تقييمها حسب الموازين الشرعيه.

إلاّ- أنّ الملاحظ أنّ فى الآيات أعلاه رفض واضح إزاء هذا الفهم، حيث تحدّد الآيه التقييم وفق ضوابط و موازين دقيقه للمهاجرين الحقيقيين و الأنصار و التابعين.

ففى «المهاجرين»: الإخلاص و الجهاد و الصدق.

و فى «الأنصار»: المحبّه للمهاجرين و الإيثار، و الابتعاد عن كلّ حرص و بخل.

و فى «التابعين»: بناء أنفسهم، و الاحترام للسابقين فى الإيمان، و الابتعاد عن

كلّ بغض و حسد.

و مع كلّ هذا، كيف يمكن أن نحترم الأشخاص الذين قاتلوا الإمام على عليه السّلام في معركة الجمل و شهروا سيفهم عليه، و لم يراعوا اخوته في الله، و لم يطهروا قلوبهم من البغض و الحسد تجاهه، و لا احترموا أسبقيته في الإيمان، و بعد كلّ ذلك لا يجوز لنا انتقادهم، بل يجب علينا التسليم و بدون نقاش لأحاديث هذا و ذاك دون تمحيص و تثبت.

و بناء على هذا فإنّنا في الوقت الذي نحترم فيه السابقين في خطّ الرساله و الإيمان، يجدر بنا أن ندقّق في سوابقهم و ملفّ فعالهم، سواء على عهد رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أو المخاضات المختلفه التي حدثت بعده في التأريخ الإسلامى، و على أساس الضوابط و المعايير الإسلاميه المستلهمه من هذه الآيات المباركات نحكم لهم أو عليهم، و عندئذ نقوى أواصرنا مع من بقى على العهد، و نقطعها أو نحدّدها - بما يناسب - مع من ضعفت روابطهم أو قطعوها مع تلك الموازين و الضوابط، و هذا هو المنطق الصحيح و المنسجم مع حكم القرآن و العقل.

ص: ١٩٦

اشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولُنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤)

سبب النزول

نقل بعض المفسرين سببا لنزول الآيات أعلاه،و الذي خلاصته ما يلي:

ص: ١٩٧

إِنَّ قَسْمًا مِنْ مَنَافِقِي الْمَدِينَةِ - كَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَ أَصْحَابِهِ - أَرْسَلُوا شَخْصًا إِلَى يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ وَ أَبْلَغَهُمْ بِمَا يَلِي: أَثْبَتُوا فِي أَمَاكِنِكُمْ بِقُوَّةٍ، وَ لَا تَخْرُجُوا مِنْ بِيُوتِكُمْ، وَ حَصَّنُوا قِلَاعَكُمْ، وَ سَيَكُونُ إِلَى جَنْبِكُمْ أَلْفَا مُقَاتِلٍ مِنْ قَوْمِنَا مُدَدٌ لَكُمْ، وَ إِنَّا مَعَكُمْ حَتَّى النِّهَايَةِ. كَمَا أَنَّ بَنِي قَرِيظَةَ وَ قَبِيلَةَ غُظْفَانَ وَ الْمُتَعَاظِفِينَ مَعَكُمْ سَيَلْتَحِقُونَ بِكُمْ أَيْضًا.

إِنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ - الَّتِي وَجَّهَهَا الْمَنَافِقُ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي إِلَى الْيَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ - أَوْجَدَتْ لَدَيْهِمُ الْإِصْرَارَ وَ الْعِنَادَ عَلَى مُخَالَفَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الْخُرُوجَ عَنْ أَمْرِهِ، وَ فِي هَذِهِ الْحَالِ أَنْبَرَى (سَلَامٌ) أَحَدُ كِبَارِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى «حَيِّ بْنِ أَخْطَبٍ» الَّذِي كَانَ أَحَدَ وَجُوهِ بَنِي النَّضِيرِ وَ قَالَ لَهُ: لَا تَهْتَمُّوا بِكَلَامِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، إِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَدْفَعَكُمْ لِقِتَالِ مُحَمَّدٍ وَ يَجْلِسَ فِي دَارِهِ وَ يَسْلَمَكُمْ لِلْحَوَادِثِ، قَالَ حَيٌّ: نَحْنُ لَا نَعْرِفُ شَيْئًا إِلَّا الْعَدَاءَ لَ (مُحَمَّدٍ) وَ الْقِتَالَ لَهُ، فَأُجَابَهُ سَلَامٌ: اقْسَمَ بِاللَّهِ أَنِّي أَرَاهُمْ سَيُخْرِجُونَا قَرِيبًا وَ يَهْدِرُونَ أَمْوَالَنَا وَ شُرْفَنَا وَ تَوْسِرَ أَطْفَالَنَا وَ يَقْتُلُ مَقَاتِلُونَا (١).

وَ أَخِيرًا تَبَيَّنَ الْآيَاتُ أَعْلَاهُ نَهَايَةَ الْمَطَافِ لِهَذَا الْمَشْهَدِ.

وَ يَعْتَقِدُ الْبَعْضُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ قَبْلَ قِصَّةِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ، حَيْثُ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْحَوَادِثِ الْمُسْتَقْبَلِيَةِ لِهَذِهِ الْوَقَائِعِ، وَ بِهَذَا اللَّحَاطِ فَإِنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَهَا إِحْدَى الْمَفْرَدَاتِ الْغَيْبِيَةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

وَ رَغْمَ أَنَّ التَّعَابِيرَ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ كَانَتْ بِصِيغَةِ الْمَضَارِعِ وَ بِذَلِكَ تَوْيِيدٌ وَجْهَ النَّظَرِ هَذِهِ، إِلَّا أَنَّ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بَعْدَ انْدِحَارِ بَنِي النَّضِيرِ وَ إِبْعَادِهِمْ عَنِ الْمَدِينَةِ، تَوَكَّدَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ أَيْضًا نَزَلَتْ بَعْدَ هَذَا الْحَادِثِ، وَ لَذَا كَانَ التَّعْبِيرُ بِصِيغَةِ الْمَضَارِعِ بِعَنْوَانِ حِكَايَةِ الْحَالِ.

«فَتَدَبَّرْ»

ص: ١٩٨

دور المنافقين في فتن اليهود:

بعد بيان ما جرى ليهود بنى النضير في الآيات السابقة، وبيان حاله الأصناف الثلاثة من المؤمنين (المهاجرين و الأنصار و التابعين) و خصوصيات كل منهم في الآيات مورد البحث، يتعرّض القرآن الكريم الآن لشرح حاله المنافقين و دورهم في هذا الحادث، و بيان حالهم بالقياس مع الآخرين، و هذا هو منهج القرآن الكريم، حيث يعرف كل طائفة بمقارنتها مع الاخرى.

و في البدايه يتحدث مع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم حيث يقول سبحانه: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ .

و هكذا فإن هؤلاء المنافقين و عدوا طائفة اليهود بأمور ثلاثة، و جميعها كانت كاذبه:

الأول: إذا أخرجتم من هذه الأرض فإننا سوف لن نبقي بعدكم نتطلع إلى خواء أماكنكم و دياركم.

و الأمر الآخر: إذا صدر أمر ضدكم من أى شخص، و فى أى مقام، و فى أى وقت، فإن موقفنا الرفض له و عدم الاستجابة.

و الأمر الثالث: إنه إذا وصل الأمر للقتال فإننا سوف نقف إلى جانبكم و لا نتردد فى نصرتكم أبدا.

نعم، هذه هى الوعود التى أعطاها المنافقون لليهود قبل هذا الحادث، إلاّ أنّ الحوادث اللاحقه أو ضحت كذب ادعاءاتهم و وعودهم.

و لهذا السبب يقول القرآن الكريم بصراحه وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

كم هو تعبير رائع و مثير و مقترن بتأكيدات عديده، من شهادة الله عزّ و جلّ، و كون الجملة اسميه، و كذلك الاستفادة من (إنّ) و اللام للتأكيد، و كلّها تفيد أنّ

الكذب و النفاق ممتزجان بهم لحدّ لا يمكن فصلهما، لقد كان المنافقون كاذبين دائماً، و الكاذبون منافقين غالباً.

و التعبير ب(إخوانهم) يوضح لنا طبيعته العلاقه الحميمه جدّا بين «المنافقين» و «الكفّار»، كما ركّزت الآيات السابقه على علاقه الاخوه بين المؤمنين، مع ملاحظه الاختلاف بين الفصيلتين، و هو أنّ المؤمنين صادقون فى اخوتهم لذلك فهم لا يتبرّمون بكلّ ما يؤثرون به على أنفسهم، على عكس المنافقين حيث ليس لهم وفاء أو مواساه بعضهم لبعض، و تتبيّن حقيقتهم بصوره أوضح فى اللحظات الحرجه حيث يتخلّعون عن أقرب الناس لهم، بل حتّى عن إخوانهم، و هذا هو محور الاختلاف بين نوعين من الاخوه، اخوه المؤمنين و اخوه المنافقين.

و جمله: **وَلَا تُطِيعُوا فِئْتَكُمْ أَحَدًا بِأَيْدٍ تَشِيرُ إِلَى مَوْقِفِ الْمُنَافِقِينَ** الذى أعلنوه لليهود بأنّهم سوف لن يراعوا التوصيات و الإنذارات التى أطلقها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم فيهم.

ثم.. للإيضاح و التأكيد الأكثر حول كذب المنافقين يضيف سبحانه:

لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ

وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ

وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ

ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ

إنّ اللحن القاطع و القوى لهذه الآيات قد أدخل الرعب و الهلع فى قلوب المنافقين و أقلق بالهم.

و بالرغم من أنّ الآيه نزلت فى مورد معيّن، إلّا أنّها-من المسلم-لا تختص به، بل بيان أصل عامّ فى علاقه المنافقين مع سائر أعداء الإسلام، بالإضافة إلى الوعود الكاذبه التى يمنحها كلّ منهم للآخر، و تقرّر بطلان و خواء كلّ هذه الروابط و الوعود.

و لا يختص هذا الأمر بما حدث تأريخيا في صدر الإسلام، بل إننا نلاحظ اليوم بأعيننا نماذج و صورا حيّة لا تخفى على أحد، في طبيعه تعامل المنافقين في الدوله الإسلاميه مع مختلف الفصائل المعاديه للإسلام، و سوف تصدق أيضا في المستقبل القريب و البعيد. و من المسلم أنّ المؤمنين الصادقين إذا التزموا بواجباتهم فإنهم سينتصرون عليهم، و يحبطون خططهم.

□

و الآية اللاحقه تتحدّث عن سبب هذا الاندحار، حيث يقول سبحانه: لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ .

و لأنّهم لا يخافون الله، فإنّهم يخافون كلّ شيء خصوصا إذا كان لهم أعداء مؤمنون مثلكم ذلك بأنّهم قوم لا يفقهون . □

«رهبه» في الأصل بمعنى الخوف المقترن بالاضطراب و الحذر، فهو خوف عميق له جذور و تظهر آثاره في العمل.

و بالرغم من أنّ الآية أعلاه نزلت في يهود بنى النضير و أسباب اندحارهم أمام المسلمين، إلّا أنّ مقصودها حكم عام و كلّى، لأنّه لن يجتمع في قلب الإنسان خوفان: الخوف من الله، و الخوف من غيره. لأنّ كلّ شيء مسخر بأمر الله، و كلّ إنسان يخشى الله و يعلم مدى قدرته لا ينبغي أن يخاف من غيره.

إنّ مصدر جميع هذه الآلام هو الجهل و عدم إدراك حقيقه التوحيد، و لو كان مسلمو اليوم بالمعنى الواقعي (يعنى مؤمنين موحّدين حقّا) فإنّهم لا يقفون بشجاعه أمام القوى الكبرى بإمكاناتها الماديه و العسكريه فحسب، بل إنّ القوى الكبرى هي التي تخشاهم و تخاف منهم، كما نلاحظ نماذج حيّه لهذا المعنى، حيث نرى دولا كبرى مع ما لديها من الأسلحه و الوسائل المتطوّره تخشى شعبا صغيرا لأنّه مسلّح بالإيمان و متّصف بالنضحيه.

و شبهه هذا المعنى ما ورد في قوله تعالى: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا

الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ

(١)

ثمَّ يستعرض دليلا واقعيًا واضحًا يعبر عن حاله الخوف والاضطراب حيث يقول سبحانه: لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ .

«قرى» جمع قرية، أعَمَّ من المزروعه و غير المزروعه، و تأتي أحيانا بمعنى الناس المجتمعين في مكان واحد.

«محصّنه» من مادّه (حصن) على وزن «جسم» بمعنى مسوّره، و بناء على هذا فإنّ (القرى المحصّنه) تعنى القرى التى تكون فى أمان بوسيله أبراجها و خنادقها و المواضع التى تعيق تقدّم العدو فيها.

«جدر» جمع جدار، و الأساس لهذه الكلمه بمعنى الارتفاع و العلو.

نعم، بما أنّهم خرجوا من حصن الإيمان و التوكّل على الله، فإنّهم بغير الالتجاء و الاتّكاء على الجدران و القلاع المحكمه لا يتجرّؤون على مواجهه المؤمنين.

ثمَّ يوضّح أنّ هذا ليس ناتجا عن جهل بمعرفه فنون الحرب، أو قلّه فى عددهم و عدّتهم، أو عجز فى رجالهم، بل إنّ بأسهم يبيّنهم شديد .

إلا أنّ المشهد الذى عرض يتغيّر فى حاله مواجهتهم لكم و يسيطر عليهم الرعب و الاضطراب بصوره مذهله.

و هذا الأمر تقريبا يمثّل أصلا كليًا فى مورد اقتتال الفئات غير المؤمنه فيما بينهم، و كذلك محاربتهم للمؤمنين.

و نشاهد مصاديق هذا المعنى بصوره متكرّره أيضا فى التأريخ المعاصر، حيث نلاحظ عند اشتباك مجموعتين غير مؤمنتين مع بعضهما شدّه الفتك و قسوه الانتقام و شراسه المواجهه بينهما بصوره لا تدعو للشكّ فى قوّه كلّ منهما...و لكن لو تغيّرت المعادله، و أصبحت المواجهه بين مجموعه غير مؤمنه بالله و اخرى مؤمنه مستعدّه للشهاده فى سبيل الله، عند ذلك نرى أعداء الحقّ يلوذون إلى القلاع

ص: ٢٠٢

المحكمه و يخفون أنفسهم فى الموضع و وراء المتاريس و خلف الأسلحه، و يسيطر عليهم الخوف و يهيمن عليهم الرعب و يملأ كل وجودهم، و الحقيقه أنّ المسلمين إذا جعلوا إيمانهم و قيمهم الإسلاميه هى الأساس فإنّهم منتصرون و متفوقون على الأعداء بلا ريب.

و لهذا السبب- و استمرارا لما ورد فى نفس الآيه- نستعرض سببا آخر من أسباب اندحار المنافقين، حيث يقول سبحانه: تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ .

«شَتَّى» بمعنى (شتيت) أى متفرق.

إنّ القرآن الكريم فى تحليل المسائل بشكل دقيق جدّا و ملهم يؤكّد على أنّ (التفرقه و النفاق الداخلى) وليده (الجهل و عدم المعرفة) لأنّ الجهل عامل الشرك، و الشرك عامل للتفرقه، و التفرقه تسبّب الهزيمه. و بالعكس فإنّ «العلم» عامل لوحده العقيدة و العمل و الانسجام و الاتّفاق، و هذه الصفات بحدّ ذاتها مصدر للانتصار.

و هكذا فإنّ الانسجام الظاهرى للعناصر غير المؤمنه و الاتفاقيات العسكريه و الاقتصاديه يجب ألاّ نخدعنا أبدا، لأنّ وراءها قلوب متناحره متنافره، و دليلها واضح و هو انهماك كلّ منهم بمنافعه الماديه بشكل شديد، و بما أنّ المنافع غالبا ما تكون متعارضه، فعندئذ تبرز الاختلافات و الشحناء فيما بينهم، و لن تغنى عن ذلك العهود و الاتفاقيات و شعارات الوحده و الانسجام الظاهرى. فى الوقت الذى تكون فيه وحده و انسجام المؤمنين على قواعد و اصول ربّانيه كأصل الإيمان و التوحيد و القيم الإلهيه، و إذا أصيب المسلمون بانتكاسه فى أعمالهم فإنّ ذلك دليل على ابتعادهم عن حقيقه الإيمان و ما لم يعودوا إلى الإيمان فإنّ وضعهم لن يتحسن.

اشاره

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتُهُمْ أَنَّهُمْ فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْظُرُوا نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)

التفسير

اشاره

حيل الشيطان و الممالك:

يستمرّ البحث في هذه الآيات حول قصّه بنى النضير و المنافقين و رسم

خصوصيه كل منهم فى تشبيهين رائعين:

يقول سبحانه فى البدايه: كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١).

تحدّثنا هذه الآيه عن ضروره الاعتبار بما جرى لبنى النضير و القوم الذين كانوا من قبلهم و ما جرى لهم، خاصّه و أنّ الفتره الزمنيه بين الحادثتين غير بعيدة.

و يعتقد البعض أنّ المقصود بقوله: الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ هم مشركو مكّه الذين ذاقوا مراره الهزيمه بكلّ كبريائهم فى غزوه «بدر»، و أنهكتهم ضربات مقاتلى الإسلام، لأنّ هذه الحادثه لم يمرّ عليها وقت طويل بالنسبه لحادثه بنى النضير، ذلك لأنّ حادثه بنى النضير - كما أشرنا سابقا - حدثت بعد غزوه «احد»، و غزوه بدر قبل غزوه احد بسنه واحده، و بناء على هذا فلم يمض وقت طويل بين الحادثتين.

فى الوقت الذى يعتبرها كثير من المفسّرين إشاره إلى قصّه يهود «بنى قينقاع»، التى حدثت بعد غزوه بدر، و انتهت بإخراجهم من المدينه.

و طبعى أنّ هذا التفسير مناسب أكثر - حسب الظاهر - باعتباره متلائما أكثر مع يهود بنى النضير، لأنّ يهود بنى قينقاع كيهود بنى النضير كانوا ذوى ثراء و مغرورين بقدرتهم القتاليه، يهدّدون رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و المسلمين بقوّتهم و قدرتهم العسكريه - كما سنذكر ذلك تفصيلا إن شاء الله - إلا أنّ العاقبه لم تكن غير حصاد التيه و التعاسه فى الدنيا و العذاب فى الآخره.

«و بال» بمعنى (عاقبه الشؤم و المراره) و هى فى الأصل مأخوذه من (وابل) بمعنى المطر الغزير، لأنّ المطر الغزير غالبا ما يكون مخيفا و يقلق الإنسان من عاقبته المرتقبه، كالسيول الخطره و الدمار و ما إلى ذلك.

ص: ٢٠٥

ثم يستعرض القرآن الكريم تشبيهها للمنافقين حيث يقول سبحانه: كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١).

ما المقصود بـ«الإنسان» في هذه الآية؟ هل هو مطلق الإنسان الذي يقع تحت تأثير الشيطان، و ينخدع بأحاييله و وعوده الكاذبه، و يسير به في طريق الكفر و الضلال، ثم إن الشيطان يتركه و يتبرأ منهم؟.

أو أن المقصود به شخص خاص أو (إنسان معين) كأبي جهل و أتباعه، حيث أن ما حصل لهم في غزوه بدر كان نتيجة تفاعلهم مع الوعود الكاذبه للشيطان، و أخيرا ذاقوا و بال أمرهم و طعم المراره المؤلمه للهزيمه و الانكسار، كما في قوله تعالى: وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢).

أو أن المقصود منه هنا هو (برصيصا) عابد بنى إسرائيل، حيث انخدع بالشيطان و كفر بالله، و في اللحظات الحاسمه تبرأ الشيطان منه و ابتعد عنه، كما سيأتى شرح ذلك إن شاء الله...؟ التفسير الأول هو الأكثر انسجاما مع مفهوم الآية الكريمه، أما التفسيران الثانى و الثالث فنستطيع أن نقول عنهما: إنهما بيان بعض مصاديق هذا المفهوم الواسع.

ص: ٢٠٦

١ - ١) - بالرغم من أن التعبير بـ (كمثل) في هذه الآية و فى الآية السابقيه متشابهان، فإن بعض المفسرين اعتبر الإثنين دليلا على مجموعه واحده، إلا أن القرائن تبين بوضوح أن الأول يحكى وضع يهود بنى النضير، و الثانى يحكى وضع المنافقين، و على كل حال فإن هذه العبارة أيضا خبر لمبتدأ محذوف تقديره مثلهم كمثل الشيطان.

٢ - ٢) - الأنفال، الآية ٤٨.

و على كل حال فإنَّ العذاب الذى يخشاه الشيطان-فى الظاهر-هو عذاب الدنيا، و بناء على هذا فإنَّ خوفه جدِّى و ليس هزلا أو مزاحا، ذلك لأنَّ الكثير من الأشخاص يخشون العقوبات الدنيوية المحدوده، إلا أنَّهم لا يابهون للعقوبات البعيده المدى و لا يعيرون لها اهتماما.

نعم، هكذا حال المنافقين حيث يدفعون بحلفائهم من خلال الوعود الكاذبه و المكر و الحيله إلى اتون المعارك و المشاكل ثم يتركونهم لوحدهم، و يتخلون عنهم، لأنَّ الوفاء لا يجتمع و النفاق.

و تتحدَّث الآيه اللاحقه عن مصير هاتين الجماعتين (الشيطان و أتباعه، و المنافقين و حلفائهم من أهل الكفر) و عاقبتهم بالبائسه، حيث النار خالدين فيها، فيقول سبحانه عنهم: فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١).

و هذا أصل كلِّى فإنَّ عاقبه تعاون الكفر و النفاق، و الشيطان و حزبه، هو الهزيمه و الخذلان، و عدم الموفقيه، و عذاب الدنيا و الآخره، فى الوقت الذى تكون ثمره تعاون المؤمنين و أصدقائهم تعاون وثيق و بناء، و عاقبه الخير و نهايته الإنتصار و التمتع بالرحمه الإلهيه الواسعه فى عالم الدنيا و الآخره.

و توجه الآيه اللاحقه حديثها للمؤمنين بعنوان استنتاج من حاله الشؤم و البؤس التى اعترت المنافقين و بنى النصير و الشياطين، حيث يقول تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتُنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ

(٢)

ثم يضيف تعالى مره اخرى للتأكيد بقوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

ص: ٢٠٧

١- ١) -«عاقبتهم» خبر «كان» و منصوب، و(إنَّهما فى النار) جاءت بمكان اسم كان و«خالدين» حال لضمير «هما».

٢ - ٢) -«ما» فى (ما قَدَّمَتْ لغد) هل أنَّها موصوله أو استفهاميه؟ هناك احتمالا-ن، و الآيه الشريفه لها القدره على تقبل الاحتمالين، بالرغم من أنَّ الاستفهاميه أنسب.

نعم، التقوى و الخوف من الله يدعوان الإنسان للتفكير بيوم غده (القيامة) بالإضافة إلى السعى إلى تنقيه و تخليص و تطهير أعماله.

إنّ تكرار الأمر بالتقوى هنا تأكيد محفّز للعمل الصالح، كما أنّ الرادع عن ارتكاب الذنوب هو التقوى و الخوف من الله تعالى.

و احتمال البعض أنّ الأمر الأوّل للتقوى هو بلحاظ أصل إنجاز الأعمال، أمّا الثانى فإنّه يتعلّق بطبيعته الإخلاص فيها.

أو أنّ الأوّل ملاحظ فيه إنجاز أعمال الخير، بقرينه جملة (ما قدّمت). و الثانى ملاحظ فيه ما يتعلّق بتجنّب المعاصى و الذنوب.

أو أنّ الأوّل إشاره إلى التوبة من الذنوب الماضيه، و الثانى (تقوى) للمستقبل.

إلاّ أنّه لا توجد قرينه فى الآيات لهذه التفاسير، لذا فإنّ التأكد أنسب.

و التعبير ب(غد) إشاره إلى يوم القيامة، لأنّه بالنظر إلى قياس عمر الدنيا فإنّه يأتى مسرعا، كما أنّ ذكره هنا بصيغه النكره جاء لأهميته.

و التعبير ب(نفس) دلالة على مفرد، و يمكن أن تعنى كلّ نفس، يعنى كلّ إنسان يجب أن يفكر ب(غده) بدون أن يتوقع من الآخرين إنجاز عمل له، و ما دام هو فى هذه الدنيا فإنّه يستطيع أن يقدم لآخرته بإرسال الأعمال الصالحة من الآن إليها.

و قيل أنّه إشاره إلى قلّه الأشخاص الذين يفكرون بيوم القيامة، كما نقول:

(يوجد شخص واحد يفكر بنجاء نفسه) إلاّ- أنّ التفسير الأوّل هو الأنسب حسب الظاهر، كما أنّ خطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عموميه الأمر بالتقوى، دليل على عموميه مفهوم الآية.

و أكّدت الآية اللاحقه بعد الأمر بالتقوى و التوجّه إلى يوم القيامة على ذكر الله سبحانه، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾.

و أساسا فإنّ جوهر التقوى شيان: ذكر الله تعالى، و ذلك بالتوجّه و الانشداد إليه من خلال المراقبه الدائم منه و استشعار حضوره فى كلّ مكان و فى كلّ

الأحوال، والخشية من محكمه عدله و دقّه حسابيه الذى لا يغادر صغيره و لا كبيره إلاّ أحصاها فى صحيفه أعمالنا.. و لذا فإنّ التوجّه إلى هذين الأساسين (المبدأ و المعاد) كان على رأس البرامج التربويه للأنبياء و الأولياء، و ذلك لتأثيرها العميق فى تطهير الفرد و المجتمع.

و النقطة الجديره بالملاحظه أنّ القرآن الكريم يعلن هنا-بصراحه-أنّ الغفله عن الله تسبّب الغفله عن الذات، و دليل ذلك واضح أيضا، لأنّ نسيان الله يؤدّى من جهه إلى انغماس الإنسان فى اللذات الماديه و الشهوات الحيوانيه، و ينسى خالقه، و بالتالى يغفل عن ادّخار ما ينبغى له فى يوم القيامه.

و من جهه اخرى فإنّ نسيان الله و نسيان صفاته المقدّسه و أنّه سبحانه هو الوجود المطلق و العالم اللامتناهى، و الغنى اللامحدود.. و كلّ ما سواه مرتبط به، و محتاج لذاته المقدّسه.. كلّ ذلك يسبّب أن يتصوّر نفسه مستقلا و مستغنيا عن المبدأ (1).

و أساسا فإنّ النسيان-بحدّ ذاته-من أكبر مظاهر تعاسه الإنسان و شقائه، لأنّ قيمه الإنسان فى قابلياته و لياقاته الذاتيه و طبيعه خلقه التى تميّزه عن الكثير من المخلوقات، و إذا نسيها فهذا يعنى نسيان إنسانيته، و فى مثل هذه الحاله يسقط الإنسان فى وحل الحيوانيه، و يصبح همّه الأكل و الشرب و النوم و الشهوات.

و هذه كلّها عامل أساس للفسق و الفجور، بل إنّ نسيان الذات هو من أسوأ مصاديق الفسق و الخروج عن طاعه الله، و لهذا يقول سبحانه: **أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** .

و ممّا يجدر بيانه أنّ الآيه لم تقل «لا تنسوا الله»، بل وردت بعبارته **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ** أى كالأشخاص الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، و هى

ص: ٢٠٩

فى الحقيقه بيان مصداق حسى و واضح يمكن للإنسان أن يرى فيه عاقبه نسيان الله تعالى.

و الظاهر أنّ المقصود فى هذه الآيه هم المنافقون و الذين أشير لهم فى الآيات السابقه، أو أنّ الملاحظ فيها هم يهود بنى النضير، أو كلاهما.

و جاء نظير هذا المعنى فى قوله تعالى: الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١).

و مع وجود قدر من التفاوت بين الآيتين، أنه ذكر نسيان الله هناك كسبب لقطع رحمه الله عن الإنسان، و فى هذه الآيه محل البحث سبب لنسيان الذات. و بالتالى فإنّ الآيتين تنتهيان إلى نقطه واحده. «فلاحظ» و فى آخر آيه-مورد البحث-يستعرض سبحانه مقارنة بين هاتين الجماعتين: الجماعة المؤمنه المتقيه السائره باتجاه المبدأ و المعاد، و الجماعة الغافله عن ذكر الله، التى ابتليت كنتيجته للغفله عن الله بنسيان ذاتها.

حيث يقول سبحانه: لَا يَسْتَوِ أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ .

ليس فى الدنيا، و لا- فى المعتقدات، و ليس فى طريقه التفكير و المنهج، و ليس فى طريقه الحياه الفرديه و الاجتماعيه للإنسان و أهدافه، و لا فى المحصّله الأخرويه و الجزاء الإلهى.. إذ أنّ خطّ كلّ مجموعه من هاتين المجموعتين فى اتجاه متعارض.. متعارض فى كلّ شىء و كلّ مكان و كلّ هدف.. إحداهما تؤكّد على ذكر الله و القيامه و إحياء القيم الإنسانيه الرفيعه، و القيام بالأعمال الصالحه كذخيرته ليوم لا ينفع فيه مال و لا بنون.. و الاخرى غارقه فى الشهوات و اللذات الماديه، و أسيره الأهواء و مبتليه بالنسيان (٢).. و بهذا فإنّ الإنسان على مفترق

ص: ٢١٠

(١ - ١) - التوبه، الآيه ٦٧.

(٢ - ٢) - حذف المتعلّق أى متعلّق «لا يستوى» دليل على العموم.

طريقين، إمّا أن يرتبط بالقسم الأوّل، أو بالقسم الثّاني، وليس غيرهما من سبيل آخر.

و في نهايه الآيه نلاحظ حكما قاطعا حيث يضيف سبحانه: أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ .

فليس في الدار الآخرة فقط يوجد (فائزون و خاسرون) بل في هذه الدنيا أيضا، حيث يكون الانتصار و النجاه و السكينه من نصيب المؤمنين المتّقين، كما أنّ الهزيمة و الخسران في الدارين تكون من نصيب الغافلين.

و نقرأ في حديث لرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه فسّر (أصحاب الجنّه) بالأشخاص الذين أطاعوه، و تقبلوا ولايه على عليه السّلام. و أصحاب النار بالأشخاص الذين رفضوا ولايه على عليه السّلام، و نقضوا العهد معه و حاربوه (١).

و طبيعي أنّ هذا أحد المصاديق الواضحه لمفهوم الآيه، و لا يحدّد عموميتها.

بحوث

اشاره

١- التعاون العقيم مع أهل النفاق

إنّ ما جاء في الآيات أعلاه حول نقض العهد من قبل المنافقين و التخلّي عن حلفائهم في المواقف الحرجه و الحاسمه، هو مسأله ملاحظه في حياتنا العمليه أيضا.. إنّهم شياطين يعدون هذا و ذاك بالعون و الدعم و يدفعونهم إلى لهوات الموت، و لكن حينما تحين ساعه الجدّ و الضيق يتخلّون عنهم و يهربون منهم حفاظا على أنفسهم، بالإضافة إلى أنّهم يملؤون قلوبهم بالشكّ و الوسوسه و يدنسونه بمختلف الذنوب.

ص: ٢١١

و ليعلم بهذا كل من يروم التعاون مع النفاق و أهله، حيث سيلقى نفس المصير السابق.

و النموذج الذى نلاحظه فى عصرنا هو: طبيعه الاتفاقات التى تبرمها القوى الكبرى و الشياطين المعاصرين مع رؤساء الحكومات المرتبطه بهم، و الذى نلاحظه بصورة متكرره أنّ هذه الدول بالرغم من أنّها وضعت كلّ ما تملك فى طبق و قدّمت لهؤلاء المستكبرين.. إلّا أنّ هؤلاء خذلواهم فى المواطن الصعبة و الساعات الحرجه، فتركوهم لوحدهم حيث تتقاذفهم أعاصير المحن و أمواج الأزمات، و حيث يتجسّد فيهم قول الله تعالى كما ورد فى القرآن الكريم بشأنهم:

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِئٌ مِّنْكُمْ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ

٢- قصه العابد (برصيصا)

نقل بعض المفسرين و أئمه الحديث فى نهايه الآيات روايه قصيره عن عابد إسرائيلى اسمه (برصيصا) و هذه القصه فى الحقيقه يمكن أن تكون موضع اعتبار و عظه للبشرية أجمع، كى يتجنبوا طريق الهلاك، و يحذروا من الوقوع فى مصيده الشراك الشيطانيه النخره و التى تكون نتيجهتها- حتما- السقوط فى الهاويه.

و خلاصه ما جاء فى هذه القصه ما يلى:

يدعى «برصيصا» قد عبد الله زمانا من الدهر حتّى كان يؤتى بالمجانين يداويهم و يعوذهم فيبرءون على يديه، و أنّه أتى بامرأه قد جنّت و كان لها اخوه فأتوه بها فكانت عنده، فلم يزل به الشيطان يزيّن له حتّى وقع عليها فحملت، فلمّا استبان حملها قتلها و دفنها، فلمّا فعل ذلك ذهب الشيطان حتّى لقى أحد إخوتها فأخبره بالذى فعل الراهب و أنّه دفنها فى مكان كذا، ثمّ أتى بقيه إخوتها، و هكذا انتشر الخبر فساروا إليه فاستنزلوه فأقرّ لهم بالذى فعل، فامر به فصلب، فلمّا رفع

على خشيته تمثّل له الشيطان فقال: أنا الذى ألقى فى قلوب أهلها، وأنا الذى أوقعتك فى هذا، فأطعنى فيما أقول أخلصك ممّا أنت فيه، قال نعم. قال: اسجد لى سجده واحده، فقال: كيف أسجد لك و أنا على هذه الحاله، فقال: أكتفى منك بالإيماء، فأومى له بالسجود فكفر بالله و قتل، فهو قوله تعالى: كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ... (١).

نعم هكذا هو مصير من ابتلى بوسوسه الشيطان و سار فى خطّه.

٣- ما ينبغى عمله

أكدت الآيات محل البحث وجوب اهتمام الإنسان بما يرسله من متاع سلفا لغده فى يوم القيامة، قال تعالى: وَ لَتَنْظُرُنَّ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ حَيْثُ أَنَّ هذه الذخيره الاخرويه تمثّل أكبر رأسمال حقيقى للإنسان فى مشهد يوم القيامة، لذا فإنّ هذا النوع من الأعمال الصالحه يلزم إعداداه و تهيئته و إرساله مسبقا، وإلا فلا أحد يهتم له بعد وفاته و انقضاء أجله، وإذا أرسل شيئا فليس له شأن يذكر.

قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: «تصدّقوا و لو بصاع من تمر، و لو ببضع صاع و لو بقبضه، و لو ببعض قبضه، و لو تمره، و لو بشقّ تمره، فمن لم يجد فبكلّمه طيّبه، فإنّ أحدكم يلقى الله، فيقال له: ألم أفعل بك، ألم أفعل بك، أ لم أجعلك سميعا بصيرا، أ لم أجعل لك مالا و ولدا؟ فيقول: بلى، فيقول الله تبارك و تعالى: فانظر ما قدّمت لنفسك، قال: فينظر قدّامه و خلفه و عن يمينه و عن شماله، فلا يجد شيئا يقى به وجهه من النار» (٢).

و نقرأ

فى حديث آخر أنّ الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم كان جالسا مع عدد من أصحابه، إذ

ص: ٢١٣

١ - ١) - مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٦٥، تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٥١٨، وجاءت هذه القصّه مفضّله أكثر فى روح البيان، ج ٩، ص ٤٤٦.

٢ - ٢) - نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٩٢.

دخل قوم من قبيله «مضر»، متقلدين السيف و متهيئين للجهاد فى سبيل الله، إلا أن ملابسهم رثه، فعند ما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم آثار الطاقه و الجوع عليهم، تغيرت ملامح وجهه، فدعا الناس إلى المسجد و ارتقى المنبر، فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: «أما بعد، ذلكم فإن الله أنزل فى كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ...﴾ تصدقوا قبل أن لا تصدقوا، تصدقوا قبل أن يحال بينكم و بين الصدقه، تصدق امرؤ من ديناره، تصدق امرؤ من درهمه، تصدق امرؤ من برّه، من شعيره، من تمره، لا يحقرن شىء من الصدقه و لو بشق تمره».

فقام رجل من الأنصار، و أعطى كيسا لرسول الله صلى الله عليه وآله و سلم فظهرت آثار الفرحه و السرور على وجهه المبارك، ثم قال صلى الله عليه وآله و سلم: «من سنّ فى الإسلام سنّه حسنه فعمل بها كان له أجرها و مثل أجر من عمل بها، لا ينقص من أجورهم شيئا، و من سنّ سنّه سيئه فعمل بها كان عليه وزرها و وزر من عمل بها، لا ينقص من أوزارهم شيئا. فقام الناس فتفرقوا فمن ذى دينار و من ذى درهم و من ذى طعام و من ذى و من ذى فاجتمع فقسّمه بينهم».

و قد أكدت هذا المعنى آيات قرآنيه اخرى و لمّرات عديده، و من جمله ذلك ما ورد فى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ مَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١).

ص: ٢١٤

اشاره

لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصِفًا دُعَاءَ مَنْ خَشِيَهِ اللَّهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)

التفسير

اشاره

لو نزل القرآن على جبل:

تكملة للآيات السابقة التي كانت تهدف إلى تحريك النفوس و القلوب الإنسانية، و خاصه عن طريق التذكير بالنهايه التي يكون عليها الإنسان، و المصير

الذى ينتظره، والذى يجدر أن يهيئه في أبهى وأفضل صورته.. تأتي هذه الآيات المباركات التى هى آخر آيات سورة الحشر، التى تأخذ بنظر الاعتبار مجمل ما ورد من آيات هذه السورة، لتوضح حقيقته اخرى حول القرآن الكريم، وهى: أن هذا الكتاب المبارك له تأثير عميق جداً حتى على الجمادات، حيث أنه لو نزل على الجبال لَهَزَّها وحَرَكها وجعلها فى وضع من الاضطراب المقترن بالخشوع..

إلاَّ أنه- مع الأسف- هذا الإنسان القاسى القلب يسمع آيات الله تتلى عليه ولا تتحرك روحه ولا يخشع قلبه، يقول سبحانه: لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

فسيّر الكثير من المفسرين هذه الآيات بأنها تشبيه، وقالوا: إن الهدف من ذلك هو بيان أن هذه الآيات إذا نزلت على الجبال بكل صلابتها وقوتها إذا كان لها عقل و شعور- بدلاً من نزولها على قلب الإنسان- فإنها تهتز وتضطرب إلى درجه أنها تتشقق، إلا أن قسماً من الناس ذوى القلوب القاسية وهى كالحجارة أو أشد قسوة لا يسمعون ولا يعون ولا يتأثرون أدنى تأثير، وجمله: وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّنَاسٍ اعْتَبَرْتَ دليلاً وشاهداً على هذا الفهم.

وقد حملها البعض الآخر على ظاهرها وقالوا: إن كل الموجودات فى هذا العالم- ومن جملتها الجبال- لها نوع من الإدراك والشعور الخاص بها، وإذا نزلت هذه الآيات عليها فإنها ستتلاشى، ودليل هذا ما ورد فى الآية (٧٤) من سورة البقرة فى وصف جماعه من اليهود، قال تعالى: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارِ أَشَدُّ قَسْوَةً، وَإِنْ مِنَ الْحِجَارِ لَمَّا يَنْفَجِّرُ مِنْهُ الْآثَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَّا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .

والتعبير ب(مثل) يمكن أن يكون بمعنى هذا الوصف، كما جاءت هذه الكلمه مرارا مجسده لنفس المعنى، وبناء على هذا، فإن التعبير المذكور لا يتنافى مع هذا التفسير.

و الشيء الممكن ملاحظته هنا، أنه تعالى يقول في البدايه: إِنَّ الْجِبَالَ تَخْشَعُ وَ تَخْضَعُ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، و يضيف أنها تتشقق، إشارة إلى أن القرآن الكريم ينفذ تدريجياً فيها، و بعد كل فتره تظهر عليها آثار جديده من تأثيرات القرآن الكريم، إلى حدّ تفقد فيه قدرتها و استطاعتها فتكون كالعاشق الواله الذى لا قرار له ثم تنصدع و تنشق (١).

الآيات اللاحقه تستعرض قسما مهمّا من صفات جمال و جلال الله سبحانه، التى لكل واحد منها الأثر العميق فى تربيته النفوس و تهذيب القلوب. و تحوى الآيات القرآنيه الثلاثه خمس عشر وصفا لله سبحانه، أو بتعبير آخر فإن ثمانى عشره صفه من صفاته العظيمه تذكرها ثلاث آيات، و كل منها تتعلّق ببيان التوحيد الإلهي و الإسم المقدّس، و توضّح للإنسان طريق الهدايه إلى العالم النوراني لأسماء و صفات الحق سبحانه، يقول تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ .

هنا و قبل كلّ شيء يؤكّد على مسأله التوحيد، التى هى أصل لجميع صفات الجمال و الجلال، و هى الأصل و الأساس فى معرفه الإلهيه، ثم يذكر علمه بالنسبه للغيب و الشهود.

«الشهاده» و «الشهود» - كما يقول الراغب فى المفردات - هى الحضور مقترنا بالمشاهده سواء بالعين الظاهره أو بعين البصيره، و بناء على هذا، فكلّ مكان تكون للإنسان فيه إحاطه حسيّه و علميه يطلق عليها عالم شهود، و كلّ ما هو خارج عن هذه الحدود يطلق عليه «عالم الغيب» و كلّ ذلك فى مقابل علم الله سواء، لأنّ وجوده اللامتناهى فى كلّ مكان حاضر و ناظر، فلا مكان - إذن - خارج حدود علمه و حضوره، قال تعالى:

ص: ٢١٧

١ - ١) - «متصدع» من ماده (صدع)، بمعنى شق الأشياء القويه، كالحديد و الزجاج، و إذا قيل لوجع الرأس: صداع، فإنه بسبب شعور الإنسان أن رأسه يريد أن يتشقق من الألم.

و التوجه بهذا الفهم نحو الذات الإلهية يؤدي بالإنسان إلى الإيمان بأن الله حاضر و ناظر في كل مكان، و عندئذ يتسلح بالتقوى، ثم يعتمد على رحمته العامه التي تشمل جميع الخلائق: (الرحمن) و رحمته الخاصه التي تخص المؤمنين، (و الرحيم) لتعطى للإنسان أملا، و لتعينه في طريق بناء نفسه و التكامل بأخلاقه و سلوكه بالسير نحو الله، لأن هذه المرحله-الحياه الدنيا-لا يمكن للإنسان أن يجتازها بغير لطفه، لأنها ظلمات و خطر و ضياع.

و بهذا العرض-بالإضافه إلى صفه التوحيد-فقد بينت الآيه الكريمه ثلاثه من صفاته العظيمه، التي كل منها تلهمنا نوعا من معرفه و الخشيه لله سبحانه.

أما في الآيه اللاحقه، فبالإضافه إلى التأكيد على مسأله التوحيد فإنها تذكر ثمانية صفات اخرى لله سبحانه، حيث يقول البارئ عزّ و جلّ: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

الْمَلِكُ

الحاكم و المالك الحقيقي لجميع الكائنات.

الْقُدُّوسُ

المنزه من كل نقص و عيب.

السَّلَامُ

لا يظلم أحد، و جميع الخلائق في سلامه من جهته.

و أساسا فإنّ دعوه الله تعالى هي للسلامه و الله يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ (٣).

و هدايته أيضا باتّجاه السلامه يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ (٤).

ص: ٢١٨

٢-٢) -فسّر البعض كلمه «سلام» هنا بمعنى «السلامه من كلّ عيب و نقص و آفه»،و بالنظر إلى أنّ هذا المعنى مندرج في القدّوس و التي جاءت سابقا،بالإضافه إلى أنّ كلمه سلام تقال في القرآن الكريم في الغالب بمعنى إعطاء السلامه للآخرين، و أساسا فإنّ كلمه سلام تقال عند اللقاء و تعنى إظهار الصداقه و المحبّه و بيان الروابط الحميمه مع الطرف المقابل،فإنّ ما ذكرناه أعلاه هو الأنسب حسب الظاهر.(يرجى الانتباه لذلك).

٣-٣) -يونس،الآيه ٢٥.

٤-٤) -المائده،الآيه ١٦.

والمقرّر الذى اعدّ للمؤمنين أيضا هو: بيت السلامه لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ .

و تحيته أهل الجنة أيضا ليست بشيء سوى السلام: إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا (١) .

ثم يضيف سبحانه:

الْمُؤْمِنُ

(٢)

يعطى الأمان لأحبائه، و يتفضل عليهم بالإيمان.

الْمُهَيِّمُ

الحافظ و المراقب لكلّ شيء (٣) .

الْعَزِيزُ

القادر الذى لا يقهر.

الْجَبَّارُ

مأخوذ من (جبر) يأتى أحيانا بمعنى القهر و الغلبه و نفوذ الإراده، و أحيانا بمعنى الإصلاح و التعويض، و مرج الراغب فى المفردات كلا المعنيين حيث يقول: «و أصل (جبر) إصلاح شيء بالقوّه و الغلبه» و عند ما يستعمل هذا اللفظ لله تعالى، فإنه يبين أحد صفاته الكبيره، حيث أنّ نفوذ إرادته، و كمال قدرته يصلح كلّ فساد. و إذا استعملت فى غير الله أعطت معنى المذمّه، و كما يقول الراغب فإنّها تطلق على الشخص الذى يريد تعويض نقصه بإظهاره لأمر غير لائقه، و قد ورد هذا المصطلح عشر مرّات فى القرآن الكريم، تسع مرّات حول الأشخاص الظالمين و المستكبرين المتسلّطين على رقاب الامّه و المفسدين فى

ص: ٢١٩

١- (١) - الواقعة، الآية ٢٦.

٢- (٢) - ذكر بعض المفسّرين أنّ المؤمن هنا بمعنى صاحب الإيمان، إشاره إلى أنّه أوّل شخص مؤمن بذات الله الطاهره، و صفاته و رسله (و هو الله تعالى) إلّا أنّ الذى ذكر أعلاه أنسب.

٣- (٣) - فى الأصل لهذا المصطلح قولان بين المفسّرين و أبواب اللغه، حيث اعتبره البعض من مادّه (هيمن) و التى تعنى المراقبه، و الحفظ، و البعض الآخر اعتبره من مادّه (إيمان) تبدّلت الهمزه إلى الهاء بمعنى الباعث للهدوء، و ورد هذا المصطلح مرّتين فى القرآن الكريم: الاولى: حول القرآن نفسه، كما فى الآية (٤٨) من سورة المائدة، و الثانيه: فى وصف الله سبحانه فى الآية مورد

البحث.و الموردان مناسبان للمعنى الأول،(لسان العرب و كذلك تفسير روح المعاني و الفخر الرازي). كما نقل أبو الفتوح الرازي في نهايه الآيه مورد البحث عن أبي عبيده أنه جاء في كلام العرب خمس كلمات فقط على هذا الوزن: (مهيمن،مسيطر،مبيطر(طبيب الحيوانات)مبيقر(الذى يشق طريقه و يمضى فيه)مخيمر(اسم جبل).

الأرض و مَرّه واحده فقط عن الله القادر المتعال، حيث ورد بهذا المعنى فى الآيه مورد البحث.

ثم يضيف سبحانه: الْمُتَكَبِّرُ .

«المتكبر» من مادّه (تكبر) وجاءت بمعنيين:

الأول: استعملت صفه المدح، وقد أطلقت على لفظ الجلاله، و هو اتّصافه بالعلو و العظمه و السمات الحسنه بصوره عامّه.

و الثانى: استعملت صفه الذمّ و هو ما يوصف به غير الله عزّ و جلّ، حيث تطلق على الأشخاص صغار الشأن و قليلى الأهميه..الذين يدّعون الشأن و المقام العالى، و ينعتون أنفسهم بصفات حسنه غير موجوده فيهم.

و لأنّ العظمه و صفات العلو و العزّه لا تكون لائقه لغير مقام الله سبحانه، لذا استعمل هذا المصطلح هنا بمعناه الإيجابى حول الله سبحانه. و كلّما استعمل لغير الله أعطى معنى الذمّ.

و فى نهايه الآيه يؤكّد مرّه اخرى مسأله التوحيد التى كان الحديث حولها ابتداء حيث يقول تعالى: [□] [□] سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

و مع التوضيح المذكور فإنّ من المؤكّد أنّ كلّ موجود لا يستطيع أن يكون شريكا و شبيها و نظيرا للصفات الإلهيه التى ذكرت هنا.

و فى آخر آيه مورد للبحث يشير سبحانه إلى ستّ صفات اخرى حيث يقول تعالى:

[□] [□] هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ

الْبَارِئُ

(١)

ص: ٢٢٠

١ - (١) - الباري من مادّه «برء» على وزن(قفل) و هى فى الأصل بمعنى التحرّر و التخلّص من الأمور السلبيه، و لذا يقال (بارئ) للشخص الذى يوجد شيئا غير ناقص و موزون بصوره تامّه. و أخذه البعض -أيضا- من مادّه (برى) على وزن

و لأنَّ صفات الله لا تنحصر فقط بالتى ذكرت فى هذه الآيه فإنَّه سبحانه يشير إلى صفه أساسيه لذاته المقدَّسه اللامتناهيه، حيث يقول عزَّ و جلَّ: لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .

و لهذا السبب فإنَّه سبحانه منزَّه و مبرَّأ من كلِّ عيب و نقص يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ و يعتبرونه تَأَمَّا و كاملا من كلِّ نقص و عيب.

و أخيرا-للتأكيد الأكثر على موضوع نظام الخلقه-يشير سبحانه إلى وصفين آخرين من صفاته المقدَّسه،التى ذكر أحدهما فى السابق بقوله تعالى: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

الاولى دليل كمال قدرته على كلِّ شىء،و غلبته على كلِّ قوَّه.

و الثانيه إشاره إلى علمه و اطلاعه و معرفته ببرامج الخلق و تنظيم الوجود و تدبير الحياه.

و بهذه الصوره فإنَّ مجموع ما ورد فى الآيات الثلاث بالإضافة إلى مسأله التوحيد التى تكررت مرَّتين،فإنَّ مجموع الصفات المقدَّسه لله سبحانه تكون سبع عشره صفه مرتبه بهذا الشكل:

١-عالم الغيب و الشهاده.

٢-الرحمن.

٣-الرحيم.

٤-الملك.

٥-القدَّوس.

٦-السلام.

(١)

(نفى)قَطَّ الخشب،حيث ينجز هذا العمل بقصد الموزونيه،و صرَّح بعض أئمَّه اللغه أيضا بأنَّ البارئ هو الذى يبدأ شيئا لم يكن له نظير فى السابق.

٧-المؤمن.

٨-المهيمن.

٩-العزیز.

١٠-الجبار.

١١-المتكبر.

١٢-الخالق.

١٣-البارئ.

١٤-المصور.

١٥-الحكيم.

١٦-له الأسماء الحسنی.

١٧-الموجود الذى تسبح له كل موجودات العالم.

و مع صفه التوحيد يصبح عدد الصفات ثمانی عشره صفه.و یرجى الانتباه إلى أنّ «التوحيد» و«العزیز» جاء كلّ منها مرّتين.

و من بین مجموع هذه الصفات فإنّنا نلاحظ تنظيماً خاصاً فى الآيات الثلاث و هو: فى الآيه الاولى يبحث عن أعمّ صفات الذات و هى (العلم) و أعمّ صفات الفعل و هى (الرحمه) التى هى أساس كلّ أعماله تعالى.

و فى الآيه الثانيه يتحدّث عن حاكميته و شؤون هذه الحاكميه و صفاته ك (القدّوس و السّلام و المؤمن و الجبار و المتكبر) و بملاحظه معانى هذه الصفات - المذكوره أعلاه - فإنّ جميعها من خصوصيات هذه الحاكميه الإلهيه المطلقه.

و فى الآيه الأخيره يبحث مسأله الخلق و ما يرتبط بها من انتظام فى مقام تسلسل الخلقه و التصوير، و كذلك البحث فى موضوع القدره و الحكمه الإلهيه.

و بهذه الصوره فإنّ هذه الآيات تأخذ بيد السائرین فى طريق معرفه اللّٰه، و تقودهم من درجه إلى درجه و من منزل إلى منزل، حيث تبدأ الآيات أوّلاً

بالحديث عن ذاته المقدّسه، و من ثمّ إلى عالم الخلقه، و تاره اخرى بالسير نحو الله تعالى، حيث ترتفع روحيته إلى سمو الواحد الأحد، فيتطهّر القلب بالأسماء و الصفات الإلهيه المقدّسه، و يربى في أجواء هذه الأنوار و المعارف، حيث تنمو براعم التقوى على ظاهر أغصان وجوده، و تجعله لائقا لقرب جواره لكي يكون وجودا منسجما مع كلّ ذرّات الوجود، مردّدين معا ترانيم التسييح و التقديس.

لذا فلا عجب أن تختص هذه الآيه بصوره متميّزه في الروايات الإسلاميه التي سنشير إليها فيما يلي..

ملاحظتان

إشارة

١- التأثير الخارق للقرآن الكريم

إنّ لتأثير القرآن الكريم في القلوب و الأفكار واقعیه لا- تنكر، و على طول التاريخ الإسلامی لوحظت شواهد عديده على هذا المعنى، و ثبت عمليا أنّ أقدس القلوب عند سماعها لآيات محدوده من القرآن الكريم تلين و تخضع و تؤمن بالذي جاء بالقرآن دفعه واحده، اللهمّ عدا الأشخاص المعاندين المكابرين فقد استثنوا من ذلك حيث طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون، و ليس هنالك من أمل في هدايه نفوسهم المدبره عن الله سبحانه.

و نقرأ في الآيات أعلاه العرض الرهيب الذي يصوّر نزول القرآن على جبل، و ما هو الأثر سيحدثه حيث الخضوع و التصدّع و الخشوع، و هذه كلّها دليل تأثير هذا الكلام الإلهي الذي نحسّ بحلاوه طعمه عند التلاوه المقرونة بحضور القلب.

٢- عظمه الآيات الأخيره لسوره الحشر

إنّ الآيات الأخيره لهذه السوره- التي اشتملت على قسم مهمّ من الأسماء

و الصفات الإلهية-آيات خارقه و عظيمه و ملهمه،و هي درس تربوى كبير للإنسان،لأنّها تقول له:إذا كنت تطلب قرب الله،و تريد العظمه و الكمال..فاقتبس من هذه الصفات نورا يضىء وجودك.

و جاء فى بعض الروايات أنّ «اسم الله الأعظم» هو فى الآيات الأخيره من سورة الحشر (١).

و نقرأ

فى حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم «من قرأ آخر الحشر غفر له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر» (٢).

و

جاء فى حديث آخر أنّه قال صلى الله عليه و آله و سلم: «من قرأ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ ..إلى آخرها،فمات من ليلته مات شهيدا» (٣).

و

يقول أحد الصحابه: سألت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن الاسم الأعظم لله، فقال صلى الله عليه و آله و سلم:«عليك بآخر الحشر و أكثر قراءتها» (٤).

حتى أنّه جاء

فى حديث: «أنّها شفاء من كلّ داء إلا السّأم،و السّأم:

الموت» (٥).

و الخلاصه أنّ الروايات التى جاءت فى هذا المجال كثيره فى كتب الشيعة و أهل السنّه،و تدلّ جميعها على عظمه هذه الآيات و لزوم التفكّر فى محتواها.

و الجدير بالملاحظه أنّ هذه السوره كما أنّها بدأت بتسبيح الله و اسمه العزيز الحكيم،فكذلك انتهت باسمه العزيز الحكيم،إذ أنّ الهدف النهائى للسوره هو معرفه الله و تسبيحه و التعرّف على أسمائه و صفاته المقدّسه.

و حول أسماء الله-التي أشير إليها فى الآيات أعلاه-كان لدينا بحث مفصّل

ص: ٢٢٤

١-١) -مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٦٧.

٢-٢) -تفسير نور الثقلين، ج ٥ ص ٢٩٣.

٣-٣) -المصدر السابق.

٤-٤) -المصدر السابق.

٥-٥) -الدرّ المنشور، ج ٦، ص ٢٠١.

فى نهايه الآيه (١٨) من سوره الأعراف.

اللهم، نقسم عليك بعظمه أسمائك و صفاتك أن تجعل قلوبنا خاشعه خاضعه أمام القرآن الكريم.
ربنا إن مصيده الشيطان خطيره، و لا خلاص لنا منها إلا بلطفك، فاحفظنا فى ظلّ لطفك من وساوس الشيطان.
إلهنا، تفضل علينا بروح الإيثار و التقوى و الابتعاد عن البخل و البغض و الحسد، و جنبنا حبّ الذات و الأنانيه..
آمين يا ربّ العالمين.

نهايه سوره الحشر

ص: ٢٢٥

و عدد آیاتها ثلاث عشره آیه

ص: ۲۲۷

محتوى السوره:

تتكوّن موضوعات هذه السوره من قسمين:

القسم الأول: يتحدّث عن موضوع «الحبّ في الله» و«البغض في الله»، وينهى عن عقد الولاء و الودّ مع المشركين، و يدعو المسلمين لكي يستلهموا من سيره الرّسول العظيم إبراهيم عليه السّلام فيما يتعلّق بموقفه من أقرب الأقربين إليه (أبيه آزر) بلحاظ ما يمليه عليه الموقف المبدئي، كما تذكر بعض الخصوصيات الأخرى في هذا المجال و يتكرّر هذا المعنى في نهايه السوره، كما في بدايتها.

القسم الثاني: يتناول هذا القسم مسائل المرأة المهاجرة و ضروره تمحيصها، كما يبيّن أحكاما أخرى في هذا الصدد. و إختيار اسم (الممتحنه) لهذه السوره كان بلحاظ حاله التمحيص و الامتحان التي وردت في الآيه العاشره من هذه السوره (1).

كما ذكر اسم آخر لهذه السوره و هو (سوره المؤدّه) و ذلك بلحاظ النهي عن عقد الولاء و الودّ مع المشركين، و قد أكّدت عليه السوره كثيرا.

فضيله تلاوه سوره الممتحنه:

ورد عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سوره الممتحنه كان المؤمنون

ص: ٢٢٩

١- ١) -قرأها البعض «ممتحنه» بفتح الحاء و ذلك بسبب حاله التمحيص و الامتحان للنسوة المهاجرات، و قرأها آخرون ممتحنه- بكسر الحاء- و ذلك لأنّ موضوعات السوره-أجمع- كانت وسيله للامتحان و التمحيص.

و المؤمنات له شفعاء يوم القيامة» (١).

و جاء

فى حديث آخر عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام: «من قرأ سورة الممتحنه فى فرائضه و نوافله، امتحن الله قلبه للإيمان، و نور له بصره، و لا يصيبه فقر أبداً، و لا جنون فى بدنه و لا فى ولده» (٢).

و من الواضح أنّ كلّ هذه النعم و الألفاف الإلهيه تكون للأشخاص الذين يجسّدون مفاهيم الآيات التى وردت فى هذه السوره فى مجال الحبّ فى الله و البغض فى الله و الجهاد فى سبيله، و يطبّقون محتواها، و لا يكتفون بالتلاوه السطحيه الفارغه من محتوى الروح، و البعيده عن العلم و العمل.

ص: ٢٣٠

١- ١) -مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٦٧.

٢- ٢) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٩٩.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِدُوِّي وَعِدُوَكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ
الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَ
أَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَتَّقِفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَنَسِيُوا إِلَيْكُمْ
أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ (٣)

سبب النزول

صرّح أغلب المفسرين (لكن باختلاف يسير) بأن هذه الآيات -أو الآيه

ص: ٢٣١

و في هذا الصدد نذكر ما

أورده العلامة الطبرسى في مجمع البيان حول ذلك حيث يقول: «إن ساره مولاه أبى عمرو بن صيفى بن هشام أتت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكّه إلى المدينة بعد بدر بسنتين، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أ مسلمه جئت؟ قالت: لا. قال: أ مهاجرة جئت؟ قالت: لا، قال: فما جاء بك؟ قالت: كنتم الأصل والعشيره والموالى وقد ذهب موالى واحتجت حاجه شديده فقدمت عليكم لتعطونى و تكسونى و تحملونى. قال: فأين أنت من شباب مكّه؟ وكانت مغنيه نائحه، فقالت: ما طلب منى بعد وقعه بدر (و هذا يدل على عمق النازله التى نزلت بمشركى قريش فى بدر) فحثّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليها بنى عبد المطلب فكسوها و حملوها و أعطوها نفقه، و كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتجهّز لفتح مكّه، فأتاها حاطب بن أبى بلتعه و كتب معها كتابا إلى أهل مكّه و أعطاها عشرة دنانير و كساها بردا على أن توصل الكتاب إلى أهل مكّه و كتب فى الكتاب: من حاطب بن أبى بلتعه إلى أهل مكّه إن رسول الله يريدكم فخذوا حذرکم. فخرجت ساره و نزل جبرائيل فأخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم بما فعل، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا و عمّارا و عمر و الزبير و طلحه و المقداد بن الأسود و أبا مرثد و كانوا كلّهم فرسانا و قال لهم: انطلقوا حتّى تأتوا روضه خاخ فإنّ بها طعینه معها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها، فخرجوا حتّى أدركوها فى ذلك المكان، فقالوا لها أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحوها و فتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتابا، فهمّوا بالرجوع، فقال على عليه السلام: و الله ما كذبنا و لا كذبنا، و سل سيفه و قال: أخرجى الكتاب و إلّا و الله لأضربنّ عنقك. فلما رأت الجدّ أخرجته من ذؤابتها، فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأرسل إلى حاطب فأتاه، فقال له: هل تعرف الكتاب؟ قال: نعم، قال: فما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله و الله ما كفرت منذ أسلمت و لا غششتك منذ نصحتك، و لا أحببتهم منذ فارقتهم، و لكن لم يكن أحد من

المهاجرين إلّا و له بمكّه من يمنع عشيرته و كنت عريرا فيهم (أى غريبا) و كان أهلى بين ظهرائهم فخشيت على أهلى فأردت أن أتخذ عندهم يدا، و قد علمت أنّ الله ينزل بهم بأسه و أنّ كتابى لا يغنى عنهم شيئا. فصدّقه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و عذره، فقام عمر بن الخطاب و قال: دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و ما يدريك يا عمر لعلّ الله اطلع على أهل بدر فغفر لهم فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. و كيفيه العلاقه التى يجب أن تتحكّم بين المسلمين من جهة، و المشركين و أعداء الله من جهة اخرى، و التأكيد على إلغاء و تجنّب أى ولاء مع أعداء الله (١).

التفسير

اشاره

نتيجه الولاء لأعداء الله:

علمنا ممّا تقدّم أنّ سبب نزول الآيات السابقه هو التصرف المشين الذى صدر من أحد المسلمين (حاطب بن أبى بلتعه) و رغم أنّه لم يكن قاصدا التجسس إلّا أنّ عمله نوع من إظهار المودّه لأعداء الإسلام، فجاءت الآيات الكريمه تحذّر المسلمين من تكرار مثل هذه التصرفات مستقبلا و تنهاهم عنها.

يقول سبحانه فى البدايه: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ** مؤكّدا أنّ أعداء الله و حدهم هم الذين يضمرون العداء للمؤمنين و الحقد عليهم، و مع هذا التصوّر فكيف تمدّون يد الصداقه و الودّ لهم؟ و يضيف تعالى:

ص: ٢٣٣

١ - ١) - مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٦٩، بتلخيص مختصر، كما نقل هذا فى سبب النزول: البخارى فى صحيحه، ج ٩، ص ١٨٥، و الفخر الرازى، و ورد كذلك فى تفسير روح المعانى، و روح البيان، و فى الظلال، و القرطبى، و المراغى، و فى تفاسير اخرى باختلاف.

تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ

(١)

إنهم يخالفونكم فى العقيدة، كما أنهم شنوا عليكم الحرب عملياً، ويعتبرون إيمانكم بالله-الذى هو أكبر فخر لكم و أعظم قداسه تجللكم-غاية الجرم و أعظم الذنب، و لهذا السبب قاموا بإخراجكم من دياركم و شتتوكم من بلادكم..و مع هذه الأعمال التى مارسوها معكم، هل من المناسب إظهار المودة لهم، و السعى لإنقاذهم من يد العدالة و الجزاء الإلهى على يد المقاتلين المسلمين المقتدرين؟ ثم يضيف القرآن الكريم موضّحاً: إِنَّ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي (٢) فلا تعقدوا معهم أواصر الولاء و الودّ.

فإذا كنتم ممن تدعون حبّ الله حقّاً، و هاجرتم من دياركم لأجله سبحانه و ترغبون فى الجهاد فى سبيله طلباً لرضاه تعالى، فإنّ هذه الأهداف العظيمة لا يناسبها إظهار الولاء لأعداء الله سبحانه.

ثم يضيف عزّ و جلّ للمزيد من الإيضاح فيقول: تُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَ مَا أَغْلَيْتُمْ (٣) (٤) .

و بناء على هذا فما عسى أن يغنى الإخفاء و هو واقع بعلم الله فى الغيب و الشهود؟ و فى نهايه الآيه نجد تهديداً شديداً لمن يجانب السبيل الذى أمر به الله

ص: ٢٣٤

١ - ١) -جمله: تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ قالوا: إنّها حال من ضمير (لا تتخذوا) كما قيل: إنّها جملة استثنائية (الكشاف، ج ٤، ص ٥١٢). الباء فى (المودة) إمّا زائدة للتأكيد كما فى قوله تعالى: وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ أَوْ أَنَّهَا سببٌ بحذف المفعول الذى تقديره: (تلقوا إليهم أخبار رسول الله بسبب المودة التى بينكم و بينهم) الكشاف أيضاً.

٢ - ٢) -يعتقد بعض المفسرين أنّ هذه الجملة الشرطية لها جزاء محذوف يستفاد من الجملة السابقة تقديره: (و إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلي و ابتغاء مرضاتى لا تتولّوا أعدائى).

٣ - ٣) -الجملة أعلاه جملة استثنائية.

٤ - ٤) -التعبير هنا ب (ما أخفيتم) عوض (ما أسررتم) جاء تأكيداً للمبالغة، لأنّ الإخفاء مرحلة أعمق من السرّ (تفسير الفخر الرازى نهايه الآيات مورد البحث).

سبحانه بقوله: وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

فمن جهه انحرف عن معرفه الله تعالى بظنه أنّ الله لا يعلم ولا يرى ما يصنع، و كذلك انحرف عن طريق الإيمان و الإخلاص و التقوى، حينما يعقد الولاء و تقام أوامر المودّة مع أعداء الله، و بالإضافة إلى ذلك فإنّه وّجه ضربه قاصمه إلى حياته حينما أفشى أسرار المسلمين إلى الأعداء، و يمثّل ذلك أقبح الأعمال و أسوأ الممارسات حينما يسقط الشخص المؤمن بهذا الوحل و يقوم بمثل هذه الأعمال المنحرفة بعد بلوغه مرتبه الإيمان و القداسه.

و فى الآيه اللاحقه يضيف سبحانه للتوضيح و التأكيد الشديد فى تجبّ موالاتهم: إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَ يُبْسِطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ (١).

أنتم تكتنون لهم الودّ فى الوقت الذى يضمرون لكم حقدا و عداوه عميقه و متأصّله، و إذا ما ظفروا بكم فإنّهم لن يتوانوا عن القيام بأى عمل ضدّكم، و ينتقمون منكم و يؤذونكم بأيديهم و بألسنتهم و بمختلف وسائل المكر و الغدر فكيف -إذن- تتألّمون و تحزنون على فقدانهم مصالحهم؟ و الأدهى من ذلك هو سعيهم الحثيث فى ردّكم عن دينكم و إسلامكم، و العمل على تجريدكم من أعظم مكسب و أكبر مفخره لكم، و هى حقيقه الإيمان و ودّوا لَوْ تَكْفُرُونَ و هذه أوجع ضربه و أعظم مأساه و أكبر داهيه يريدون إلحاقها بكم.

و فى آخر آيه من هذه الآيات يستعرض سبحانه الجواب على «حاطب بن أبى بلتعه» و من يسايره فى منهجه من الأشخاص، حينما قال فى جوابه لرسول الله عن السبب الذى حدا به إلى إفشاء أسرار المسلمين لمشركي مكّه، حيث قال بلتعه: أهلى و عيالى فى مكّه، و أردت أن أمنع عنهم الأذى و أصونهم بعملى هذا،

ص: ٢٣٥

١- ١) -يتقفوكم من مادّه: (ثقف ثقافه) بمعنى المهارة فى تشخيص أو إنجاز شىء ما، و لهذا السبب تستعمل -أيضا- بمعنى الثقافه أو التمكّن و التسلّط المقترن بمهاره على الشىء.

(وَاتَّخِذْ عِنْدَ أَهْلِهَا يَدًا) يقول تعالى: لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ .

و ذلك لأنَّ الأرحام و الأولاد المشركين سوف لن يجلبوا خيرا و عزّه في الدنيا و لا- نجاه في الآ-خره. إذن لماذا تتصرّفون و تعملون مثل هذا العمل الذى يوجب سخط البارئ، و ذلك بالتقرّب من أعداء الله و إرضاء المشركين و البعد عن أوليائه تعالى و جلب الضرر على المسلمين؟ ثم يضيف تعالى: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ (١).

و هذا تأكيد على أنّ مقام أهل الإيمان هو الجنّة، و أنّ أهل الكفر يساقون إلى جهنّم و بئس المصير، و هو بيان آخر و توضيح لما تقدّم سابقا من أنّ عمله الفرز و الفصل ستكون فيما بينكم، حيث ستقطع الأواصر بصوره تامّه بين الأرحام بلحاظ طبيعه الإيمان و الكفر الذى هم عليه، و لن يغنى أحد عن الآخر شيئا، و هذا المعنى مشابه لما ورد فى قوله تعالى: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ وَ صَاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ (٢) .

و فى نهايه الآيه يحذّر الجميع مرّه اخرى بقوله تعالى: وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

إنّه عالم بتيّاتكم، و عالم بالأعمال التى تصدر منكم، سواء كانت فى حاله السرّ أو العلن، و إذا كانت المصلحه الإلهيه تقتضى عدم إفشاء أسراركم أحيانا كما فى حادثه حاطب بن أبى بلتعّه، فلاّنها لحكمه أو مصلحه يراها سبحانه، و ليس لأنّه لا يعلم بها أو تخفى عليه خافيه.

و فى الحقيقه إنّ علم الله بالغيب و الشهود، و السرّ و العلن، و سيله مؤثّره

ص: ٢٣٦

١- ١) -يعتقد أكثر المفسّرين أنّ: (يوم القيامة) متعلّقه ب (يفصل) إلّا أنّ البعض الآخر يعتقد بأنّها متعلّقه ب (لن تنفعكم) و النتيجه أنّ كلا الرأيين متقاربان بالرغم من أنّ المعنى الأوّل أنسب حسب الظاهر. كما أنّ الملاحظ أنّ البعض فسّر (يفصل) بمعنى فصل شيئين بالمعنى المتعارف، و البعض الآخر اعتبرها من (فصل) بمعنى الحكم و القضاء بين إثنيين، إلّا أنّ المعنى الأوّل أصحّ.

٢- ٢) -عبس، الآيه ٣٤-٣٦.

و عظيمه فى تربيته الإنسان حيث يشعر دائماً بأنه فى محضر البارئ عزّ و جلّ الرقيب على قوله و عمله، بل حتّى على نيّته، و هنا تصدق مقوله أنّ التقوى وليده المعرفة التامّة بالله عزّ و جلّ.

ص: ٢٣٧

اشاره

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)

التفسير

اشاره

أسوه للجميع:

إنّ منهج القرآن(من أجل التأكيد على تعاليمه القيمه)يعتمد في كثير من الموارد طريقه الاستشهاد بنماذج أساسيه في عالم الإنسانيه و الحياه،و بعد

التشديد السابق الذى مرّ بنا خلال آيات السابقيه فى تجنّب عقد الولاء لأعداء الله، يتحدّث القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام و منهجه القدوة كنموذج رائد يحظى باحترام جميع الأقوام و خصوصا العرب منهم.

قال تعالى: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ (١).

إنّ حياه إبراهيم عليه السلام الذى هو كبير الأنبياء، تلهمنا دروس العبوديه لله، و الطاعه و الجهاد فى سبيله، و الوله و الحب لذاته المقدّسه، إنّ هذا النبى العظيم الذى كانت الامّه الإسلاميه من بركه دعائه، و هى معتزّه بالتسميه التى أطلقها عليهم، هو لكم أسوه حسنه فى هذا المجال.

و المراد من تعبير الَّذِينَ مَعَهُ هم المؤمنون الذين ساروا برفقته فى هذا الطريق بالرغم من قلّه عددهم، و هنا رأى آخر فى تفسير الَّذِينَ مَعَهُ يرى أنّ المقصود هم الأنبياء الذين كانوا يشاركونه بالرأى، أو أنّ المقصود هم الأنبياء المعاصرون له، و هو احتمال مستبعد، خاصّه إذا أخذنا ما يناسب المقام فى تشبيه القرآن الكريم لرسول الإسلام محمّد بإبراهيم عليه السلام، و تشبيه المسلمين بأصحابه و أعوانه.

و جاء فى التواريخ أيضا أنّ جماعه فى «بابل» آمنوا بإبراهيم عليه السلام بعد مشاهدته المعاجز التى ظهرت على يديه، و صاحبه فى الهجره، قال ابن الأثير فى الكامل (ثمّ إنّ إبراهيم و الذين اتّبعوا أمره أجمعوا على فراق قومهم فخرج مهاجرا) (٢).

ثمّ يضيف سبحانه لتوضيح هذا المعنى:

ص: ٢٣٩

١ - ١) - ذكر المفسرون احتمالات عدّه فى إعراب هذه الجملة، و الظاهر أنّ (أسوه حسنه) اسم كان، و (لكم) خبرها و (فى إبراهيم) متعلق ب (أسوه حسنه) و لا بد من الالتفات ضمنا إلى أنّ أسوه بمعنى التأسى و الاقتداء الذى يكون أحيانا بالأعمال الجيده و اخرى بالسيئه و لذا قيدت هنا ب (الحسنه).

٢ - ٢) - الكامل فى التاريخ، لابن الأثير، ج ١، ص ١٠٠.

إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١)

و هكذا يكون الموقف القاطع و الحاسم من جانب المؤمنين إزاء أعداء الله، بقولهم لهم: إننا لا نرتضيكم و لا نقبلكم، لا أنتم و لا ما تؤمنون به من معتقدات، إننا نبتعد و نفتر منكم و من أصنامكم التي لا قيمة لها.

و مرّه أخرى يؤكّدون مضيفين: «كفرنا بكم»، و الكفر هنا هو كفر البراءة الذي أشير له في بعض الروايات ضمن ما ورد في تعدّد أقسام الكفر الخمسة (٢).

و يضيفون للمرّه الثالثه مؤكّدين بصورة أشدّ: وَ بَدَا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَ الْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ .

و بهذا الإصرار و بهذه القاطعيه و بدون أى تردّد أو مواربه يعلن المؤمنون انفصالهم و ابتعادهم و نفرتهم من أعداء الله حتّى يؤمنوا بالله وحده، و هم مستمّرون في موقفهم و إلى الأبد و لن يتراجعوا عنه أو يعيدوا النظر فيه إلّا- إذا غيّر الكفار مسارهم و تراجعوا عن خطّ الكفر إلى الإيمان.

و لأنّ هذا القانون العامّ كان له استثناء في حياه إبراهيم عليه السّلام يتجسّد ذلك بإمكانيه هدايه بعض المشركين حيث يقول سبحانه معقّبا: إِنَّ هَؤُلَاءِ قَطَعُوا كُلَّ ارْتِبَاطٍ لَهُمْ مَعَ قَوْمِهِمُ الْكَافِرِينَ حَتَّى الْكَلَامِ الْوَدُودِ وَ الْمَلَائِمِ: إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ مَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ .

إنّ هذا الاستثناء-في الحقيقه- كان في مسأله قطع كلّ ارتباط مع عبده الأصنام من قبل إبراهيم عليه السّلام و أصحابه، كما أنّ هذا الاستثناء كانت له شروطه و مصلحته الخاصّه، لأنّ القرائن تظهر لنا أنّ إبراهيم عليه السّلام كان يرى في عمّه (آزر) استعدادا لقبول الإيمان.

و لما كان (آزر) قلقا من آثام سابقته الوثنيه و عبادته للأصنام أوعده إبراهيم

ص: ٢٤٠

١-١) -«براء» جمع «برىء» مثل «ظرفاء-ظريف».

٢-٢) -أصول الكافي طبقا لنقل نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٠٢.

عليه السلام أنه إذا تبني طريق التوحيد فإنه عليه السلام سيستغفر له الله سبحانه، وقد عمل بما وعده به، إلا أن آزر لم يؤمن وبقى على ضلاله، وعند ما اتضح لإبراهيم أنه عدو الله و سوف لن يؤمن أبدا، لم يستغفر له ثانية و قطع علاقته به.

و لما كان المسلمون مطلعين على منهج إبراهيم عليه السلام في تعامله مع «آزر» بصوره إجماليه، فقد كان من المحتمل أن يكون هذا الموقف موضع احتجاج لأشخاص مثل (حاطب بن أبي بلتعه) حيث كانوا يقيمون العلاقات و الارتباطات السريه مع الكفار، و لهذا فالقرآن الكريم يقطع الطريق على مثل هذه التصورات و يعلن- صراحه- أن هذا الاستثناء قد تم تحت شروط خاصه، و كان أسلوبا لاستدراج (آزر) إلى الهدى و إدخاله في الإيمان، و لم يكن لأهداف دنيويه آنيه أو مصلحه وقتيه، لذا يقول عز و جل في بيان هذا المعنى: وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١).

إلا أن بعض المفسرين يرى أن هذا الأمر كان استثناء من التأسي ب(إبراهيم)، و قالوا يجب الاقتداء به في جميع الأمور إلا في استغفاره لعمه آزر.

إلا أن هذا المعنى بعيدا جدا لأنه:

أولاً: كان عليه السلام أسوه في جميع الأمور و من ضمنها إتباع هذا المنهج، و ذلك بلحاظ أن الشروط التي توفرت في (آزر) توفرت أيضا في بعض المشركين و عند ذلك لا بد من إظهاره الموده لهم و تهيئه الأجواء الطيبه لهم، و جذبهم للإيمان.

و ثانيا: أن إبراهيم عليه السلام نبي معصوم من أنبياء الله العظام و من المجاهدين اللامعين، و أعماله كلها أسوه للمؤمنين، و عندئذ لا داعي لاستثناء هذه المسأله من التأسي به فيها.

ص: ٢٤١

و خلاصه القول أَنَّ إبراهيم عليه السَّلام و أصحابه كانوا من أشدَّ المخالفين و المحاربين للشرك، و لا بدَّ لنا من الاقتداء بهم و أخذ الدروس و العبر من سيرتهم، بما فى ذلك ما يتعلّق بموقفه من «آزر» إذا توفّرت لنا نفس الشروط و الخصوصيات.. (١).

و بما أَنَّ محاربه أعداء الله، و الصرامه و الشدّه معهم-خصوصا مع تمتّعهم بقدره ظاهريه-سوف لن تكون فاعله إلّا بالتوكّل على الله تبارك و تعالى، يضيف سبحانه فى نهايه الآيه: رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .

و نلاحظ ثلاثه امور فى هذه العبارة:

الأمر الأوّل: هو التوكّل، الثانى هو: التوبه و الإنابه، الثالث: التأكيد على حقيقه الرجوع النهائى فى كلّ شىء إليه سبحانه، حيث أَنَّ كلّ أمر من هذه الأمور يكون علّه و بنفس الوقت معلولا للآخر، فالإيمان بالمعاد و الرجوع النهائى إليه سبحانه يوجب التوبه، و التوبه تحيى روح التوكّل فى النفس الإنسانيه (٢).

و فى الآيه اللاحقه يشير القرآن الكريم إلى طلب آخر مهمّ و حسّاس لإبراهيم عليه السَّلام و أصحابه فى هذا المجال، حيث يقول تعالى: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا .

من المحتمل أن يكون ما ورد فى الآيه إشارة إلى عمل «حاطب بن أبى بلتع» و احتمال صدور شبيهه من أشخاص جهله يكونون سببا فى تقويه الظالمين، من حيث لا يشعرون، بل يتصوّرون أنّهم يعملون لمصلحه الإسلام، أو إنّ المراد فى الحقيقه دعاء بأنّه لا تجعلنا نقع فى قبضه الكافرين فيقولوا: أنّ هؤلاء لو كانوا على الحقّ ما غلبوا، و يؤدّى هذا التوهّم إلى ضلالهم أكثر.

ص: ٢٤٢

١- (١) - يتّضح لنا ممّا تقدّم أنّ الاستثناء هنا متّصل، و المستثنى منه جمله محذوفه يدلّ عليها صدر الآيه، و تقديرها: إنّ إبراهيم و قومه تبرّأوا منهم، و لم يكن لهم قول يدلّ على المحبّه إلّا قول إبراهيم، و طبقا للتفسير الثانى فإنّ الاستثناء سوف يكون منقطعاً، و هذا بحدّ ذاته إشكال آخر عليه.

٢- (٢) - يتّضح ممّا قلناه أنّ هذه الجملة هى كلام إبراهيم عليه السَّلام و أصحابه، بالرغم من أنّ بعض المفسّرين احتمل كونها جمله مستقلّه و نزلت بعنوان إرشاد للمسلمين ضمن هذه الآيات، و هو احتمال بعيد.

و هذا يعنى أنَّ المسلمين ما كانوا يَأْبهون بالخوف من خشية على مصالحهم أو على أنفسهم، بل لكى لا يقع مبدأ الحق في دائره الشك و يكون الإنتصار الظاهرى للكفار دليلا على حقانيتهم و هذا هو منهج الإنسان المؤمن الراسخ فى إيمانه، حيث أنَّ جميع ما يقوم به و يضحى فى سبيله لا- لأجل نفسه، بل لله سبحانه، فهو مرتبط به وحده، قاطع كل علاقه بما سواه، طالب كل شىء لمرضاته.

و يضيف فى نهايه الآيه: وَ اغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

فقدرتك يا الله لا تقهر، و حكمتك نافذه فى كل شىء.

إنَّ هذه الجملة قد تكون إشارة لطلب المغفره من الله سبحانه و العفو عن الزلل فى حاله حصول الميل النفسى و الحب و الولاء لأعداء الله.

و هذا درس لكل المسلمين كى يقتدوا بهؤلاء. و إذا ما وجد بينهم شخص منحرف ك(حاطب) فليستغفروا ربهم و لينيبوا إليه.

و مره اخرى يؤكد سبحانه فى آخر آيه من هذه الآيات على نفس الأمر الذى ذكر فى أول آيه، حيث يقول تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ (١).

لقد كانوا لنا أسوه، ليس فقط فى موقفهم ضدّ منهج الكفر و عبده الأوثان، بل هم أسوه لنا فى الدعاء بين يدي البارئ عزّ و جلّ، و قدوه لنا فى طلب المغفره منه كما استعرضت الآيات السابقه نماذج فى ذلك.

إنَّ هذا الاقتداء فى حقيقته يتمثل فى الذين تعلّقوا بالله سبحانه، و نور الإيمان بالمبدأ و المعاد قلوبهم، و نهجوا منهج الحقّ و تحرّكوا فى طريقه.. و بدون شكّ فإنَّ هذا التأسى و الاقتداء يرجع نفعه إلى المسلمين أنفسهم قبل الآخرين، لذا يضيف سبحانه فى النهايه قوله: وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

ص: ٢٤٣

(١- ١) -قال بعض المفسرين: إنَّ (لمن) فى الآيه أعلاه «بدل» عن (لكم): (تفسير الفخر الرازى، و روح المعانى، فى نهايه هذه الآيات).

و ذلك أنَّ عقد الولاء مع أعداء الله يقوِّى عودهم و شوكتهم و بالتالى إلى هزيمه المسلمين، و إذا تسلَّطوا عليكم فسوف لن يرحموا صغيركم و كبيركم (١).

بحوث

إشارة

١- نماذج خالده

إنَّ المشاريع العمليه غالبا ما تكون منبثقه عن قناعات تسبقها، لأنَّ العمل عاده يعبر عن تجسيد حاله الإيمان العميق للإنسان بما يقوم به، و يكون مجسدا لأقواله و أفكاره و متبنياته، و الحديث يخرج من القلب لا بدَّ أن يكون موضع تأثّر و تفاعل قائله نفسه به.

و فى الغالب فإنَّ وجود القدوة فى حياه البشر مؤثّر فى تربيتهم و توجيههم، و لهذا السبب فإنَّ النبى الأعظم صلّى الله عليه و آله و سلّم و الأئمّه المعصومين عليهم السّلام، و بقيه الأنبياء الكرام عليهم السّلام كانوا موضع هدايه البشريه من خلال أعمالهم و التزاماتهم، لذا فإننا حينما نتحدّث عن «السّنه»، التى هى عبارته عن (قول) المعصوم و (فعله) و (تقريره)، أى أنّ كلام و عمل و سكوت المعصوم كلّ حجه و دليل، لا بدّ من الالتزام به، و لهذا السبب فإنَّ (العصمه) شرط أساسى لكلّ الأنبياء و الأئمّه عليهم السّلام كى يكونوا لنا أسوه و قدوة فى جميع المجالات.

و القرآن الكريم يؤكّد هذه المسأله المهمّه و الأساسيه حيث يعرض للمؤمنين النماذج فى هذه المجالات و من جملتها ما جاء فى هذه الآيات، حيث يتحدّث عن النبى إبراهيم عليه السّلام و أصحابه مرّتين، كما يعرض القرآن الكريم فى سوره الأحزاب شخص الرّسول الأكرم كقدوة و أسوه للمسلمين.

ص: ٢٤٤

١ - ١) - بناء على هذا فإنّ جملة (من يتولّ) جملة شرطيه، و لها جزء محذوف تقديره: من يتولّ فقد أخطأ حظّ نفسه و أذهب ما يعود نفعه إليه (مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٧٢).

«الأسوة» هنا لها معنى مصدرى، بمعنى التأسي و الاقتداء العملى، بالرغم من أنها تفهم فى الاستعمالات المتداوله بأنها تعنى الشخص موضع التأسى.

فى غزوه الأحزاب الرهيبة عرض القرآن الكريم النبى محمد كنموذج و أسوه فى الاستقامه و الإيمان و الإخلاص و التحلى بالهدوء و الصبر فى غزوه مليئه بالمخاطر، فى وقت كان المسلمون موضع تمحيص، و تعرّضوا فيه إلى زلزال عصيب، و طبعا فإن هذه المعنى لا ينحصر فى هذه المناسبه فحسب، بل إنّ شخصيه رسولنا الأكرم قدوه و أسوه عظيمه لتربيتنا فى كلّ زمان و مكان.

إنّ شعار: (كونوا دعاه الناس بأعمالكم، و لا تكونوا دعاه بألسنتكم) (١) المنقول عن الإمام الصادق عليه السلام دليل على ضروره أن يكون المسلمون-أجمع و كلّ فى مجاله-أسوه و قدوه للآخرين، و بلسان العمل يمكن أن يعرّف المسلمون الإسلام للعالم، و حينئذ يمكن أن يستوعب الإسلام العالم أجمع.

٢- الله غنى عن الجميع

أكّد القرآن الكريم مرارا على نقطه مهمّه، و هى أنّ الله تعالى إذا أمر الإنسان بالالتزام بأحكام-و تكاليف معيّنه، فإنّ جميع منافعها تعود بالخير و المصلحه عليه، بالرغم من المشقّه أحيانا فى تطبيق هذه الأحكام و التكاليف. ذلك لأنّ الله تعالى ليس محتاجا لأى شىء فى عالم الوجود ليستعين بنا عليه، كما أنّه ليس لديه أى نقص فى أى شىء، إضافة إلى أنّ الإنسان لا يملك شيئا ليعطيه. بل كلّ ما لديه فهو لله تعالى.

و

قد جاء فى الأحاديث القدسيه: «يا عبادى أنكم لن تبلغوا ضررى فتضرّونى و لن تبلغوا نفعى فتنفعونى، يا عبادى لو أنّ أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا

ص: ٢٤٥

على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً.

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسأله ما نقص ذلك من عندى إلا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر.

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه» (١).

٣- الأصل فى العلاقات الرسالية: (الحب فى الله و البغض فى الله).

إن أعمق رابطة تربط أبناء البشرى مع بعضهم هى الرابطة العقائديه، حيث تبتنى عليها سائر العلاقات الاخرى.

و لقد أكد القرآن الكريم مرارا على هذا المعنى و هذا اللون من الارتباطات، و شجب صور الروابط القائمه على أساس الصداقه و الحميه الجاهليه و المنافع الشخصيه التى تكون على حساب مرتكزات المبدأ، إذ أن ذلك يعنى الاهتزاز و التصدع فى بناء الشخصيه الرساليه..

و بالإضافة إلى ذلك فإن المعيار الأساس للإنسان هو الإيمان و التقوى، و لذا فإن إقامه العلاقات مع الأشخاص الذين يفقدون هذه المقومات أمر لا يقدم عليه الإنسان الملتزم و يحذر من الوقوع فى شراكه، و لا بد من الرجوع إلى المعيار الإيمانى فى إقامه العلاقات وفق منهج الإسلام، و جعل العلاقه مع الله و الموقف من الله هو الحكم و الفصل فى طبيعه هذه العلاقه.

ص: ٢٤٦

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «من أحبَّ لله و أبغض لله و أعطى لله جلَّ و عزَّ فهو ممَّن كمل إيمانه» (١).

و نقرأ

في حديث آخر عنه عليه السلام: «من أوثق عرى الإيمان، أن تحبَّ في الله، و تبغض في الله، و تعطى في الله، و تمنع في الله» (٢).

و لمزيد من الاطلاع في مجال «الحبَّ في الله و البغض في الله» يراجع التفسير الأمثل نهايه الآيه (٢٢) من سوره المجادله.

ص: ٢٤٧

١- ١) - أصول الكافي، ج ٢، باب الحبَّ في الله حديث (١،٢).

٢- ٢) - أصول الكافي، ج ٢، باب الحبَّ في الله، حديث (١،٢). و الأحاديث في هذا المجال كثيره جدًا و يراجع المجلد الثاني من كتاب اصول الكافي، باب الحبَّ في الله، حيث نقل العلامة الكليني في هذا الباب (١٦) حديثا حول هذا الموضوع.

اشاره

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)

التفسير

اشاره

مودّة الكفار غير الحربين:

يستمرّ الحديث في هذه الآيات المباركات تكمله للموضوعات التي طرحت في الآيات السابقة حول «الحب في الله و البغض في الله» وقطع العلاقه مع المشركين، بالرغم من أنّ قطع هذه الرابطة يولّد فراغا عاطفيا بالنسبه للبعض من

المسلمين، فإنَّ المؤمنين الصادقين، وأصحاب رسول الله المخلصين آمنوا بهذا المنهج و ثبتوا عليه، والله تعالى بَشِّر هؤلاء ألاَّ يحزنوا، لأنَّ الثواب هو جزاؤهم بالإضافة إلى أنَّ هذه الحالة سوف لن تستمر طويلاً، حيث يقول سبحانه: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً .

و يتحقَّق هذا الوعد و تصدق البشاره في السنه الثامنه للهجره حيث منَّ الله على المسلمين بفتح مكَّه، و دخل أهلها جماعات جماعات في دين الإسلام الحنيف، مصداقاً لقوله تعالى: يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً و عند ذلك تبدَّد غيوم الظلمه و العدا و العناد من سماء حياتهم، و تشرق نفوسهم بنور الإيمان و حراره الودِّ و أجواء المحبَّه و الصداقه.

بعض المفسِّرين اعتبر هذه الآيه إشاره إلى زواج الرّسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم من (أمّ حبيبته بنت أبي سفيان) التي كانت قد أسلمت و صحبت زوجها «عبيد الله بن جحش» (١) في هجرته للحبشه مع المهاجرين و مات زوجها هناك، فأرسل رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم شخصاً إلى النجاشي و تزوّجها، و لأنَّ الزواج بين القبائل العربيه كان له تأثير في تضيق دائره العدا و بناء جسور المودّه بينهم، و هذه المسأله كان لها تأثير إيجابى على أبى سفيان و أهل مكَّه.

إلاَّ أنَّ هذا الاحتمال مستبعد، لأنَّ هذه الآيات نزلت عند ما كان المسلمون على أبواب فتح مكَّه، و لأنَّ «حاطب بن أبى بلتعنه» كان يروم من إرسال رسالته إلى مشركى مكَّه إحاطتهم علماً بعزم الرّسول على فتح مكَّه، في الوقت الذى نعلم أنَّ «جعفر بن أبى طالب» و أصحابه رجعوا إلى المدينه قبل فتح مكَّه (فتح خيبر) (٢).

ص: ٢٤٩

-
- ١- ١) -عبيد الله بن جحش هو أخو عبد الله بن جحش، لم يبق على الإسلام بل اختار المسيحيه فى الحبشه، و لهذا السبب فإنَّ أمّ حبيبته انفصلت عنه، أمّا أخوه (عبد الله) فقد بقى مسلماً و كان من مجاهدى أحد، و استشهد فى تلك الغزوه.
- ٢- ٢) -إنَّ خلاصه هذه القصّه قد نقلها كثير من المفسِّرين، و يمكن مراجعه شرحها فى كتاب اسد الغابه فى معرفه الصحابه،

و على كل حال، إذا تباعد بعض الناس عن خط الإسلام و المسلمين و كانت تربطهم علاقات إيجابية مع المسلمين، ففي مثل هذه الحالة لا- ينبغي اليأس، لأن الله تعالى قادر على كل شيء، و يستطيع تغيير ما في قلوبهم، فهو الذي يغفر الذنوب و الخطايا لعباده، حيث يضيف تعالى في نهايه الآية: وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

كلمه (عسى) تستعمل عادة في الموارد التي يؤمل فيها أن يتحقق شيء ما، و بما أن هذا المعنى يستعمل أحيانا توأما مع (الجهل) أو (العجز) فإن كثيرا من المفسرين فسروها بمعنى رجاء الآخرين من الله و ليس العكس، إلا أننا لا نرى تعارضا في أن يكون لهذا المصطلح المعنى الأصلي، و ذلك لأن الوصول إلى هدف معين لا- بد له في أحيان كثيرة من وجود الشروط المناسبة، و إذا لم تستكمل هذه الشروط فإن هذه الكلمه تستعمل في مثل هذه الموارد.

و تبين الآيات اللا-حقه شارحه و موضّحه طبيعه علاقه المودّه مع المشركين، حيث يقول سبحانه: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَ ظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

و بهذه الصورة يقسم القرآن الكريم «المشركين» إلى فئتين:

فئة: عارضوا المسلمين و وقفوا بوجههم و شهروا عليهم السلاح و أخرجوهم من بيوتهم و ديارهم كرها، و أظهروا عداؤهم للإسلام و المسلمين في القول و العمل .. و موقف المسلمين إزاء هذه المجموعه هو الامتناع عن إقامة كلّ لون من ألوان علاقه المحبّه و صله الولاء معهم.

(٢)

ج ٥، ص ٥٧٣.

ص: ٢٥٠

و المصداق الواضح لهذه المجموعه هم مشركو مكّه، و خصوصا سادات قريش، حيث بذل بعضهم كلّ جهدهم لحرب المسلمين و إيذائهم، و أعانوا آخرون على ذلك.

و فئه اخرى: مع كفرهم و شركهم -لا- يضمرون العداة للمسلمين، و لا- يؤذونهم و لا يحاربونهم و لم يشاركوا فى إخراجهم من ديارهم و أوطانهم، حتّى أنّ قسما منهم عقد عهدا معهم بالسلم و ترك العداة.

إنّ الإحسان إلى هذه المجموعه و إظهار الحبّ لهم لا- مانع منه، و إذا ما عقد معهم عهد فيجب الوفاء به، و أن يسعى لإقامه علاقات العدل و القسط معهم..

و مصداق هذه الجماعه يتجسّد بطائفه (خزاعه) الذين كانوا قد عقدوا عهدا مع المسلمين على المسالمة معهم و ترك الخصام.

و بناء على ذلك فلا- مجال لقول بعض المفسّرين من أنّ هذه الآية منسوخه بما ورد فى قوله تعالى: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ (١). .

حيث أنّ هذه الآية من سوره التوبه تتحدّث عن المشركين الذين نقضوا العهد و مارسوا أدوارا عداييه ضدّ الإسلام و المسلمين بصورة علنيه، و يتبيّن ذلك من خلال الاستدلال بالآيات اللاحقه التى تلى هذه الآية الكريمه (٢).

و قد ذكر بعض المفسّرين فى حديثه حول هذه الآية أنّ زوجه أبى بكر المطلقه أتت بهدايا لابنتها «أسماء» من مكّه، إلّا أنّ ابنتها امتنعت عن قبولها، بل إنّها امتنعت أيضا حتّى من السماح لامّها من دخول بيتها، فنزلت الآية أعلاه و أمرها رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أن تلتقى بأمّها و تقبل هديّتها و تكرمها و تحسن

ص: ٢٥١

١- ١) -التوبه، الآية ٥.

٢- ٢) -احتمل بعض المفسّرين أنّ الآية تمثّل رخصه عقد الولاء بالنسبه للمؤمنين الذين كانوا قد قبلوا الإسلام، إلّا أنّهم بقوا فى مكّه، و لم يهاجروا. إلّا أنّ لحن الآيات يبيّن لنا أنّ الحديث كان مختصا بغير المسلمين.

و تبين لنا هذه الروايه أنّ هذه الروايه أنّ هذا الحكم لم يكن ليشمل أهل مكّه أجمع، حيث أنّ أقلّيه منهم لم تكن تضمّر العداء للمسلمين، و لم يكن لهم موقف عدائى إزاء المسلمين، و بشكل عام فإنّ المستفاد من الآيات الكريمه حول طبيعه و كيفيه العلاقه بين المسلمين و غيرهم هو (أصل كلّى و أساسى) لا- يختصّ بذلك الوقت فقط، بل يمثّل خطأ عامًا لطبيعه هذه العلاقه فى كلّ الأزمنه سواء اليوم أو غدا، فى حياتنا المعاصره و المستقبلية.

و واجب المسلمين وفق هذه الاسس أن يقفوا بكلّ صلابه أمام أيّه مجموعه، أو دوله، تتخذ موقفا عدائيا منهم أو تعين من أراد بالإسلام و المسلمين سوءا..

و قطع كلّ صلّه قائمه على أساس المحبّه و الصداقه معهم.

أمّا إذا كان الكفّار فى موقع محايد إزاء الإسلام و المسلمين، أو أنّهم متعاطفون معهم، عندئذ يستطيع المسلمون أن يقيموا علاقات حسنه و يرتبطوا و إيّاهم بروابط المودّه على أن لا تكون بالصوره التى تكون بين المسلمين أنفسهم، و لا بالشكل الذى يؤدّى إلى تغلغلهم فى صفوف المسلمين.

و إذا تغيّر موقف جماعه ما، أو دوله ما، و هى من الصنف الأوّل أو حصل عكس ذلك فى موقف الصنف الثانى، فبدّلوا سيرتهم من المسالمة إلى المحاربه و العداء، فيجب أن يتغيّر معيار التعامل معهم حسب موقفهم الجديد و واقعهم الفعلى، و تبنى معهم العلائق حسبما ورد من مفاهيم طبقا للآيات أعلاه.

ص: ٢٥٢

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِمَّا جَرَّاتِ فَمَا تَحْنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)

سبب النزول

قال بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآيات: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَمْضَى فِي

الحديبيه مع مشركى مكّه عهدا،و كان من ضمن بنود هذا العهد أنّ من أتى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم من أهل مكّه ردّه عليهم،و من أتى أهل مكّه من أصحاب رسول الله فهو لهم لا يرّدوه عليه،و كتبوا بذلك كتابا وقّعوا عليه.

فى هذه الفتره جاءت(سبيعه بنت الحرث الأسلميه)مسلمه،و التحقت بالمسلمين فى أرض الحديبيه بعد الانتهاء من توقيع العهد،فأقبل زوجها و كان كافرا،فقال:يا محمّد،اردد علىّ امرأتى،فإنّك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك و هذه طينه الكتاب لم تجف بعد فنزلت الآيه أعلاه: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ... و أمرت بامتحان النسوة المهاجرات.**

قال ابن عباس:امتحانهنّ أن يستحلفنّ ما خرجت من بغض زوج و لا رغبه عن أرض إلى أرض،و لا التماس دنيا،و ما خرجت إلّا حباً لله و رسوله.فاستحلفها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم فحلفت بالله الذى لا إله إلّا هو على ذلك،فأعطى رسول الله زوجها مهرها و ما أنفق عليها و لم يرّدها عليه فكان رسول الله يرد من جاءه من الرجال،و يحبس من جاءه من النساء إذا امتحنهنّ **(١)** و يعطى أزواجهنّ مهورهنّ.

التفسير

اشاره

تعويض خسائر المسلمين و الكفار:

استعرضت الآيات السابقه موضوع«البغض فى الله»و ما يترتب على ذلك من قطع أى صله مع أعداء الله..أمّا موضوع هذه الآيات فهو عن«الحبّ فى الله» و عن طبيعه العلاقه مع الذين انفصلوا عن الكفر و ارتبطوا بالإيمان.

و ينصبّ الحديث فى الآيه الاولى-من هذه الآيات المباركات-عن النساء المهاجرات،حيث ضمّت هذه الآيه سبع نقاط تتعلّق بالنساء المهاجرات،كما

ص: ٢٥٤

١-١) -جاء سبب النزول أعلاه فى كثير من كتب التفسير،و نحن اقتبسناه من مجمع البيان بتلخيص قليل،كما نقل الطبرسى هذا الحديث عن ابن عباس.

تناولت نقاطا اخرى تختص بالنساء المشركات.

النقاط التي تختص بالنساء المهاجرات هي:

١- إمتحان النساء المهاجرات، حيث يوجه سبحانه الحديث إلى المؤمنين فيقول تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ** .

فالأمر الأول هو إمتحان النساء المؤمنات، وبالرغم من تسميتهن بالمؤمنات إلا أن إعلان الشهادتين ظاهريا لا يكفي، فمن أجل المزيد من الاطمئنان على انسجام الظاهر مع الباطن كان الأمر بالامتحان للوثوق والتأكد.

أما طريقه و أسلوب هذا الامتحان فكما مرّ بنا، وهو أن يستحلفن أن هجرتهم لم تكن إلا من أجل الإسلام، وأنّها لم تكن بسبب بغض أزواجهنّ أو علاقة مع شخص آخر، أو حبا بأرض المدينة و ما إلى ذلك.

كما يوجد احتمال آخر حول كيفية إمتحان النسوة المهاجرات، وذلك كما ورد في الآية الثانية عشره من نفس السورة قال تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيغُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ لِّبَايِعُهُنَّ ... (١)** .

و من الممكن أن يكون الكذب في الحلف أيضا، فيقول البعض خلافا لما يعتقد به، إلا أن التزام الكثير من الناس حتى المشركين في ذلك الزمان بمسأله البيعه و الحلف بالله كان سببا في تقليص دائره غير الصادقين. و من هنا نلاحظ أن الامتحان المذكور بالرغم من أنه لم يكن دليلا قطعيا على الإيمان حقيقه، إلا أنه غالبا ما يكون كاشفا عن الحقيقه بصوره كبيره.

لذا يضيف سبحانه في عبارته التاليه: **اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ** .

ص: ٢٥٥

٢-يقول سبحانه فى الأمر اللاحق: فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ .

و رغم أنَّ البند المثبت فى (وثيقه صلح الحديبيه)يشير إلى أنَّ الأشخاص الذين أسلموا و هاجروا إلى المدينه يجب إرجاعهم إلى مكه، إلاَّ أنَّه خاصَّ بالرجال و لا يشمل النساء،لذا فإنَّ رسول الله لم يرجع أيه امرأه إلى الكفار.و إلاَّ فرجوع المسلمه إلى الكفار يمثل خطرا حقيقيا على وضعها الإيماني،و ذلك بلحاظ ضعفها و حاجتها إلى الرعايه المستمره.

٣-فى ثالث نقطه التى هى فى الحقيقه دليل على الحكم السابق يضيف تعالى: لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَّهُنَّ .

فالإيمان و الكفر لا يجتمعان فى مكان واحد،لأنَّ عقد الزواج المقدس لا يمكن أن يربط بين محورين و خطين متضادين(خط الإيمان)من جهه و(الكفر) من جهه اخرى،إذ لا- بدَّ أن يكون عقد الزواج يشكّل نوعا من الوحده و التجانس و الانسجام بين الزوجين،و هذا ما لا يمكن أن يتحقّق نتيجة الاختلاف و التضادّ التى سيكون عليها الزوجان فى حاله كون أحدهما مؤمنا و الآخر كافرا.

و نلاحظ فى بدايه صدر الإسلام حالات من هذا القبيل لزوجين أحدهما مؤمن و الآخر كافر،و لم ينه عنها رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم حيث لم يزل المجتمع الإسلامى قلقا و غير مستقرّ بعد،إلاَّ- أنَّه عند ما تأصّلت جذور العقيدة الإسلاميه و ترسيخت مبادئها،أعطى أمرا بالانفصال التامّ بين الزوجين بلحاظ معتقدهما،و خاصّه بعد صلح الحديبيه،و الآيه-مورد البحث-هى إحدى أدلّه هذا الموضوع.

٤-كان المتعارف بين العرب أن يدفعوا للمرأة مهرها سلفا،و لهذا المعنى أشار سبحانه فى قوله فى الأمر الرابع: وَآتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا .

بالرغم من أنَّ أزواج المؤمنات كفار فلا بدّ من إعطائهم ما أنفقوا من مهر على زوجاتهم،و ذلك لأنّ الطلاق و الانفصال قد تمّ بمبادره من المرأه بسبب

إيمانها، لذا توجب العدالة الإسلامية دفع خساره الزوج.

و يتساءل هنا: هل المقصود من الإنفاق هو المهر فقط، أو أنه يشمل كافة المصاريف التي بذلها الرجل لهذا الشأن؟ رَجِّح أغلب المفسرين المعنى الأول، وهذا هو القدر المسلّم به، بالرغم من أنّ البعض - كأبي الفتوح الرازى - يرى وجوب تحمّل كافة النفقات الأخرى أيضا (١).

و طبعى أنّ دفع المهر يكون لمن عقد معاهده صلح من الكفار مع المسلمين، كما فى صلح الحديبيه.

و أما من الذى يدفع المهر؟ فالظاهر أنّ هذا العمل يجب أن تتبناه الدوله الإسلاميه (بيت المال) لأنّ جميع الأمور التى لم يكن لها مسئول خاصّ فى المجتمع الإسلامى يجب أن تتصدّى الدوله لإدارتها، و خطاب الجمع فى الآيه مورد البحث دليل على هذا المعنى. (كما يلاحظ فى آيات حدّ السارق و الزانى).

٥- الحكم الآخر الذى يلى الحكم أعلاه، فهو قوله تعالى: **وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ** .

و هنا تؤكّد الآيه الكريمه على ضروره إعطاء النساء المهاجرات مهورهنّ فى حاله الرغبه بالزواج منهنّ، شاجبه التصدّور الذى يدور فى خلد البعض بأنّ النساء المهاجرات لا يستحقن مهورا جديده بسبب استلامهنّ المهور من أزواجهنّ السابقين، و قد تحمّل بيت المال مبالغها و دفعها لأزواجهنّ السابقين.

إنّ زواجكم من هؤلاء النسوة لا يمكن أن يكون مجائئا، و لا بدّ أن يؤخذ بنظر الاعتبار مهر يتناسب مع حرمة المرأة المؤمنه.

و من الضرورى ملاحظه أنّ انفصال المرأة المؤمنه عن زوجها الكافر لا يحتاج إلى طلاق، إلّا أنّه لا بدّ من انتهاء العدّه.

ص: ٢٥٧

وقد ذكر الفقيه «صاحب الجواهر» في شرحه لكلام «المحقق الحلي» «وَأَمَّا فِي الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ غَيْرِ الْكِتَابِيِّينَ، فَالْحُكْمُ فِيهِمَا أَنَّ إِسْلَامَ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ مُوجِبٌ لَانْفِسَاخِ الْعَقْدِ فِي الْحَالِ إِنْ كَانَ قَبْلَ الدَّخُولِ وَ إِنْ كَانَ بَعْدَهُ وَقَفَ عَلَى انْقِضَاءِ الْعَدَّةِ بِإِخْلَافٍ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَلَا إِشْكَالَ نَصًّا وَ فَتْوَى، بَلْ لَعَلَّ الْإِتِّفَاقَ نَقْلًا وَ تَحْصِيلًا عَلَيْهِ» (١).

٦-أَمَّا إِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى الْعَكْسِ، وَ كَانَ الزَّوْجُ قَدْ آمَنَ بِالإِسْلَامِ، وَ بَقِيَ الْمَرْأَةُ كَافِرَةً، فَهَذَا تَنْفَصُلُ الرِّبَاطَةِ الزَّوْجِيَّةِ، فَتَنْقَطِعُ صَلَةُ زَوَاجِهِمَا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي تَكْمِلَةِ الْآيَةِ: وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ .

«عصم»: جمع عصمه، و هي في الأصل بمعنى المنع، و هنا-بمعنى النكاح و الزوجية-لوجود القرائن -و صرح البعض بأنه النكاح الدائم-و التعبير بالعصمه أيضا مناسب لهذا المعنى، لأنه يمنع المرأة من الزواج من أي شخص آخر إلى الأبد.

«الكوافر» جمع كافر، بمعنى النساء الكافرات.

وقد بحث الفقهاء في أن هذا الحكم هل هو مختص بالنساء المشركات فقط، أم أنه يشمل أهل الكتاب أيضا كالنسوة المسيحيات و اليهوديات؟ و تختلف الروايات في هذا المجال، حيث يجدر متابعتها في كتب الفقه. إلا أن ظاهر الآية مطلق و يشمل جميع النساء الكافرات، كما أن سبب النزول لم يحدّد ذلك.

أما مسأله «العدّه» فهي باقيه بطريق أولى، لأنها إذا أنجبت طفلا فسيكون مسلما لأنّ أباه مسلم.

٧-أَمَّا آخِرُ حُكْمٍ ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، فَهُوَ مَهْوَرُ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي ارْتَدَدْنَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَ التَّحَقَّنَ بِالْكَفَرِ فَإِنَّ لَكُمْ الْحَقَّ فِي الْمَطَالِبَةِ بِمَهْوَرِهِنَّ مِثْلًا لِلْكَفَرِ

ص: ٢٥٨

الحق في المطالبة بمهور زوجاتهم اللاتي دخلن دائره الإسلام و التحقن بالمسلمين، حيث يقول تعالى: وَ سَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَ لَيْسَ لَكُمْ مَا أَنْفَقُوا وَ هَذَا مَا تَوْجِبُهُ الْعَدَالَةُ وَ الْاحْتِرَامُ الْمُتَقَابِلُ لِلْحَقُوقِ.

و في نهايه الآيه-و تأكيداً لما سبق-يقول سبحانه: ذَلِكَ كُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

إنّ هذه الأحكام المستلهمه من العلم الإلهي، الممتزجه بحكمته تعالى، و التي لاحظت في تشريعاتها كافه الحقوق، تنسجم مع مبادئ العدل و المرتكزات و الأصول الإسلاميه، و لا بدّ من الالتفات إلى حقيقه أنّ كون جميع هذه الأحكام إلهيه يعدّ أكبر ضمانه إجرائيه لها في قوه التنفيذ.

و استعرضت ثاني و آخر آيه من هذه الآيات متابعه لما تقدّم، بعض الأمور في هذا الصدد يقول تعالى أنّه في كلّ مرّه ترتدّ امرأه متزوّجه عن الإسلام و تلتحق بالكفار، ثمّ حدثت معركة بينكم و بين الكفار و حالفكم النصر عليهم و غنمتم منهم مغانم فأعطوا الذين ذهبوا زوجاتهم إلى الكفار: وَ إِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَقَبْتُمْ فَاتُّوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا .

و تمثّياً مع النصّ القرآني فإنّ بإمكان المسلمين الذين فقدوا زوجاتهم اللواتي التحقن بمعسكر الكفر أن يأخذوا مهورهنّ من الكفار، كما كان يحقّ للكفار استلام مهور زوجاتهم اللواتي اعتنقن الإسلام و هاجرن إلى المدينه.

و تحدّثنا بعض الروايات أنّه في الوقت الذي طُبّق المسلمون هذا الحكم العادل، فإنّ مشركي مكّه امتنعوا عن الالتزام به و تنفيذه، لذا فقد امر المسلمون بصيانته حقّ هؤلاء الأفراد و ذلك بإعطائهم ما يعادل المهور التي دفعوها لزوجاتهم اللواتي التحقن بالمشرّكين من الغنائم التي حصلوا عليها قبل تقسيمها على الآخرين.

و يحتمل أن يكون هذا الحكم خاصاً بالجماعات التي لم يكن لها عهد مع

المسلمين، حيث من الطبيعي أنّ مثل هؤلاء لم يكونوا مستعدين لدفع مهر أمثال هؤلاء النسوة للمسلمين، كما يمكن الجمع بين الرأيين أيضا.

«عاقبتهم» من مادّة معاقبه، وهى فى الأصل من عقب (على وزن كدر) بمعنى:

(كعب القدم) و لهذا السبب فإنّ كلمه «عقبى» جاءت بمعنى الجزاء و العقوبه، أى بمعنى عقاب لعمل فيه مخالفه. لذا فإنّ المعاقبه تستعمل بمعنى القصاص، كما يستعمل هذا المصطلح أيضا (معاقبه) بمعنى (التناوب) فى أمر ما، لكون الأشخاص الذين ينجزون عملا ما بشكل متناوب، يعقب كلّ منهم الآخر.

و لذا فإنّ كلمه (عاقبتهم) فى الآيه أعلاه جاءت بمعنى انتصار المسلمين على الكفّار و عقابهم، و أخذ الغنائم منهم، كما جاءت أيضا بمعنى «التناوب» أى يوم ينتصر فيه الكفّار على المسلمين و يوم بالعكس.

و يحتمل أيضا المقصود من هذه العبارة هو: الوصول إلى نهايه و عاقبه عمل ما، و المراد من نهايه العمل هنا هو أخذ الغنائم الحريه.

و أى من هذه المعانى كان، فإنّ النتيجة واحده، إلّا أنّ طرق الوصول إلى هذه النتيجة متفاوتة.

و تدعو الآيه الكريمه فى نهايتها جميع المسلمين إلى الالتزام بالتقوى حيث يقول تعالى: [□] وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ .

و الأمر بالتقوى هنا يمكن أن يكون بمراعاة الدقه و العدل فى تعيين مقدار مهر الزوجه، باعتبار أنّ هذا الأمر يعتمد فيه على قول الزوج فى الغالب، و لا يوجد سبيل لإثبات هذا الحقّ إلّا أقوال الزوجين، و لاحتمال أن تسبّب الوسوس الشيطانيه فى الادّعاء بمبلغ أكثر من المقدار الحقيقى للمهر، لذا يوصى بالتقوى.

و جاء فى التواريخ و الروايات أنّ هذا الحكم الإسلامى قد شمل ستّ نسوه - فقط - انفصلنّ عن أزواجهنّ المسلمين و التحقن بالكفّار، و قد أعطى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أزواجهنّ مهورهنّ من الغنائم الحريه.

من خلال استعراضنا الآيات الكريمه أعلامه نلاحظ عمق الدقّه و روعه الظرافه و اللطف فى طبيعه الأحكام التى وردت فيها، موضّحه إلى أى حدّ يهتمّ الإسلام بأصل العدالة و القسط فى تشريع أحكامه حتّى فى أخرج الظروف و أصعبها، لأنّه يسعى لتعميم الخير و إبعاد الأذى و الضرر حتّى عن الكفّار.

فى الوقت الذى نلاحظ أنّ العرف العامّ فى حياتنا العمليه يتعامل فى الظروف و الأوقات العصبيه بخصوصيه معيّنه و استثناء خاصّ و يتخلّى عن الكثير من قيم الحقّ و العدل و يدّعى أن لا مكان لإحقاق الحقّ فيها.. فى حين تؤكّد التشريعات الإلهيه على تحمّل كلّ صعوبه حتّى فى أدقّ الظروف و أشدّها ضيقاً منعا لهدر أى حقّ، لا للقريبين فقط. بل حتّى للأعداء، إذ يجب أن يحافظ على حقوقهم و ترعى حرمتهم.

إنّ مثل هذه الأحكام الإسلاميه هى فى الحقيقه نوع من الإعجاز، و دليل على حقّانيه دعوه الرّسول الأعظم حيث السعى بمنتهى الجهد لإقامه العدل حتّى فى أسوأ حالات الانتهاك للحرّمات الإسلاميه فى مجال النفس و المال كما كان عليه فعل المجتمع الجاهلى.

اشاره

إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ
بِهَتَانٍ يَفْتَرِيَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ لِّمَا يَعْهَدْنَ وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)

التفسير

اشاره

شروط بيعه النساء:

استمرارا للبحث الذي تقدّم في الآيات السابقه و الذي استعرضت فيه أحكام النساء المهاجرات، تتحدّث هذه الآيه عن تفاصيل و
أحكام بيعه النساء المؤمنات مع الرّسول الأعظم صلّى الله عليه و آله و سلّم.

لقد ذكر المفسّرون أنّ هذه الآيه نزلت يوم فتح مكّه عند ما كان رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم على جبل (الصفاء) يأخذ
البيعه من الرجال، و كانت نساء مكّه قد أتين إلى رسول الله من أجل البيعه فنزلت الآيه أعلاه، و بيّنت كيفيه البيعه معهنّ،

و يختص خطاب الآيه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبْتَغِينَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَنَ بِاللَّهِ... إلى قوله: ...إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

و بعد هذه الآيه أخذ رسول الله البيعه من النساء المؤمنات.

و كتب البعض حول كيفية البيعه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مر بإناء فيه ماء، و وضع يده المباركه فيه، و وضع النسوة أيديهن في الجبهه الاخرى من الإناء. و قيل إن رسول الله بايع النساء من فوق الملابس.

و مما يجدر ملاحظته أن الآيه الكريمه ذكرت سته شروط في بيعه النساء، يجب مراعاتها و قبولها جميعا عند البيعه و هي:

١- ترك كل شرك و عباده للأوثان، و هذا شرط أساسى فى الإسلام و الإيمان.

٢- اجتناب السرقة، و يحتمل أن يكون المقصود بذلك هو سرقة أموال الزوج، لأنّ الوضع المالى السيء آنذاك، و قسوه الرجل على المرأة، و انخفاض مستوى الوعى كان سببا فى سرقة النساء لأموال أزواجهن، و احتمال إعطاء هذه الأموال للمتعلقين بهنّ.

و ما قصّه (هند) فى بيعتها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا شاهد على هذا المعنى، و لكن على كل حال فإنّ مفهوم الآيه واسع.

٣- ترك التلوث بالزنا، إذ المعروف تأريخيا أن الانحراف عن جاده العفه كان كثيرا فى عصر الجاهليه.

٤- عدم قتل الأولاد، و كان القتل يقع بطريقتين، إذ يكون بإسقاط الجنين تاره، و بصورة الوأد تاره اخرى (و هى عمليه دفن البنات و الأولاد أحياء).

٥- اجتناب البهتان و الافتراء، و قد فسّر البعض ذلك بأنّ نساء الجاهليه كنّ يأخذن الأطفال المشكوكين من المعابر و الطرق و يدعين أنّ هذا الطفل من أزواجهنّ (و هذا الأمر محتمل فى حاله الغياب الطويل للزوج).

و قد اعتبر البعض ذلك إشارة إلى عمل قبيح هو من بقايا عصر الجاهليه،

حيث كانت المرأة تتزوج من رجال عدّه، وعند ما يولد لها طفل تنسبه إلى أى كان منهم، إذا ضمنت رغبته بالطفل.

و مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ مسأله الزنا قد ذكرت سابقا، ولم يكن استمرار مثل هذا الأمر فى الإسلام ممكنا، لذا فإنّ هذا التفسير مستبعد، والتفسير الأول أنسب بالرغم من سعه مفهوم الآيه الشريفه الذى يشمل كلّ افتراء و بهتان.

كما أنّ التعبير بَيِّنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ أَرْجُلَهُنَّ يمكن أن يكون إشاره إلى أطفال أبناء السبيل، حيث تكون وضعيه الطفل الرضيع عند رضاعته فى حضن امّه بين يديها و رجليها.

٦- الطاعه لأوامر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم التى تبنى الشخصيه المسلمه و تهذبها و تربّيها على الحقّ و الخير و الهدى، و هذا الحكم واسع أيضا يشمل جميع أوامر الرّسول، بالرغم من أنّ البعض اعتبره إشاره إلى قسم من أعمال النساء فى عصر الجاهليه كالنوح بصوت عال على الموتى، و تمزيق الجيوب و خمش الخدود و ما شابه، إلّا أنّ مفهوم الطاعه لا ينحصر بذلك.

و يمكن أن يطرح هنا هذا السؤال و هو: لماذا كانت البيعه مع النساء مشروطه بهذه الشروط، فى حين أنّ بيعه الرجال لم تكن مشروطه إلّا- بالإيمان و الجهاد؟ و للإجابة على ذلك نقول: إنّ الأمور الأساسيه المتعلّقه بالرجال فى ذلك المحيط هو الإيمان و الجهاد، و لأنّ الجهاد لم يكن مشروعاً بالنسبه للنساء لذا ذكرت شروط اخرى أهمّها ما أكّدت عليه الآيه الشريفه و التى تؤكد على صيانه المرأة من الانحراف فى ذلك المجتمع.

بحوث

إشاره

١- ارتباط بيعه النساء ببناء شخصيتهنّ الإسلاميه

لقد ذكرنا فى تفسير سوره الفتح فى نهايه الآيه (١٨)- بحثا مفصّلا حول

البيعه و شروطها و خصوصياتها في الإسلام، لذا لا ضروره لتكرار ذلك (١).

و ممّا يجدر التذكير به هنا أنّ مسأله بيعه النساء للرسول صلّى الله عليه وآله و سلم كانت بشروط بناءه و مربيّه كما نصّت عليها الآيه أعلاه.

إنّ هذه النقطة على خلاف ما يقوله الجهله و المغرضون في أنّ الإسلام حرم المرأة من الاحترام و القيمه و المكانه التي تستحقّها، فإنّ هذه الآيه أكّدت على الاهتمام بالمرأة في أهمّ المسائل و من ضمنها موضوع البيعه سواء كانت في الحديبيه في العام السادس للهجرة أو في فتح مكّه، و بذلك دخلن العهد الإلهي مع الرجال و تقبلن شروطا إضافيه تعبّر عن الهويه الإنسانيه للمرأة الملتزمه تنقذها من شرور الجاهليه، سواء القديمه منها أو الجديده، حيث تتعامل معها كمتاع بخس رخيص، و وسيله لإشباع شهوه الرجال ليس إلّا.

٢- قصّه بيعه (هند) زوجته أبي سفيان

عند ما منّ الله على المسلمين بفتح مكّه، و جاءت النساء لبيعه الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله و سلم و كانت «هند» زوجته أبي سفيان من ضمن النساء اللواتي جئن لبيعه الرسول أيضا. هذه المرأة التي ينقل عنها التاريخ قصصا مشيره في ممارساتها الإجراميه، و ما قصّه فعلها بحمزه سيّد الشهداء في غزوه أحد، ذلك العمل الإجرامي القبيح، إلّا مفردة واحده من الصور السوداء لهذه المرأة المشينه.

و بالرغم من أنّ الظروف قد اضطرّتها إلى الانحناء أمام عظمه الإسلام فأعلنت إسلامها ظاهريا، إلّا أنّ قصّه بيعتها تعكس أنّها في الواقع كانت وفيّه لما ارتبطت به من عقائد جاهليه سابقه، لذا فليس عجبا ما ارتكبه آل اميّه و أبناؤهم بحقّ آل الرسول، بصورة لم يكن لها مثيل.

ص: ٢٦٥

١- ١) -يراجع في هذا الصدد التفسير الأمثل الآيه (١٨) سورة الفتح.

و على كل حال، فقد كتب المفسرون في قصه بيعه هند:

»

روى أن النبي بايعهنّ و كان على الصفا، و هند بنت عتبة متنّبه متنكره خوفا من أن يعرفها رسول الله، فقال أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا، فقالت هند:

أنك لتأخذ علينا أمرا ما أخذته على الرجال.

و ذلك أنه بايع الرجال يومئذ على الإسلام و الجهاد فقط، فقال رسول الله: و لا تسرقن. فقالت هند: إنّ أبا سفيان ممسك و أنّي أصبت من ماله هبات فلا- أدرى أيّ محلّ لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من مالي فيما مضى و فيما غبر فهو لك حلال.. فضحك رسول الله و عرفها فقال لها: و أنّك هند بنت عتبة، فقالت: نعم فاعف عمّا سلف يا نبي الله عفا الله عنك. فقال: و لا تزني. فقالت هند: أو تزني الحرّ، فتبسّم عمر بن الخطاب لما جرى بينه و بينها في الجاهلية، فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم:

«و لا تقتلن أولادكن، فقالت هند: ربّيناهم صغارا و قتلوهم كبارا و أنتم و هم أعلم.

و كان ابنها حنظله بن أبي سفيان قتله على بن أبي طالب عليه السّلام يوم بدر. و قال النبي:

و لا- تأتين ببهتان قالت هند: و الله إنّ البهتان قبيح و ما تأمرنا إلّا بالرشد و مكارم الأخلاق، و لمّا قال: و لا يعصينك في معروف قالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا و في أنفسنا أن نعصيك في شيء» (١).

٣- الطاعة بالمعروف

إنّ من جملة النقاط الرائعة المستفادة من الآيه أعلاه هو تقييد طاعه الرّسول بالمعروف، مع أنّ الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم معصوم، و لا- يأمر بالمنكر أبدا، و هذا التعبير الرائع يدلّ على أمر في غايه السمو، و هو أنّ الأوامر التي تصدر من القاده الإسلاميين- مع كونهم يمثلون القدوة و النموذج- لن تكون قابله للتنفيذ و محترمه إلّا إذا كانت

ص: ٢٦٦

(١- ١) -مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٧٦، و جاء القرطبي في تفسيره بهذه القصّه باختلاف يسير، و كذلك السيوطي في الدرّ المنثور، و أبو الفتوح في تفسير روح الجنان (في نهايه الآيات مورد البحث).

منسجمه مع التعاليم القرآنيه و اصول الشريعه و عندئذ تكون مصداقا(لا يعصينك في معروف).

و كم هى الفاصله بعيده بين الأشخاص الذين يعتبرون أوامر القاده واجبه الطاعه، مهما كانت و من أى شخص صدرت، ممّا لا ينسجم مع العقل و لا- مع حكم الشرع و القرآن، و بين التأكيد على إطاعه المعصوم و عدم المعصيه فى معروف؟! و قال أمير المؤمنين عليه السّلام فى رسالته المشهوره التى أرسلها لأهل مصر حول و الولايه مالک الأشر، و مع كلّ تلك الصفات المتميّزه فيه:

«فاسمعوا له و أطيعوا أمره فيما طابق الحقّ فإنّه سيف من سيوف الله» (١).

ص: ٢٦٧

١- ١) -نهج البلاغه، رساله رقم (٣٨) و هى رساله قصيره كتبها الإمام عليه السّلام لأهل مصر هى غير ما كتبه الإمام عليه السّلام من العهد المعروف لمالک الأشر.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئْسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)

التفسير

بدأت هذه السوره بآيه تؤكد على قطع كلّ علاقه بأعداء الله، وتختتم هذه السوره بآيه تؤكد هي الاخرى على نفس المفهوم و الموقف من أعداء الله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ و بتعبير آخر فإنّ ختام السوره رجوع إلى مطلعها.

و يحذّر القرآن الكريم من أن يتخذ أمثال هؤلاء أولياء و أن تفشى لهم الأسرار فيحيطون علما بخصوصيات الوضع الإسلامى.

و يرى البعض أنّ الآيه صريحه فى أنّ المراد بالمغضوب عليهم فيها هم (اليهود) إذن أنّهم ذكروا فى آيات قرآنيه اخرى بهذا العنوان، قال تعالى: فَبَاؤُوا بِغَضَبِ عَلِيٍّ غَضَبٍ (١).

ص: ٢٦٨

و هذا التفسير يتناسب أيضا مع سبب النزول الذى ذكر لهذه الآية، حيث تحدثنا بعض الروايات أن قسما من فقراء المسلمين كانوا يذهبون بأخبار المسلمين إلى اليهود مقابل إعطائهم شيئا من فواكه أشجارهم، فنزلت الآية أعلاه و نهتهم عن ذلك (١).

و مع ذلك فإنّ للآية مفهوما واسعا حيث يشمل جميع الكفار و المشركين، و التعبير ب«الغضب» فى القرآن الكريم لا ينحصر باليهود فقط، إذ ورد بشأن المنافقين أيضا كما فى الآية (٦) من سورة الفتح، بالإضافة إلى أنّ سبب النزول لا يحدّد مفهوم الآية.

و بناء على هذا فإنّ ما جاء فى الآية الشريفة يتناسب مع أمر واسع جاء فى أول آية من هذه السورة تحت عنوان (موالاه أعداء الله).

ثم تتناول الآية أمرا يعتبر دليلا على هذا النهى حيث يقول تعالى: قَدْ يَسْأَلُونَكَ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسْأَلُونَكَ مِنَ الْأَوَّلِ قُلْ أَصْحَابُ الْقُبُورِ (٢).

ذلك أنّ موتى الكفار سيرون نتيجة أعمالهم فى البرزخ حيث لا رجعه لهم لجبران ما مضى من أعمالهم السيئة، لذلك فإنّهم يسألون تماما من النجاة، و هؤلاء المجرمون فى هذه الدنيا قد غرقوا فى آثامهم و ذنوبهم إلى حدّ فقدوا معه كلّ أمل فى نجاتهم، كما هو الحال بالنسبة للموتى من الكفار.

إنّ مثل هؤلاء الأفراد من الطبيعى أن يكونوا أشخاصا غير أمناء و لا يعتد بكلامهم و عهدهم، و لا اعتبار لوّدهم و صداقتهم، لأنّهم يائسون تماما من رحمه

ص: ٢٦٩

(١ - ١) - مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٧٦.

(٢ - ٢) - ذهب بعض المفسرين إلى احتمالات أخرى فى تفسير هذه الآية من جملتها: أنّهم ينسوا من ثواب الآخرة كما يسئ المشركون من إحياء أصحاب القبور، إلّا أنّ التفسير الذى ذكرناه أعلاه أنسب (و ممّا يجدر الانتباه إليه أنّه طبقا للتفسير الأوّل فإنّ (من أصحاب القبور) وصف للكفار و طبقا للتفسير الأخير فإنّها متعلّقة ب(يسئ)).

اللّٰه، و لهذا السبب فيّ أنّهم يركبون أقبح الجرائم و أرذل الأعمال، و جماعه هذه صفاتها كيف تثقون بها و تعتمدون عليها و تتخذونها أولياء؟! اللهم، لا تحرمنا أبدا من لطفك و رحمتك الواسعه..

ربّنا، و فّقنا لنكون أولياء لأوليائك و أعداء لأعدائك، و ثبت أقدامنا في هذا السبيل..

إلهنا، و فّقنا للتأسى بأنبيائك و أوليائك..

آمين يا ربّ العالمين.

نهايه سورہ الممتحنه

ص: ٢٧٠

سوره الصفّ

اشاره

مدنیہ و عدد آیاتہا أربع عشرہ آیہ

ص: ۲۷۱

محتوى سوره الصّف:

تدور أبحاث هذه السوره إجمالاً حول محورين أساسيين.

الأول: فضيله الإسلام على جميع الأديان السماويه، و ضمان خلوده و بقاءه.

و الثانى: وجوب الجهاد فى طريق حفظ المبدأ و ترسيخ أركانه و تطوير العمل لتقدّمه و الالتزام به.

إلا أننا حينما نتأمل فى الآيات الكريمه نلاحظ إمكانيه تقسيمها إلى سبعة أقسام من خلال نظره تفصيليه، و تشمل ما يلى:

١- تتحدّث بدايه السوره عن تنزيه و تسبيح البارئ العزيز الحكيم، و تمهيد الأرضيه لتلقّى و قبول الحقائق و الموضوعات التى تليها.

٢- الدعوه إلى الانسجام بين القول و العمل، و الابتعاد عن الدعاوى الفارغه البعيده عن المسار العملى.

٣- الدعوه إلى الجهاد بيقين ثابت و عزم راسخ.

٤- الإشارة إلى موقف اليهود من العهود و نقضهم لها، بالإضافة إلى بشاره السيّد المسيح عليه السّلام بظهور الإسلام العظيم.

٥- الضمان الإلهى لانتصار الإسلام على كافّة الأديان.

٦- الحثّ و التأكيد على الجهاد و استعراض المثوبات الدنيويه و الاخرويه للمجاهدين فى سبيل الحقّ.

٧-استعراض مختصر لحياه حوارى السيد المسيح عليه السلام و الدعوه لاستلهم الدروس من سيرتهم.

و من خلال نظره شامله لموضوعات هذه السوره الشريفه نلاحظ أنّ المحور الأساس لها هو(الإسلام و الجهاد).

إنّ إختيار اسم«الصف»لهذه السوره كان بلحاظ العبارة التى وردت فى الآيه الرابعه منها،و تسمى أحيانا بسوره«عيسى»عليه السلام،أو سوره«الحواريين».

و المعروف أنّ هذه السوره نزلت فى المدينه،و يؤيد هذا المعنى ما ورد فيها من آيات الجهاد الذى لم يشرع فى مكّه كما هو معلوم.

فضيله تلاوه سوره الصف:

فى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم حول فضيله تلاوه سوره الصف أنّه قال: «من قرأ سوره عيسى كان عيسى مصليا عليه مستغفرا له ما دام فى الدنيا و هو يوم القيامة رفيقه» (١).

نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «من قرأ سوره الصف و أدام قراءتها فى فرائضه و نوافله،صفّه الله مع ملائكته و أنبيائه المرسلين» (٢).

ص: ٢٧٤

١-١) -مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٧٨، كما ذكر بقيه المفسرين أيضا أسباب النزول هذه باختلافات.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٧٧، نور الثقلين، ج ٩، ص ٣٠٩.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيِّنَاتٍ مَرْصُوصٌ (٤)

سبب النزول

ذكر المفسرون أسبابا عديده لنزول الآيه الشريفه: لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ بتفاوت يسير فيما ذكروه، ومما جاء في أقوالهم ما يلي:

١- أن الآيه الكريمه نزلت في جماعه من المؤمنين كانوا يقولون: إذا لقينا العدو لن نفرّ و لن نرجع عنهم، إلا أنّهم لم يفوا بما قالوا يوم «احد» حتى شجّ وجه الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم وكسرت رباعيته المباركه.

٢- بعد بيان الباري عزّ وجلّ الثواب العظيم لشهداء بدر، قال بعض الصحابه:

ما دام الأجر هكذا فإننا سوف لن نفرّ في الغزوات المقبله، إلا أنّهم فرّوا في غزوه أحد، فنزلت الآيه أعلاه موبّخه لهم.

٣-دعا بعض المؤمنين قبل نزول حكم الجهاد أن يرشدكم الله إلى أفضل الأعمال ليعملوا بها و لم يمض وقت طويل حتى أخبرهم الله سبحانه بأنّ (أفضل الأعمال الإيمان الخالص و الجهاد في سبيله) إلا أنّهم لم يتفاعلوا مع هذا التوجيه، و تعلّلوا فنزلت الآية تلومهم و توبيخهم على موقفهم هذا (١).

التفسير

إشارة

المقاتلون المؤمنون صفّ حديدى منيع:

اعتبرت هذه السورة من السور المسبّحات، ذلك لأنها تبدأ بتسبيح الله في بدايتها: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (٢). و لم لا يسبّحونه و لا ينزهونه من كلّ عيب و نقص: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ القدير الذى لا يقهر و الحكيم المحيط بكلّ شىء علما. إنّ الالتفات إلى مسأله التسبيح العامّ للكائنات، الذى يتمّ بلسان الحال و القول، و كذلك النظام المدهش العجيب الحاكم فيها و الذى هو أفضل دليل على وجود خالق عزيز حكيم.. من شأنه تمكين أسس الإيمان فى القلوب، و من شأنه أيضا تمهيد الطريق لأمر الجهاد.

ثمّ يضيف البارئ عزّ و جلّ فى معرض لوم و توبيخ للأشخاص الذين لم يلتزموا بأقوالهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣).

و على الرغم من أنّ سبب نزول الآية كما مرّ بنا كان متعلّقاً بالجهاد فى سبيل الله، و ما حدث من فرار فى غزوه احد، و لكن يستفاد من الآية سعه المفهوم الذى

ص: ٢٧٦

١-١) -مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٧٧، نور الثقلين، ج ٩، ص ٣٠٩.

٢-٢) -تحدّثنا مرارا فى هذا التفسير حول كيفية التسبيح العام لكائنات العالم و من ضمن ذلك ما ورد فى نهايه الآية (٤٤) من سورة الإسراء و نهايه الآية (٤١) من سورة النور.

٣-٣) - (لم) فى الأصل كانت (لما) (مركبه من لام جارّه، و ما استفهاميه) ثم سقطت الفها بسبب كثره الاستعمال.

تعرّضت له، و بهذا تستوعب كلّ قول لا يقتزن بعمل و يستحقّ اللوم و التوبيخ، سواء يتعلّق بالثبات فى ميدان الجهاد أو أى عمل إيجابى آخر.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المخاطب فى هذه الآيات هم المتظاهرون بالإيمان و المنافقون، مع أنّ الخطاب فى هذه الآيه موجّه إلى الذين آمنوا، كما أنّ تعبيرات الآيات اللاحقه تبين لنا أنّ المخاطب بذلك هم المؤمنون، و لكنّهم لم يصلوا بعد إلى الإيمان الكامل و أعمالهم غير منسجمه مع أقوالهم.

ثمّ يضيف سبحانه مواصلا القول: كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (١) حيث التصريحات العلنيه فى مجالس السمر و الادّعاء بالشجاعه، و لكن ما أن تحين ساعه الجدّ إلّا و نلاحظ الهروب و النكوص و الابتعاد عن تجسيد الأقوال المدّعا.

إنّ من السمات الأساسيه للمؤمن الصادق هو الانسجام التام بين أقواله و أعماله و كلّما ابتعد الإنسان عن هذا الأصل، فإنّه يبتعد عن حقيقه الإيمان.

«المقت» فى الأصل: (البغض الشديد لمن ارتكب عملا قبيحا) و كان عرب الجاهليه يطلقون عبارته (نكاح المقت) لمن يتزوّج زوجه أبيه. و فى الجمله السابقه نلاحظ اقتران مصطلح «المقت» مع «الكبر»، و الذى هو دليل أيضا على الشدّه و العظمه، كما هو دليل على الغضب الإلهى الشديد على من يطلقون أقوالا و لا يقرنونها بالأعمال.

يقول المرحوم العلّامه الطباطبائى فى الميزان: فرق بين أن يقول الإنسان شيئا لا يريد أن يفعله، و بين الإنسان الذى لا ينجز عملا يقوله.

فالأوّل دليل النفاق، و الثانى دليل ضعف الإراده (٢).

ص: ٢٧٧

١- ١) - اعتبر بعض المفسّرين (كبر) من أفعال (المدح و الذمّ)، (تفسير روح البيان نهايه الآيات مورد البحث)، كما فهم البعض منها معنى التعجّب (تفسير الكشاف).

٢- ٢) - الميزان، ج ١٩، ص ٢٨٧.

و توضيح ذلك أنّ الإنسان أنّ الإنسان الذى يقول شيئاً لم يقرّر إنجازه منذ البدايه هو على شعبه من النفاق، أمّا إذا قرّر القيام بعمل ما، و لكنّه ندم فيما بعد فهذا دليل ضعف الإراده.

و على كلّ حال، مفهوم الآيه يشمل كلّ تخلف عن عمد، سواء تعلّق بنقض العهود و الوعود أو غير ذلك من الشؤون، حتّى أنّ البعض قال: إنّها تشمل حتّى النذور.

و نقرأ

فى رساله الإمام على عليه السّلام لمالك الأشتر أنّه قال: «إياك.. أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك.. و الخلف يوجب المقت عند الله و الناس، قال الله تعالى:

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ

« (١) ».

كما نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق أنّه عليه السّلام قال: «عده المؤمن أخاه نذر لا كفّاره فيه، فمن أخلف فبخلف الله بدأ، و لمقته تعرّض، و ذلك قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) ».

ثمّ تطرح الآيه اللاحقه مسأله مهمّه للغايه فى التشريع الإسلامى، و هى موضوع الجهاد فى سبيل الله، حيث يقول تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُيُوتًا مَرْصُورًا (٣) ».

و نلاحظ هنا أنّ التأكيد ليس على القتال فحسب، بل على أن يكون «فى سبيله» تعالى وحده، و يتجسّد فيه -كذلك- الاتحاد و الانسجام التامّ و التجانس و الوحده، كالبنيان المرصوص.

«صف» فى الأصل لها معنى مصدرى بمعنى (جعل شىء ما فى خطّ مستو) إلّا أنّها هنا لها معنى (اسم فاعل).

ص: ٢٧٨

١-١) -نهج البلاغه رساله رقم ٥٣ ص ٤٤٤ صبحى الصالح.

٢-٢) -اصول الكافى، ج ٢، باب خلف الوعد.

٣-٣) - (صفّا) منصوبه على أنّها حال.

«مرصوص» من مادّة (رصاص) بمعنى معدن الرصاص، ولأنّ هذه المادّة توضع بعد تذويبها بين طبقات البناء من أجل استحكامه و جعله قويًا و متينًا للغاية، لذا أطلقت هذه الكلمه هنا على كلّ أمر قوى و محكم.

و المقصود هنا أن يكون وقوف و ثبات المجاهدين أمام العدو قويًا راسخا تتجسّد فيه وحده القلوب و الأرواح و العزائم الحديده و التصميم القوى، بصوره تعكس أنّهم صفّ متراصّ ليس فيه تصدّع أو تخلخل..

يقول على بن إبراهيم فى تفسيره موضّحاً مقصود هذه الآية: «يصطفّون كالبنيان الذى لا يزول» (١).

و

جاء فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السّلام أنّه عند ما كان يهوى أصحابه للقتال بصفّين، قال: «إنّ الله تعالى قد أرشدكم إلى هذه المسؤوليه حيث قال سبحانه: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صِفًا كَأَنَّهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوصٌ و على هذا فاحكموا صفوفكم كالبنيان المرصوص، و قدموا الدّارع، و أخروا الحاسر، و عضّوا على الأضراس فإنّه أنبى للسيوف عن إلهام، و التّوا فى أطراف الرماح، فإنّه أمور للأسنّه، و غصّوا الأبصار فإنّه أربط للجأش، و أسكن للقلوب، و أميتوا الأصوات، فإنّه أطرّد للفشل، و رايتكم فلا تملوها و لا تخلوها، و لا تجعلوها إلّا بأيدي شجعانكم...» (٢).

بحثان

إشارة

١- ضرورة وحده الصفوف

إنّ من العوامل المهمّة و المؤثّره فى تحقيق النصر عامل الانسجام و وحده

ص: ٢٧٩

١- ١) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٣١١.

٢- ٢) -نهج البلاغه، خطبه (١٢٤)، صبحى الصالح.

الصفوف أمام الأعداء في ميادين القتال، وهذا المبدأ لا يجدر بنا الالتزام به في الحرب العسكريه فحسب، بل علينا تجسيده في الحروب الاقتصادية و السياسيّه .. وإلا فسوف لن نحقق شيئاً.

إنّ التشبيه القرآنى للعدو بأنّه سيل عارم و مدمّر لا- يسيطر عليه إلا- من خلال سدّ حديدى محكم، تشبيه فى غايه الروعه و الجمال، و التعبير بأن يكون المؤمنون ك(البنيان المرصوص) أروع تعبير جاء فى هذا الصدد، و ممّا لا شكّ فيه أنّ لكلّ جزء فى السدّ أو البناء العظيم، دور معيّن فى مواجهه السيل، و هذا الدور مهمّ و مؤثّر على جميع الأجزاء، و فى حاله قوّته و تماسكه و عدم وجود تخلخل أو تشقّق أو ثغرات فيه، يصعب عندئذ نفوذ العدوّ منه، و إذا ما حاول ذلك فإنّ الجميع يوجّهون إليه صفعه مدمّره.

و ممّا يؤسف له أنّ أمثال هذه التعاليم الإسلاميه قد نسيت اليوم، و استبدلت حاله الوحده و التراصّ فى مجتمعنا الإسلامى بحاله من التشتّت و التمزّق، و أصبحت صفوفنا شتّى، و كلّ منها ينهش الآخر حتّى أدّى إلى تآكل قوانا و تفرّق جمعنا.

إنّ وحده الصفّ ليست شعاراً إعلامياً، إنّها تحتاج إلى وحده العقيده و التصورات و الأهداف.. و هذا ما يحتاج بالضروره إلى خلوص النوايا و الالتزام بالمفاهيم القرآنيه العظيمه، و اعتماد التربه الإلهيه فى السلوك و المنهج العلمى السليم.

و إذا كان البارئ عزّ و جلّ يعلن حبّه للمجاهدين المتراصّين الذين يشكّلون وحده متماسكه، فإنّه سبحانه فى نفس الوقت يعلن سخطه و غضبه على الجموع المسلمه إذا كانت متمزّقه و مشتّته و نتيجه هو ما نراه الآن متجسّداً فى تسلّط مجموعه صغيره من الصهاينه على أرضنا الإسلاميه و عددنا يربو على المليار

إلهي: تفضل علينا بمعرفه القرآن العظيم حق معرفته، ووفقنا للالتزام بتعاليمه الساميه.

٢- الأقوال المجزّده عن العمل

يترجم اللسان في الغالب ما يكنه القلب و ما تضره الروح، وإذا أصبح اللسان في مسار بعيد عن تصوير خلجات القلب و إرادته. فإنّ ذلك دليل على حاله النفاق، و المنافق تبدو عليه علامات الاعتلال في الفكر و الروح.

إنّ من أعظم الابتلاءات التي تبلى بها المجتمعات الإنسانية هو تزعزع الثقة بين صفوفها و عدم الاطمئنان فيما بينها، و أماره ذلك هي الأقوال البعيده عن الالتزام و الادّعاءات الفارغه من المحتوى العملي، و أداه ذلك هم الأشخاص الذين يقولون ما لا يفعلون، و بذلك فهم يشكّلون بؤره عميقه مخيئه في قبال حالات الانسجام و الوحده و التماسك أمام المشاكل التي تواجههم، بل يشكّلون عاملا للضعف و التباغض و عدم الاحترام و تضييع الإمكانيات و سقوط هيبتهم أمام الأعداء.

عند ما أغار جيش الشام على حدود العراق، و وصل خبر ذلك إلى

الإمام على عليه السلام خطب في أهل الكوفه خطبته التي قال فيها: «أيها الناس المجتمعه أبدانهم المختلفه أهواؤهم، كلامهم يوهي الصمّ الصلاب، و فعلكم يطمع فيكم الأعداء، تقولون في المجالس كيت و كيت، فإذا جاء قلتهم: حيدى حيا» (١).

و الإمام عليه السلام يتحدّث هنا بألم عن أهل العراق، و هذا ما تعكسه كلماته التي

ص: ٢٨١

تشير التفاوت بين أقوالهم و أعمالهم.

و نقراً

عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «يعنى بالعلماء من صدق فعله قوله، و من لم يصدق فعله قوله فليس بعالم» (١).

ص: ٢٨٢

١-١) -اصول الكافي، ج ١ (باب صفه العلماء/حديث رقم ٢).

الآيتان [سوره الصف (٦١): الآيات ٥ الى ٦]

اشاره

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦)

التفسير

اشاره

البشارة بظهور النبي (أحمد):

تأتى الآيه الكريمه-أعلاه-مكمّله لمحورين أساسيين تحدّثت عنهما الآيات السابقه وهما(الانسجام بين القول و العمل)و(وحده الصفّ الإيماني)، لتستعرض لنا زاويه من حياه النبيين العظيمين (موسى و عيسى)عليهما السّلام،ومتطرّقه إلى طبيعه التناقض و الانفصام بين أقوال أتباعهم و أعمالهم،بالإضافه إلى(عدم انسجام صفوفهم)و أخيرا المصير السيء الذى انتهوا إليه.

يقول تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ .

هذه الآية لعلها إشاره إلى مخالفات بنى إسرائيل و ذرائعهم في حياه موسى عليه السلام، أو أنها إشاره إلى قصته (بيت المقدس) حيث قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا - أى الجبارين - فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (١) و لهذا فقد بقوا في وادي (التيه) أربعين سنة، ذاقوا فيها و بال أمرهم لتهاونهم في أمر الجهاد، و لادعاءاتهم الواهيه.

و لكن مع الالتفات إلى الآية (٦٩) من سورة الأحزاب يظهر أن المراد من هذا الإيذاء هو ما كانوا ينسبونه لموسى عليه السلام من تهم، كما يبين ذلك قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا .

حيث اتهم عليه السلام بقتل أخيه هارون عليه السلام، و أخرى -معاذ الله- بالعلاقة مع امرأه فاسقه (و ذلك ضمن مخطط قارون للتهرب من إعطاء الزكاه)، و ثالثة بالسكر و الجنون، كما ألصقت به عليه السلام عدّه عيوب جسميه أخرى، جاء شرحها في تفسير الآية -أعلاه- من سورة الأحزاب (٢) .

كيف يستسيغ هؤلاء أدعاء الإيمان إصااق أمثال هذه التهم بأنبيائهم؟! إن هذه الممارسه تمثّل في الواقع نموذجاً صارخاً للتناقض بين القول و العمل، ممّا حدا بموسى عليه السلام إلى مخاطبه أصحابه: لماذا تسيؤون إليّ مع علمكم بأنّي رسول الله إليكم؟ و ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الممارسات لم تبق بدون عقاب كما نقرأ ذلك في نهايه الآية حيث، قال تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

ص: ٢٨٤

١- (١) -المائدة، الآية ٢٤.

٢- (٢) -التفسير الأمثل الآية أعلاه من سورة الأحزاب.

و هكذا تنزل بمثل هذا الإنسان أعظم الدواهي، حيث يحرم من الهدايه الإلهيه و ينحرف قلبه عن الحق (١).

إنَّ ما يستفاد من المفهوم الذى استعرضته الآيه المباركه أنَّ الهدايه و الضلاله و إن كانت من قبل الله سبحانه، إلا أنَّ مقوماتها و أرضيتها تكون من الإنسان نفسه، حيث يقول سبحانه: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ و ذلك ما يوضح أنَّ الخطوه الاولى من الإنسان نفسه، و يقول سبحانه من جهة اخرى: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

فإذا صدر من الإنسان ذنب و معصيه فقد يسلب منه التوفيق و الهدايه الإلهيه و عندئذ يصاب بالحرمان الأكبر.

و قد بحثنا مفصلاً فى هذا المجال فى تفسير الآيه (٣٦) من سورة الزمر، (فراجع).

و تشير الآيه اللاحقه إلى مسأله تكذيب بنى إسرائيل لرساله عيسى عليه السلام و مخالفتهم له، حيث يضيف تعالى: وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .

و هذا بيان من عيسى عليه السلام أنَّه يمثل همزه وصل و حلقه من الرساله بين نبيين و كتابين و امتين، فقد سبقته رساله موسى عليه السلام و كتابه، و ستليه رساله الإسلام على يد النبى العظيم محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

و من هنا نلاحظ أنَّ عيسى عليه السلام لم يكن يدعى غير الرساله الإلهيه و فى مقطع زمنى خاص، و أنَّ ما نسب إليه من الألوهيه، أو أنَّه ابن (لله) كان كذباً و افتراء

ص: ٢٨٥

و بالرغم من أنّ قسما من بنى إسرائيل قد آمنوا بالرّسول الموعود، إلّا أنّ الأ-كثريه الغالبه كان لهم موقف عدائى متشدّد تجاهه، ممّا دعاهم و سؤل لهم إنكار معاجزه الواضحه، و ذلك ما يجسّده قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

العجيب هو أنّ اليهود كانوا قد شخّصوا الرّسول العظيم محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم قبل مشركى العرب، و تركوا أوطانهم شوقا إلى لقائه و الإيمان به، حيث استقرّوا فى المدينه ترقّبا لظهوره و لإجابه دعوته..، إلّا أنّ المشركين قد سبقوهم إلى الإيمان بالرّسول الموعود و بقى الكثير من اليهود على لجاجتهم و إصرارهم و عنادهم و إنكارهم له.

ذهب بعض المفسّرين إلى إرجاع الضمير فى فَلَمَّا جَاءَهُمْ إلى رسول الإسلام (محمّد) كما أوضحناه أعلاه، إلّا أنّ قسما آخر يرى أنّه يعود إلى السيّد المسيح عليه السّلام، أى عند ما أتهم المسيح بالمعاجز الواضحه أنكروها و ادّعوا أنّها سحر.

و من خلال ملاحظه الآيات اللاحقه يتبيّن لنا أنّ الرأى الأوّل أصحّ حيث يتركّز الحديث فيها على رساله الإسلام و رسوله الكريم.

بحوث

إشاره

١- الصله بين البشاره و تكامل الدين

إنّ التعبير ب(البشاره) عن إخبار المسيح عليه السّلام بظهور الإسلام إشاره رائعه إلى تكامل هذا الدين قياسا لما سبقه من الأديان، إنّ دراسه الآيات القرآنيه و التعاليم الإسلاميه فى مجال العقائد و الأحكام و القوانين و المسائل الاجتماعيه

و الأخلاقيه، و مقارنتها بما جاء فى كتب العهدين (التوراه و الإنجيل) توضّح لنا هذه الأفضليه، و تبين لنا بجلاء حاله التكامل المبدئى الذى جاءت به رساله محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم.

و بالرغم من أنّ الآيه المتقدمه لم توضّح لنا موضع تثبيت هذه البشاره، و هل أنّها كانت كتاب سماوى للمسيح عليه السّلام أم لا؟ إلاّ أنّ الآيات القرآنيه الاخرى تكشف أنّ موضع هذه البشاره هو الإنجيل نفسه يقول سبحانه: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ.. (١)، و كذلك فى قسم من الآيات الاخرى (٢).

٢-بشاره العهدين و تعبير (فارقليطا):

مما لا شكّ فيه أنّ (التوراه و الإنجيل) اللذين بأيدي اليهود و النصارى ليسا من الكتب السماويه التى نزلت على الرّسولين الإلهيين العظيمين (موسى و عيسى) عليهما السّلام. إذ أنّها (كتب) ألّفها و جمعها بعض أصحابهم أو من أتى بعدهم.

إنّ مطالعه إجماليه لها تكشف هذه الحقيقه بوضوح، كما أنّ اليهود و المسيحيين لا ينكرون ذلك، و مما لا شكّ فيه أنّ قسما من تعاليم (موسى و عيسى) عليهما السّلام قد ثبتت فى هذه الكتب من خلال أقوال أتباعهم و حواريينهم، و لذا فلا يمكن اعتبار كلّ ما ورد فى العهد القديم (التوراه و الكتب الاخرى المتعلقه به)، و كذلك العهد الجديد (الإنجيل و ما يرتبط به) مقبولا و صحيحا، كما لا يمكن رفض و إنكار جميع ما ورد فيها أيضا.

و الموقف المناسب ممّا ورد فيهما هو اعتبار ما جاء فيها من التعاليم خليطا من تعاليم النبيين (موسى و عيسى) عليهما السّلام و أفكار أتباعهما الآخرين.

ص: ٢٨٧

١- (١) -الأعراف، الآيه ١٥٧.

٢- (٢) -الميزان، ج ١٩، ص ٢٩٠.

و على كلِّ حال فإنَّنا نلاحظ تعبيرات عديدة فيها حول البشاره بظهور رجل عظيم لا تنطبق أوصافه و علاماته إلا على نبيِّ الإسلام الكريم صَلَّى الله عليه و آله و سلَّم.

و جدير بالذكر بالإضافة إلى ما تقدَّم من وجود النبؤات التي وردت في هذه الكتب و التي تنطبق على شخص الرِّسول الأعظم، فقد وردت في إنجيل (يوحنا) كلمه (فارقليط) (١). ثلاث مرَّات، و حينما ترجمت كانت بمعنى (المعزى) لنقرأ النصَّ في إنجيل يوحنا: «و أنا أطلب من الأب فيعطيكُم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد» (٢).

و جاء في الباب الذي بعده: «و متى جاء المعزى الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحقِّ الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لى» (٣).

و جاء في الباب الذي يليه ما نصّه: «لكنى أقول لكم الحقَّ أنّه خير لكم أن أنطلق لأنّه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى و لكن إن ذهبت أرسله إليكم» (٤).

و الجدير بالذكر أنّ في المتن السريانى للأناجيل المأخوذه من الأصل اليونانى جاء بدل (المسلّى) (پارقليط). أمّا في المتن اليونانى فلقد جاء (پير كلتوس) و هو بمعنى الشخص (الممتدح) من منظور الثقافه اليونانيه و تعادل (محمّد، أحمد).

لقد شعر أسياذ المعابد و الكنيسه أنّ انتشار هذه اللفظه يوجّه ضربه قاصمه و شديده إلى كيانهم و مؤسساتهم، لذا فقد كتبوا (پارا كلتوس) بدل (پير كلتوس) و التي هى بمعنى (المسلّى). و مع هذا التحريف الواضح الذى غيَّروا فيه هذا النصَّ الحىّ إلّا أنّهم لم يستطيعوا إلغاء البشاره الصريحه بظهور نبيِّ عظيم فى

ص: ٢٨٨

١- ١) - جاء هذا التعبير فى إنجيل عربى طبع فى لندن فى مطبعه ويليام و طسس سنه ١٨٥٧ م.

٢- ٢) - إنجيل يوحنا باب ١٤، جمله ١٦.

٣- ٣) - إنجيل يوحنا، باب ١٥، جمله ٢٦.

٤- ٤) - إنجيل يوحنا، باب ١٧، جمله ٧.

و قد ذكرنا فى تفسيرنا هذا شهادته حيّه لأحد القساوسة المعروفين، و الذى أسلم بعد مدّه، و قد أكّد بأنّ هذه البشائر كانت حول شخص باسم (أحمد) و (محمّد) (٢).

و يجدر الانتباه إلى نصّ ما ورد فى هذا الصدد فى دائره المعارف الفرنسيه المترجمه حيث يقول:

(محمّد مؤسس دين الإسلام و رسول الله و خاتم الأنبياء، إنّ معنى كلمه (محمّد) تعنى المحمود كثيرا و هى مشتقه من (الحمد) و التى هى بمعنى التجليل و التمجيد، و تشاء الصدفة العجيبه أن يذكر له اسم آخر من نفس الأصل (الحمد) ترادف لفظ (محمّد) يعنى (أحمد) و يحتمل احتمالا قويّا أنّ مسيحي الحجاز كانوا يطلقون لفظ (أحمد) بدلا عن (فارقليطا).

و (أحمد) يعنى: الممدوح و المجلّل كثيرا و هو ترجمه لفظ: (پير كلتوس) و الذى وضع بديلا عنه لفظ (پارا كلتوس) اشتباها، و لهذا فإنّ الكتاب المسلمين الملتزمين قد أشاروا مرارا إلى أنّ المراد من هذا اللفظ هو البشاره بظهور نبي الإسلام، و قد أشار القرآن الكريم -أيضا- بوضوح إلى هذا الموضوع فى سورة الصفّ (الآيه، ٢) (٣).

و خلاصه الحديث أنّ المقصود ب(فارقليطا) ليس روح القدس أو المسلى، بل هو معادل لمفهوم (أحمد)، لذا يرجى الانتباه إلى ذلك.

ص: ٢٨٩

١ - ١) - الفرقان فى تفسير القرآن، ج ٢٧، و ج ٢٨، ص ٣٠٦، فى تفسير الآيه مورد البحث، و جاء فى هذا الكتاب المتن السريانى للجمل أعلاه بصوره دقيقه.

٢ - ٢) - راجع تفسير الآيه ٤١، من سورة البقره.

٣ - ٣) - دائره المعارف الكبيره الفرنسيه، ج ٢٣، ص ٤١٧٦.

إنَّ الاسم المعروف للرسول الأكرم صَلَّى الله عليه وآله وسلم هو (محمّد) والسؤال الذى يطرح هنا أنَّ الآيات مورد البحث قد ذكرته باسم (أحمد). فكيف يمكن التوفيق بين هذين الاسمين؟ وللإجابة على هذا السؤال يجدر الالتفات إلى النقاط التالية:

أ- جاء فى كتب التاريخ أنَّ لرسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم اسمين منذ الطفولة، حتّى أنَّ الناس كانوا يخاطبونه بهما أحدهما (حمد) والآخر (محمّد)، الأوّل اختاره له جدّه عبد المطلب والآخر اختارته أمّه آمنه.

وقد ذكر هذا الأمر بصورة تفصيليه فى سيره الحلبى.

ب- والمعروف أنَّ من جملة الأشخاص الذين كانوا ينادون رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم باسم (أحمد) هو عمّه أبو طالب، حيث نجد فى كتاب (ديوان أبى طالب) أشعارا كثيرة يذكر فيها الرسول الكريم بهذا الاسم كما فى الأبيات التالية:

أرادوا بقتل أحمد ظالموهم

و ليس بقتله فيهم زعيم

وقال:

و إن كان أحمد قد جاءهم

بحقّ و لم يأتهم بالكذب (١)

ولأبى طالب شعر آخر فى مدح رسول الله نقله ابن عساكر فى تاريخه:

لقد أكرم الله النبى محمّدا

فأكرم خلق الله فى الناس أحمد (٢)

ج- كما يلاحظ هذا التعبير فى شعر (حسان بن ثابت) الشاعر المعروف فى عصر الرسول كقوله:

مفجعه قد شفهها فقد أحمد

فظلّت لآلاء الرسول تعدّد (٣)

ص: ٢٩٠

٢-٢) -تاريخ ابن عساكر، ج ١، ص ٢٧٥.

٣-٣) -ديوان حسان بن ثابت ص ٥٩، تحقيق محمد عزت نصر الله.

و الأشعار التي ورد فيه ذكر اسم (أحمد) بدلا عن (محمد) كثيرة، و لا يوجد مجال لذكرها جميعا لذا فإننا سننهي بحثنا بما ورد من شعر على بن أبي طالب عليه السلام.

أ تأمرني بالصبر في نصر (أحمد)

و و الله ما قلت الذي قلت جازعا

سأسعى لوجه الله في نصر (أحمد)

نبي الهدى المحمود طفلا و يافعا (١)

د- إن المتتبع للروايات التي جاءت حول معراج الرسول كثيرا ما يلاحظ أن الله سبحانه قد خاطب رسول الإسلام في تلك الليلة الكريمه ب (أحمد) و من هنا يمكن القول أن النبي قد اشتهر في السماء ب (أحمد) و في الأرض ب (محمد).

و

جاء في حديث عن الإمام محمد الباقر عليه السلام في هذا الشأن «إن لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عشرة أسماء، خمسة في القرآن و خمسة ليست في القرآن، فأما التي في القرآن، محمد، و أحمد، و عبد الله، و يس، و ن» (٢).

ه- عدم اعتراض أهل الكتاب -و خاصه النصارى منهم- على النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم من هذه الناحية، حيث لم يقولوا له: بعد سماع المشرّكين و سماعهم آيات سورة الصف: إن الإنجيل قد بشر بمجىء (أحمد) و أنت اسمك (محمد) و عدم الاعتراض هذا دليل على شهره هذا الاسم بينهم، و لو وجد مثل هذا الاعتراض لنقل لنا، خاصه أن مختلف الاعتراضات قد دوّنت في كتب التاريخ صغيرها و كبيرها.

لذا نستنتج من مجموع ما تقدّم في هذا البحث أن اسم (أحمد) كان أحد الأسماء المعروفة لرسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم (٣).

ص: ٢٩١

١-١) -الغدير، ج ٧، ص ٣٥٨.

٢-٢) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٣١٣، كما جاءت في تفسير الدرّ المنثور روايات في هذا المجال، ج ٦، ص ٢١٤، حيث أن نقلها جميعا يطيل البحث.

٣-٣) -استفيد في هذا البحث و البحث السابق من كتاب (أحمد موعود الإنجيل) و (تفسير الفرقان) أيضا.

اشاره

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)

التفسير

اشاره

يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم:

لاحظنا في الآيات السابقة موقف الإصرار و العناد لجموع أهل الكتاب من دعوه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم رغم ما بشر به المسيح عليه السلام حول ظهور رسول الإسلام، و ما اقترن بذلك من بينات و دلائل و معاجز واضحة.

و تبين الآيات-مورد البحث-عاقبه هؤلاء و مصيرهم السيء و نتيجة عملهم الخائب.

فيقول تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى

نعم، إنّ أمثال هؤلاء المكذّبين لدعوه الرسول الإلهي، الذين يعتبرون ما يأتي الرسول به من إعجاز سحرا، و ما يتحدّث به من مبادئ إلهيه ساميه ضلالا و باطلا.. فإنّ هؤلاء هم أظلم الناس، لأنّهم يصدّون أنفسهم عن طريق الحقّ و الهدايه و النجاه، و يصدّون سائر عباد الله عن منابع الفيض الإلهي و يحرمونهم من السعاده الأبدية.

و يضيف سبحانه في نهايه الآيه: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

إنّ عمل الله سبحانه هو الهدايه للحقّ، و إنّ ذاته المقدّسه الطاهره هي النور و الضياء السامي: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ لَا بَدَ للهدايه من استعداد و أرضيه مناسبه في النفس الإنسانيه كي تؤثر فيها، و هذا ما لا يحصل بالنسبه إلى الأشخاص الذين يجانبون الحقّ و يعرضون عن الحقيقة و يعادونها.

و الآيه الكريمه تؤكّد مرّه اخرى على حقيقة أنّ الهدايه و الضلاله بالرغم من أنّها من الله سبحانه، إلّا أنّ مقدّماتها و أرضيتها لا بدّ أن تبدأ من الإنسان نفسه، و لذا فلا جبر هنا.

جمله «و هو يدعى إلى الإسلام» إشاره إلى أنّ دعوه النبي الأكرم تتضمّن السلام في الدنيا و الآخرة و نجاه الناس، و مع ذلك فمثل هذا الإنسان يحطّم أساس سعاده بيده.

لقد تكرّرت عبارته (من أظلم) خمس عشر مرّه في القرآن الكريم و كانت آخرها في الآيه مورد البحث، بالرغم من أنّ ذكرها كان في موارد مختلفه حسب الظاهر.

و لعلّ هذه المسأله كانت منشأ لهذا التساؤل، و هو: هل من الممكن أن يكون (أظلم الناس) يمثّل أكثر من صنف أو أكثر من جماعه، و أنّها جاءت متكرّره بلحاظ تعدّد أقسام الظالمين؟

إنَّ الملاحظه الدقيقه للآيات الكريمه تبين لنا أنَّ السبب الأساس لذلك يرجع إلى مسأله منع الناس عن طريق الحقّ، و تكذيب الآيات الإلهيه، وهذا هو منتهى الظلم، كما أنَّ الصّدّ عن الوصول إلى الهدى و السعاده الأبديه و قيم الخير، يمثل أسوأ عمل و أعظم ظلم، حيث المنع عن الخير كلّ و فى كافّه المجالات.

ثمّ يستعرض القرآن الكريم نقطه اخرى و يبيّن لنا أنَّ أعداء الحقّ ليسوا بقادرين على الوقوف بوجه مبادئ السماء و الأنوار الإلهيه العظيمة، حيث يقول سبحانه: يُرِيدُونَ لِيطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ .

و هنا تشبيه رائع لعمل هؤلاء الأشخاص الذين يحاولون عبثاً إطفاء نور الشمس التى تضىء العالم كلّ بنفخه، إنهم كالخفافيش التى تتصوّر أنّها قادره على تحدّى وهج الشمس و أشعتها الساطعه بالنوم نهاراً بعيداً عن نورها، و الظهور فى ظلمه الليل و عتمته.

و تاريخ الإسلام صوره ناطقه لهذا التنبؤ القرآنى العظيم، فرغم ضخامه المؤامرات التى حيكت ضده و الجهود الجباره المقترنه بالإمكانات الهائله من الأعداء لطمس معالم هذا الذين و القضاء عليه منذ اليوم الأوّل لظهوره إلى يومنا هذا.. فإنّ جميعها كانت خائبه و خاسئه و ذهبت أدراج الرياح.. و قد عمد هؤلاء إلى أساليب عدّه فى حربهم القدره ضدّ الإسلام:

فتاره اتّبعوا أسلوب الأذى و السخرية.

و اخرى عن طريق الحصار الاقتصادى و الاجتماعى..

و ثالثه فرض الحروب، كـ(أحد و الأحزاب و حنين) و تجهيز الجيوش القويه لذلك.

و رابعه عن طريق التآمر الداخلى، كما كان عمل المنافقين.

و أحياناً عن طريق إيجاد الاختلافات فى داخل الصفّ الإسلامى.

و أحياناً اخرى الحروب الصليبيه.

و تاره احتلال الأراضي كما فى القدس المقدسه قبله المسلمين الاولى.

و أحيانا اعتماد أسلوب تجزئه الوطن الإسلامى الواحد إلى أجزاء عديده تربو على الأربعين جزءا.

و تاره التأثير على شباب هذه الامه و إضعاف متبنياتها المبدئيه و السلوكيه بعيدا عن الالتزام بخطها العقيدى الأصيل و الأخلاقيه القرآنيه.

و تاره تشجيع الرذيله و الفساد الأخلاقى بين صفوف المجتمع و إشاعه وسائل الميوعة و الانحراف خاصه بين الشباب.

و تاره السيطرة الاستعماريه عسكريا و سياسيا و اقتصاديا.

إلى غير ذلك من الأساليب و الوسائل الماكره.

إلا أن هذه الجهود و المؤامرات الشيطانيه غير قادره على التأثير و إطفاء شعله الوهج الرسالى الذى أتى به محمد صلى الله عليه و آله و سلم، و بذلك تحقق التنبؤ القرآنى فى الفشل الذريع الذى لحق بهؤلاء الذين أرادوا كيدا بالرساله الإلهيه.. بل إن النور الإلهى فى حاله انتشار و اتساع يوما بعد يوم، كما تكشف ذلك لنا الإحصائيات، حيث أن عدد مسلمى العالم فى تزايد مستمر رغم الجهود المتضافره من الصهاينه و الصليبيين و (الماديين الشرقيين).

نعم، إنهم يبذلون أقصى جهدهم باستمرار ليطفئوا نور الله و لكن لإرادته الله شأننا غير ذلك. و هذا الأمر بحد ذاته يمثل معجزه خالده من معاجز القرآن الكريم و هذا الدين العظيم.

و النقطه الجديده بالذكر هنا أن هذا المضمون قد ورد مرتين فى القرآن الكريم، و لكن مع قليل من الاختلاف، حيث جاء فى الآيه (٣٢) من سوره التوبه كالتالى: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا وَ هُنَا جَاءَ بِعَبَارِهِ: يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا .

يقول: الراغب فى (المفردات) فى توضيحه لهذا الاختلاف: إن الآيه الاولى إشاره إلى الإطفاء بدون مقدمه، إلا أنه فى الآيه الثانيه إشاره إلى الإطفاء

باستعمال المقدمات التى تهىء الأرضيه المناسبه لمثل هذا الأمر.

و على كل حال فإنّ مفهوم الآيتين يبيّن عدم إمكانية تحقيق هذا الأمر من قبل أعداء الإسلام، سواء هيئوا الأرضيه المناسبه لإطفاء النور الإلهى أو لم يهيئوا.

و يتوضّح التأكيد الأ-كثّر فى آخر آيه-مورد البحث-حيث يعلن القرآن الكريم ذلك صراحه بقوله عزّ و جلّ: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

إنّ التعبير ب أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ بمنزله بيان الرمز لغبه الإسلام و انتصاره، لأنّ طبيعه «الهدايه» و(دين الحق) تنطوى على هذا الانتصار، ذلك أنّ الإسلام و القرآن هما النور الإلهى الذى تظهر آثاره أينما حلّ. و كراهيه الكفّار و المشركين لن تستطيع أن تغير من هذه الحقيقه شيئاً، و لا تقف فى طريق مسيرته العظيمه.

و من الظريف أيضاً أنّنا نلاحظ أنّ هذه الآيه قد وردت فى القرآن الكريم ثلاث مرّات بتفاوت يسير:

الاولى: كانت فى سوره التوبه الآيه (٣٣).

و الثانيه: فى سوره الفتح الآيه (٣٨).

و الأخيره: فى هذه السوره «الصف».

و يجب ألا ننسى أنّ هذا التأكيد و التكرار جاء فى وقت لم يكن الإسلام قد ثبت و استقرّ فى الجزيره العربيه بعد، فكيف بنا مع هذه الآيات و قد وصل الإسلام إلى نقاط عديده فى العالم و شمل أصقاعاً مختلفه؟ و بذلك أثبتت أحداث المستقبل صدق هذا التنبؤ العظيم، و غلبه الإسلام من الناحيه المنطقيه على كافّه المذاهب الاخرى و قد حقّق خطوات عظيمه فى طريق التقدّم على الأعداء، و اكتسح مناطق واسعه من العالم، و هو الآن فى تقدّم مستمر، و قوّه يخشى منها عالمياً.

و من المسلّم أنّ النتيجة النهائية كما نعتقد سوف تكون للإسلام، و ذلك عند ظهور الإمام المهدي أرواحنا فداه. إنّ هذه الآيات بذاتها دليل على هذا الظهور العظيم، و قد أوضحنا ذلك بصورة مفصّلة في تفسير الآية (٢٣) من سورة التوبة حول المقصود من هذه الآية المباركة، و هل هو الغلبة و الإنتصار المنطقي، أم غلبه قدره و القوّه على الأعداء؟ و كذلك حول مدى ارتباط هذا الإنتصار و تلك الغلبة بظهور الحجّه عليه السّلام.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَ أُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)

التفسير

اشاره

التجاره الزابحه:

قلنا في بدايه السوره أنّ الأهداف المهمه لهذه السوره هو الدعوه إلى الإيمان و الجهاد في سبيل الله، و ما الآيات مورد البحث إلا تأكيد على هذين الأصلين، من خلال مثال رائع يبعث على الحركه الإلهيه في روح الإنسان، و التي هي شرط انتصار الإسلام على كلّ الأديان، و قد أشير إلى هذا العامل في الآيات الماضيه.

يقول تعالى في البدايه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ

بالرغم من أنَّ الإيمان و الجهاد من الواجبات المفروضة، إلاَّ- أنَّ الآيات هنا لم تطرحها بصيغته الأمر. بل قدّمتها بعرض تجارى مقترن بتعايير تحكى اللطف اللامتناهى للبارئ عزّ و جلّ، و ممّا لا- شكّ فيه فإنّ (النجاه من العذاب الأليم) من أهمّ امنيات كلّ إنسان.

و لذا فإنّ السؤال المثار هو: هل تريدون من يدلّكم على تجاره تنجيكم من عذاب أليم؟ و هو سؤال مثير لانتباه الجميع، و قد بادر فى نفس الوقت و بدون انتظار للإجابة متحدّثا عن هذه التجاره المتعدّده المنافع، حيث يضيف تعالى:

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ

(١)

و ممّا لا- شكّ فيه أنَّ الله سبحانه غنى عن هذه التجاره النافعه و أنَّ جميع منافعها تعود على المؤمنين، لذا يقول فى نهايه الآيه: **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** .

و الجدير بالملا- حظّه هنا أنَّ المخاطب هم المؤمنون بقرينه قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** لكنّه فى الوقت نفسه يدعوهم إلى الإيمان و الجهاد.

و ربّما كان هذا التعبير إشاره إلى أنَّ الإيمان يلزم أن يكون عميقا و خالصا لله سبحانه، حتّى يستطيع أن يكون منبعا لكلّ خير، و حافظا للإيثار و التضحية و الجهاد، و بهذا لا يعتدّ بالإيمان الاسمى السطحى.

أو أنَّ التأكيد على الإيمان بالله و رسوله هنا، هو شرح لمفهوم الإيمان الذى عرض بصوره إجماليه فى بدايه الآيه السابقه.

و على كلّ حال فإنّ الإيمان بالرسول لا ينفصل عن الإيمان بالله تعالى، كما أنَّ الجهاد بالنفس لا ينفصل عن الجهاد بالمال، ذلك أنَّ جميع الحروب تستلزم

ص: ٢٩٩

١ - (١) - جملة: (تؤمنون بالله) جملة استثنائية تفسّر التجاره، و اعتبر البعض أنّها عطف بيان، و على كلّ حال فإنّ هذه (الجملة الخيرية) لها معنى الأمر.

وجود الوسائل و الإمكانيات المالىة،و من هنا فإننا نلاحظ أنَّ البعض قادر على الجهاد بكلّ النوعين (النفس و المال)و آخرين قادرون على الجهاد بالمال فقط و فى المواقع الخلفيه للجبهه،و بعض آخر مستعدّ للجهاد بالنفس و الجود بها فى سبيل الله لأنّهم لا يملكون سواها.

إلا أنَّ الضروره تستلزم أن يكون هذان النوعان من الجهاد توأمين متلازمين كلّ منهما مع الآخر لتحقيق النصر،و عند التدقيق فى الآيه المباركه نلاحظ أنَّ تعالى قد قدّم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس،لا باعتباره أكثر أهميّه،بل بلحاظ أنّه مقدّمه للجهاد بالنفس،لأنّ مستلزمات الجهاد لا تنهتّى إلاّ عند توفرّ الإمكانيات الماديّه.

لقد تمّ تسليط الأضواء على ثلاثه عناصر أساسيه فى هذه التجاره العظيمة و التى لا مثيل لها.

(فالمشتري) هنا هو الله سبحانه،و(البائع)هم المؤمنون،و(البضاعه)هى الأنفس و الأموال.و يأتى دور العنصر الرابع فى هذه الصفقه و هو الثمن و العوض لهذه المعامله العظيمة.

يقول تعالى: يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١).

و تستعرض الآيه مرحله الجزاء الاخرى فى البدايه حيث غفران الذنوب باعتبارها أهمّ عوامل القلق و عدم الراحة الفكرية و النفسية للإنسان،و عند ما يتحقّق الغفران له فمن المسلم أنّ الراحة و الهدوء و الاطمئنان تنشر ظلالها عليه.

و من هنا نلاحظ أنَّ أوّل هديه يتحف الله سبحانه بها عباده الذين استشهدوا

ص: ٣٠٠

١- ١) -جمله (يغفر لكم)هى بمنزله (جزاء)لشروط محذوف مستفاد من الآيه السابقه و فى التقدير هكذا:و إن تؤمنوا بالله و رسوله و تجاهدوا فى سبيله..يغفر لكم ذنوبكم...)كما يحتمل-أيضا-أنّ الجمله جواب(الأمر)ذلك الأمر مستفاد من الجمله الخبرية(تؤمنون)و(تجاهدون).

فى سبيل طريق الحقّ و باعوا مهجهم فى سبيل الدين العظيم،هى مغفره الذنوب جميعا و لكن هل أنّ المقصود من غفران الذنوب الذى ورد فى الآيه الكريمه هى الذنوب التى تختص بحقّ الله فقط،أم تشمل ما يتعلّق بحقوق الناس أيضا؟ و يتبيّن لنا فى هذا الشأن أنّ الآيه مطلقه و الدليل هو عموميتها،و نظرا إلى أنّ الله سبحانه قد أوكل حقّ الناس إليهم لذا تردّد البعض فى القول بعموميه الآيه الكريمه،و شكّكوا فى شمولها الحقيّن.

و بهذه الصوره نلاحظ أنّ الآيات أعلاه قد تحدّثت عن مرتكزين أساسيين من مرتكزات الإيمان و هما:(الإيمان بالله و الرّسول)و عن مرتكزين أساسيين أيضا من مرتكزات الجهاد و هما:(الجهاد بالمال و النفس)و كذلك عن مرتكزين من الجزاء الاخرى و هما: (غفران الذنوب و الدخول فى جنّه الخلد).

كما أنّنا نقرأ فى الآيه اللاحقه عن شعبتين من الهبات الإلهيه التى تفضل بها البارئ على عباده المؤمنين فى هذه الدنيا حيث يقول: وَ أُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ (١).

يا لها من تجاره مباركه مربحه حيث تشتمل على الفتح و النصر و النعمه و الرحمه،و لذلك عبّر عنها البارئ سبحانه بقوله: الْفَوْزُ الْعَظِيمُ و نصر كبير.

و لهذا فإنّه سبحانه يبارك للمؤمنين تجارتهم العظيمه هذه،و يزيّف لهم البشرى بقوله تعالى: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ .

و

جاء فى الحديث أنّه فى «ليله العقبه»-الليله التى التقى بها رسول الله سرّا بأهل المدينه قرب مكّه و أخذ منهم البيعه-قال«عبد الله بن رواحه»لرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم:اشترط لربّك و نفسك ما شئت.

فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم:أشترط لربّى أن تعبدوه و لا تشركوا به شيئا،و أشترط لنفسى أن

ص: ٣٠١

١- ١) -«اخرى»صفه لموصوف محذوف مثل نعمه أو خصله،و قال البعض أيضا:إنّ الموصوف هو(التجاره)إلا أنّ هذا مستبعد.

تمنعونى ممّا تمنعون منه أنفسكم و أموالكم.

قال:فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال صَلَّى الله عليه و آله و سلّم:(الجنّة).

قال عبد الله:ربح البيع لا نقيّل و لا نستقيّل،أى لا نفسخ و لا نقبل الفسخ (١).

بحوث

اشاره

١-أى فتح هو«الفتح القريب»؟!

من المعروف أنّ النصر الموعود فى هذه الآيات قد تحقّق مرّات عدّه،ليس فى الجوانب العقائديه و المنطقيه فحسب.بل فى الميادين الحريه أيضا.

و قد ذكر المفسّرون احتمالات عديده حول المقصود من(الفتح القريب)، فقال البعض:إنّ المراد من الفتح القريب فى الآيه هو(فتح مكّه).و قال آخرون:إنّ المقصود بها هو(فتح بلاد إيران و الروم).و قال البعض الآخر:إنّها تشمل جميع الفتوحات الإسلاميه التى منّ الله بها على المسلمين بعد الإيمان بالإسلام و الجهاد من أجله بفتريه وجيزه.

ولأنّ المخاطب فى هذه الآيه لا ينحصر بصحابه رسول الله.بل يشمل جميع المؤمنين و على مدى التاريخ،لذا فإنّ جملة: نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ لها معنى واسع،و تمثّل بشاره للمؤمنين جميعا،بالرغم من أنّ المصداق الواضح لهذه الآيه كان فى عصر الرّسول صَلَّى الله عليه و آله و سلّم،و فى وقت نزول هذه الآيات إبان فتح مكّه.

ص: ٣٠٢

٢- ما هي خصائص المساكن الطيبة؟

أكدت الآيات الكريمة على أنّ من ضمن أنواع النعم الإلهية في الجَنَّة مسألة المسكن الهادئ، موضع استقرار النفس، الذي تحيط به الحقائق من كلّ جانب في جنّات الخلد، و سبب التأكيد هنا على المسكن لأنّه يشكّل أحد العوامل الأساسيه لراحه الإنسان و هدوئه، خصوصا إذا تميّز بالطهر و النظافه من كلّ أنواع التلوّث المادّي و المعنوي، حيث يستطيع الإنسان أن يستقرّ به و ينعم بطمأنينه الروح و راحه البال.

يقول (الراغب) في المفردات: معنى (الطيب) في الأصل هو الشيء الذي تلتذّ به الحواس الظاهريه و الباطنيه، و هذا المعنى جامع شامل لكلّ الشروط المناسبه لسكن ما.

و النقطة الجديره بالملاحظه هنا أنّ القرآن الكريم يرى أنّ ثلاثه امور أساسيه توجب السكينه و الطمأنينه للإنسان و هي:
ظلام الليل: وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا (١).

الزوجه الصالحه: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا (٢).
البيوت السكينه قال تعالى: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا (٣).

٣- الدنيا موضع تجاره أولياء الله

جاء في نهج البلاغه أنّ الإمام على عليه السّلام قال لرجل كثير الادّعاء و التملّق كان يذمّ الدنيا كثيرا: «أيها الدّائم للدنيا المغترّ بغرورها المخدوع بأباطيلها أ تغترّ بالدنيا

ص: ٣٠٣

١- (١) - الأنعام، الآية ٩٦.

٢- (٢) - الروم، الآية ٢١.

٣- (٣) - النحل، الآية ٨٠.

ثُمَّ تَذَمُّهَا... إِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ صَدَقَ لِمَنْ صَدَّقَهَا وَ دَارٌ مَوْعِظَةٌ لِمَنْ اتَّعَظَ بِهَا.. إِلَى أَنْ قَالَ: وَ مَتَجَرَّ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ وَ رَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ..» (١).

وَ إِذَا شَبَّهَتْ الدُّنْيَا بِأَنَّهَا مَزْرَعَةٌ الْآخِرَةِ، فَقَدْ شَبَّهَتْ أَيْضًا هُنَا بِأَنَّهَا تِجَارَةٌ، حَيْثُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَبِيعُ الْبَضَاعَةَ (رَأْسَ الْمَالِ) الَّتِي أَخَذَهَا مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ يَبِيعُهَا عَلَيْهِ تَعَالَى شَأْنَهُ بِأَعْلَى الْأَثْمَانِ وَ يَسْتَلِمُ مِنْهُ سَبْحَانَهُ أَكْثَرُ الْأَرْبَاحِ الْمُمَثِّلَةِ بِالنِّعَمِ وَ الْهَبَاتِ الْإِلَهِيَةِ الْمُخْتَلِفَةِ مُقَابِلَ مَتَاعٍ حَقِيرٍ.

إِنَّ جَانِبَ الْإِغْرَاءِ فِي هَذِهِ الصَّفَقَةِ التِّجَارِيَةِ النَّافِعَةُ كَانَ مِنْ أَجْلِ تَحْرِيكِ وَ إِثَارَةِ الْمُحَفِّزَاتِ الْإِنْسَانِيَةِ فِي طَرِيقِ الْخَيْرِ وَ جَلْبِ النِّفْعِ لِلْإِنْسَانِ وَ دَفْعِ الضَّرَرِ، لِأَنَّ هَذِهِ التِّجَارَةَ الْإِلَهِيَّةَ لَا تَنْحَصِرُ أَرْبَاحُهَا فِي جَلْبِ النِّفْعِ وَ الْخَيْرِ فَحَسَبَ، بَلْ إِنَّهَا تَدْفَعُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ أَيْضًا.

وَ نَظِيرُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ (٢).

وَ تَقَدَّمَ شَرْحُ آخَرٍ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْآئِفَةِ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ (٣).

ص: ٣٠٤

١- ١) - نهج البلاغة، كلمات قصار، الجملة رقم ١٣١ بتلخيص.

٢- ٢) - التوبة، الآية ١١١.

٣- ٣) - راجع تفسير الآية ١١١ من سورة التوبة.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ
فَأَمَّنَّا طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتُ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)

التفسير

اشاره

كونوا كالحواريين:

في الآيه الأخيره من سوره الصف يدور الحديث مرّه اخرى حول محور (الجهاد)الذى مرّ ذكره سابقا في هذه السوره،إلا أنّ الحديث عنه يستمرّ هنا في هذه الآيه-أيضا بأسلوب جديد.

لقد طرحت الآيه الكريمه مسأله مهمّه غير الجنّه و النار و ذلك بقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ

نعم،أنصار الله،الله الذى هو منشأ جميع القدرات،و مرجعها،صاحب القدره التى لا تقهر و اللامتناهيّه،هذا الربّ العظيم و الإله الجبار يطلب من عباده النصره

و العون، وهذا فخر لا- مثيل له، فالبرغم من أنَّ معناه و مفهومه هو إعانه و نصره الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلّم و مبدئه و عقيدته، إلاَّ أنه ينطوى على طلب العون و النصره لله سبحانه، وهذا غايه اللطف و منتهى الرحمه و العظمه.

ثمَّ يستشهد بنموذج تاريخي رائد كى يوضح سبحانه أنَّ هذا الطريق لن يخلو من السالكين و العشاق الإلهيين حيث يضيف تعالى: **كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ .**

و يكون الجواب على لسان الحواريين بمنتهى الفخر و الاعتزاز: **قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ وَ سَارُوا فِي هَذَا الدَّرَبِ حَامِلِينَ لَوَاءِ الْخَيْرِ وَ الْهَدَايَةِ، وَ مُتَصِدِّينَ لِحَرْبِ أَعْدَاءِ الْحَقِّ وَ الرِّسَالَةِ،** حيث يقول سبحانه: **فَأَمْنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ كَفَرَتْ طَائِفَةٌ .**

و هنا يأتي العون و النصر و الإغاثة و المدد الإلهي للطائفة المؤمنه حيث يقول سبحانه: **فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ .**

و أنتم أيضا يا حواريين محمّدين، يشملكم هذا الفخر و تحيطكم هذه العناية و اللطف الإلهي، لأنكم أنصار الله، و إنّ النصر على أعداء الله سيكون حليفكم أيضا، كما انتصر الحواريون عليهم، و سوف تكون العزّه و السمو من نصيبكم فى هذه الدنيا و فى عالم الآخرة.

و هذا الأمر غير منحصر أو مختص بأصحاب و أعوان رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم فحسب، بل جميع أتباع الحقّ الذين هم فى صراع دائم ضدّ الباطل و أهله، إنّ هؤلاء جميعا هم أنصار الله، و ممّا لا شكّ فيه فإنّ النصر سيكون نصيبهم و حليفهم لا محاله.

من هم الحواريون؟

جاء ذكر الحواريين في القرآن الكريم خمس مرّات، مرتين منها في هذه السورة المباركة.

«الحواريون»: تعبير يراد به الإشارة إلى اثني عشر شخصا من الأنصار الخواص لعيسى عليه السّلام وقد ذكرت أسماءهم في الأنجيل المتداوله حاليا كـ (إنجيل متى، و لوقا باب ٦).

و هذا المصطلح من مادّه (حور) بمعنى الغسل و التبييض -جعل الشئ أبيض -كما مرّ بنا سابقا، لأنّهم يتمتّعون بقلوب طاهرة و أرواح نقيّة، و كانوا يسعون دائما لغسل نفوسهم و الآخرين من دنس الذنوب و تطهيرها من الآثام، لذا اطلق عليهم هذا المصطلح.

و جاء في بعض الروايات أنّ المسيح عليه السّلام أرسلهم جميعا ممثّلين عنه إلى مناطق مختلفه من العالم، و ذلك لإخلاصهم، و تضحيتهم و جهادهم و حربهم ضدّ الباطل، و كانوا أيضا ممّن يكتّون أعماق الحبّ و الولاء للمسيح عليه السّلام.

و تحدّثنا الروايات أنّ جميعهم قد بقى على العهد إلّا واحدا منهم فإنّه قد خان و نكص و اسمه (يهوداي أسخر يوطى) ممّا حدا المسيح عليه السّلام في نهايه المطاف إلى طرده.

و لقد تناولنا توضيحات عديده حول هذا في تفسير الآيه (٥٢) من سوره آل عمران.

جاء في حديث أنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال للنفر الذين لا يقوه بالعقبه: «أخرجوا إلى اثني عشر رجلا منكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى

بن مريم» (١) ممّا يعكس أهمّيّه هؤلاء العظام.

اللهمّ، وفقنا للمشاركة مع أوليائك في هذه التجاره الربحه و الاستفادة من بركاتها العظيمة..

ربّنا: إنّ الاختلاف و التفرقه في صفوف المسلمين قد أضعفت مكانه المسلمين صفّا واحدا كالبنيان المرصوص في مواجهه أعدائهم.

إلهنا، إنّ دينك القويم لم يبق يوما دون ناصر، فاكتبنا من أنصاره و حماته و أعوانه..

آمين ربّ العالمين نهايه سوره الصفّ

ص: ٣٠٨

مدنیہ و عدد آیاتہا إحدى عشرہ آیه

ص: ۳۰۹

محتوى السوره:

تدور هذه السوره حول محورين أساسيين:

الأول: هو التوحيد و صفات الله و الهدف من بعثه الرسول و مسأله المعاد.

و المحور الثانى: هو الأثر التربوى لصلاه الجمعة و بعض الخصوصيات المتعلقة بهذه العباده العظيمه.

و لكن يمكن أن نجمل الأبحاث التى وردت فى هذه السوره المباركه بالنقاط التاليه:

١- تسبيح كافه المخلوقات.

٢- الهدف التعليمى و التربوى من بعثه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

٣- تحذير المؤمنين و تنبيههم من مغبه الوقوع فى الانحراف الذى وقع فيه اليهود فابتعدوا عن جاده الصواب و الحق.

٤- إشاره إلى قانون الموت العام و الشامل الذى يمثل المعبر إلى عالم البقاء و الخلود.

٥- التأكيد على أداء فريضه صلاه الجمعة، و حث المؤمنين على تعطيل العمل و الكسب من أجل المشاركه فيها.

فضيله تلاوه سوره الجمعة:

وردت روايات كثيره فى فضيله تلاوه هذه السوره سواء كانت هذه التلاوه

في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «و من قرأ سورة الجمعة أعطى عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة، و بعدد من لم يأتها في أمصار المسلمين».

و

ورد في حديث آخر عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «الواجب على كلّ مؤمن إذا كان لنا شيعه أن يقرأ في ليلة الجمعة بالجمعه و سبح اسم ربّك الأعلى، و في صلاه الظهر بالجمعه و المنافقين، فإذا فعل ذلك فكأنما يعمل بعمل رسول الله و كان جزائه و ثوابه على الله الجنّه» (١).

وقد ورد في الروايات التأكيد الكثير على قراءه سورة الجمعة و المنافقون في صلاه الجمعة، و قد ورد في بعض الروايات أن لا تترك قراءتها ما أمكن (٢)، و مع أنّ العدول في القراءه عن سورة «التوحيد» و «قل يا أيها الكافرون» إلى سور اخرى غير جائز، إلّا أنّ هذه المسأله مستثناه في صلاه الجمعة، فيجوز العدول عنهما إلى سورة «الجمعه» و «المنافقون» بل عدّ ذلك مستحباً.

و كلّ ذلك دليل على الأهميّة العاليه لهذه السوره القرآنيه.

ص: ٣١٢

١- (١) - نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٢٠، ح ١.

٢- (٢) - نفس المصدر، ص ٣٢١.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)

التفسير

اشاره

الهدف من بعثه الرسول:

تبدأ هذه السوره كذلك بالتسبيح لله عزّ وجلّ، وتشير إلى بعض صفات الجمال و الجلال و الأسماء الحسنی لله. و يعتبر ذلك في الحقيقه مقدّمه للأبحاث القادمه، حيث يقول تعالى: يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ حيث يسبحونه بلسان الحال و القال و ينزهونه عن جميع العيوب و النقائص الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

و بناء على ذلك تشير الآية أولاً إلى «المالكيه و الحاكميه المطلقه»، ثم «تنزّهه من أى نوع من الظلم و النقص» و ذلك لارتباط اسم الملوک بأنواع المظالم و المآسى، فجاءت كلمه «قدّوس» لتنفى كلّ ذلك عنه جلّ شأنه.

و من جانب آخر فالآيه تركّز على ركنين أساسيين من أركان الحكومه هما «القدره» و «العلم» و سنرى أنّ هذه الصفات ترتبط بشكل مباشر بالأبحاث القادمه لهذه السوره.

و نشير هنا إلى أنّ ذكر صفات الحقّ تعالى فى الآيات القرآنيه المختلفه جاءت ضمن نظام و ترتيب و حساب خاصّ.

و كنّا قد تعرّضنا سابقا لتسبيح كافّه المخلوقات.

و بعد هذه الإشاره الخاطفه ذات المعنى العظيم لمسأله التوحيد و صفات الله، يتحدّث القرآن عن بعثه الرّسول و الهدف من هذه الرساله العظيمه المرتبطه بالعزیز الحكيم القدّوس. حيث يقول: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ .

و ذلك من أجل أن يطهّره من كلّ أشكال الشرك و الكفر و الانحراف و الفساد و يُزكّيهم و يُعلّمهم الكتاب و الحكّمه و إنّ كانوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

و من الملفت للنظر أنّ بعثه الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم بهذه الخصوصيات التى لا- يمكن تفسيرها إلّا- عن طريق الإعجاز، تعتبر هى الاخرى إشاره إلى عظّمته عزّ و جلّ و دليل على وجوده إذ يقول: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا... و أبدع هذا الموجود العظيم بين أولئك الامّيين..

«الامّيين» جمع (امّى) و هو الذى لا- يعرف القراءه و الكتابه (و نسبته إلى الامّ باعتبار أنّه لم يتلقّ تعليمًا فى معهد أو مدرسه غير مدرسه الامّ).

و قال البعض: إنّ المقصود بها أهل مكّه، لأنّ مكّه كانت تسمّى (بامّ القرى)، و لكنّه بعيد.

قال بعض المفسرين: إِنَّ المقصود بها «أمه العرب» مقابل اليهود وغيرهم، واعتبروا الآية (٧٥) من سورة آل عمران شاهده على هذا المعنى حيث يقول:

قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ يُحِبُّ الْيَهُودَ كَانُوا يَعْتَبِرُونَ أَنفُسَهُمْ أَهْلَ الْكِتَابِ وَ هُم أَهْلُ الْقُرْآنِ وَ الْكِتَابِ، بينما كان العرب على العكس من ذلك.

و لكن التفسير الأول أنسب.

و الجدير بالذكر أَنَّ الآية تؤكد على أَنَّ نبي الإسلام بعث من بين هؤلاء الأميين الذين لم يتلقوا ثقافه و تعليما و ذلك لبيان عظمه الرساله و ذكر الدليل على حقانيته، لأنَّ من المحال أن يكون هذا القرآن العظيم و بذلك المحتوى العميق وليد فكر بشرى و فى ذلك المحيط الجاهلى و من شخص امى أيضا، بل هو نور أشرق فى الظلمات، و دوحه خضراء فى قلب الصحراء، و هى بحد ذاتها معجزه باهره و سندا قاطعا على حقانيته...

و لخصت الآية الهدف من بعثه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى ثلاثه امور، جاء أحدها كمقدمه و هو تلاوه الآيات عليهم، بينما شكل الأمران الآخران أى (تهذيب و تزكية النفس) و (تعليمهم الكتاب و الحكمة) الهدف النهائى الكبير.

نعم، جاء الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ليعطى الإنسانيه و يعلمها العلم و الأخلاق، لتستطيع بهذين الجناحين (جناح العلم و جناح الأخلاق) أن تحلق فى عالم السعاده و تطوى مسيرها إلى الله لتنال القرب منه.

و الجدير بالملاحظه أننا نجد بعض الآيات القرآنيه تذكر «التزكية» قبل «التعليم» بينما تقدم آيات اخرى «التعليم» على «التزكية». ففى ثلاثه من الموارد الأربعة التى ذكر فيها «التزكية» و «التعليم» تقدمت التزكية على التعليم بينما تقدم التعليم فى المورد الرابع.

و فى الوقت الذى يشار فى هذا التعبير إلى التأثير المتبادل لهذين العنصرين (الأخلاق وليده العلم، كما أَنَّ العلم وليد الأخلاق) تظهر أيضا أصاله التربه و مدى

الاهتمام بها. علما أنّ المقصود بالعلم العلوم الحقيقيه لا العلوم التى اصطلح عليها بأنّها علم و ألبست ثوب العلم.

و يمكن أن يكون الفرق بين «الكتاب» و «الحكمه» هو أنّ الأول إشاره إلى القرآن و الثانى إشاره إلى سنّه الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم.

و يمكن أيضا أن يكون «الكتاب» إشاره إلى أصل العقائد و الأحكام الإسلاميه، و الثانى إشاره إلى فلسفتها و أسرارها.

و من النقاط الجديره بالملاحظه - كذلك - أنّ الحكمه تعنى المنع بقصد الإصلاح، و لهذا يقال للجام الفرس «حكمه» لأنّه يمنعها و يجعلها تسير فى مسارها الصحيح، و بناء على ذلك فإنّ مفهوم هذه الدلائل عقلى، و من هنا يتّضح أنّ ذكر الكتاب و الحكمه بشكل مترادف يراد منه التنبيه إلى مصدرين مهمّين من مصادر المعرفه (الوحى) و (العقل).

بعباره اخرى: إنّ الأحكام السماويه و تعاليم الإسلام رغم أنّها نابعه من الوحى الإلهى غير أنّها يمكن تعقلها و إدراكها بالعقل «المقصود كليات الأحكام».

و تعبير «الضلال المبين» إشاره مختصره معبّره إلى سابقه العرب و ماضيهم الجاهلى فى عباده الأصنام. و أى ضلال أوضح و أسوأ من هذا الضلال الذى يعبد فيه الناس أحجارا و أخشابا يصنعونها بأنفسهم و يلجؤون إليها لحلّ مشاكلهم و إنقاذهم من المعضلات.

يدفنون بناتهم و هنّ أحياء ثمّ يتفاخرون بكلّ بساطه بهذا العمل قائلين: إنّنا لم ندع ناموسنا و عرضنا يقع بيد الأجانب.

كانت صلاتهم و دعاؤهم عباره عن تصفيق و صياح إلى جانب الكعبه، و حتّى النساء كن يطفن حول الكعبه و هنّ عراه تماما، و يحسبون ذلك عباده.

كانت تسيطر على أفكارهم مجموعه من الخرافات و الأوهام، و كانوا يفتخرون و يتباهون بالحرب و نزف الدماء و الإغاره على بعضهم البعض. المرأه

كانت تعدّ بضاعه لا- قيمه لها عندهم، يلعبون عليها القمار، و يحرمونها من أبسط الحقوق الإنسانيه. كانوا يتوارثون العداوه و البغضاء، و لهذا أصبحت الحروب و إراقة الدماء أمرا عاديا لديهم.

نعم لقد جاء الرّسول و أنقذهم- ببركه الكتاب و الحكمه من هذا الضلال و التخبّط و زكّاهم و علّمهم. و حقّا إنّ تربيته و تغيير مثل هذا المجتمع الضالّ يعتبر أحد الأدلّه على عظمه الإسلام و معاجز نبينا العظيمه.

و لكن لم يكن الرّسول مبعوثا لهذا المجتمع الامّى فقط، بل كانت دعوته عامّه لجميع الناس، فقد جاء فى الآيه التاليه و آخرين مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ (١).

نعم، إنّ الأتّوام الآخرين الذين جاؤوا بعد أصحاب الرّسول ليتربّوا فى مدرسه الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و يغترفوا من معين القرآن الصافى و السنّه المحمّديه، كانوا- أيضا- مشمولين بهذه الدعوه العظيمه.

بناء على ذلك تكون الآيه أعلاه شامله لجميع الأتّوام الذين يأتون بعد أصحاب الرّسول من العرب و العجم. جاء فى الحديث أنّ الرّسول بعد أن تلا هذه الآيه سئل من هؤلاء؟ فأشار الرّسول إلى سلمان و قال: «لو كان الإيمان فى الثريا لئالته رجال من هؤلاء» (٢).

و جاء فى آخر الآيه: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

بعد أن يشير إلى هذه النعمه الكبيره- أى نعمه بعث نبى الإسلام الأكرم و برنامجه التعليمى و التربوى- يضيف قائلا: ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

ص: ٣١٧

١ - ١) - «آخرين» عطف على (أمينين) و ضمير منهم متعلّق ب «المؤمنين» كما يفهم من سياق الآيات. و احتمال بعضهم أنّه معطوف على ضمير «يعلمهم». و لكن المعنى الأول أنسب.

٢ - ٢) - أورده الطبرسى فى (مجمع البيان) و الطباطبائى فى (الميزان) و السيوطى فى (الدرّ المنثور) و الزمخشرى فى (الكشاف، و القرطبى، و المراغى فى تفسيرهما، و سيّد قطب فى تفسيره (فى ظلال القرآن) فى ذيل الآيه مورد البحث، و هو فى الأصل من (صحيح البخارى).

و هذه الآيه فى الحقيقه كالآيه-١٦٤ فى سوره آل عمران التى تقول: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

و قد احتمل بعضهم جملة ذلك فَضَّلَ اللَّهُ إشاره إلى أصل مقام النبوه الذى يعطيه الله لمن يكون لائقا به، غير أنَّ التفسير الأول أنسب، مع أنَّه يمكن الجمع بين التفسيرين بأن يقال: إنَّ قياده الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم كانت نعمه للامه كما أنَّ مقام النبوه نعمه عظيمه لشخص الرسول الكريم.

و لا نجد حاجه إلى القول بأنَّ تعبير مَنْ يَشَاءُ لا يعنى أنَّ الله ينزل رحمته و بركاته بدون حساب و بلا سبب، بل إنَّ المشيئه هنا مرادفه للحكمه كما وصف البارى نفسه فى بدايه السوره بأنَّه العزيز الحكيم.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى معنى هذا الفضل الإلهى: «فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حيث بعث إليهم رسولا، فعقد بملته طاعتهم و جمع على دعوته ألفتهم، كيف نشرت النعمه عليهم جناح كرامتها، و أسالت لهم جداول نعيمها، و التفت المله بهم فى عوائد بركتها، فأصبحوا فى نعمتها غرقين. و فى خضره عيشها فكهين».

ملاحظه

اشاره

الفضل الإلهى له حساب:

جاء فى الحديث أنَّ جمعا من الفقراء ذهبوا إلى رسول الله و قالوا: «يا رسول الله، إنَّ للأغنياء ما يتصدقون و ليس لنا ما نتصدق و لهم ما يحجون و ليس لنا ما نحج و لهم ما يعتقون و ليس لنا ما نعتق. فقال صَلَّى الله عليه و آله و سلم: من كبر مائه مره كان أفضل من عتق رقبه، و من سبح الله مائه مره كان أفضل من مائه فرس فى سبيل الله يسرجها

ص: ٣١٨

و يلجمها.و من هَلَل الله مائه مرّه كان أفضل الناس عملا في ذلك اليوم إلّا من زاد.

فبلغ ذلك الأغنياء فقالوه. فرجع الفقراء إلى النبي فقالوا: يا رسول الله قد بلغ الأغنياء ما قلت فصنعوه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، (و هذه إشاره إلى أنّ ذلك لأمثالكم فإنّكم مشتاقون إلى الإنفاق و لا تملكون ما تنفقون).

أمّا الأغنياء فسييل بلوغهم ثواب الله هو إنفاق أموالهم في سبيله (١).

هذا الحديث شاهد على ما ذكرنا سابقا من أنّ ثواب الله و فضله لا يعطى بدون حساب.

ص: ٣١٩

اشاره

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّنُكُم أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْهُ
أَيَّدًا ۚ بِمَا قَدَّمْتُ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِن الْمَيِّتَ الَّذِي تَقْرَءُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمٍ الْغَيْبِ وَ
الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)

التفسير

اشاره

الحمار الذي يحمل الأسفار:

جاء في بعض الروايات أنَّ اليهود قالوا: (إذا كان محمّد قد بعث برسالة فإنّ رسالته لا تشملنا) فردّت عليهم الآية مورد البحث في
أول بيان لها بأنّ رسالته قد

أشير إليها في كتابكم السماوى لو أنكم قرأتموه و عملتم به.

يقول تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا[□] أَى نزلت عليهم التوراه و كلفوا بالعمل بها و لكنهم لم يؤدوا حقها و لم يعملوا بآياتها فمثلهم كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا[□].

لا يشعر هذا الحيوان بما يحمل من كتب إلا بثقلها، ولا يميز بين أن يكون المحمول على ظهره خشب أو حجر أو كتب فيها أدق أسرار الخلق و أحسن منهج فى الحياه.

لقد اقتنع هؤلاء القوم بتلاوه التوراه و اكتفوا بذلك دون أن يعملوا بموجبها.

هؤلاء مثلهم كمثل الحمار الذى يضرب به المثل فى الغباء و حماقه.

و ذلك أوضح مثال يمكن أن يكشف عن قيمه العلم و أهميته.

و يشمل هذا الخطاب جميع المسلمين الذين يتعاملون بألفاظ القرآن دون إدراك أبعاده و حكمه الثمينه.(و ما أكثر هؤلاء بين المسلمين).

و هناك تفسير آخر هو أن اليهود لمّا سمعوا تلك الآيات و الآيات المشابهه فى السور الاخرى التى تتحدّث عن نعمه بعث الرّسول قالوا: نحن أهل كتاب أيضا، و نفتخر ببعثه سيدنا موسى عليه السّلام كليم الله، فردّ عليهم القرآن أنكم جعلتم التوراه وراء ظهوركم و لم تعملوا بما جاء فيها.

على أى حال يعتبر ذلك تحذيرا للمسلمين كافّه من أن ينتهوا إلى ما انتهى إليه اليهود فقد شملتهم الرحمه الإلهيه و نزل عليهم القرآن الكريم، لا- لكى يضعوه على الرفوف يعلوه الغبار، أو يحملوه كما تحمل التعاويذ أو ما إلى ذلك. و قد لا يتعدّى اهتمام بعض المسلمين بالقرآن أكثر من تلاوته بصوت جميل فى أغلب الأحيان.

ثم يقول تعالى: يَسْ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا[□] بِآيَاتِ اللَّهِ إِذْ لَمْ يَكْتَفُوا بِمُخَالَفَةِ الْقُرْآنِ عملا، بل أنكروه بلسانهم أيضا، حيث نصّيت الآية(٨٧) من سوره

البقره و هى تصف اليهود قائله: أَفَكَلَّمَا لَجَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ .

و يقول تعالى فى آخر الآيه فى عبارته وجيزه: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

صحيح أنَّ الهدايه شأن إلهى،و لكن ينبغى أن تهياً لها الأرضيه اللازمه،و هى الروح التواقه لطلب الحق و البحث عنه،و هى امور يجب أن يهيئها الإنسان نفسه، و لا شكَّ أنَّ الظالمين يفتقدون مثل هذه الأرضيه.

و أوضحنا سابقا أنَّ اليهود اعتبروا أنفسهم امه مختاره،أو نسيجا خاصا لا يشبه غيره،و ذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما ادَّعوا أنَّهم أبناء الله و أحبَّاءه المنتقمون،و هذا ما أشارت إليه الآيه (١٨) من سوره المائده: وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ (رغم أنَّهم يقصدون الأبناء المجازيين).

و لكن القرآن شجب هذا التعالى مره اخرى بقوله: قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١) .

فالأحباء يتمنون اللقاء دائما،و لا يتم اللقاء المعنوى بالله يوم القيامه إلاَّ عند ما تزول حجب عالم الدنيا و ينقشع غبار الشهوات و الهوى،و حينئذ سىرى الإنسان جمال المحبوب و يجلس على بساط قربه،و يكون مصداقا ل فى مَقْعِدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ فيدخل إلى حرم الحبيب.

إنَّ خوفكم و فراركم من الموت دليل قاطع على أنَّكم متعلقون بهذه الدنيا و غير صادقين فى ادَّعائكم.

و يوضَّح القرآن الكريم هذا المعنى بتعبير آخر فى سوره البقره آيه (٩٦) عند ما يقول تعالى:

ص: ٣٢٢

١- ١) -اعتبر بعض المفسرين (من دون الناس) حالا لاسم إن،بينما قال آخرون:إنها صفه لأولياء.

وَلْتَجِدْنَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضَخٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

ثم يشير القرآن إلى سبب خوفهم من الموت بقوله: وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .

لأن خوف الإنسان من الموت ناشئ من عاملين أساسيين:

الأول: عدم إيمان الإنسان بالحياة بعد الموت واعتقاده أن الموت زوال وفناء.

و الثاني: أعماله السيئة التي يعتقد أنه سيواجهها بعد مماته في عالم الآخرة عند ما تقام المحكمه الإلهيه.

و إنما يخاف اليهود من الموت لسوء أعمالهم إذ أنهم يعتقدون-أيضا-بيوم الحساب.

وقد وصفهم القرآن الكريم بالظالمين، وذلك لأن الظلم يتسع ليشمل جميع الأعمال السيئة و الجرائم التي ارتكبوها، من قتلهم الأنبياء و قول الزور و غصب الحقوق و تلوثهم بمختلف المفاصد الأخلاقية.

غير أن هذا الخوف و ذلك الفرار لا يجدى شيئا، فالموت أمر حتمي لا بد أن يدرك الجميع، إذ يقول تعالى: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

الموت قانون عام يخضع له الجميع بما فيهم الأنبياء و الملائكة و جميع الناس كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ .

و كذلك المثل أمام محكمه العدل الإلهي لا يفلت منها أحد، إضافة إلى علم الله تعالى بأعمال عباده بدقه و بتفصيل كامل.

و بهذا سوف لا- يكون هناك طريق للتخلص من هذا الخوف سوى تقوى الله و تطهير النفس و القلب من المعاصي، و بعد أن يخلص الإنسان لله تعالى فإنه لن

يخاف الموت حينئذ.

و يعبر

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه المرحله بقوله: «هيهات بعد اللتيا و التى، و الله لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى أمه» (١).

بحثان

اشاره

١- العالم بلا عمل

مما لا شك فيه أنّ لطلب العلم تبعات و مسؤوليات عديده، و لكن مع كثره هذه التبعات فإنّها لا تساوى شيئاً أمام بر كاته. و أشدّ ما يخيف الإنسان و يقلقه أن يتحمّل مصاعب طلب العلم، و يعانى فى سبيل ذلك الأمرين دون أن يحصد بر كاته، و عندها سيكون مثل هذا الإنسان كمثّل الحمار الذى يحمل أسفاراً على ظهره لا يعلم منها شيئاً.

و قد شبه العالم بلا عمل فى بعض الأمثال بأنّه (كالشجر بلا ثمر) أو (كالسحاب بلا مطر) أو (كالشمعه التى تحرق نفسها لتضىء أطرافها و لكنّها تفتنى و تزول) أو (كالحيوان الذى يدير الطاحونه فإنّه يمشى ساعات طويله دون أن يقطع أيّه مسافه بل يبقى دائماً يدور حول نفسه)، و ما إلى ذلك من التشبيهات التى يوضّح كلّ واحد منها جانباً من جوانب النقص حينما لا يقرن العلم بالعمل.

و قد حملت الروايات بشدّه على مثل هؤلاء العلماء الذين لا يعملون بما يعلمون،

ففى روايه عن الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من إزداد علماً و لم يزد هدى لم يزد من الله إلّا بعداً» (٢).

و

عن أمير المؤمنين على عليه السّلام أنّه قال: «العلم مقرون بالعمل فمن علم عمل،

ص: ٣٢٤

١- ١) - نهج البلاغه، خطبه ٥.

٢- ٢) - المحجّه البيضاء، ج ١، ص ١٢٦، ١٢٥.

و العلم يهتف بالعمل فإن أجابه و إلا ارتحل عنه» (١).

و

فى روايه اخرى عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يعتبر العالم الذى لا يعمل بموجب علمه غير جدير بهذا اللقب حيث يقول: «لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا» (٢).

و ليس أفضل من العالم الذى يعمل بعلمه دون أن يستفيد من مزايا العلم ذاتيا و ماديا،

فقد ورد عن أمير المؤمنين فى خطبه له على المنبر «أيها الناس إذا علمتم فاعملوا بما علمتم لعلكم تهتدون، إن العالم العامل بغيره، كالجاهل الحائر الذى لا يستفيق عن جهله بل قد رأيت أن الحجة عليه أعظم و الحسره أدم» (٣).

و مثل هؤلاء العلماء سيكونون بلاء على المجتمع و وبالا عليه، و سينتهى المجتمع الذى علماؤه من هذا القبيل إلى مصير خطير.

يقول الشاعر:

و راعى الشاه يحمى الذئب عنها

فكيف إذا الرعاه لها ذئاب!

٢- لماذا أخاف الموت

قله من الناس فقط لا يخافون الموت و يبتسمون له و يحتضنونه و يهبون تلك النفس المتعبه ليحصلوا على الخلود.

و الآن لماذا تخاف الموت الأغلبه من الناس و تخاف من أعراضه، بل حتى من اسمه؟ إن السبب الأساسى وراء هذا الخوف هو عدم إيمان هؤلاء بالحياه بعد الموت، أو إذا كانوا مؤمنين بذلك فإنهم لم يصدقوا به تصديقا حقيقيا، و لم يتمكن

ص: ٣٢٥

١- ١) -نهج البلاغه، الكلمات القصار (٣٦٦).

٢- ٢) -أصول الكافي، ج ١، باب استعمال العلم، حديث ٢٢٦.

٣- ٣) -سفينه البحار، ج ١، ص ٦٠٣.

من جميع أفكارهم و إحساساتهم و مشاعرهم.

إنَّ خوف الإنسان من العدم شيء طبيعي، بل إنَّ الإنسان يخاف من الظلمه في الليل التي هي عدم النور، و أحيانا يصل بالإنسان الخوف إلى أنه يخاف من الميِّت.

و لكن إذا صدقت النفس أنَّ

(الدنيا سجن المؤمن و جَنَّة الكافر) و إذا أيقنت هذه النفس أنَّ هذا البدن الترابي إنّما هو سجن للروح و سور يضرب الحصار عليها، إذا آمنت بذلك حقًا و كانت نظره الإنسان إلى الموت هكذا فإنَّه سوف لن يخشى الموت أبداً، و في نفس الوقت الذي يعتزّ بالحياه من أجل الارتقاء في سلّم التكامل.

لهذا نجد في قصّه عاشوراء: أنّه كلّما ضاقت حلقه الأعداء و ازداد ضغطهم على الإمام الحسين و أصحابه ازدادت وجوههم إشراقاً، حتّى أنَّ الشيوخ من أصحابه كانت الابتسامه تطفو على وجوههم في صبيحه عاشوراء، و حينما كانوا يسألون يقولون: إنّنا سنستشهد بعد ساعات فنعانق الحور العين (١).

و السبب الآخر الذي يجعل الإنسان يخاف من الموت هو التعلّق بالدنيا أكثر من اللازم، الأمر الذي يجعله يرى الموت الشيء الذي سيفصله عن محبوبه و معشوقه التي هي الدنيا.

و كثره السيئات و قله الحسنات في صحيفه الأعمال هي السبب الثالث وراء الخوف من الموت،

فقد جاء أنّ رجلاً أتى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و قال: يا رسول الله، ما بالي لا أحبّ الموت؟ فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم: لك مال؟ قال: نعم، قال صلّى الله عليه و آله و سلّم: قد قدّمته؟ قال:

لا. قال: فمن ثمّ لا تحبّ الموت؟ (٢) (لأنّ صحيفه أعمالك خاليه من الحسنات).

ص: ٣٢٦

١- (١) -مقتل الحسين- المقرّم- ص ٢٦٣.

٢- (٢) -المحبّجّه البيضاء، ج ٨، ص ٢٥٨.

و جاء رجل آخر و سأل (أبا ذرّ) نفس السؤال فأجابه أبو ذرّ قائلا: «لأنّكم عمّرتُم الدنيا و خرّبتُم الآخره، فتكرهون أن تنتقلوا من
عمران إلى خراب» (١).

ص: ٣٢٧

١- ١) -المحجّه البيضاء، ج ٨ ص ٢٥٨.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيََتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)

سبب النزول

نقل في سبب نزول هذه الآيات و خصوصاً الآية وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً روايات مختلفه جميعها تخبر عن معنى واحد، هو أنه في أحد السنوات «أصاب أهل المدينة جوع و غلاء سعر فقدم «دحيه بن خليفه» بتجاره زيت من الشام و النبي يخطب يوم الجمعة فلما رأوه قاموا إليه بالبيع خشيه أن يسبقوا إليه فلم يبق مع النبي إلا رهط فنزلت الآية

فقال: «و الذي نفسى بيده لو تابعتهم حتى لا يبقى أحد منكم لسال بكم الوادى نارا».

و قال المقاتلان: بينا رسول الله يخطب يوم الجمعة إذ قدم دحيه بن خليفه بن فروه الكلبى ثم أخذ بنى الخزرج ثم أخذ بنى زيد بن مناه من الشام بتجاره و كان إذا قدم لم يبق بالمدينه عاتق إلا أته و كان يقدم إذا قدم بكل ما يحتاج إليه من دقيق أو بر أو غيره فينزل عند «أحجار الزيت»، و هو مكان فى سوق المدينه ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدمه فيخرج إليه الناس ليتبايعوا معه فقدم ذات جمعه و كان ذلك قبل أن يسلم و رسول الله قائم على المنبر يخطب فخرج الناس فلم يبق فى المسجد إلا اثنا عشر رجلا و امرأه

فقال صلى الله عليه و آله و سلم: لو لا هؤلاء لسومت عليهم الحجاره من السماء و أنزل الله هذه الآية (١).

التفسير

إشارة

أكبر تجمع عبادى سياسى اسبوعى:

كانت الأبحاث السابقة تدور حول مسأله التوحيد و النبوه و المعاد، و كذلك ذم اليهود عبيد الدنيا، بينما انصب الحديث فى الآيات مورد البحث على الركائز الإسلاميه المهمه التى تؤثر كثيرا على استقرار أساس الإيمان، و تمثل الهدف الأساس للسوره، و هى صلاه الجمعه و بعض الأحكام المتعلقة بها.

ففى البدايه يخاطب الله تعالى المسلمين جميعا بقوله: [□]يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى [□]ذِكْرِ اللَّهِ وَ [□]ذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

«نودى» من مادّه (نداء) و هى هنا بمعنى الأذان إذ لا نداء للصلاه غير الأذان.

و جاء فى الآية (٥٨) من سوره المائده و ^{□□}إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوءاً وَ لَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ .

ص: ٣٢٩

فعند ما يرتفع الأذان لصلاه الجمعة يكون لزاما على الناس أن يتركوا مكاسبهم و معاشهم، و يذهبوا إلى الصلاه و هي أهم ذكر لله.

و عبارته **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ**... إشاره إلى أن إقامه صلاه الجمعة و ترك المكاسب و العمل في هذا الوقت، خير و أنفع للمسلمين من حطام الدنيا و ملاذها الزائله لو كانوا يعقلون. و **إِلَّا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنِ الْجَمِيعِ**.

هذه نظره عابره إلى فلسفه صلاه الجمعة و ما فيها من فضائل سنبحثها تباعا.

من الواضح أن الأمر ترك البيع و الشراء مفهوما واسعا يشمل كل عمل يمكن أن يزاحم الصلاه.

أمّا لماذا سمّي يوم الجمعة بهذا الاسم؟ فهو لاجتماع الناس في هذا اليوم للصلاه، و هذه المسأله لها تاريخ سنبحثه في النقاط القادمه.

و من الجدير بالملاحظه أن بعض الروايات جاءت حول الصلاه اليوميّه «إذا أقيمت الصلاه فلا تأتوها و أنتم تسعون و أتوها و أنتم تمشون و عليكم السكينه» (١).

و قد عبّرت الآيه السابقه فيما يتعلّق بصلاه الجمعة بقولها (فاسعوا) لتعطى أهميته بالغه لصلاه الجمعة.

المقصود من (ذكر الله) بالدرجه الاولى هو الصلاه، و لكننا نعلم أن خطبتي صلاه الجمعة مشتمله هي الاخرى و متضمّننه (لذكر الله) و هي في الحقيقه جزء من صلاه الجمعة. و بناء على ذلك ينبغي الإسراع لحضور الخطبتين أيضا.

تضيف الآيه التي تليها قائله: **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**.

و رغم أن عبارته **ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ** أو ما يشابهها من تعابير، ووردت في القرآن الكريم للحث على طلب الرزق و الكسب و التجاره، لكن الظاهر أن مفهوم

ص: ٣٣٠

هذه الجملة أوسع من ذلك بكثير. لهذا فسّرها بعضهم بعباده المريض و زياره المؤمن و طلب العلم و المعرفة، و لم يحصروها بهذه المعاني كذلك.

من الواضح أنّ الانتشار في الأرض و طلب الرزق ليس أمراً وجوبياً، ولكن - كما هو معلوم أصولياً «أمر بعد الحظر و النهي» - دليل على الجواز و الإباحة. مع أنّ البعض فهم من هذا التعبير أنّ المقصود هو استحباب طلب الرزق و الكسب بعد صلاه الجمعة، و إشاره إلى كونه مباركاً أكثر.

و جاء في الحديث أنّ الرسول صلى الله عليه و آله و سلم كان يمشى في السوق بعد صلاه الجمعة.

□
جملة و اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا إشاره إلى ذكر الله تعالى الذي وهب كلّ تلك البركات و النعم للإنسان. و قال بعضهم: إنّ الذكر هنا يعني التفكّر كما

جاء في الحديث «تفكّر ساعه خير من عباده سنه» (١).

و فسرها آخرون بمعنى التوجّه إلى الله تعالى في الكسب و المعاملات و عدم الانحراف عن جاده الحقّ و العدالة.

غير أنّه من الواضح أنّ للآيه مفهوماً واسعاً يشمل كلّ تلك المعاني، كما أنّه من المسلّم أنّ روح الذكر هو التفكّر. و الذكر الذي لا يكون مقروناً بالتفكّر لا يزيد عن كونه لقلقه لسان، و إنّ الذكر الممزوج بالتفكّر هو سبب الفوز في جميع الحالات.

و ممّا لا شكّ فيه أنّ استمرار الذكر و المداومه عليه يرسخ الخوف من الله و يعمّقه في نفس الإنسان، و يجعله يستشعر ذلك في أعماق نفسه، و يقضى نهائياً على أسباب الغفلة و الجهل اللذين يشكّلان السبب الأساس لكلّ الذنوب، و يضع الإنسان في طريق الفلاح دائماً. و هناك تتحقّق حقيقه لعلّكم تُفلحون .

في آخر الآيه -مورد البحث- ورد ذمّ عنيف للأشخاص الذين تركوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في صلاه الجمعة و أسرعوا للشراء من القافله القادمه، إذ يقول تعالى:

ص: ٣٣١

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا

و لكن قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .

فمن المؤكد، أنَّ الثواب و الجزاء الإلهي و البركات التي يحظى بها الإنسان عند حضوره صلاه الجمعه و الاستماع إلى المواعظ و الحكم التي يلقيها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و ما ينتج عن ذلك من تربيته روحيه و معنويه، لا يمكن مقارنتها بأى شيء آخر. فإذا كنتم تظنون انقطاع الرزق فإنكم على خطأ كبير لأنَّ الله خيرُ الرّازقين .

التعبير ب«اللهو» إشاره إلى الطبل و سائر آلات اللهو التي كانت تستعمل عند دخول قافله جديده إلى المدينه. فقد كانت تستعمل كإعلان و إخبار عن دخول القافله، إضافة إلى كونها وسيلة للترفيه و الدعايه و اللهو، كما نشاهد ما يشابه ذلك في الغرب هذه الأيام.

التعبير ب«انفَضُّوا» بمعنى الانتشار و الانصراف عن صلاه الجمعه و الذهاب إلى القافله. فقد ورد في سبب النزول أنَّ المسلمين تركوا الرسول في خطبه الجمعه و تجمّعوا مع باقى الناس حول قافله (دحيه) -الذى لم يكن قد أسلم بعد- و لم يبق في المسجد إلا ثلاثة عشر شخصا أو أقل، كما جاء في روايه اخرى.

و الضمير في «إليها» يرجع إلى التجاره التي أسرعوا إليها، و لم يكن «اللهو» هو الهدف المقصود بل كان مجرد مقدمه للإعلان عن وصول القافله إلى المدينه، و كذلك للترفيه و الدعايه للبضاعه.

التعبير ب«قائما» يكشف عن أنَّ الرسول كان واقفا يلقي خطبه الجمعه، كما

جاء في حديث عن جابر أنَّه قال: (لم أر رسول الله قطّ يخطب و هو جالس، و كلّ من قال يخطب و هو جالس فكذبوه) (١).

ص: ٣٣٢

و جاء فى روايه اخرى أنه سئل عبد الله بن مسعود يوما: هل كان الرسول يخطب واقفا؟ قال: أ لم تسمعوا قوله تعالى: وَ تَرَكُوا كِ قَائِمًا (١) .

و جاء فى «الدر المنثور» أنّ معاويه كان أول شخص ألقى خطبه الجمعة و هو «قاعد».

بحوث

اشاره

١- أول صلاه جمعه فى الإسلام

جاء فى بعض الروايات أنّ مسلمى المدينه كانوا يتحدّثون مع بعضهم-قبل هجره الرسول إليهم- أنّ لليهود يوما يجتمعون فيه هو(السبت) و للنصارى يوما يجتمعون فيه هو(الأحد) فلما ذا لا نتخذ نحن يوما معينا نذكر الله فيه كثيرا و نشكره؟ و انتخبوا يوما قبل السبت و كان يسمّى (يوم العروبه) و ذهبوا إلى (أسعد بن زراره)-أحد وجهاء المدينه و قد صلّى بهم جماعه و وعظهم و سمى ذلك اليوم يوم الجمعة لاجتماع المسلمين به. ثم أمر(أسعد) أن يذبخوا كبشا ليصنعوا منه غداء و عشاء لجميع المسلمين الذين كان عددهم من القلّه بحيث كفاهم الكبش لهاتين الوجبتين. و كانت هذه أول جمعه تقام فى الإسلام.

أمّا أول جمعه أقامها الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم مع أصحابه فكانت بعد وصوله إلى المدينه بأربعه أيام، و كان وصوله يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول، بقى بعدها أربعه أيام فى قبا فبنوا(مسجد قبا) و تحرّكوا بعدها إلى المدينه، و كان ذلك يوم الجمعة، و لم تكن المسافه بين قبا و المدينه طويله(و تعتبر قبا اليوم من ضواحي المدينه).

و كان الرسول قد وصل ضاحيه(بنى سالم) عند أذان الجمعة فأقيمت صلاه الجمعة

ص: ٣٣٣

(١- ١) -تفسير الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٢٢، و مفسرين آخر ك(الآلوسى فى روح المعانى و القرطبى).

هناك. وهذه هي أول جمعه أقامها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الإسلام، وقد ألقى فيها خطبه كانت هي بدورها أول خطبه لرسول الله في المدينة المنورة (١).

نقل أحد المحدثين عن عبد الله بن كعب قوله: (إنَّ أباي كان يترحم على أسعد بن زراره كلما سمع أذان صلاة الجمعة، وعند ما سأله عن سبب ذلك أجابني: (لأنَّه كان أول رجل أقام صلاة الجمعة)، فقلت: كم كان عددكم ذلك اليوم؟ قال: أربعون رجلاً فقط (٢).

٢- أهميَّة صلاة الجمعة

إنَّ أفضل دليل على أهميَّة هذه الفريضة العظيمة هو الآيات الأخيرة في هذه السورة المباركة، التي أمرت جميع المسلمين وأهل الإيمان بمجرّد سماعهم لأذان الجمعة أن يسرعوا إليها ويتركوا الكسب والعمل، وكلّ ما من شأنه أن يزاحم هذه الفريضة، إلى الحدّ الذي نهتهم عن الذهاب إلى تلك القافلة رغم حاجتهم الماسّة إلى ما فيها من طعام إذ كانوا يعيشون القحط والمجاعة. ودعّتهم إلى الاستمرار في صلاة الجمعة حتّى النهاية.

ورد في أحاديث أخرى في هذا المجال-أيضاً-منها الخطبة التي نقلتها جميع مصادر المسلمين عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد جاء فيها

قوله: «إنَّ الله تعالى فرض عليكم الجمعة، فمن تركها في حياتي أو بعد موتي استخفافاً بها أو جحوداً لها، فلا جمع الله شمله ولا بارك له في أمره، ألا ولا صلاة له، ألا ولا زكاة له، ألا ولا حجّ له، ألا ولا صوم له، ألا ولا برّ له، حتّى يتوب» (٣).

و

جاء في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «صلاة الجمعة فريضة

ص: ٣٣٤

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٢٨٦.

٢-٢) -روح المعاني، ج ٢٨، ص ٨٨.

٣-٣) -وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٧، باب وجوب صلاة الجمعة، حديث ٢٨.

و الاجتماع إليها فريضه مع الإمام، فإن ترك رجل من غير عله ثلاث جمع فقد ترك ثلاث فرائض و لا يدع ثلاث فرائض من غير عله إلا منافق» (١).

و

فى حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «من أتى الجمعة إيماناً و احتساباً استأنف العمل» (٢). أى استغفر ذنوبه و يبدأ العمل من جديد.

و الروايات كثيره فى هذا المجال و لا يتسع المجال لذكرها جميعاً، لذا نحاول أن ننهى هذا البحث بحديث آخر، حيث جاء رجل إلى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فقال:

يا رسول الله، إننى تهيت عده مزارات للحج و لكننى لم أوفق. قال صلى الله عليه و آله و سلم: «عليك بالجمعه فإنها حج المساكين» (٣). و فى ذلك إشاره إلى أن ما يتضمنه هذا المؤتمر الإسلامى الكبير (أى الحج) من بركات، موجوده فى اجتماع صلاه الجمعه.

و من الملفت للنظر أنه قد ورد ذم شديد لتارك صلاه الجمعه، حتى عد التاركون للجمعه فى صف المنافقين عند ما تكون صلاه الجمعه واجبا عتيّاً (أى فى زمن حضور الإمام المعصوم عليه السلام) و أمّا فى زمن الغيبه- و بناء على أنه واجب مخير بين صلاه الجمعه و صلاه الظهر- فإنه لا يكون مشمولاً بهذا الذم و التقرع رغم عظمه صلاه الجمعه و أهميتها فى هذا الوقت أيضاً (للتوسع فى ذلك يجب الرجوع إلى الكتب الفقهيّه).

٣- فلسفه صلاه الجمعه العباديه و السياسيه

إن صلاه الجمعه- قبل كل شىء- عباده جماعيه و لها أثر العبادات عموماً، حيث تطهر الروح و القلب من الذنوب، و تزيل صدأ المعاصي عن القلوب، خاصّه و أنها تكون دائماً مسبوقه بخطبتين تشتملان على أنواع المواعظ و الحكم، و الحث

ص: ٣٣٥

١-١) -وسائل الشيعه، ج ٥، ص ٤، حديث ٨.

٢-٢) -وسائل الشيعه، ج ٥، ص ٥، حديث ١٠.

٣-٣) -وسائل الشيعه، ج ٥، ص ٥، حديث ١٧.

على التقوى و خوف الله.

أما من الناحية السياسيّة و الاجتماعيّة فهي أكبر مؤتمر اسبوعي عظيم بعد مؤتمر الحجّ السنوي، لهذا نجد الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم يقول في الروايه التي نقلناها سابقا من أنّ الجمعه حجّ من لا يملك قدره على المشاركة في الحجّ.

و يعطى الإسلام في الحقيقة أهميّة خاصّه لثلاثه مؤتمرات كبيره:

التجمّعات التي تتمّ يوميا لصلاه الجماعه.

التجمّع الأسبوعي الأوسع في صلاه الجمعه.

و مؤتمر الحجّ الذي يعقد في كلّ سنه مرّه.

و دور صلاه الجمعه مهمّ جدّا خاصّه و أنّ من واجبات الخطيب هو التحدّث في الخطبتين عن المسائل السياسيّه و الاجتماعيّه و الاقتصاديّه و بذلك سيكون هذا التجمّع العظيم و المهيّب منشأ للبركات و النعم التاليه:

أ-توعية الناس على المعارف الإسلاميّه و الأحداث السياسيّه و الاجتماعيّه المهمّه.

ب-توثيق الاتّحاد و الانسجام بين المسلمين أكثر لإخافه الأعداء.

ج-تجديد الروح الدينيه و تصعيد معنويات المسلمين.

د-إيجاد التعاون لحلّ المشكلات العامّه التي تواجه المسلمين.

و لهذا فإنّ أعداء الإسلام يخافون دائما من صلاه الجمعه الجامعه للشرائط.

و لهذا أيضا- كانت صلاه الجمعه مصدر قوّه سياسيّه في أيدي حكومات العدل كحكومة الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم الذي استثمرها أحسن استثمار لخدمه الإسلام، و كذلك كانت مصدر قوّه أيضا لحكومات الجور كدوله بنى اميه الذين استغلّوها لتحكيم قدرتهم و سيطرتهم و إضلال الناس.

و على مدى التاريخ نلاحظ أنّ أى محاوله للتمرد على النظام تبدأ أولا بالامتناع عن صلاه الجمعه خلف الإمام المنسوب من قبل الحاكم، فقد جاء في

قَصَّه عاشوراء أنَّ بعض الشيعة اجتمعوا في دار (سليمان بن صرد الخزاعي) ثمَّ بعثوا رساله إلى الإمام الحسين من الكوفه جاء فيها (..و النعمان بن بشير في قصر الإمامه، لسننا نجتمع معه في جمعه، و لا نخرج معه إلى عيد، و لو قد بلغنا أنَّك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتَّى نلحقه بالشام إن شاء الله» (١).

و

في الصحيفة السجديه عن الإمام السَّجَّاد عليه السَّلام: «اللهمَّ إنَّ هذا المقام لخلفائك و أصفياك و مواضع أمناك، في الدرجة الرفيعه التي اختصصتهم بها قد ابتزَّوها» (٢).

و في خطبه الجمعة يتمَّ تبديد جميع الإشاعات التي كان الأعداء قد بثَّوها خلال الأسبوع، و تدبَّ بعد ذلك الحياه في جموع المسلمين و يبدأ دم جديد بالتدفق.

و من الجدير بالإشاره إليه أنَّ فقه أهل البيت عليهم السَّلام ينصَّ على عدم جواز إقامه أكثر من جمعه واحده في منطقه نصف قطرها فرسخ، كما يمكن أن يشارك في صلاه الجمعة من كان يبعد عنها بمسافه فرسخين (أى ما يعادل أحد عشر كم).

كلَّ هذا يعنى أنَّه لا يمكن إقامه أكثر من صلاه جمعه في مدينه واحده صغيره أو كبيره، مع أطرافها و ضواحيها، و بناء على هذا فسيكون هذا التجمُّع هو أوسع تجمُّع يقام في تلك المنطقه.

و لكننا نجد مع الأسف أنَّ هذه المراسم العباديه السياسيه التي تستطيع أن تكون مصدر حركه عظيمه في المجتمعات الإسلاميه، نجدها بسبب سيطره الحكومات الفاسده على بعض الدول الإسلاميه قد فقدت روحها و معناها، إلى الحدِّ الذي لا تترك أى أثر إيجابى، و أصبحت تقام باعتبارها مراسم حكوميه رسميه لا أكثر، و ذلك ممَّا يحزُّ بالنفس و يؤلم كثيرا.

ص: ٣٣٧

١- ١) - البحار، ج ٤٤، ص ٣٣٣.

٢- ٢) - الصحيفة السجديه، دعاء ٤٢.

إنَّ أهمَّ صلاه جمعه تقام على طول العام هى الصلاه التى تقام قبل الذهاب إلى عرفات فى مكَّه، حيث يشارك فيها عدد غفير من الحجاج الذين تجمَّعوا من مختلف أنحاء العالم. و يكون هناك تمثيل حقيقى لكلِّ فئات المسلمين فى الكره الأرضيه، و من اللائق أن يهَيَّأ لمثل هذه الصلاه الحساسه خطبه عظيمه يشارك فى إعدادها أئمَّه الجمع ليعرضوا فيها امور المسلمين المختلفه.

و من الطبيعى أن تعطى مثل هذه الخطبه أكلها، و تفيض بالبركات و الوعى بين المسلمين و تحلّ مشاكلهم الخطيره.

و لكن مع شديد الأسف نرى أنَّ خطبه الجمعه فى هذه الأيام لا تتناول سوى الأمور الهامشيه، أو يتمّ التحدّث عن امور معروفه للجميع، و لا يتمّ التحدّث عن الأمور الأساسيه التى تهتمّ المسلمين!! ألا ينبغى البكاء على ذهاب هذه الفرص الذهبيه و ضياع هذه الثروه المعنويه؟! ألا يدعو ذلك إلى الأسف و يتطلّب الإسراع فى الإصلاح؟!!

٤- آداب صلاه الجمعه و مضمون الخطبتين

تجب صلاه الجمعه-مع توافر الشروط اللازمه-على الرجال البالغين و الأصحاء الذين لهم القدره على حضورها و مشاركه فيها، و لا-تجب على المسافرين و المسنّين رغم جواز الحضور فيها للمسافر. و كذلك يمكن للنساء المشاركه فى صلاه الجمعه رغم أنّها غير واجبه عليهنّ.

أقلّ عدد يمكن انعقاد الجمعه به هو خمسه رجال.

صلاه الجمعه ركعتين و تقام بدلا عن صلاه الظهر، و تحسب الخطبتان اللتان يتمّ إلقاؤهما قبل صلاه الجمعه بدل الركعتين الأخيرتين.

و صلاه الجمعه كصلاه الصبح يستحبّ أن يقرأ فيها الحمد و السوره جهرا،

و يستحبّ كذلك أن تقرأ سورة الجمعة في الركعه الاولى و المنافقون في الركعه الثانيه.

و هناك قنوتان في صلاه الجمعة: أحدهما قبل ركوع الركعه الاولى، و الثانى بعد ركوع الركعه الثانيه.

يجب إلقاء الخطبتين قبل الصلاه، كما يجب أن يقوم الخطيب واقفا لإلقاء الخطبه، و من يلقي الخطبه يجب أن يكون إمام صلاه الجمعة. و يجب أن يرفع الخطيب صوته ليسمعه جميع من يحضر الصلاه و يطلع على مضمون الخطبه.

و ينبغي السكوت و الإنصات إلى الخطيب و الجلوس في مقابله.

و من اللائق أن يكون الخطيب فصيحاً و بليغاً و مطلعاً على أحوال المسلمين و عارفاً بشؤون المجتمع الإسلامى، و شجاعاً و صريحاً اللهجه و لا يتردد في إظهار الحق، و يجب أن تكون سيرته مدعاه للتأثير على الناس، و كذلك حديثه ينبغي أن يربط الناس أكثر بالله جلّ شأنه.

و من اللائق أن يرتدى الإمام أنظف الملابس، و يستخدم العطر، و يمشى بوقار و سكينه. و عند ما يرتقى المنبر يبدأ بالسلام على الناس و يقف مقابلهم و يتكئ على سيف أو عصى. و يجلس على المنبر متى ينتهى الأذان. و يبدأ بخطبته بعد تمام الأذان.

و بحمد الله وثنى عليه و يصلّى على رسوله في بدايه الخطبه الاولى (و يقرأ هذا القسم باللغة العربيه احتياطاً، و ما تبقى بلسان الحاضرين).

و عليه أن يوصى الناس بتقوى الله، و يقرأ سورة من السور القصيره، و يراعى هذا الأمر في الخطبتين. و في الخطبه الثانيه، بعد الصلاه على النبى و أئمه المسلمين، يدعو و يستغفر للمؤمنين و المؤمنات.

و من المناسب أن يناقش الخطيب في خطبته شؤون المسلمين و ما يتعلّق بدينهم و دنياهم مع التركيز على الأولويات. و ينبغي أن يتبّههم إلى مؤامرات

الأعداء و يحثهم ضمن برنامج طويل أو قصير المدّة.

خلاصه القول يجب أن تتوفر في الخطيب عناصر الوعي و التفكير الصحيح و المتابعه لشؤون المسلمين، ليستثمر الخطبه في تحقيق الأهداف الإسلاميه العليا، و يدفع المسلمين نحوها (١).

جاء في حديث عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «إنّما جعلت الخطبه يوم الجمعة لأنّ الجمعة مشهود عام، فأراد أن يكون للأمر سبب إلى موعظتهم و ترغيبهم في الطاعه و ترهيبهم من المعصيه، و توقيفهم على ما أراد من مصلحه دينهم و دنياهم، و يخبرهم بما ورد عليهم من الآفاق، من الأهوال التي لهم فيها المضرّه و المنفعه... و إنّما جعلت خطبتين لتكون واحده للثناء على الله و التمجيد و التقديس لله عزّ و جلّ، و الاخرى للحوائح و الأعذار و الإنذار و الدعاء و لما يريد أن يعلمهم من أمره و نهيه ما فيه الصلاح و الفساد» (٢).

٥- شرائط وجوب صلاه الجمعة

لا- شكّ في وجوب أن يكون إمام الجمعة- ككل إمام جماعه- عادلا إضافه إلى شروط إضافيه وقع خلاف فيها و في وجوب توفّرها.

و قد ذهب البعض أنّ هذه الصلاه من وظائف الإمام المعصوم و نائبه الخاصّ، أو بتعبير آخر أنّها- أي صلاه الجمعة- من شؤون عصر حضور الإمام المعصوم.

هذا في وقت يرى عدد كبير من المحقّقين أنّ حضور الإمام المعصوم شرط للوجوب التعيني لصلاه الجمعة، و ليس شرطا في الوجوب التخييري، حيث يمكن إقامة صلاه الجمعة في زمان الغيبه بدلا عن صلاه الظهر، و هذا هو الحقّ، بل

ص: ٣٤٠

١- ١) - هناك خلاف في جزئيات و أحكام صلاه الجمعة ينبغي الرجوع فيها إلى فتاوى الفقهاء، و هذا المذكور خلاصه لتلك الآراء.

٢- ٢) - وسائل الشيعه، ج ٥، ص ٣٩.

إنّه إذا قامت الحكومه الإسلاميه بشرائطها من قبل النائب العامّ للإمام المعصوم عليه السّلام. فالاحتياط هو أن ينصب إمام الجمعة من قبل نائب الإمام و يشارك المسلمون فى هذه الصلاه.

ثمّه كلام كثير فى هذا الصدد و فى باقى الأمور المرتبطه بصلاه الجمعة، غير أنّ بعضها خارج عن موضوع التّفسير و يدخل فى إطار البحوث الفقهيّه و الحديث (١).

اللهمّ، وفّقنا لأن ننتفع كأحسن ما يكون الانتفاع لتزكيه النفوس بهذه الشعائر الإسلاميه العظيمه. و إنقاذ المسلمين من قبضه الأعداء.

ربّنا، اجعلنا من المشتاقين للقائك، الذين لا يخافون من الموت، اللهم لا تسلبنا نعمه الإيمان بأنبيائك و التعلّم منهم و الاقتداء بهم أبداً.

آمين ربّ العالمين.

نهايه سوره الجمعة

ص: ٣٤١

١- (١) - ذكر العلامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ٨٩، ٩٠ هذه المسأله المهمّه و خصوصياتها الاخرى.

مدنیہ و عدد آیاتہا إحدى عشرہ آیه

ص: ۳۴۳

محتوى السوره:

احتوت سوره «المنافقون» على مضامين عديده، لكن المحور الأصيل لها هو صفات المنافقين و بعض الأمور الأخرى المرتبطه بهم. و قد جاء فى ذيل السوره بعض الآيات التى حملت مواعظ و نصائح للمسلمين فى مجالات مختلفه.

و يمكن تلخيص تلك الآيات فى أربعة أمور:

١- صفات المنافقين و تتضمن نقاطا مهمه و حساسه.

٢- تحذير المؤمنين من خطط المنافقين و وجوب الانتباه إلى ذلك و رصده بشكل دقيق.

٣- حثّ المؤمنين على عدم الاستغراق فى الدنيا و زخرفها و الانشغال بذلك عن ذكر الله.

٤- حثّ المسلمين على الإنفاق فى سبيل الله، و الانتفاع من الأحوال قبل الموت و قبل اشتعال الحسره فى نفوسهم.

و السبب فى تسميه هذه السوره بسوره «المنافقون» واضح لا يحتاج إلى شرح.

و ما يجدر بالملاحظه هو أنّ من آداب صلاه الجمعة أن تقرأ سوره المنافقين فى الركعه الثانيه، ليتذكّر المسلمون على طول الأسبوع مؤامرات المنافقين و خططهم، و يكونوا على حذر دائم من تحرّكاتهم.

جاء فى روايه عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من قرأ سوره المنافقين برأ من النفاق» (١).

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الواجب على كل مؤمن إذا كان لنا شيعه أن يقرأ فى ليله الجمعة بالجمعه و سبح اسم ربك الأعلى، و فى صلاه الظهر بالجمعه و المنافقين، فإذا فعل ذلك فكأنما يعمل بعمل رسول الله و كان جزاؤه و ثوابه على الله الجنة» (٢).

من الواضح أن فضائل كل سوره و آثارها، و منها هذه السوره، لا يمكن أن تكون من ثمار التلاوه الخاليه من التفكر و العمل فحسب، و الروايات أعلاه خير شاهد على ذلك، فإن المرور على هذه السور دون الاستفادة منها على الصعيد العملى و جعلها برنامجا للحياه، سوف لن يؤدى إلى زوال روح النفاق و اجتثاث جذورها من نفس الإنسان.

ص: ٣٤٦

١-١) -مجمع البيان بدايه سوره المنافقين.

٢-٢) -ثواب الأعمال طبقا لنقل نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٣١.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَتْهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمِعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَهُ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ
عَلَيْهِمْ هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤)

التفسير

اشاره

مصدر النفاق و علامات المنافقين:

نذكر مقدّمه قبل الدخول فى تفسير هذه الآيات، وهى أنّ الإسلام طرح مسأله النفاق و المنافقين مع هجره الرسول صلى الله عليه
و آله و سلّم و أصحابه إلى المدينه، و بدايه استحكام أسس الإسلام و ظهور عزّه. فلم تبرز ظاهره النفاق فى مكّه، لأنّ الأعداء

كانوا لا يخشون الإسلام و يستطيعون التعبير عن كل شيء بدون حذر. ولا حاجه إلى التخفى أو اللجوء إلى النفاق فى وقوفهم بوجه الإسلام.

لكن عند ما استحکم الإسلام و اتسع فى المدينه، و أصبح أعداؤه من الضعف بحيث يصعب عليهم التجاهر فى عدائهم، بل قد يتعذر ذلك عليهم فى بعض الأحيان، لهذا اختار أعداء الإسلام المهزومون أن يواصلوا خططهم التخريبية من خلال إظهار الإسلام و إبطان الكفر، و انخرطوا ظاهرا فى صفوف المسلمين، بينما ظلوا محافظين على كفرهم فى باطنهم.

و هكذا تكون غالبا طبيعه أعداء كل ثوره و دعوه بعد اشتداد عودها و قوه ساعدها، إذ تواجه الكثير من الأعداء و كأنهم أصدقاء.

و من هنا نستطيع أن نفهم لما ذا نزلت كل تلك الآيات التى تصف المنافقين و تشرح حالهم، فى المدينه و لم تنزل فى مكه.

و ممّا يجدر الإشارة إليه أنّ هذه المسأله-أى مسأله النفاق-غير محصوره بعصر الرسول، بل إنّ جميع المجتمعات-و خاصّه الثوريه منها-تكون عرضة للإصابه بهذه الظاهره الخطيره، و لذلك يجب أن يدرس القرآن الكريم و ما جاء فيه من تجارب و إرشادات من خلال هذه النظره الحيويه، لا من خلال اعتبارها مسأله تاريخيه لا علاقه لها بالواقع. و بهذا يمكن استلهاهم الدروس و الحكم لمكافحه النفاق و خطوط المنافقين فى المجتمعات الإسلاميه فى الوقت الحاضر.

كذلك لا بدّ من معرفه صفاتهم التى ذكرها القرآن بشكل تفصيلي، ليتّم التعرّف عليهم من خلالها استكناه خطوطهم و مؤامراتهم.

و ممّا تجدر الإشارة إليه أيضا أنّ خطر المنافقين يفوق خطر باقى الأعداء، لخفائهم و عدم القدره على تشخيصهم بسهوله من جهه، و لكونهم أعداء يعيشون فى داخل الجسم الإسلامى و ربّما ينفذون إلى قلبه نفوذا يصعب معه فرزهم و تحديدهم من جهه اخرى.

و يأتي خطرهم ثالثا من ارتباطاتهم مع سائر عناصر المجتمع بعلاقات بحيث تصعب مكافحتهم.

و لهذا نرى أنَّ أكثر الضربات التي تلقاها الإسلام على مدى التاريخ جاءت من هذا المعسكر-أى معسكر النفاق.و لهذا-أيضا- نلاحظ أنَّ الإسلام شنَّ حملات شديدة جدًّا عليهم،و وجَّه إليهم ضربات عنيفة لم يوجَّهها إلى غيرهم.

و بعد هذه المقدِّمه نرجع إلى تفسير الآيات.

إنَّ أوَّل صفه يذكرها القرآن للمنافقين هي: إظهار الإيمان الكاذب الذى يشكّل الظاهره العامه للنفاق، حيث يقول تعالى: إذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ (١) و يضيف وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكَاذِبُونَ .

و هذه أوَّل علامه من علامات المنافقين، حيث اختلاف الظاهر مع الباطن، ففي الوقت الذى يظهر المنافقون الإيمان و يدعونه بألسنتهم، نرى قلوبهم قد خلت من الإيمان تماما.و هذه الظاهره تشكّل المحور الرئيسى للنفاق.

و ممَّا تجدر الإشارة إليه أنَّ الصدق و الكذب على نوعين: «صدق و كذب خبرى» و «صدق و كذب مخبرى»، يكون المعيار و المقياس فى القسم الأوَّل هو موافقته و عدم موافقته للواقع، بينما يكون المقياس فى القسم الثانى هو موافقته و عدم موافقته للاعتقاد، فإذا جاء الإنسان بخبر مطابق للواقع و لكنّه غير مطابق لاعتقاده، فهذا من الكذب المخبرى، و فى حاله مطابقتها لعقيدته فهو صادق.

و بناء على هذا فإنَّ شهاده المنافقين على رساله الرُّسول ليست من قبيل الكذب الخبرى لأنّها مطابقة للواقع، و لكنّها من نوع الكذب المخبرى إذ تخالف إعتقاد المنافقين. لذلك جاء التعبير القرآنى: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكَاذِبُونَ .

ص: ٣٤٩

بعبارة اخرى: إنّ المنافقين لم يريدوا الإخبار عن واقعيه رساله رسول الله و إنّما أرادوا الإخبار عن اعتقادهم برسالته، و هذا من الكذب المحض.

و من الملاحظ أنّ المنافقين استخدموا كلّ الطرق لتأكيد شهادتهم، غير أنّ الله كذبهم بشدّه و بنفس اللهجه التي أكَدوا فيها شهادتهم. و هذه إشارة إلى أنّ المنافقين يجب أن يواجهوا بنفس الشدّه التي يؤكّدون فيها على صدقهم.

و نشير هنا إلى أنّ «المنافق» في الأصل من مادّه (نـفـق) على وزن «نـفـخ» بمعنى النفوذ و التسرّب و «نـفـق» على وزن شـفـق «أى القنوت و التجاوبف التي تحدث في الأرض، و تستغل للتخفّي و التهربّ و الاستتار و الفرار.

و أشار بعض المفسّرين إلى أنّ بعض الحيوانات كالذئاب و الحرباء و الفأر الصحراوي، تتخذ لها غارين: الأول واضح تدخل و تخرج منه بصورة مستمرّه، و الآخر غير واضح و مخفى تهرع إليه في ساعات الخطر و يسمّى «النفقاء» (١).

و المنافق هو الذى اختار طريقا مشبوها و مخفيا لينفذ من خلاله إلى المجتمع، و يهرب عند الخطر من طريق آخر.

و تذكر الآية اللاحقه علامه الثانيه: **إِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**.

ذلك لأنهم يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر، و يضعون الموانع و العراقيل في طريق هدايه الناس، و ليس هناك أقبح من أن يمنع الإنسان غيره من الاهتداء.

«جَنَّة» من مادّه (جـنّ) (على وزن فنّ) و هى فى الأصل بمعنى إخفاء شىء من الحسّ، و يطلق هذا الاسم على (الجنّ) لأنّه مخلوق غير واضح، و يقال للدرع الذى يستر الإنسان من ضربات العدو فى لغه العرب (جَنَّة) و يقال أيضا للبساتين المكتّظه بالشجر بسبب استتار أراضيهـا فتسمّى (جَنَّة).

ص: ٣٥٠

على كل حال فإن من علامات المنافقين التستر باسم الله المقدس، وإيقاع الأيمان المغلظه لإخفاء وجوههم الحقيقيه، وإفلات أنظار الناس نحوهم. وبذلك يصدونهم عن الرشد (الصد عن سبيل الله).

و بهذا يتضح أنّ المنافقين فى حاله حرب دائمه ضدّ المؤمنين، وأنّ الظواهر التى يتخفون وراءها لا ينبغى أن تخدع أحدا.

و قد يضطرّ الإنسان أحيانا إلى اليمين، أو أنّ هذا اليمين سيساعده على إظهار أهميه الموضوع، بيد أنّه لا ينبغى أن يكون يمينا كاذبا أو بدون ضروره ولا موجب.

جاء فى الآيه (٧٤) من سوره التوبه: يَخْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ .

ذكر المفسرون مفهومين لمعنى التعبير ب فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الْأَوَّل:

الإعراض عن طريق الله، والآخر: منع الآخرين عن سلوك هذا الطريق. وقد لا يتعدّر الجمع بين المعنيين فى إطار الآيه (مورد البحث) غير أنّ لجوءهم إلى الحلف بالله كذبا يجعل المعنى الثانى أكثر مناسبه، لأنّ الهدف من القسم هو صدّ الآخرين و تضليلهم.

فمّرّه يقيمون مسجد (ضرار)، وعند ما يسألون ما هو هدفكم من ذلك؟ يحلفون أن لا هدف لهم سوى الخير كما فى الآيه (١٠٧) من سوره التوبه.

و مّرّه اخرى يعلنون استعدادهم للمشاركة فى الحروب القريبه السهله التى يحتمل الحصول على غنائم فيها، ولكن حينما يدعون إلى المشاركه فى معركه تنوء الصعبه و الشاقّه تجدهم يختلقون الحجج و يلقّون الأعذار، و يحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١).

ص: ٣٥١

و فى يوم الحشر يلجأ المنافقون لنفس الأسلوب فى الحلف، كما جاء فى الآيه ١٨ من سوره المجادله.

و بذلك يتّضح أنّ هذا السلوك صار جزءا من كيانهم، فهم لا يمتنعون عنه حتّى فى مشهد الحشر بين يدي الله تعالى.

و تتطرق الآيه اللاحقه إلى ذكر السبب الذى يقف وراء هذه الأعمال السيئه، حيث يقول تعالى: [□] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ .

و المقصود بالإيمان- كما يعتقد بعض المفسرين- هو الإيمان الظاهرى الذى يخفى وراءه الكفر.

و لكن يبدو أنّ الآيه تريد أن تقول: إنهم كانوا مؤمنين حقّا و ذاقوا طعم الإيمان و لمسوا حقّانيه الإسلام و القرآن، ثمّ انتهجوا منهج الكفر مع احتفاظهم بظاهر الإيمان أو الإيمان الظاهرى. و قد سلب الله منهم حسّ التشخيص و حرّمهم إدراك الحقائق، لأنّهم أعرضوا عن الحقّ، و أداروا له ظهورهم بعد أن شخّصوه و عرفوه حقّا.

و الواقع أنّ المنافقين مجموعتان:

المجموعه الاولى: كان إيمانها منذ البدايه ظاهريا و سوريا.

و الثانيه: كان إيمانها حقيقيا فى البدايه ثمّ ارتدّوا و لزمو طريق النفاق.

و الظاهر أنّ الآيه-مورد البحث- تتعرّض للمجموعه الثانيه.

و تشبه هذه الآيه (٧٤) من سوره التوبه التى تقول: [□] وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ .

على كلّ حال فإنّ عدم قدرتهم على إدراك الحقائق الواضحه تعتبر علامه ثالثه من علامات نفاقهم.

و من الواضح أنّهم غير مجبرين على ذلك، لأنّهم قد هيئوا مقدّماته بأنفسهم.

و توضّح الآيه اللاحقه علامات المنافقين بشكل أكثر وضوحا، إذ يقول تعالى: [□] وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ فَهُمْ يَمْتَعُونَ بظواهر جميله و أجسام

لطيفه.

وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ

لأنه ينطوى على شيء من التحسين و العذوبه.

و فى الوقت الذى يتأثر الرسول بحديث بعضهم- كما يبدو من ظاهر التعبير- فكيف بالآخرين؟! هذا فيما يخص ظاهرهم، أما باطنهم ف كَانَتْهُمْ خُشْبٌ مُسَنَّدَةٌ .

فأجسامهم خاليه من الروح، و وجوههم كالحه، و كيانههم خاو منحور من الداخل، ليس لهم أيّ إرادة و لا- يتمتعون بأيّ استقلاليه (كالأخشاب المسندة) المكّده.

روى بعض المفسرين فى صفه رئيس المنافقين (عبد الله بن أبى) «كان عبد الله بن أبى رجلا جسيما صبيحا فصيحاً ذلق اللسان، و قوم من المنافقين فى مثل صفته، و هم رؤساء المدينه، و كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فيستندون فيه، و لهم جهازه المناظره و فصاحه الألسن، فكان النبى و من حضر يعجبون بهياكلهم و يسمعون إلى كلامهم» (١).

و كان هؤلاء يتميزون بالضعف و الخواء فى داخلهم، لا يعرفون التوكل و الاعتماد على الله و لا على أنفسهم، فهم كما يصفهم القرآن الكريم فى آيه اخرى:

يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ

يسيطر عليهم الخوف و الرعب و سوء الظنّ، و تغمر أرواحهم النظرة السوداء السيئه.. تجدهم فى خوف دائم من ظلمهم و خيانتهم حتّى اعتبر ذلك علامه مميزه لهم (الخائن خائف).

و قد نبّه القرآن الكريم فى نهايه الآيه قائلا: هُمُ الْعَدُوُّ فَاخْذَرْهُمْ أَى هَمِّ الْأَعْدَاءِ الْوَاقِعُونَ.

ص: ٣٥٣

و يضيف قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ أى كيف ينحرفون عن الحقّ.

و لا يريد القرآن بهذا التعبير الإخبار، و إنّما يريد لعنهم و ذمّهم بشدّه، و هو أشبه بالتعابير التى يستخدمها الناس فى ذمّ بعضهم البعض.

ص: ٣٥٤

إشارة

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)

سبب النزول

ذكرت كتب التاريخ و التفسير سببا مسهبا لنزول هذه الآيات، وجاء في الكامل في التاريخ: أنه بعد غزوه بنى المصطلق ازدحم الناس على الماء، وردت وارده الناس و مع عمر بن الخطاب أجبر له من بنى غفار يقال له: جهجاه، فازدحم

هو و«سنان الجهني» حليف بنى عوف من الخزرج على الماء فاقتتلا- فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار. و صرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين.

فغضب عبد الله بن أبي سلول و عنده رهط من قومه فيهم «زيد بن أرقم» غلام حدث السن فقال: أو قد فعلوها؟ قد كاثرونا في بلادنا، أما و الله (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل) ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم ببلادكم و قاسمتموهم أموالكم، و الله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم.

فسمع ذلك زيد فمشى به إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و ذلك عند فراغ رسول الله من غزوه، فأخبره الخبر و عنده عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله مر به عباد بن بشر فليقتله،

فقال رسول الله: كيف إذا تحدت الناس أن محمدا قتل أصحابه؟ و لكن ائذن بالرحيل.

فارتحل في ساعه لم يكن يرتحل فيها ليقطع ما الناس فيه، فلقيه أسيد بن حضير فسلم عليه و قال: يا رسول الله، لقد رحت في ساعه لم تكن تروح فيها؟ فقال: أو ما بلغك ما قال عبد الله بن أبي؟ قال: و ما ذا قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل. قال أسيد: فأنت و الله تخرجه إن شئت، فإنك العزيز و هو الذليل.

ثم قال: يا رسول الله، ارفق به فو الله لقد من الله بك و إن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا.

و سمع عبد الله بن أبي أن زيدا أعلم النبي قوله فمشى إلى رسول الله فحلف بالله ما قلت ما قال و لا تكلمت به، و كان عبد الله في قومه شريفا، فقالوا: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أخطأ.

و أنزل الله: إِذَا جَاءَكَ الْمُتَأَفِّقُونَ تصديقا لزيد. فلما نزلت أخذ رسول الله بأذن زيد و قال: هذا الذي أوفى الله بأذنه، و بلغ ابن عبد الله بن سلول ما كان من أمر أبيه،

فأتى النبي فقال: يا رسول الله، بلغنى أنك تريد قتل أبى، فإن كنت فاعلا فمرنى به، فأنا أحمل إليك رأسه، وأخشى أن تأمر غيرى بقتله فلا تدعنى نفسى نظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله، فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار.

فقال النبى: بل نرفق به و نحسن صحبته ما بقى معنا، فكان بعد ذلك إذا أحدث حدثا عاتبه قومه و عَنَّفوه (١).

التفسير

اشاره

علامات اخرى للمنافقين:

تأتى هذه الآيات لتكمل توضيح علامات المنافقين التى بدأتها الآيات التى سبقتها، يقول تعالى: إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ .

لقد وصل بهم الكبر و الغرور مبلغا حرمهم من استثمار الفرص و الاستغفار و التوبه و العوده إلى طريق الحق و الصواب. و كان «عبد الله بن أبى» هو النموذج البارز لهذا التكبر و الطغيان، و قد تجسّد ذلك فى جوابه على من طلب منه الذهاب إلى رسول الله للاستغفار، عند ما قال «لقد أمرتمونى أن أؤمن فأمنت، و قلت: أعط الزكاه فأعطيت، لم يبق بعد إلا أن تأمرونى بأن أسجد لمحمد».

إنَّ حبَّ المنافقين لأنفسهم و عبادتهم لذواتهم، جعلتهم أبعد ما يكونون عن الإسلام الذى يعنى التسليم و الرضا و الاستسلام الكامل للحقّ.

«لووا» من مادّه (لوى) و هى فى الأصل بمعنى برم الحبل، و تأتى أيضا بمعنى إمالة الرأس و هزّه إعراضا و استكبارا.

ص: ٣٥٧

«يصدّون» لها معنيان كما أوضحنا ذلك سابقاً، (المنع) و(الإعراض) وهذا المعنى أكثر انسجاماً مع الآية-مورد البحث-بينما يكون الأول أى (المنع) منسجماً مع الآية الاولى.

و من أجل أن لا يبقى هناك أى إبهام أو التباس قال تعالى: **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** .

بعبارة اخرى: إنّ استغفار النبي ليس علّه تامّه للمغفره، بل هي مقتضى تؤثّر حينما تكون الأرضيه مهتأه، أى عند ما يتوبون بصدق و إخلاص و يتخذون طريقاً آخر، و يهجرون الكذب و الغرور، و يستسلمون للحقّ، هنالك يؤثّر استغفار الرسول و تقبل شفاعته.

و عبّرت الآية (٨٠) من سوره التوبه بما يشبه ذلك حينما وصفت قسماً آخر من أهل النفاق، إذ قال تعالى: **إِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** .

و من الواضح أنّ العدد (سبعين) ليس هو المقصود، بل المقصود أنّ الله لن يغفر لهم مهما استغفر لهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم.

و ليس كلّ المذنبين من الفسّاق، فقد جاء الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم لإنقاذ المذنبين، فالمقصود إذن هم تلك المجموعه من الفسّاق أو المذنبين الذين يصرون على ذنوبهم و يركبون رؤوسهم.

و الشاهد الآخر الذى يذكره القرآن كعلامه لهم واضح جداً، هو قوله تعالى:

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا

فلا تعطوا المسلمين شيئاً من أموالكم و إمكانياتكم لكي يتفرّقوا عن رسول الله.

وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ

إنّ هؤلاء فقدوا الوعى و البصيره، و لم يعرفوا أنّ كلّ ما لدى الناس إنّما هو من الله، و كلّ الخلق عياله. و أن تقاسم الأنصار لأموالهم مع المهاجرين إنّما هو من

دواعى الافتخار والاعتزاز، ولا ينبغي أن يمتنوا به على أحد.

ثم يقول تعالى فى إشاره اخرى إلى مقاله اخرى سيئه من مقالاتهم يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .

و هذا نفس الكلام الذى أطلقه «عبد الله بن أبى»، ويريدون من ورائه أنهم أهل المدينة الأصليون الذين سيخرجون منها الرسول وأصحابه من المهاجرين، بعد عودتهم من غزوه بنى المصطلق التى مرّت بالإشارة إليها.

و رغم أن هذا الحديث صدر عن رجل واحد، لكنّه كان لسان حال المنافقين جميعاً، وهذا ما جعل القرآن يعبر عنهم بشكل جماعى «يقولون...» فيردّهم ردّاً حازماً إذ يقول: وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

و لم يكن منافقو المدينة وحدهم الذين رووا هذا الكلام، بل سبقهم إلى ذلك رؤساء قريش عند ما قالوا: (سينتهى أمر هذه المجموعه القليله الفقيره من المسلمين إذا حاصرناهم اقتصادياً أو أخرجناهم من مكّه).

و هكذا نرى اليوم الدول المستكبره و هى تحذّر الشعوب التى ترفض الخضوع لسيطرتها، بأنّها تملك الدنيا و خزائنها، فان لم تخضع لها تحاصر اقتصادياً لتركيعةها.

و هؤلاء هم الذين طبع على قلوبهم و اتخذوا منهجاً واحداً على مدى التاريخ، و ظلّوا أنّ ما لديهم باق، و لم يعلموا أنّ الله قادر على إزالته و إزهاقه بلمحه بصر.

و هذا النمط من التفكير (رؤيه أنفسهم أعزّاء و الآخرين أذلاء و توهم أنّهم أصحاب النعمه و الآخرون محتاجون إليهم) هو تفكير نفاقى متولّد من التكبر و الغرور من جهة، و توهم الاستقلال عن الله عزّ و جلّ من جهة اخرى، فلو أنّهم أدركوا حقيقه العبوديه و مالكيه الله لكلّ شىء فمن المحال أن يقعوا فى ذلك التوهم الخطير..

و قد عبّرت عنهم الآية السابقه بقولها: لَا يَفْقَهُونَ و هنا قالت: لَا يَعْلَمُونَ .

و يمكن تفسير الاختلاف فى التعبير إلى ضرورات البلاغة، أو أنه إشاره إلى صعوبة تفهّم أن الله مالك خزائن السموات و الأرض بالشكل الحقيقى، فى الوقت الذى لا يحتاج إدراك أن لله العزّه و لرسوله و للمؤمنين إلى شىء من التعمّق و الدقّه.

بحوث

إشارة

١- للمنافقين علامات عشر

يمكن أن نجمل علامات المنافقين التى ذكرتها الآيات الكريمه بعشر علامات:

١- الكذب الصريح و الواضح وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ .

٢- الاستفاده من الحلف الكاذب لتضليل الناس اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً .

٣- عدم إدراك الواقع بسبب إعراضهم عن جادّه الصواب و طريق الهدايه بعد تشخيصه لَا يَفْقَهُونَ .

٤- تمتّعهم بظواهر مغريه و ألسنه ناعمه تخفى وراءها بواطن مظلّمه خاويه، فارغه، منحوره وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَعْجَبُكَ أَجْسَامُهُمْ .

٥- الحياه الفارغه فى المجتمع، و رفضهم الخضوع لمنطق الحقّ، فهم كالخشبه اليابسه كَانَتْهُمْ خُشْبٌ مُسَنَدَةٌ .

٦- يغلب عليهم سوء الظنّ و الخوف و الترقّب لما ينطوون عليه من نزعه خيانيه يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ .

٧- استهزاؤهم بالحقّ و استهتارهم به لَوَّؤَا رُءُوسَهُمْ .

٨- الفسق و الفجور و ارتكاب المعاصى و الذنوب إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

٩- يتملّكهم شعور بأنّ لهم كلّ شىء، و كلّ الناس فى حاجه ماسّه إليهم هُمْ

الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا

١٠- يتصورون و يتخيلون دائما أنهم أعزاء، بينما الآخرون أذله ليُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .

هذا علما بأنّ علامات المنافقين لا تنحصر بهذه العلامات، فقد وردت علامات اخرى فى القرآن الكريم و نهج البلاغه و يمكن اكتشاف علامات اخرى من خلال معاشرتهم. و يمكن اعتبار العلامات العشر المذكوره أهم تلك العلامات.

و صفهم

أمير المؤمنين فى إحدى خطب نهج البلاغه بقوله: «أوصيكم عباد الله بتقوى الله و احذركم أهل النفاق، فإنهم الضالون المضلون، و الزالون المزلون، يتلونون ألوانا و يفتنون افتنانا و يعمدونكم بكل عماد، و يرصدونكم بكل مرصاد.

قلوبهم دويّه و صفاحهم نقيّه، يمشون الخفاء و يدبّون الضراء، و صفهم دواء و قولهم شفاء و فعلهم الداء العياء، حسده الرخاء و مؤكّدو البلاء و مقنطو الرجاء، لهم بكلّ طريق صريع و إلى كلّ قلب شفيح و لكلّ شجو دموع، يتقارضون الشاء و يتراقبون الجزاء، و إن سألوا ألحفوا، و إن عدلوا كشفوا، و إن حكموا أسرفوا، قد أعدوا لكلّ حقّ باطلا، و لكلّ قائم مائلا، و لكلّ حى قاتلا، و لكلّ باب مفتاحا، و لكلّ ليل مصباحا، يتوصّلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم، و ينفقوا به أعلامهم، يقولون فيشبهون و يصفون فيموهون، قد هونوا الطريق و أضلّعوا المضيق، فهم لمّ الشيطان و حمه النيران:

أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ .»

٢- خطر المنافقين

١- يمثّل المنافقون- كما ورد فى مقدّمه البحث- الخطر الأعظم الذى يواجه المجتمع، و ذلك لكونهم يعيشون داخل المجتمعات، و على اطلاع بكافّه الأسرار.

٢- لا يمكن التعرّف عليهم بسهولة، و يظهر من الحبّ و الصداقه بحيث لا

ص: ٣٤١

يستطيع الإنسان أن يرى ما خلفها من البغض و الأحقاد.

٣- عدم افتضاح وجوههم الحقيقه للناس، الأمر الذى يجعل مواجهتهم بشكل مباشر عملا صعبا.

٤- امتلاكهم ارتباطات عديده بالمؤمنين (ارتباطات سببيه و نسبيه و غيرها).

٥- يطعنون المجتمع بشكل مباغت و من الخلف.

كلّ ذلك و غيره يجعل الخسائر التى تلحق بالمجتمع الإسلامى بسببهم كثيره إلى الحدّ الذى لا يمكن تلافيها أحيانا. لهذا ينبغى وضع خطط حكيمه و دقيقه لدفع شرّهم، و إنقاذ الأّمه من أحقادهم.

جاء فى حديث عن الرّسول الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم: «إنّى لا أخاف على امتى مؤمنا و لا مشركا، أمّا المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، و أمّا المشرك فيخزيه الله بشركه، و لكنّى أخاف عليكم كلّ منافق عالم اللسان، يقول ما تعرفون و يفعل ما تنكرون» (١).

مرّت بحوث مفصّله حول المنافقين فى التّفسير الأمثل ذيل الآيات ٨-١٦- سورة البقره.

و ذيل الآيات ٦٠ إلى ٨٥ سورة التوبه.

و ذيل الآيات ١٢-١٧ سورة الأحزاب.

و ذيل الآيه ٤٣-٤٥ سورة التوبه.

و الخلاصه أنّ القرآن الكريم اهتمّ بهذه المجموعه اهتماما خاصّا أكثر من اهتمامه بأيّه فئه اخرى.

٣- المنافق فارغ و منحور

تهبّ العواصف على مدى الحياه و تتلاطم الأمواج العاتيه، و يتمسّك

ص: ٣٦٢

المؤمنون بإيمانهم، و يضعون الخطط الحكيمه للنجاه من ذلك، فمزمه بالكز و الفرّ و اخرى بالهجمات المتتاليه، و يبقى المنافق معرّضا للعواصف لا يقوى على مصارعته فينكسر و يتلاشى.

جاء فى حديث عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم «مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله، و لا يزال المؤمن يصيبه البلاء، و مثل المنافق كمثل شجرة الأرز، لا تهتزّ حتّى تستحصد» (١).

و تعنى «العزّه» فى اللغة العربيه القدره و السلطان غير القابل للتصدّع و التدهور، و قد جعل القرآن الكريم العزّه من الأمور التى يختصّ بها الله تعالى، كما فى الآيه العاشره من سوره فاطر حيث يقول: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً .

ثم يضيف القرآن الكريم قائلا: وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .

فأولياء الله و أحبّاءه يقتبسون نورا من نور الله فىأخذون عزّا من عزّته، و لهذا فإنّ روايات إسلاميه عديده حذّرت المؤمنين من التنازل عن عزّتهم و نهتهم عن تهيأه أسباب الذلّه فى أنفسهم، و دعّتهم بالحاح إلى الحفاظ على هذه العزّه.

فقد ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآيه وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .

قال عليه السّلام «المؤمن يكون عزيزا و لا يكون ذليلا.. المؤمن أعزّ من الجبل، إنّ الجبل يستفلّ منه بالمعاول و المؤمن لا يستفلّ من دينه شىء» (٢).

و

فى حديث آخر له عليه السّلام قال فيه: «لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه. قيل له:

و كيف يذلّ نفسه؟ قال عليه السّلام: يتعرّض لما لا يطيق» (٣).

ص: ٣٦٣

١- ١) - صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٦٣.

٢- ٢) - نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٣٦، عن الكافى.

٣- ٣) - المصدر السابق.

فى حديث ثالث عن الإمام الصادق عليه السلام جاء فيه: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَوَّضَ إِلَى الْمُؤْمِنِ أُمُورَهُ كُلَّهَا، وَلَمْ يَفَوِّضْ إِلَيْهِ أَنْ يَذِلَّ نَفْسَهُ، أَلَمْ تَرَ قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَاهُنَا: وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ. وَ الْمُؤْمِنُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَزِيزًا وَلَا يَكُونَ ذَلِيلًا» (١).

كُنَّا قَدْ تَطَرَّقْنَا إِلَى بَحْثِ هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي ذِيلِ الْآيَةِ (١٠) سُورَةِ فَاطِرٍ، فِي هَذَا التَّفْسِيرِ.

ص: ٣٦٤

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)

التفسير

اشاره

لا تلهكم أموالكم و لا أولادكم!

إِنَّ حَبَّ الدُّنْيَا وَالتَّكَالِبَ عَلَى الْأَمْوَالِ وَ الْإِنْشِدَادَ إِلَى الْأَرْضِ، مِنْ الْأَسْبَابِ الْمَهْمَةِ الَّتِي تَدْفَعُ بِاتِّجَاهِ النِّفَاقِ، وَ هَذَا مَا جَعَلَ الْقُرْآنَ يُحَذِّرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَغْبَةِ الْوُقُوعِ فِي هَذِهِ الْمَصِيدَةِ الْخَطِيرَةِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

و رغم أنَّ الأموال و الأولاد من النعم الإلهية التي يستعان بها على طاعة الله

و تحصيل رضوانه، لكنّها يمكن أن تتحوّل إلى سدّ يحول بين الإنسان و خالقه إذا ما تعلّق به الإنسان بشكل مفرط.

جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام يجسّد هذا المعنى بأوضح وجه «ما ذئبان ضاريان في غنم ليس لها راع، هذا في أولها و هذا في آخرها، بأسرع فيها من حبّ المال و الشرف في دين المؤمن» (١).

اختلف المفسّرون في معنى «ذكر الله» ففسّرها البعض بأنّه الصلوات الخمس، و قال آخرون: إنّ شكر النعمة و الصبر على البلاء و الرضى بالقضاء، و قيل: إنّ الحجّ و الزكاة و تلاوة القرآن، و قيل أنّه كلّ الفرائض.

و يبدو أنّ ل(ذكر الله) معنى واسعاً يشمل كلّ تلك المصاديق.

و لهذا وصف القرآن الكريم أولئك الذين يرحلون عن الدنيا دون أن يستثمروا نعم الله في بناء الحياه الخالده و تعمير الآخرة بأنهم «الخاسرون» فقد خرجوا من هذه الدنيا و هم منشغلون بالأموال و الأمور الزائلة التي لا بقاء و لا دوام لها.

بعد هذا التحذير الشديد يأمر الله تعالى بالإنفاق في سبيله حيث يقول:

وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ

(٢)

و الأمر بالإنفاق هنا يشمل كافّه أنواع الإنفاق الواجبه و المستحبّه، رغم قول البعض بأنّها تعنى التعجيل في دفع الزكاة.

و الطريف أنّه جاء في ذيل الآية فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ لبيان تأثير

ص: ٣٦٦

١- ١) -أصول الكافي، ج ٢، باب حبّ الدنيا، حديث ٣.

٢ - ٢) - يلاحظ في الآيه أعلاه: أنّ «أَصْدَقَ» منصوب و «أَكُنْ» مجزوم، و كلاهما معطوف على الآخر، لأنّ «أَكُنْ» عطوف على محلّ «أَصْدَقَ» و في التقدير هكذا: «إنّ أخرتني أصدّق و أكن من الصالحين».

الإِنْفَاقُ فِي صَلَاحِ الْإِنْسَانِ، وَ إِنْ فَسَّرَهُ الْبَعْضُ بِأَنَّهُ أَدَاءُ «مِرَاسِمِ الْحَيِّ» كَمَا عَبَّرَتْ بِعُضِّ الرِّوَايَاتِ عَنْ نَفْسِ هَذَا الْمَعْنَى فَهُوَ مِنْ قِبَلِ ذِكْرِ الْمَصْدَاقِ الْبَارِزِ.

وَأَرَادَ الْقُرْآنُ أَنْ يُلْفِتَ الْأَنْظَارَ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ بَعْدَ الْمَوْتِ، بَلْ عِنْدَ الْمَوْتِ وَالْإِحْتِضَارِ، إِذْ قَالَ: مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ .

وَقَالَ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ لِيُؤَكِّدَنَّ أَنَّ جَمِيعَ النِّعَمِ -وَلَيْسَ الْأَمْوَالُ فَقَطْ- هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهَا سَتَعُودُ إِلَيْهِ عَمَّا قَرِيبٍ، فَلَا مَعْنَى لِلْبَخْلِ وَالْحِرْصِ وَالتَّقْتِيرِ.

عَلَى أَى حَالٍ فَإِنَّ هُنَاكَ عِدَدًا كَبِيرًا مِنَ النَّاسِ يَضْطَرُّونَ كَثِيرًا حِينَمَا يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى وَشَكِّ الْإِنْتِقَالِ إِلَى عَالَمِ الْبَرَزَخِ، وَالرَّحِيلِ عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَتَرَكَ كُلُّ مَا بَنَوْا فِيهَا مِنْ أَمْوَالٍ طَائِلَةٍ وَ مَلَاذٍ وَاسِعَةٍ، دُونَ أَنْ يَسْتَتِمِرُوا فِي تَعْمِيرِ الْآخِرَةِ.

عِنْدَئِذٍ يَتَذَكَّرُ هَؤُلَاءِ وَيَطْلُبُونَ الْعُودَةَ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَهْمَا كَانَ الرَّجُوعُ قَصِيرًا وَ عَابِرًا، لِيَعْوِضُوا مَا فَاتَ، وَ يَأْتِيَهُمُ الْجَوَابُ وَ لَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا .

وَفِي الْآيَةِ ٣٤ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ .

ثُمَّ تَنْتَهِي الْآيَةُ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ فَقَدْ سُجِّلَ كُلُّ شَيْءٍ عَنْكُمْ وَ سَتَجِدُونَهُ مُحَضَّرًا مِنْ ثَوَابٍ وَ عِقَابٍ.

تعقيب

إشارة

١-طريقه التغلب على الاضطرابات و القلق

جاء في أحوال الشيخ و العالم الكبير «عبد الله الشوشترى» و هو من معاصري العلّامة «المجلسي» أنّه كان يحبّ ولده كثيرا، فاتَّفَقَ أَنَّهُ مَرَضٌ مَرَضًا شَدِيدًا، فَلَمَّا حَضَرَ أَبُوهُ الْمَرْحُومُ الشَّيْخُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى الْمَسْجِدِ لِأَدَاءِ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ كَانَ مَشْدُوهَ

ص: ٣٦٧

البال مشّت الشعور-و حينما بلغ قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي سوره المنافقون** أخذ يكررها مرّات عديده، و حينما سئل بعد الفراغ عن سبب ذلك قال: لقد تذكّرت ولدى حينما بلغت هذا المقطع من السوره، فجاهدت نفسى و روّضتها بتكرار هذه الآيه إلى الحدّ الذى اعتبرته ميّتا و كأنّ جثمانه أمامى فانصرفت من الآيه (١).

٢- النفاق العقائدى و النفاق العملى

للفنفاق معنى واسع يشمل كلّ أنواع اختلاف الظاهر عن الباطن، و مصداقه البارز هو النفاق العقائدى الذى تتحدّث عنه سوره المنافقون.

أمّا النفاق العملى فهو وصف لحاله بعض الناس المؤمنين بالإسلام حقّا، و لكنّهم يرتكبون أعمالا تناقض اعتقادهم، كالكذب و نقض العهد و خيانه الأمانه.

جاء فى روايه عن الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم «ثلاث من كنّ فيه كان منافقا، و إن صام و صلّى و زعم أنّه مسلم: من إذا اتّمن خان، و إذا حدّث كذب، و إذا وعد أخلف» (٢).

و

فى حديث آخر عن الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم «ما زاد خشوع الجسد على ما فى القلب فهو عندنا نفاق» (٣).

و

فى حديث آخر عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام «إنّ المنافق ينهى و لا ينتهى، و يأمر بما لا يأتى» (٤).

اللهمّ، إنّ دائره النفاق واسعه، و لا نجاه لنا منه دون لطفك و رحمتك فأعنا

ص: ٣٦٨

١-١) -سفينة البحار، ج ٢، ص ١٧١.

٢-٢) -سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٠٥.

٣-٣) -اصول الكافى ج ٢ (باب صفه النفاق حديث ٦).

٤-٤) -نفس المصدر، حديث ٣.

على ذلك.

ربّنا، اجعلنا من الذين لا تأكلهم الحسره عند توديعهم لهذه الدنيا.

اللهم، إنّ العزّه لك و لأوليائك، و خزائن السموات و الأرض لك لا لغيرك.

فأنزل علينا من بركاتك، و لا تحرمنا من فيض خزائنك.

أمين يا ربّ العالمين.

نهايه سورہ المنافقين

ص: ٣٦٩

مدنیّه و عدد آیاتها ثمانی عشره آیه

ص: ۳۷۱

محتوى السوره:

هناك خلاف شديد بين المفسرين فى مكان نزول هذه السوره، هل هو المدينه أو مكّه؟ علما بأنّ الرأى المشهور هو أنّ السوره مدينه. وقال آخرون: إنّ الآيات الثلاث الأخيره مدينه و الباقي مكيه.

و من الواضح أنّ سياق الآيات الأخيره فى هذه السوره ينسجم مع السور المدينه، و صدرها أكثر انسجاما مع السور المكيه، و لكننا نرى أنّها مدينه طبقا للمشهور.

نقل «عبد الله الزنجاني» فى كتابه القَيِّم (تاريخ القرآن) عن فهرس «ابن النديم» أنّ سوره التغابن هى السوره المدينه الثالثه و العشرون. و نظرا لأنّ مجموع السور المدينه يبلغ ٢٨ سوره فستكون هذه السوره من أواخر السور المدينه.

و يمكن تقسيم هذه السوره من حيث المواضيع التى احتوتها إلى عدّه أقسام:

١- بدايه السوره التى تبحث فى التوحيد و صفات و أفعال الله تعالى.

٢- حثّ الناس على ملاحظه أعمالهم ظاهرا و باطنا، و أن لا يغفلوا عن مصير الأقوام السابقين.

٣- فى قسم آخر من السوره يجرى الحديث عن المعاد، و أنّ يوم القيامه «يوم تغابن»، تغبن فيه جماعه و تفوز فيه جماعه، و اسم السوره مشتقّ من هذا المفهوم.

٤-الأمر بطاعه الرسول صَلَّى الله عليه وآله وسلم و تحكيم قواعد النبوه.

٥-و يأمر الله تبارك و تعالى فى القسم الأخير من السوره بالإئفاق فى سبيله، و يحذر من الانخداع بالأموال و الأولاد و الزوجات.و تختم السوره بذكر صفات الله تبارك و تعالى.

فضيله تلاوه السوره:

فى حديث عن الرسول صَلَّى الله عليه وآله وسلم «من قرأ سوره التغابن رفع عنه موت الفجأه» (١).

و

عن الإمام الصادق عليه السلام «من قرأ سوره التغابن فى فريضه كانت شفيعه له يوم القيامه،و شاهد عدل عند من يجيز شهادتها،ثم لا تفارقه حتى يدخل الجنه» (٢).

ص: ٣٧٤

١- (١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٢٩٦.

٢- (٢) -المصدر السابق.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسَبِّحُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَنَادُوا بِطَغْوَاهُمْ أَتَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٥)

التفسير

اشاره

يعلم ما تخفى الصدور:

تبدأ هذه السورة بتسبيح الله، الله المالك المهيمن على العالمين القادر على كل شيء يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض و يضيف له الملك و الحاكميه

على عالم الوجود كافه، و لهذا السبب: وَلَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

و لا حازه للحديث عن تسبيح المخلوقات جميعا لله الواحد الأحد بعد أن تطرّقنا إلى ذلك فى مواضع عديده، و هذا التسبيح ملازم لقدرته على كل شىء و تملكه لكل الأشياء، ذلك لأنّ كل أسرار جماله و جلاله مطويه فى هذين الأمرين .

ثمّ يشير تعالى إلى أمر الخلقه الملازم لقدرته، إذ يقول تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ أَعْطَاكُمْ نِعْمَةَ الْحَرِيهِ وَ الْإِخْتِيَارَ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .

و بناء على هذا فإنّ الامتحان الإلهى يجد له فى هذا الجو مبرّرا كافيا و معنى عميقا وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

ثمّ يوضّح مسأله الخلقه أكثر بالإشاره إلى الهدف منها، إذ يقول فى الآيه اللاحقه: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ .

فإنّ هذا الخلق الحقّ الدقيق ينطوى على غايات عظيمه و حكمه بالغه، حيث يقول تعالى فى الآيه (٢٧) من سوره ص: وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِإِذْنِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا .

ثمّ يتحدّث القرآن الكريم عن خلق الإنسان، و يدعونا بعد آيات الآفاق إلى السير فى آفاق الأنفس، يقول تعالى: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ . لقد صوّر الإنسان بأحسن الصور و أجملها، و جعل له من المواهب الباطنيه الفكرية و العقلية ما جعل العالم كلّه ينطوى فيه. و أخيرا تنتهى الأمور إليه تعالى وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

نعم، إنّ هذا الإنسان الذى هو جزء من عالم الوجود، ينسجم من ناحيه الخلقه و الفطره مع سير هذا العالم أجمع و غايه الوجود، حيث يبدأ من أدنى المراتب و يرتقى إلى اللامحدود حيث القرب من الحقّ تبارك و تعالى .

جملة: فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ يراد بها الإشاره إلى المظهر الخارجى و المحتوى الداخلى على حدّ سواء. و أنّ التأمل فى خلق الإنسان و صورته، يظهر مدى قدره

التي خلق بها البارئ هذا المخلوق الرائع،الذى امتاز على كل ما سواه من المخلوقات.

و لأنَّ الإنسان خلق لهدف سام عظيم،فعليه أن يكون دائما تحت إرادة البارئ و ضمن طاعته،فإنَّه يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَ مَا تُغْلِبُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

تجسّد هذه الآيه علم الله اللامتناهى فى ثلاثه مستويات:علمه بكلّ المخلوقات،و ما فى السموات و الأرض.

ثمّ علمه بأعمال الإنسان كافّه،سواء أضمرها أو أظهرها.

و الثالث علمه بتيّه الإنسان و عقائده الداخليه التى تحكم قلب الإنسان و روحه.

و لا- شكّ أنّ معرفه الإنسان بهذا العلم الإلهي ستترك عليه آثارا تربويه كثيره، و تحذّره بأنّ جميع تحرّكاته و سكناته و كلّ تصرّفاتة و نيّاته،و فى أى مكان كانت، إنّما هى فى علم الله و تحت نظره تبارك و تعالى.و ممّا لا شكّ فيه أنّ ذلك سيهيئ الإنسان للحركه نحو الرقى و التكامل.

ثمّ يلفت القرآن الكريم الانتباه إلى أهمّ عامل فى تربيّه الإنسان و تعليمه، و هو الاتّعاظ بمصارع القرون و ما جرى على الأقوام السالفه حيث يقول: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

ألم تمرّوا على مدنهم المهدّمه و آثارهم المدمّره فى طريقكم إلى الشام و الأماكن الاخرى،فتروا بأمّ أعينكم نتيجه كفرهم و ظلمهم.اقرأوا أخبارهم فى التاريخ،بعضهم أخذته العواصف،و آخرون أتى عليهم الطوفان،و كان هذا عذابهم فى الدنيا و فى الآخره لهم عذاب أشدّ.

ثمّ تشير الآيه اللاحقه إلى سبب هذه العاقبه المؤلمه و هو الغرور و التكبر على الأنبياء: ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ

و بهذا المنطق عصوا و كفروا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا و الله فى غنى عن طاعتهم وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ فطاعتهم لأنفسهم و عصيانهم عليها وَ اللَّهُ غَنَى حَمِيدٌ .

و لو كفرت كل الكائنات لما نقص من كبريائه تعالى شىء، كما أنّ طاعتهم لا تزيد شيئا. نحن الذين نحتاج إلى كل هذه التعليمات و المناهج التربويه.

عباره وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ مطلقه تبين استغناء البارئ عن الوجود كله، و عدم حاجته إلى شىء أبدا، بما فى ذلك إيمان الناس و طاعتهم، كى لا يتصوروا-خطأ- أنّ الله عند ما يؤكّد على الطاعه و الإيمان فبسبب حاجه أو نفع يصيبه سبحانه.

و قال آخرون فى معنى عباره اسْتَغْنَى اللَّهُ بِأَنَّهَا إشاره إلى الحكم و الآيات و المواعظ التى أعطاهها الله تعالى إِيَّاهُمْ، إذ لا يحتاجون بعدها إلى شىء.

اشاره

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذِكْرَكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ
الَّذِي أُنْزِلَ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفَرْ عَنْهُ
سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدَاً ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)

التفسير

اشاره

يوم التغابن و ظهور الغبن:

في أعقاب تلك الآيات التي بحث مسأله الخلقه و الهدف من الخلق، جاءت هذه الآيات لتكمل البحث الذى يطرح قضيه المعاد
و القيامه، حيث يقول تعالى:

ص: ٣٧٩

«زعم» من مادّه (زعم) -على وزن طعم- تطلق على الكلام الذى يحتمل أو يتيقن من كذبه، و تاره تطلق على التصور الباطل و فى الآيه المراد هو الأول.

و يستفاد من بعض كلمات اللغويين أنّ كلمه «زعم» جاءت بمعنى الإخبار المطلق، بالرغم من أنّ الاستعمالات اللغويه و كلمات المفسرين تفيد أنّ هذا المصطلح قد ارتبط بالكذب ارتباطا وثيقا، و لذلك قالوا «لكلّ شىء كنيه و كنيه الكذب، الزعم».

على أى حال فإنّ القرآن الكريم يأمر الرّسول الأكرم فى أعقاب هذا الكلام بقوله: قُلْ بَلَىٰ وَ رَبِّي لَبَعَثُ ثُمَّ لَتَنبُؤَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَ ذَلِكْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

إنّ أهمّ شبهه يتمسّك بها منكرو المعاد هى كيفيه إرجاع العظام النخره التى صارت ترابا إلى الحياه مرّه اخرى، فتجيب الآيه الكريمه: ذَلِكْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لأنّهم فى البدايه كانوا عدما و خلقهم الله، فإعادتهم إلى الوجود مرّه أخرى أيسر..

بل احتمال بعضهم أنّ القسم ب(و ربّى) هو بحدّ ذاته إشاره لطيفه إلى الدليل على المعاد، لأنّ ربوبيه الله تعالى لا بدّ أن تجعل حركه الإنسان التكامليه حركه لها غايه لا تنحصر فى حدود الحياه الدنيا التافهه.

بتعبير آخر إنّنا لو لم نقبل بمسأله المعاد، فإنّ مسأله ربوبيه الله للإنسان و رعايته له لا يبقى لها مفهوما البته.

و يعتقد البعض أنّ عبارته وَ ذَلِكْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ترتبط بإخبار الله تعالى عن أعمال البشر يوم القيامة، التى جاءت فى عبارته السابقه، و لكن يبدو أنّها ترجع إلى المضمون الكلى للآيه. (أصل البعث و فرعه) الذى هو الإخبار عن الأعمال التى تكون مقدّمه للحساب و الجزاء.

و لا بدّ أن تكون النتيجة كما قرّرتها الآيه اللاحقه و أنّه بعد أن ثبت أنّ المعاد حقّ: فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

و بناء على ذلك يأمرهم البارئ أن يعدوا أنفسهم بالإيمان و العمل الصالح، و يستعدّوا للبعث و يوم الجزاء.

و الإيمان هنا لا بدّ أن يركّز على ثلاثه اصول:(الله)و(الرّسول)و(القرآن) التى تتضمّن الأمور الاخرى جميعا.

التعبير عن القرآن الكريم بأنّه(نور)فى آيات متعدّده،و كذلك(أنزلنا) شاهدان آخران على ذلك.رغم وجود روايات متعدّده عن أهل البيت عليهم السّلام فسّرت كلمه(نور)فى الآيه-مورد البحث-بوجود الإمام،و يمكن أن ينظر إلى هذا التّفسير على أنّ وجود الإمام يعتبر تجسيدا عمليا لكتاب الله،إذ يعتبر عن الرّسول و الإمام ب(القرآن الناطق)فقد جاء فى ذيل إحدى هذه الروايات عن الإمام الباقر قوله عن الآيه:(و هم الذين ينورون قلوب المؤمنين) (١).

و تصف الآيه اللاحقه يوم القيامة بقولها: يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ (٢) فَإِنَّ أَحَدَ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ هُوَ «يَوْمُ الْجَمْعِ» الذى ورد كرارا بتعبيرات مختلفه فى القرآن الكريم،منها ما جاء فى الآيه (٤٩)و(٥٠)من سوره الواقعه: قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ .

ثم يضيف تعالى ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ (٣) أى اليوم الذى يعرف فيه«الغابن» بالفوز عن«المغبون»بالغلبه،و هو اليوم الذى ينكشف فيه من هم الناس الذى غبنوا و خسرت تجارتهم؟ اليوم الذى يرى فيه أهل جهنّم مكانهم الخالى فى الجنّه و يأسفون لذلك،

ص: ٣٨١

١- ١) -تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٤١.

٢ - ٢) -«يوم يجمعكم»متعلّقه ب(لتبعثنّ)أو بجمله(لتنبئن)أو(خبر)أو أنّها متعلّقه بجمله محذوفه مثل«اذكر»لكن هذا بعيد.و المناسب هو أحد الاحتمالات السابقه.

٣- ٣) -«التغابن»من باب تفاعل،و عاده ما يأتى فى حاله وجود طرفين تعارض و تراحم و هذا المعنى بالنسبه ليوم القيامة ربّما لظهور نتائج تعارض المؤمنين و الكفّار،أى يوم القيامة يوم ظهور التغابن،و يستفاد من بعض كلمات أهل اللغه أنّ باب التفاعل لا يأتى دوما بهذا المعنى،فهنا بمعنى ظهور الغبن(مفردات الراغب-مادّه غبن).

و يرى أهل الجنة مكانهم الخالى فى النار فيفرحون لذلك، فقد ورد فى أحد الأحاديث أنّ لكلّ إنسان مكانا فى الجنة و آخر فى النار، فحينما يذهب إلى الجنة يعطى مكانه فى جهنّم إلى أهل جهنّم، و يعطى مكان الجنة فى الجنة إلى أهل الجنة (١).

و التعبير ب(الإرث) فى الآيات القرآنية ربّما يكون ناظرا إلى هذا المعنى.

ثمّ يتحدّث القرآن الكريم عن أحوال المؤمنين فى ذلك اليوم (يوم القيامة) أو (يوم التغابن) قائلا: وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفَرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

و ستتنزّل النعم الإلهية و البركات بتحقيق الشرطين الأساسيين، الإيمان و العمل الصالح. فتحلّ المغفرة و التجاوز عن الذنوب التى تشغل تفكير الإنسان أكثر من أى شىء آخر، و كذلك دخول الجنة، و ذلك هو الفوز العظيم الذى لا فوز بعده.

ثم يقول تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَ بُئْسَ الْمَصِيرُ .

و هناك عاملان أساسيان للشقاء يذكرهما القرآن، هما الكفر و التكذيب بالآيات الإلهية، و هما النقيضان الواقعيان للإيمان و العمل الصالح.

و الاختلاف الأوّل الذى تذكره الآية بين أهل الجنة و أهل النار هو ذكره الغفران و العفو لأهل الجنة بينما لم يذكر ذلك لأصحاب النار.

و الاختلاف الآخر هو التأكيد على خلود أهل الجنة فى النعيم بقوله (أبدا) بينما اكتفى بالنسبة لأهل النار بذكر الخلود و البقاء فقط، فقد يكون هذا الاختلاف للإشارة إلى أنّ الذين خلطوا الإيمان بالكفر سوف يخرجون من النار و العذاب

ص: ٣٨٢

آخر المطاف، أو إشاره لغلبه رحمته على غضبه، علما أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ عدم ذكر (أبدا) في الجملة الثانيه كان نتيجه لذكرها في الجملة الاولى.

ص: ٣٨٣

اشاره

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣)

التفسير

اشاره

كل ما يصيبنا بإذنه و علمه:

في أول آيه مورد البحث يشير القرآن إلى أصل كلّي عن المصائب و الحوادث الأليمه التي تصيب الإنسان، و لعلّ ذلك يعود إلى أنّ الكفّار كانوا دائما يتذرّعون بوجود المصائب و البلايا لنفى العداله الإلهيه فى هذا العالم، أو يكون المراد أنّ طريق الإيمان و العمل الصالح مقرون دائما بالمشاكل، و لا يصل الإنسان المؤمن إلى مرتبه مقاومتها، و بذلك يتّضح وجه الارتباط بين هذه الآيه و ما قبلها.

يقول تعالى أولاً: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ .

فما يجرى من حوادث كلّها بإذن الله لا تخرج عن إرادته أبداً، و هذا هو معنى

(التوحيد الأفعالي) وإنّما بدأ بذكر المصائب باعتبارها هي التي يستفهم عنها الإنسان دائما و تشغل تفكيره.و عند ما نقول يقع ذلك بإرادة الله،فإنّما نعى «الإرادة التكوينية»لا الإرادة التشريعية.

و هنا يطرح سؤال مهمّ و هو:إنّ كثيرا من هذه الحوادث و الكوارث التي تنزل بالناس تأتي من ظلم الظالمين و طغيان الجبابرة،أو أنّ الإنسان يبتلى بها بسبب الغفلة و الجهل و التقصير...فهل أنّ ذلك كلّه بإذن الله؟ للإجابة على هذا السؤال نرجع إلى مجموع الآيات التي وردت في هذا المجال،فتلاحظ أنّها عرضت المصائب على نوعين:

الأوّل:ما يكون جزءا من طبيعته تكوين الإنسان كالموت و الحوادث الطبيعية الأخرى،و هذه لا- يستطيع الإنسان أن يدفعها عنه،فيقرّر القرآن الكريم بأنّ ذلك يقع بإذن الله.

الثاني:هو تلك المصائب التي تأتي من تقصير الإنسان و من عمل يده،و له الدور الأساسي في تحقّقها،و هذه يقول القرآن:إنّها تصيبكم بسبب أعمالكم.

و بناء على ذلك فليس للإنسان أن يستسلم للظلم و الجهل و الفقر.

و من البديهي أنّ إرادة الله تتدخل في جميع الأمور حتّى تلك الخاضعة لإرادة الإنسان و فعله،إذ لا تأثير لجميع الأسباب إلّا بإذنه،و كلّ شيء خاضع لإرادته و سلطانه،و يبشّر القرآن المؤمنين بقوله: وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .

فالمؤمن لا- تهزمه المصائب و لا- ييأس و لا- يجزع.و الله يهدي الإنسان حينما يكون شكورا لنعمه،صابرا على بلائه،مستسلما لقضائه.

و لهدايه القلوب معاني كثيرة منها(الصبر)و(التسليم)و(الشكر)و(الرضى) و قول: إِذَا لِلَّهِ وَ إِذَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ و عند ما يذكر المفسّرون أحد هذه الأمور،فإنّما يريدون بيان مصداق من مصاديق الآية لا معناها الكلّي.

و تقول الآية في نهايه المطاف وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

وقد يراد من هذا التعبير الإشارة إلى الهدف من وراء هذه الامتحانات و الاختبارات الصعبة، وهو إيقاظ الناس و تربيتهم و إعدادهم لمجابهة الغرور و الغفلة، و سيؤثر ذلك حتما و يدفع الإنسان إلى طاعة الله و رسوله، و أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ .

لا- يخفى أنّ إطاعة الرسول فرع عن إطاعة الله تعالى و طاعة الرسول تقع فى طول طاعة الله، فهما فى خطّ واحد، و هذا ما جعله يكرّر كلمه إطاعه.

و إذا ما حاولنا الذهاب أبعد من ذلك، فإنّ طاعة الله تتعلّق بأصول القوانين و التشريعات الإلهية، بينما طاعة الرسول فى تفسيرها و فى المسائل التنفيذية و فى التفاصيل، فعلى هذا تكون الاولى هى الأصل، و الثانيه فرع.

ثم يضيف قائلا: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .

نعم، إنّ الرسول ملزم بتبليغ رساله، و سيتولّى البارئ جلّ شأنه محاسبتكم، و هذا نوع من التهديد الخفى الجادّ.

و يشير القرآن الكريم فى الآيه اللاحقه إلى قضيه التوحيد فى العبوديه، التى تشكّل المبرّر الطبيعى لوجوب الطاعه، إذ يقول تعالى: **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ بِمَا أَنَّهُ كَذَلِكِ إِذَا عَالَىٰ اللَّهُ فليَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .**

فليس غير الله يستحقّ العبوديه، لأنّه لا- مالك و لا قادر و لا عالم غيره، و الغنى كلّ له، و كلّ ما لدى الآخرين فمنه و إليه، فيجب الرجوع له و الاستعانه به على كلّ شىء.

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوَّكُمْ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصِفْهُمْ حُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤)
 إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

سبب النزول

فى تفسير القمى فى روايه أبى الجارود(عن أبى جعفر الباقر عليه السلام فى قوله تعالى: إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوَّكُمْ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ و ذلك أن الرجل إذا أراد الهجره تعلق به ابنه و امرأته و قالوا: ننشدك الله أن لا تذهب عنا فنضيع بعدك،

فمنهم من يطيع أهله فيقيم، فحذرهم الله أبناءهم و نساءهم، و نهاهم عن طاعتهم، و منهم من يمضى و يذرهم و يقول: أما و الله لنن لم تهاجروا معي ثم جمع الله بيني و بينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبدا. فلما جمع الله بينه و بينهم أمر الله أن يتوق بحسن وصله فقال: **وَإِنْ تَغْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)**.

التفسير

إشاره

أولادكم و أموالكم وسيله لامتحانكم:

حذر القرآن الكريم من مغتبه الوقوع في الحب المفرط للأولاد و الأموال، الذي قد يجزّ إلى عدم الطاعه لله و رسوله حيث قال: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .**

إنّ هناك مظاهر عديده لهذه العداوه، فأحيانا يتعلّقون بشبابكم ليحرموكم خير الهجرة، و اخرى ينتظرون موتكم ليسيطروا على أموالكم و ثروتكم، و ما إلى ذلك.

و ليس كلّ الأولاد، و لا كلّ الزوجات كذلك، لهذا جاءت «من» التبعيضيّه.

و تظهر هذه العداوه أحيانا بمظهر الصداقه و تقديم الخدمه، و حيناً آخر تظهر بسوء التيه و خبث المقصد.

و على كلّ حال فإنّ الإنسان يصبح على مفترق طريقين، فطريق الله و طريق الأهل و الأزواج، و لا ينبغي أن يتردّد الإنسان في اتّخاذ طريق الله و إثارة على غيره، ففيه النجاه و الصلاح في الدنيا و الآخرة. و هذا ما أكّدت عليه الآية ٢٣ من سورة التوبه: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .**

و من أجل أن لا يؤدّي ذلك إلى الخشونه في معامله الأهل، نجد القرآن

ص: ٣٨٨

١-١) -تفسير على بن إبراهيم طبقا لنقل نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٤٢، و نقل هذا المعنى باختصار أشدّ في (الدرّ المنثور) و تفاسير اخرى لم تكن شامله كالروايه أعلاه.

يوازن ذلك بقوله فى ذيل نفس الآيه: وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فإذا ندموا و اعتذروا و التحقوا بكم فلا تتعرضوا لهم بعد ذلك، و اعفوا عنهم و اصفحوا كما تحبون أن يعفوا الله عنكم.

جاء فى حديث الإفك أنّ بعض المؤمنين أقسموا أن يقاطعوا أقرباءهم الذين ساهموا فى بثّ تلك الشائعه الخبيثه و ترويجها، و أن يمنعوا عنهم أى عون مالى، فنزلت الآيه ٢٢ من تلك السوره: وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

و كما يظهر من المعنى اللغوى فإنّ لغفران الذنب مستويات ثلاثه هى (العفو) بمعنى صرف النظر عن العقوبه، و (الصفح) فى مرتبه أعلى، و يراد به ترك أى توبيخ و لوم، و (الغفران) الذى يعنى ستر الذنب و تناسبه، و بهذا فإنّ الآيه فى نفس الوقت الذى تدعو الإنسان إلى الحزم و عدم التسليم فى مقابل الزوجه و الأولاد فيما لو دعوه إلى سلوك خاطئ تدعوه كذلك إلى بذل العفو و المحبه فى جميع المراحل و كلّ ذلك من أساليب الترييه السليمه و تعميق جذور التدبّين و الإيمان فى العائله.

و تشير الآيه اللاحقه إلى أصل كلّى آخر حول الأموال و الأولاد، حيث تقول:

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ

فإذا تجاوزتم ذلك كلّه فإنّ الله عنده أجرٌ عظيمٌ .

و قد تقدّم فى الآيه السابقه الكلام عن عداء بعض الأزواج و الأولاد الذين يدعون الإنسان إلى الانحراف و سلوك طريق الشيطان و المعصيه و الكفر، و فى هذه الآيه نجد الكلام عن أنّ جميع الأموال و الأولاد عباره عن «فتنه»، و فى الحقيقه فإنّ الله يبتلى الإنسان دائماً من أجل تربيته، و هذين الأمرين (الأموال و الأولاد) من أهمّ وسائل الامتحان و الابتلاء، لأنّ جاذبيه الأموال من جهة، و حبّ الأولاد من جهة اخرى يدفعان الإنسان بشدّه إلى سلوك طريق معيّن قد لا

يكون فيه رضا الله تعالى أحيانا، ويقع الإنسان في بعض الموارد في مضيقه شديده، ولذلك ورد التعبير في الآية «إنما» التي تدلّ على الحصر.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في روايه عنه «لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنه لأنه ليس أحد إلا و هو مشتمل على فتنه، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن فإن الله سبحانه يقول: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ (١) .

يلاحظ نفس هذا المعنى مع تفاوت يسير في الآية ٢٨ سورة الأنفال.

و عن كثير من المفسرين و المؤرخين

(كان رسول الله يخطب فجاء الحسن و الحسين و عليهما قميصان أحمران يمشيان و يعثران فنزل رسول الله إليهما فأخذهما فوضعهما في حجره على المنبر و قال: «صدق الله عز و جل: إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان و يعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي و رفعتهما. ثم أخذ في خطبته» (٢) .

إن قطع الرسول لخطبته لا- يعني أنه غفل عن ذكر الله، أو عن أداء مسؤوليته التبليغيه، و إنما كان على علم بما لهذين الطفلين من مقام عظيم عند الله، و لذا بادر إلى قطع الخطبه ليبرز مدى حبه و احترامه لهما.

إن عمل الرسول هذا كان تنبيها لكل المسلمين ليعرفوا شأن هذين الطفلين العظيمين ابني علي و فاطمه.

فقد ورد في حديث نقلته المصادر المشهوره أنّ البراء بن عازب (صحابي معروف يقول: رأيت الحسن بن علي على عاتق النبي و هو يقول: «اللهم إني أحبه فأحبه» (٣) .

و

في روايه اخرى أنّ الحسين عليه السلام كان يصعد على ظهر الرسول و هو ساجد،

ص: ٣٩٠

١-١) -نهج البلاغه، الجمل القصار ٩٣.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٠١.

٣-٣) -صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٨٣، حديث ٥٨.

دون أن يمنعه الرسول (١)، كل ذلك لإظهار عظمه هذين الإمامين و مقامهما الرفيع.

و جاء فى الآيه اللاحقه: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسِيَّطَعْتُمْ وَ اسِيعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ لَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَوَّلًا- بِاجْتِنَابِ الذَّنُوبِ، ثُمَّ بِإِطَاعَةِ الْأَوَامِرِ، وَ تَعَدُّ الطَّاعَةِ فِى قَضِيَّتِهِ الْإِنْفَاقَ مُقَدِّمَهُ لَتِلْكَ الطَّاعَةِ، ثُمَّ يَخْبِرُهُمْ أَنَّ خَيْرَ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَيْكُمْ وَ لِأَنْفُسِكُمْ.

قال بعضهم: إن «خيرا» تعنى (المال) و هو وسيله لتحقيق بعض الطاعات، و ما جاء فى آيه الوصيه يعتبر تعزيزا لهذا المعنى كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ . (٢)

و ذهب البعض إلى أَنَّ كلمه (خيرا) جاءت بمعناها الواسع، و لم يعتبروها قييدا للإنفاق، بل هى متعلقه بالآيه ككل، فإن ثمار الطاعه- كما يقولون- تعود لكم.

و ربّما يكون هذا التفسير أقرب من غيره (٣).

و الأمر بالتقوى بقدر المستطاع لا يتنافى مع ما جاء فى الآيه (١٠٢) من سوره آل عمران حيث تقول: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ بل هى مكمله لتلك و من المسلم أَن أداء حق التقوى لا يكون إلّا بالقدر الذى يستطيعه الإنسان، إذ يتعذر التكليف بغير المقدور.

فلا مجال لاعتبار الآيه-مورد البحث- ناسخه لتلك الآيه فى سوره آل عمران كما اعتقد البعض.

و للتأكيد على أهميّه الإنفاق ختمت الآيه ب وَ مَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

ص: ٣٩١

١-١) -البحار، ج ٤٣، ص ٢٩٦، حديث ٥٧.

٢-٢) -البقره، الآيه ١٨٠.

٣-٣) -على التفسير الأول تكون «خيرا» مفعول للفعل «أنفقوا»، و على الثانى تكون خبرا لفعل مقدّر، و تقديره «يكن خيرا لكم».

«شَحَّ» بمعنى «البخل المرادف للحرص»، و من المعلوم أنَّ هاتين الخصلتين السيئتين من أكبر الموانع أمام فوز الإنسان، و تغلق عليه سبيل الإنفاق و تصدّه عن الخير، و من يتخلّص من هاتين الخصلتين السيئتين فلا شكَّ أنّه سيضمن السعادة.

هذا و توجد

روايه عن الإمام الصادق عليه السّلام تقول: «من أدّى الزكاه فقد و قى شَحَّ نفسه» (١). و يبدو أنَّ ذلك أحد المصاديق الحيّه في مسأله الشَحَّ و ليس كلّ (الشَحَّ).

و

في حديث آخر عن الصادق عليه السّلام-أيضا-: رأيت أبا عبد الله عليه السّلام يطوف من أوّل الليل إلى الصباح و هو يقول: «اللهم قنى شَحَّ نفسي» فقلت: جعلت فداك ما سمعتك تدعو، بغير هذا الدعاء قال: «و أى شىء أشدّ من شَحَّ النفس و أنَّ الله يقول:

وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

« (٢) ».

و للتشجيع على الإنفاق و التحذير من البخل، يقول تعالى: إِنَّ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ

و كم هو رائع هذا التعبير الذى تكرر مرّات عديده فى القرآن الكريم فالله الخالق الوهاب للنعم الذى له كلّ شىء، يستقرض منّا ثمّ يعدنا بأنّه سيعوّضنا أضعاف ذلك، إنّه لطف ما بعده لطف! و غير بعيد أن يكون ذلك إشارة إلى أهميّة الإنفاق من جهه، و إلى اللطف اللامحدود لله تعالى الذى يغمر به عباده من جهه اخرى.

«القرض» فى الأصل بمعنى القطع، و لأنّها اقترنت بكلمه (حسن) فإنّها تعنى فصل المال عن النفس و إنفاقه فى الخير.

«يضاعفه» من مادّه «ضعف» (على وزن شعر) و كما قلنا سابقا: إنّها تشتمل على عدّه أضعاف و ليس ضعفا واحدا، كما جاء فى سوره البقره آيه ١٦١.

ص: ٣٩٢

(١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٠١.

(٢-٢) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٤٦.

و عبارہ یَغْفِرُ لَكُمْ للإِشارة إلى أَنَّ الإنفاق أحد عوامل غفران الذنوب.

«شكور» هو أحد صفات الله تعالى الذى يشكر عباده بمجازاتهم أفضل الجزاء و أجزل الجزاء. و كونه (حليم) أى يغفر الذنوب و لا يتعجل العقوبة.

و يقول فى آخر الآيه: **عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** إِنَّهُ مَطَّلِعٌ عَلَى أَعْمَالِ عِبَادِهِ و منها النفقة و البذل فى سبيل الله. و إِنَّهُ غير محتاج لكى يستقرض من عباده و إنما هو إظهار لكمال لطفه و محبته لعباده.

و بناء على ذلك فإن الصفات الخمس -المذكورة فى هذه الآيه و الآيه السابقه -لله تعالى، ترتبط كلها بمسأله الإنفاق فى سبيله و الحث عليه، و الاندكاك بالله تعالى الذى يؤدى إلى الاقتناع عن ارتكاب الذنوب و الاعتصام بالتقوى.

ملاحظه

اشاره

حديث مهم:

جاء عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم «ما من مولود يولد إلا فى شبائيك رأسه مكتوب خمس آيات من سورة التغابن» (١).

و قد يكون المقصود بهذه الآيات الخمس آخر سورة التغابن التى تتحدث عن الأموال و الأولاد. و كتابه هذه الآيات الخمس فى شبائيك الرأس إشاره إلى حتميتها و كونها جزءا من كيان الإنسان و فطرته التى فطره الله عليها.

لعلّ التعبير ب(شبائيك) جمع «شباك» -على وزن خفّاش- بمعنى «المشتبك» إشاره إلى عظام الرأس التى تكون على شكل قطع متداخله مع بعضها. أو لعلّه إشاره إلى شبكات المخ.

ص: ٣٩٣

على كلّ فإنّها إشاره إلى وجود هذه المعانى فى مَخّ النوع البشرى.

اللهمّ، أعنّا على هذا الامتحان الكبير، امتحان الأموال و الأولاد و الزوجات.

ربّنا، لا تبتلنا بالبخل و الحرص و شحّ النفس، فإنّه من نجا من ذلك فقد فاز.

اللهمّ، جَنّبنا الغبن يوم القيامة، يوم يظهر فيه غبن العصيين و تنكشف فيه معاصيهم و ذنوبهم، و اجعلنا فى كنف لطفك و رحمتك.

آمين يا ربّ العالمين.

نهايه سورة التغابن

ص: ٣٩٤

سوره الطلاق

اشاره

مدنیہ و عدد آیاتہا اثنتا عشرہ آیہ

ص: ۳۹۵

محتوى السوره:

أهمّ مسأله طرحت فى هذه السوره، كما هو واضح من اسمها، هى مسأله «الطلاق» وأحكامه و خصوصياته، والأمر الذى تلى ذلك، ثم تأتى بعدها أبحاث فى المبدأ والمعاد و نبؤ الرسول و البشاره و الإنذار.

و من هنا نستطيع أن نقسم محتوى هذه السوره إلى قسمين.

القسم الأول: الآيات السبع الأولى التى تتحدث عن الطلاق و ما يرتبط به من أمور، و تتعرض إلى جزئيات ذلك بعبارات وجيزه بليغه، و بشكل دقيق و طريف إلى حدّ الإشباع.

القسم الثانى: ويشكل الدافع الحقيقى للقسم الأول من السوره، و يدور الحديث فيه عن عظمه الله و مقام رسوله و ثواب الصالحين و جزاء العصاة على شكل مجموعه منسجمه لضمان أجزاء هذه المسأله الاجتماعيه المهمه. و يذكر أنّ لهذه السوره أسماء اخرى كسوره «النساء القصرى» (على وزن صغرى) مقابل سوره «النساء» المعروفه «النساء الكبرى».

فضيله تلاوه السوره:

جاء فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم: «من قرأ سوره الطلاق مات على سنّه رسول الله» (١).

ص: ٣٩٧

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١)

التفسير

اشاره

شروط الطلاق والانفصال:

تقدّم أنّ أهمّ بحث في هذه السوره هو بحث الطلاق، حيث يشرّع القرآن فيها مخاطبا الرسول الأكرم، بصفته القائد الكبير للمسلمين، ثم يوضح حكما عموميا بصيغه الجمع، حيث يقول: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ .

هذا هو الحكم الأول من الأحكام الخمسه التي جاءت في هذه الآيه، وطبقا لآراء المفسرين إنّ المراد هو أن تجري صيغه الطلاق عند نقاء المرأة من الدوره الشهرية، مع عدم المقاربه الزوجيه، لأنه-طبقا للآيه ٢٢٨ من سوره البقره- فإنّ عدّه الطلاق يجب أن تكون بمقدار «ثلاثه قروء» أى ثلاثه طهورات متتاليه.

و هنا يؤكّد أنّ الطلاق يجب أن يكون مع بدايه العده، وهذا يتحقّق فقط- في حاله الطهاره و عدم المقاربه، فإذا وقع الطلاق في حاله الحيض فإنّ بدايه زمان العده ينفصل عن بدايه الطلاق، و بدايه العده ستكون بعد الطهاره.

و إذا كانت في حاله طهر و قد جامعها زوجها، فإنّ الطلاق لا يتحقّق أيضا، لأنّ مثل هذه الطهاره- بسبب المقاربه- لا يمكن أن تكون دليلا على عدم وجود نطفه في الرحم.

على كلّ حال هذا هو أوّل شرط للطلاق.

جاء في روايات عديده عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «مر فليراجعها، ثمّ ليركها حتّى تطهر، ثمّ تحيض، ثمّ تطهر. ثمّ، إن شاء أمسك بعد، و إن شاء طلق قبل أن يمسّ، فتلك العده التي أمر الله عزّ و جلّ أن يطلق لها النساء» (١).

و جاء نفس هذا المعنى في روايات عديده عن أهل البيت عليهم السلام، حتّى أنّها ذكرت على أنّها تفسير للآيه (٢).

ثمّ يذكر الحكم الثانی و هو حساب العده، حيث يقول تعالى: وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ .

«أحصوا» من مادّه «الإحصاء» بمعنى الحساب، و هي في الأصل مأخوذه من «حصى» بمعناها المعروف، لأنّ كثيرا من الناس كانوا يلجأون في حساب المسائل المختلفه إلى طريقه عدّ «الحصى» لعدم استطاعتهم القراءة و الكتابه.

و الجدير بالملاحظ هنا أنّ المخاطب في «حساب العده» هم الرجال و ليس النساء، و ذلك لوقوع مسئوليّه «النفقه و السكن» على عاتق الرجال، كما أنّ «حقّ الرجوع» عن الطلاق يعود إليهم و ليس إلى النساء، و إلّا- فهنّ ملزمات أيضا في إحصاء العده لتعيين تكليفهنّ.

ص: ٣٩٩

١- ١) - كتاب الطلاق عن صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٠٩٣ فما بعد.

٢- ٢) - وسائل الشيعه، ج ١٥، ص ٣٤٨ «باب كيفيه طلاق العده».

بعد ذلك يدعو الله تعالى الناس جميعا إلى التقوى و اجتناب المعاصى، حيث يقول تعالى: **إِتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ** فهو ربكم الحريص على سعادتكم، فلا تعظوا له أمرا و لا تتركوا له طاعه، و خاصه فى «حساب العده» و التدقيق بها.

ثم يذكر الحكم «الثالث» الذى يتعلّق بالأزواج و الحكم «الرابع» الذى يتعلّق بالزوجات، يقول تعالى: **لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ**.

و رغم أنّ كثيرا من الجهله لا يلتزمون بهذا الحكم عند الطلاق، حيث يسمح الرجل لنفسه أن يخرج المرأة بمجرد إجراء صيغه الطلاق، كما تسمح المرأة لنفسها بالخروج من بيت زوجها و الرجوع إلى أقاربها بمجرد ذلك.

و لكن يبقى لهذا الحكم فلسفته المهمّة و حكمته البالغه، فهو بالإضافة إلى إسداء الاحترام إلى المرأة، يهيئ أرضيه جيده للانصراف و الإعراض عن الطلاق، و يؤدى إلى تقويه الأواصر الزوجيه.

إنّ عدم الالتزام بهذا الحكم الإسلامى الخطير، الذى جاء فى نصّ القرآن الكريم، يسبّب كثيرا من حالات الطلاق التى تؤدى إلى الفراق الدائم، بينما كثيرا ما يؤدى الالتزام بهذا الحكم إلى الرجوع و الصلح و العوده إلى الزوجيه مجددا.

و لكن قد تقتضى بعض الظروف إخراج المرأة و عدم قدره على الاحتفاظ بها فى البيت، فيجىء الحكم الخامس الاستثنائى إذ يقول تعالى: **إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ**.

كأن يكون الزوجان غير منسجمين إطلاقا، و يكون أحدهما مثلا سىء الأخلاق إلى الدرجة التى لا يمكن معها البقاء معه فى بيت واحد، و إلاّ ستنشأ مشاكل جديده و عديده.

و يلاحظ هذا المعنى فى روايات كثيره عن أهل البيت عليهم السلام (1).

ص: ٤٠٠

و لكن من الواضح أنّ ذلك لا يشمل كلّ بادره للخلاف و عدم الانسجام، فإنّ التعبير ب«الفاحشه» يكشف عن كون ذلك العمل على قدر كبير من القبح، وخاصّه حينما وصفها بأنّها «مبيّنه».

و ربّما كان المقصود ب«الفاحشه» عملا يتنافى مع العفه، فقد جاء فى روايه عن الإمام الصادق عليه السّلام ما يشابه ذلك المعنى، و أنّ الغرض من «الإخراج» هنا هو الإخراج لإجراء الحدّ، و من ثمّ الرجوع و العوده إلى البيت.

و يمكن الجمع بين هذين المعنيين.

بعد بيان هذه الأحكام يؤكّد القرآن الكريم -مرّه اخرى- بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ لأنّ الغرض من هذه الأحكام هو إسعاد الناس أنفسهم، و التجاوز على هذه الأحكام -سواء من قبل الرجل أو المرأة- يؤدّى إلى توجيه ضربه قويّه إلى سعادتهم.

و يقول تعالى فى لفته لطيفه ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ البيت، يقول: لا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً.

و مع مرور الزمن يهدأ طوفان الغضب و العصبية الذى قد يسبّب الطلاق، غير أنّ مرور الزمن و حضور الزوجه إلى جانب زوجها خلال هذه الفتره فى البيت، و إظهار ندم و محبّه كلّ واحد منهما إلى الآخر، و كذلك التفكير مليّاً فى عواقب هذا العمل القبيح، خاصّه مع وجود الأطفال، كلّ هذه الأمور قد تهيبّ أرضيه صالحه للرجوع عن هذا القرار المشؤوم، و تساهم فى تبديد الغيوم التى تكدر سماء العلاقة الزوجيه.

و فى إشاره لطيفه إلى هذا المعنى

جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام «المطلّقه تكتحل و تختضب و تطيب و تلبس ما شاءت من الثياب، لأنّ الله عزّ و جلّ

يقول: لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا لَعَلَّهَا تَقَعُ فِي نَفْسِهِ فِيرَاجِعُهَا» (١).

نعود إلى القول بأنَّ التصميم على الانفصال و الطلاق يحدث في الغالب تحت تأثير الهيجان و الانفصالات العابرة، التي قد تنتهي و تتبدّد بمرور الزمن (أى أثناء فتره العدّه) فإنّ التفكير جيّداً في هذا الأمر قد يؤدّي إلى رجوع أحدهما إلى الآخر، و تجاوز حالات عديده من الخلاف أثناء هذه الفتره، و لكن بشرط أن تراعى الأحكام الإسلاميه أثناء فتره العدّه بشكل دقيق.

و سيّضح فيما بعد-إن شاء الله-أنّ ذلك كلّه يرتبط بحاله «الطلاق الرجعي».

ملاحظات

إشارة

١-أبغض الحلال إلى الله الطلاق

مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ عقد الزوجيه من جملة العقود و الموائيق القابله للفسخ، فهناك حالات من الخلاف لا يمكن معها استمرار العلاقة الزوجيه، و إلّا فإنّها ستؤدّي إلى مشاكل و مفاسد خطيره و عديده. و لهذا نجد الإسلام قد شرّع أمر الطلاق من الناحيه المبدأيه.

بينما نلاحظ المجتمعات المسيحيه التي منعت الطلاق-بأى شكل من الأشكال-تعيش مشاكل متعدّده نتيجة لذلك، فغالبا بما يعيش الزوجان المختلفان حاله انفصال و تباعد، أو حاله طلاقه من الناحيه العمليه، رغم عدم الاعتراف بذلك من الناحيه الرسميه. و كثيرا يلجأ الزوجان إلى إختيار زوج آخر غير رسمى.

و بناء على ذلك فإنّ أصل الطلاق من الضروريات التي لا يمكن إلغاؤها بأى وجه من الوجوه، و لكن ينبغى أن لا يصار إليها إلّا في الحالات التي يتعدّر فيها

ص: ٤٠٢

مواصله علاقه الزوجيه و الحياه المشتركه.

و لهذا نجد أنَّ الطلاق قد ذمَّ في روايات إسلاميه عديده، و ذكر على أنَّه (أبغض الحلال إلى الله).

ففي روايه عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم أنَّه قال: «ما من شيء أبغض إلى الله عزَّ و جلَّ من بيت يخرب في الإسلام بالفرقه، يعنى الطلاق» (١).

و

في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «ما من شيء ممَّا أحلَّ الله أبغض إليه من الطلاق» (٢).

و

في آخر عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم: «تزوَّجوا و لا تطلِّقوا فإنَّ الطلاق يهتَزُّ منه العرش» (٣).

و كيف لا- يكون كذلك؟! و الطلاق هو السبب وراء مآسٍ عديده تحلُّ بالعوائل و الرجال و النساء، و أكثر منهم بالأطفال و الأولاد، و يمكن تقسيم تلك المآسى إلى ثلاثه أقسام:

١- المشاكل العاطفيه:

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ انتهاء علاقه الزوجيه بالطلاق و الفراق، بعد حياه مشتركه عاشها الزوج و الزوجه معا، ستترك آثارا سيئه على الصعيد العاطفى على كلا الطرفين. و إذا أقدم أحدهما على الزواج مرَّه اخرى فسيبقى ينظر بشيء من القلق و الارتياب إلى الطرف الآخر، و ربَّما أعرض بعضهم عن الزواج نهائيا تحت تأثير التجربه الاولى الفاشله.

٢- المشاكل الاجتماعيه:

غالبا ما تحرم النساء المطلقات من الحصول على الزوج المؤهل و الكفوء مرَّه اخرى، كما قد يواجه الرجال نفس المسأله حينما يبدأون يفكرّون بالزواج مرَّه اخرى، و قد يضطرُّ هؤلاء إلى الزواج رغم عدم

ص: ٤٠٣

١- (١) - وسائل الشيعه، ج ١٥، ص ٢٦٦، حديث ١.

٢- (٢) - نفس المصدر، حديث ٥.

٣- (٣) - نفس المصدر، حديث ٧.

قناعاتهم، الأمر الذى يؤدى إلى فقدان السعادة و الراحة إلى الأبد. خصوصا مع وجود أطفال من الزواج الأول.

٣- مشاكل الأطفال:

و هذه أهم المشاكل حيث يحرم الأطفال من حنان و رعايه الأم، و يعيشون فى كنف زوجة أبيهم التى لا تنظر إلى هؤلاء الأطفال أو تعاملهم كما تعامل أطفالها الحقيقيين. و بهذا سيعيش الأبناء فراغا عاطفيا من هذا الجانب لا يعوّضه شىء.

و تتكرر نفس الصورة فيما إذا حملت المرأة أطفالها معها إلى الزوج الجديد، فإنّ هذا الزوج الجديد لا يحلّ غالبا محلّ الأب الحقيقى.

و هذا لا- يعنى أنّه لا- يوجد نساء أو رجال يمتلكون المحبّة و الشفقة التى تمتلكها الأمّهات أو الآباء تجاه أطفالهم، و لكن مثل هؤلاء الناس قليلون فى المجتمع و يندر الحصول عليهم.

و بناء على ذلك سيعيش هؤلاء الأطفال المحرومون من حبّ الأمّ و الأب عقدا معيّنه على الصعيد الروحى و العاطفى، و ربّما يؤدى إلى فقدانهم السلامه الروحيه. و لهذا سيعانى المجتمع بأجمعه- و ليس العائله فقط- من هؤلاء الأطفال الذين قد يشكّلون فى بعض الأحيان ظاهره خطيره عند ما يعيشون حاله النقص و حبّ الانتقام من المجتمع.

و عند ما وضع الإسلام كلّ تلك الموانع و الصعوبات بوجه الطلاق، فإنّما أراد أن يجنب المجتمع الإسلامى الوقوع بتلك المشاكل. و لهذا السبب أيضا نلاحظ القرآن الكريم قد حثّ بشكل صريح كلا من الرجل و المرأة على أن يتّجها إلى العائله و الأقرباء لحلّ الاختلاف و المشاكل التى قد تنشأ بينهما، عن طريق تشكيل محكمه صلح عائليه تعرض عليها الاختلافات و النزاعات بدل عرضها على المحاكم الشرعيه و حصول الطلاق و الانفصال. (وضحنا هذا الأمر- أى محكمه الصلح العائليه فى ذيل الآيه ٣٥ سوره النساء).

و فى نفس الوقت نجد أنّ الإسلام شجّع كلّ ما من شأنه تقويه الأواصر العائليه و تقويتها،و شجب كلّ محاوله لإضعافها و تفكيكها.

٢-أسباب الطلاق:

لا يختلف الطلاق عن الظواهر الاجتماعيه الاخرى التى تمتد جذورها فى المجتمع و تشارك فى تكوينها أسباب و امور عديده متشابهه.و عمليّه منعها و الوقوف بوجهها تبقى بدون جدوى ما لم يتمّ النظر إليها بشكل دقيق يتناول جميع العوامل التى تقف وراءها،و هى كثيره جدًا منها:

أ-التوقعات و الآمال المفرطه التى يبنىها كلّ واحد منهما على الطرف الثانى، فلو أنّهما جعللا توقعهما فى دائره محدوده و معقوله و تجنّبا التوغّل فى عالم الخيال،و أدرك كلّ واحد منهما الطرف الآخر جيّدًا،و حصر التوقع فى المجالات الممكنه،فحينئذ يمكن الحيلولة دون وقوع الكثير من حالات الطلاق.

ب-استحكام روح طلب الماديّات و وسائل الرفاه المختلفه يجعل الإنسان- و خاصّه النساء-فى حاله عدم قناعه مستمرّه،مما يسهّل حصول عمليه الطلاق و الانفصال عند مواجهه أبسط الحوادث تحت ذرائع و حجج متنوّعه.

ج-تدخّلات الأقرباء فى الشؤون الخاصّه للزوجين،و خاصّه تلك التدخّلات فى موارد الاختلافات بين الزوجين.و يعدّ ذلك من العوامل المهمّه التى تساعد على الطلاق.

و نلاحظ من خلال التجربه أنّ خلافات الزوجين إذا ما تركت لشأنها دون تدخّل من الأقارب فسوف تتلاشى و تنطفئ شيئًا فشيئًا.أمّا إذا تمّ دخول طرف من الأقارب و المتعلّقين دخولا متحيّزًا متعصّيبًا،فإنّه سيؤدّى إلى إشعال هذه الخلافات و تعقيدها أكثر.

و لكن هذا لا يعنى أن يبعد الأقرباء أنفسهم عن هذه الاختلافات دائما و دون

استثناء، فإن دخولهم حينما تكبر المشكله و تخرج عن كونها خلافا جزئيا جانبيا يكون لصالح العلاقه الزوجيه و دوامها، خصوصا إذا كان تدخلا خاليا من التعصب و الانحياز.

د-عدم التفات كل من الزوجه و الزوج إلى رغبات و طلبات أحدهما من الآخر،ففى الوقت الذى يحبّ الزوج أن تكون زوجته دائما جذابه نظيفه، كذلك تحبّ الزوجه لزوجها أن يكون كذلك.و لكن هذه الرغبات غالبا ما تكون مكبوتة لا يحاول كل منهما إبرازها و الإعلان عنها.

و هكذا فإنّ عدم اهتمام الأزواج بهندامهم و ترك التزيين و الترتيب،و عدم الاهتمام بالنظافه،كلّ تلك الأمور تمنع الزوج أو الزوجه من الاستمرار بمشروع الزواج،خاصّه إذا كان هناك من يهتمّ بهذه المسائل فى المحيط الذى يعيش فيه هؤلاء الزوجان.

لهذا نجد الروايات الإسلاميه أعطت أهميّه خاصّه لهذا الجانب،

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا ينبغي للمرأة أن تعطل نفسها» (١).

و

جاء فى حديث آخر عنه أيضا عليه السلام: «و لقد خرجن نساء من العفاف إلى الفجور ما أخرجهنّ إلا قلّه تهينّه أزواجهنّ» (٢).

ه-عدم تناسب المستوى الثقافى للعوائل،و كون الزوج يعيش نوعا من الثقافه العائليه لا تنسجم مع ثقافه الزوجه العائليه.و لهذا ينبغى التدقيق فى هذا الأمر قبل الإقدام على الزواج،فالمطلوب ليس فقط«الكفاءه الشرعيه»أى الالتزامات الإسلاميه،و إنما يجب أن تتوفّر-أيضا-«الكفاءه الفرعيه»أى التماثل و التشابه فى الأمور الاخرى بين الطرفين.و إلّا-فحدوث تصدع فى العائله غير مستبعد.

ص: ٤٠٦

١-١) -مكارم الأخلاق،ص ٩١-١٠٧.

٢-٢) -المصدر السابق.

مما لا شك فيه أنّ للعده حكمتين أساسيتين أشير إليهما في القرآن الكريم و الروايات الإسلامية.

الاولى:مسأله حفظ النسل و اتّصاح وضع المرأة من حيث الحمل و عدمه.

و الاخرى:توفير فرصه جيّده للرجوع عن الطلاق و العوده إلى الحياه الاولى، و القضاء على عوامل الانفصال التي تمّت الإشارة إليها في الآيه أعلاه،علما أنّ الإسلام يؤكّد على بقاء النساء في بيوت الأزواج أثناء العده،مما يسمح بالبحث مرّه اخرى عن وسائل للعوده،و ترك الانفصال عن بعضهما.

و خصوصا في حاله الطلاق الرجعى (١) حيث لا- يحتاج الرجوع إلى الزوجه إلى أيّه مراسيم أو أمور رسميه.و كلّ عمل يعتبر عوده عن هذا الطريق و لو بمجرد وضع الرجل يده على جسم المرأة،حتّى لو كان بدون شهوه،فإنّه يعتبر رجوعا عن الطلاق.

و إذا ما مرّت هذه الفتره (أى فتره العده)دون أن تظهر أى بادره للصلح و التوافق،فهذا يعنى أنّهما غير مستعدين للاستمرار في الحياه الزوجيه.

أوردنا شرحا لهذا الموضوع في ذيل الآيه (٢٢٨)سوره البقره.

ص: ٤٠٧

١- ١) -المقصود من «الطلاق الرجعى»-هو الطلاق الذى يحدث بإصرار و مبادره من الرجل أوّل و ثانى مرّه-.

اشاره

فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)

التفسير

اشاره

فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف:

يشير في الآيه مورد البحث، و كاستمرار للأبحاث المرتبطه بالطلاق التي وردت في الآيات السابقه، إلى عدّه أحكام اخرى، إذ يقول تعالى في البدايه:

فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

المراد ببلوغ الأجل «الوصول إلى نهايه المده» و ليس المقصود أن تنتهى العدّه تماما، بل تشرف على الانتهاء، فإن الرجوع بعد نهايه العدّه غير جائز، إلا أن

يكون إبقاؤهم عن طريق صيغه عقد جديده،و لكن هذا المعنى بعيد جدًا عن سياق و مفهوم الآيه.

على أى حال فإنّ هذه الآيه تطرح أهمّ الأواصر المرتبطه بالحياه الزوجيه و أكثرها نضجا،و هى: إمّا أن يعيش الرجل مع المرأة بإحسان و معروف و توافق، أو أن ينفصلا بإحسان.

فالانفصال ينبغى أن يتم بعيدا عن الهياج و العريده،و على اصول صحيحه، و يجب أن تحفظ فيه الحقوق و اللياقات لكى تكون أرضيه صالحه و مهنيّاه للعوده و الرجوع إذا ما قررا الرجوع إلى الحياه المشتركه فيما بعد،فإنّ العوده إذا تمّت فى جو مظلم ملبد بالخلافات و التعديّات،فسوف لا- تكون عوده موفّقه تستطيع الاستمرار مدّه طويله. هذا إضافه إلى أنّ الانفصال بالطريقه غير اللائقه قد يترك آثارا،ليس فقط على الزوج و الزوجه،و إنّما قد تتعدّى إلى عشيره و أقرباء كلّ منهما،و تقطع طريق المساعده لهما فى المستقبل.

و من اللطيف حقّا أن تحاط كلّ الصداقات و العلاقات المشتركه بين الناس بجوّ من الإحسان و الاحترام المتبادل للحقوق و الشعور بالمسؤوليه،و حتّى لو وقع الطلاق فيجب أن يتم أيضا بإحسان و دون مشاكل،فإنّ ذلك يعتبر بحدّ ذاته نوعا من الإنتصار و الموفّقيه لكلا الطرفين.

و يتّضح ممّا سبق أنّ(الإمساك بالمعروف و الطلاق بالمعروف)له معنى واسع يشمل جميع الواجبات و المستحبات و الآداب و الأخلاق التى تقتضيها تلك العلاقه.

ثمّ يذكر القرآن الكريم الحكم الثانى حيث يقول: وَ أَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ .

و ذلك لكى لا يستطيع أحد أن ينكر فى المستقبل ما جرى.

و بعض المفسّرين احتمل الإشهاد لكلا الأمرين:الطلاق و الرجوع،غير أنّ

الإشهاد ليس واجبا قطعاً في التزويج فضلاً عن الرجوع. وعلى فرض أنّ المورد يشمل الرجوع فيكون من باب الاستحباب.

و في الحكم الثالث يبين القرآن الكريم وظيفه الشهود، حيث يقول: [□]وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ حَذَارَ أَنْ يَكُونَ مِلكُكُمْ وَ حَبْكُم لأحد الطرفين مانعاً عن إظهار الحقّ، و ينبغي أن تتم الشهادة لله و لإظهار الحقّ، و ينبغي أن يكون الشهود عدولاً، و لما كانت عداله الشاهد لا تعنى أنّه معصوم من الذنب، و لهذا يحذّرهم الله تعالى لكي يراقبوا أنفسهم لئلاّ ينحرفوا عن جادّه الحقّ بعلم أو بغير علم.

و ينبغي أن يشار إلى أنّ تعبير ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ دليل على أنّ الشاهدين يجب أن يكونا مسلمين عادلين و من الذكور.

و لتأكيد الأحكام السابقة جميعاً تقول الآية الكريمه: [□]ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ . [□]

ربّما اعتبر البعض «ذلكم» إشارة فقط -إلى مسأله التوجّه إلى الله و مراعاة العداله من جانب الشهود، غير أنّ الظاهر أنّ هذا التعبير يشمل كلّ الأحكام السابقة حول الطلاق.

و على أيّه حال فإنّ هذا التعبير دليل على الأهميه القصوى التي يوليها القرآن الكريم لأحكام الطلاق، التي إذا تجاوزها أحد و لم يتّعظ بها فكأنّه أنكر الإيمان بالله و اليوم الآخر.

و بسبب المشاكل المعيشيه و الحياه المستقبليه فإنّ الزوجين قد ينحرفان عن جادّه الصواب عند الطلاق و الرجوع، و قد تضغط هذه الظروف على الشاهدين فتمنعانها عن أداء الشهاده الصحيحه و العادله، لهذا تؤكد الآية في نهايتها قائله:

[□]وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً

و يساعده حتماً على إيجاد الحلّ لمشكلاته.

[□]وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ

و لا يتصوّر تحصيله.

[□]وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ

و سيكفيه ما يهّمّه من أموره.

إِنَّ اللَّهَ بِأَلْفِ أَمْرٍ

لأنَّ الله عزَّ و جلَّ قادر مطلق، و أمره نافذ فى كلِّ شىء و تخضع جميع الكائنات لمشيئته و إرادته...

و لهذا يحذّر النساء و الرجال و الشهود أن لا يخافوا قول الحقّ، و يحثّهم على الاعتماد عليه و اللجوء إليه فى تيسير الصعوبات، لأنّه قد تعهّد بأن ييسّر للمتّقين أمرهم، و يجعل لهم مخرجاً و يرزقهم من حيث لا يحتسبون.

لقد تعهّد الله أن لا يترك من توكلّ عليه يتخبط فى حيرته، و إنّ لقادر على الوفاء بهذا التعهّد.

و رغم أنّ هذه الآيات نزلت بشأن الطلاق و الأحكام المتعلّقه به، لكنّها تحتوى مفاهيم واسعة و معانى عظيمة تشمل جميع المجالات التى يعاهد الله بها المتّقين، و يبعث فى نفوسهم الأمل بأنّه سيشملهم بلطفه و رعايته، فينجيهم من المآزق، و يرشدهم إلى الصواب، و يفتح أمامهم الآفاق الرحبه، و يرفع عنهم مشاكل الحياه و صعوباتها، و يبّد الغيوم السوداء التى تلبّد سماء سعادتهم.

و فى إشاره لطيفه إلى النظام العامّ الذى يحكم التكوين و التشريع، يقول تعالى: **قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** فكلّ هذه الأحكام و الأوامر التى فرضها الله فى شأن الطلاق، إنّما كانت ضمن حساب دقيق و مقاييس عامّه شامله لا يغيب عنها شىء.

و هكذا يجب أن يلتزم الناس فى جميع المشاكل التى تنتاب حياتهم- و ليس فقط فى مسأله الطلاق- بالموازن و الأحكام الشرعيه، و أن يواجهوا تلك الأمور بالتقوى و الصبر و طلب التوفيق من الله، لا أن يطلقوا ألسنتهم بالشكوى و ارتكاب الذنوب، و ما إلى ذلك و يتوسّلون بالطرق غير المشروعه لحلّ مشاكلهم.

ص: ٤١١

١- التقوى و النجاه من المشاكل

إنّ تلاوه الآيات السابقة تبعث -أكثر من غيرها- الأمل في النفوس، و تمنح القلب صفاء خاصاً، و تمرّق حجب اليأس و القنوط، و تنير الأرواح بنور الأمل، إذ تعدّ كلّ المتّقين بحلّ مشاكلهم و تسهيل أمورهم.

جاء في حديث عن أبي ذرّ الغفاري أنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «إنّى لأعلم آية لو أخذها بها الناس لكفتهم و من يتق الله يجعل له مخرجاً فما زال يقولها و يعيدها» (١).

و

في حديث آخر عن الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم في تفسير هذه الآية أنّه قال: «من شبهات الدنيا، و من غمرات الموت، و شدائد يوم القيامة».

و هذا التعبير دليل على أنّ تيسير امور المتّقين ليس في الدنيا فقط و إنّما يشمل القيامة أيضاً.

و

في حديث آخر عنه صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من أكثر الاستغفار جعله الله له من كلّ هم فرجاً و من كلّ ضيق مخرجاً» (٢).

قال بعض المفسّرين: إنّ أوّل الآية السابقة نزلت بحقّ (عوف بن مالك) و هو أحد أصحاب الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم الذي أسر ابنه فجاء يشكو هذا الحادث و فقرّ حاله و ضيق ذات يده إلى الرسول فنصحه رسول الله

بقوله: «أتق الله و اصبر، و أكثر من قول «لا- حول و لا- قوّه إلاّ بالله» ففعل ذلك و فجأه بينما هو جالس في بيته دخل عليه ولده، فتبيّن أنّه قد استغفل الأعداء و فرّ من قبضتهم و جاء بجمل معه منهم.

لذا نزلت هذه الآية التي تخبر عن تيسير معضله هذا الرجل المتّقى من حيث

ص: ٤١٢

١- ١) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٥٦، حديث ٤٤.

٢- ٢) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٥٧، حديث ٤٥.

لا يحتسب (١).

و لا يعنى هذا إطلاقاً أنَّ الآيه تحثُّ على ترك السعى و بذل الجهد و الجلوس فى البيت و الركون إلى الله و أن يردد الإنسان قول «لا- حول و لا- قوه إلا بالله» لينزل عليه الرزق من حيث لا يحتسب. إنَّ ما تريد الآيه الكريمه أن تركّز عليه هو أنَّ السعى لا بدّ أن يكون معه و إلى جانبه تقوى، و إذا ما أغلقت الأبواب مع كلّ هذا حينئذ يتدخّل البارئ لفتح هذه الأبواب.

لهذا نجد فى الحديث أنَّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام (عمر بن مسلم) انقطع فتره عن الإمام،

قال الإمام عليه السّلام ما فعل عمر بن مسلم عليه السّلام قلت: جعلت فداك أقبل على العباده و ترك التجاره فقال: ويحه! أما علم أنَّ تارك الطلب لا- يستجاب له، إنَّ قوما من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم لما نزلت: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ أغلقوا الأبواب و أقبلوا على العباده و قالوا: قد كفينا، فبلغ ذلك النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم فأرسل إليهم قال: «ما حملكم على ما صنعتم به» فقالوا:

يا رسول الله تكفّل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العباده قال صلّى الله عليه و آله و سلّم: «إنّ من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب» (٢).

٢- روح التوكّل

المقصود من التوكّل على الله هو أن يسعى الإنسان لأن يجعل عاقبه عمله و كدحه على الله و يوكّلها إليه، و يدعوه لتسهيل أمره، فإنّه لطيف بعباده رحيم بهم و على كلّ شىء قدير.

و الشخص الذى يعيش حقيقه «التوكّل على الله» لا يجد اليأس إليه منفذاً، و لا

ص: ٤١٣

١- ١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٠٦، و بهذا المعنى جاء فى تفسير «الفخر الرازى» و «روح البيان». مع اختلاف بسيط بعضهم قال أنّه جلب مائه بعير.

٢- ٢) -الكافى طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٥٤، ح ٣٥.

يدبّ في عزمه الضعيف، ولا- يشعر بالنقص و الصغر أمام المشاكل مهما كبرت، و يبقى يقاوم و يواجه الأحداث بقوة و إيمان راسخين. و يعطيه هذا الإيمان و التوكّل قدره نفسه عظيمه يستطيع معها تجاوز الصعاب.

و من جانب آخر تنهمر عليه الإمدادات الغيبية و المساعدات التي وعده الله.

ففى حديث عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم: سألت من جبرائيل: ما التوكّل؟ قال «العلم بأنّ المخلوق لا يضرّ و لا ينفع، و لا يعطى و لا يمنع، و استعمال اليأس من الخلق، فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله، و لم يرج و لم يخف سوى الله، و لم يطمع فى أحد سوى الله فهذا هو التوكّل» (١).

فالتوكّل بهذا المضمون العميق يمنح الإنسان شخصيه جديده و يكون له تأثير على جميع أعماله. لذا نقرأ

فى حديث عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أنّه سأل الله عزّ و جلّ فى ليله المعراج: إلهى أى الأعمال أفضل؟ قال تعالى: «ليس شىء عندى أفضل من التوكّل علىّ و الرضا بما قسمت» (٢).

و من الطبيعى أنّ التوكّل بهذا المعنى سيكون توأما مع الجهاد و السعى و ليس مع الكسل و الفرار من المسؤوليات.

و قد أوردنا بحثا آخر فى هذا المجال فى ذيل الآيه ١٢ سوره إبراهيم.

ص: ٤١٤

١- ١) -بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٣٧٣، حديث ١٩.

٢- ٢) -سفينه البحار، ج ٢، ص ٦٨٣، مادّه التوكّل.

وَاللَّائِي يَئْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنْ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) أَسْكُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأُتِمُّوا بِنِكَاحِكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتْرُضْ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)

أحكام النساء المطلقات و حقوقهن:

من بين الأحكام المستفاده من الآيات السابقة لزوم إحصاء العدة بعد الطلاق، ولما كانت الآية (٢٢٨) من سورة البقرة قد بينت حكم العدة للنساء اللاتي يرين العاده الشهريه و ذلك بأن تعد ثلاث دورات شهريه متتاليه و بمشاهده الثالثه تكون المرأه قد أنهت عدتها. فقد ذكرت الآيات محلّ البحث حكم النسوة اللواتي لا حيض لديهن لأسباب معينه، أو الحوامل لتكمل بحث العده.

يقول تعالى في بدايه الأمر: وَاللَّائِي يَيْسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ فَإِذَا شَكَكْتُمْ فِي وَجُودِ الْحَمْلِ فَمَدَّ الْعِدَّةَ حِينَئِذٍ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، و كذلك النسوة اللاتي لم يرين الحيض و لم تحدث لهنّ العاده الشهريه بعد و اللاتي لَمْ يَحْضُنَّ .

ثمّ يشير تعالى إلى ثالث مجموعه حيث يضيف قائلا: وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .

و بهذا اتّضح حكم المجاميع الثلاثه، مجموعتان يجب أن يحصين عدتهنّ ثلاثه أشهر، و المجموعه الثالثه-أى النساء الحوامل- تنتهى عدتهنّ بوضع الحمل، سواء كان بعد ساعه من الطلاق، أو بعد ثمانى أشهر مثلاً.

و قد ذكرت ثلاثه احتمالات فى معنى عبارته إِنْ ارْتَبْتُمْ :

١-الشكّ فى وجود«الحمل»بمعنى أنّه هناك احتمال حمل بعد سنّ اليأس (خمسون سنه للنساء العاديات، و ستون سنه للنساء القرشيات)فمن أجل هذا الاحتمال الضعيف الذى نادرا ما يقع، يجب أن تحتاط النساء فتحصى عدتها ثلاثه أشهر (١).

ص: ٤١٦

٢- النساء اللاتي لا يعلم بأنهن وصلن إلى مرحلة اليأس أم لا.

٣- المراد هو الشك في حكم هذه المسألة، فحكمها كما ورد في هذه الآية.

□
و يبدو أن الأنسب والأقرب هو التفسير الأول فإن التعبير بـ «اللاتي يئسن» ... يوحي أن هؤلاء النساء قد بلغن سن اليأس.

و يشار إلى أن حكم النساء اللاتي غابت عنهن العادة الشهرية لمرض أو غيره هو نفس حكم اليائسات، أي يعددن ثلاثه أشهر (يمكن أن يستفاد هذا الحكم عن طريق قاعده الأولويه أو مشمولاً بلفظ الآية) (١).

□
جملة «اللاتي لم يحضن» يمكن أن تكون إشاره إلى النساء اللاتي بلغن سن البلوغ، دون أن يشاهدن العادة الشهرية. وفي هذه الصورة يجب أن يحسبن عدتهن ثلاثه أشهر.

و احتملوا أن تكون الآية ناظره لجميع النساء اللاتي لم يشاهدن العادة الشهرية، سواء بلغن سن اليأس أم لا. غير أن المشهور بين فقهاءنا أن لا- عدّه للنساء اللاتي يطلقن قبل بلوغهن سن البلوغ. و يوجد من خالف هذا الرأي و استدّلوا على ذلك ببعض الروايات، كما أن ظاهر الآية يوافقهم. (للتوسع في ذلك يجب الرجوع إلى الكتب الفقهية) (٢).

و ذكر كسبب لنزول الجملة الأخير في الآية أن «أبي بن كعب» سأل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن أن القرآن لم يذكر عدّه النساء الصغيرات و النساء الكبيرات «اليائسات» و الحوامل فنزلت السابقة تبين أحكامهن (٣).

و يذكر أن العدّه في هذا المورد إنما تكون في حق النساء اللاتي يحتمل في

ص: ٤١٧

١- ١) -طبعا المشهور بين الفقهاء أن المرأة عند ما تصل إلى سن اليأس سوف لا تكون لها عدّه مطلقا، ولكن في مقابل ذلك كان عدد من الأصحاب المتقدمين يقولون بوجوب العدّه، و تساعدهم بعض الروايات رغم معارضة روايات أخرى. و ما يتطابق مع ظاهر الآية هو أنه في حالة الشك في الحمل فهناك عدّه.

٢- ٢) (للتوسع أكثر راجع جواهر الكلام، ج ٣٢، ص ٢٣٢ و كتب فقهيه اخرى).

٣- ٣) -كنز العرفان، ج ٢، ص ٢٦٠.

حَقَّهْنَ الحمل، لِأَنَّهُنَّ ذَكَرْنَ فِي الْآيَةِ مَعْطُوفَاتٍ عَلَى النِّسَاءِ الْيَائِسَاتِ، وَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ حَكْمَهُنَّ وَاحِدٌ (١).

و أخيراً يُؤَكِّد مَرَّةً أُخْرَى فِي نَهَايَةِ الْآيَةِ عَلَى التَّقْوَى حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى:

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا

يُسِّرُ أُمُورَهُ وَ يَسَهِّلُهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ، وَ كَذَلِكَ فِي الْعَالَمِ الْآخِرِ، بِالْطَّافَةِ سِوَاءٍ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ أَوْ قَضِيَّةِ الطَّلَاقِ أَوْ فِي قَضَايَا أُخْرَى.

و لِلتَّأَكِيدِ عَلَى أَحْكَامِ الطَّلَاقِ وَ الْعِدَّةِ فَقَدْ أَضَافَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْلَا حَقَّهَ قَائِلًا:

ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا

قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ: إِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ «السَّيِّئَاتِ» هُنَا «الذُّنُوبُ الصَّغِيرَةُ» وَ الْمَقْصُودُ مِنَ «التَّقْوَى» اجْتِنَابُ الذُّنُوبِ الْكَبِيرَةِ.

وَ بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ تَجَنُّبَ الْكِبَائِرِ يُؤَدِّي إِلَى غَفْرِانِ الصَّغَائِرِ، كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ ٣١ مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ. وَ لَا يَزِمُ هَذَا أَنَّ مُخَالَفَةَ الْأَحْكَامِ فِي هَذَا الْمَجَالِ - أَى فِي الطَّلَاقِ وَ الْعِدَّةِ - يَعَدُّ مِنَ الذُّنُوبِ الْكَبِيرَةِ (٢).

وَ رَغْمَ أَنَّ السَّيِّئَاتِ تَطْلُقُ أحياناً عَلَى الذُّنُوبِ الصَّغِيرَةِ، كَمَا وَرَدَ فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَ لَكِنَّهَا تَطْلُقُ فِي آيَاتٍ أُخْرَى عَلَى كُلِّ الذُّنُوبِ أَعَمٍّ مِنَ الصَّغِيرَةِ وَ الْكَبِيرَةِ، نَقَرَأُ فِي الْآيَةِ ٦٥ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ «وَ جَاءَ مَا يَشَابَهُ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ أُخْرَى».

وَ مِنَ الْمُسَلَّمِ أَنَّ الْإِيمَانَ وَ الْإِسْلَامَ يُؤَدِّيَانِ إِلَى غَفْرِانِ الذُّنُوبِ السَّابِقَةِ.

وَ تَعطَى الْآيَةُ الْلَا حَقَّهَ تَوْضِيحاً أَوْسَعَ وَ أَشْمَلَ لِحَقُوقِ الْمَرْأَةِ بَعْدَ الطَّلَاقِ، مِنْ حَيْثُ «السَّكَنُ» وَ «النَّفَقَةُ» وَ أُمُورٌ أُخْرَى.

ص: ٤١٨

١- ١) - قَالَ الطَّبْرَسِيُّ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: إِنَّ التَّقْدِيرَ «وَ اللَّائِي لَمْ يَحْضُنْ إِذَا ارْتَبَتُمْ فَعِدَّتَهُنَّ أَيْضًا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ».

٢- ٢) - الْمِيزَانُ، ج ١٩، ص ٣٦٧.

يقول تعالى فى سكن النساء المطلقات: أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ .

«وجد» على وزن (حكم)، بمعنى القدره و التمكن، و ذكر المفسّرون تفاسير اخرى ترجع فى النتيجة إلى نفس المعنى، إذ يقول الراغب فى المفردات: إنّ التعبير بـ مِنْ وَجْدِكُمْ يعنى بما تستطيعون و بما تقدرون عليه، و بمعنى اختاروا مسكنا مناسباً قدر الإمكان للنساء المطلقات.

و من الطبيعى أنّه حينما يكون الإسكان على نفقه الزوج و فى عهده، فإنّ الأمور الاخرى من الإنفاق ستقع هى الاخرى على عاتق الزوج، و الشاهد على هذا المدعى ذيل الآيه الذى يتحدّث عن نفقه النساء الحوامل.

ثم يتطرّق تعالى لذكر حكم آخر و لا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ .

حذار أن يغزّكم البعض و يزرع بينكم البغض و العداوه و النفور، ممّا يؤدّى إلى إخراجكم عن جادّه الحقّ، فتحرمونهنّ حقوقهنّ الطبيعىه فى السكن و النفقه، و تجعلوهنّ تحت ضغوط لا يستطعن معها إلّا الهرب و ترك كلّ شىء.

يقول تعالى فى ثالث حكم حول النساء الحوامل و إنّ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .

فما دمن حاملات فهنّ فى حاله عدّه يستحقنّ النفقه و السكن على الزوج.

و يقول تعالى فى الحكم الرابع حول حقوق النساء المرضعات فإنّ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَاتُّوهُنَّ أَجُورَهُنَّ .

اجره تتناسب مع مقدار و زمان الإرضاع، و طبقاً لما هو معروف و شائع عرفاً و نظراً لأنّ الأطفال كثيراً ما يصبحون نقطه للنزاع و الخلاف بين الزوج و الزوجه بعد الطلاق، فقد أوضح القرآن فى الحكم الخامس هذا الأمر بشكل قاطع و لائق حيث قال: وَ أَتِمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ و تشاوروا بينكم فى مصير الأولاد و مستقبلهم.

و يحذّر القرآن الكريم من مغبّه أن يكون الأطفال ضحيّة الخلاف الواقع بين الزوج و الزوجه، ممّا يترك عليهم آثارا واضحه على تكوينهم الجسمى و النفسى، إذ يحرمون من حنان الامّ و الأب و شفقتهم فينبغى أن يتّقى الأبوان الله تعالى و يحفظا حقوق الأطفال فإنهم لا يستطيعون الدفاع عنها.

و جمله «و أتمروا» من مادّه «ايتمار» و تأتى أحيانا بمعنى «قبول الأمر» و أحيانا اخرى بمعنى «التشاور» و المعنى الثانى أقرب إلى معنى الآية.

و التعبير «بمعروف» تعبير جامع يشمل كلّ مشاورة فيها خير و صلاح.

و فى حاله عدم حصول التوافق و التفاهم بين الزوجين حول مصير الأطفال و قضيه إرضاعهم، يقول القرآن فى سادس حكم فى هذا المجال وَ إِن تَعَاْسَرْتُمْ فَعَسْرُضِعْ لَهُ أُخْرَى .

إشاره إلى أنّ الخلافات إذا طالت و تعقّدت فأعطوا الأطفال إلى مرضعه اخرى، و رغم أنّ الامّ هى الأولى بذلك، لكن إذا بقى الأطفال ينتظرون، و ظلّ النزاع على حاله، فلا ينبغى أن ينسى الأطفال فى خضم هذا النزاع.

و تبين الآية اللاحقه سابع-و آخر حكم فى هذا المجال حيث يقول تعالى:

لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَ مَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا .

فهل أنّ هذا الأمر يرتبط بالنساء اللاتى يتعهدن رضاعه أطفالهنّ بعد الفرقة و الطلاق، أو أثناء العده التى أشير إليها بصورة إجماليه فى الآيات السابقه، أو أنّه يرتبط بكليهما معا.

و يبدو أنّ المعنى الأخير أنسب و أقرب، رغم أنّ بعض المفسّرين اعتبرها خاصّه بالنساء المرضعات فقط فى الوقت الذى أطلقت الآيات السابقه على هذا الأمر تعبير «أجر» و ليس «نفقه و إنفاق».

على كلّ حال لا ينبغى للذين ليس لهم القدره أن يتشدّدوا و يعقدوا الأمور،

كما أنَّ الذين لا يملكون القدره المالىه غير مأمورين إلا بالقدر الذى تسعه قدرتهم المالىه و لا يحق للنساء مطالبتهم بأكثر من ذلك.

و بناء على هذا فالذين لديهم المقدره و الاستطاعه ثم يخلون بها فإنهم يستحقون اللوم و التقريع لا الذين لا يملكون شيئا.
□
و فى نهايه المطاف يبشّرههم الله تعالى بقوله: سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا أى لا تجزعوا و لا تحزنوا و لا يكن الضيق فى المعيشه سببا لخروجكم عن الطريق السوى، فإنّ الدنيا أحوال متقلّبه لا- تبقى على حال، فحذار من أن تقطع المشاكل العابره و المرحليه حبل صبركم.

و كانت هذه الآيه بمثابه بشرى أبدية للمسلمين الذين كانوا حينذاك يعيشون ضنكا ماديا و عوزا فى متطلّبات الحياه، فهى تبعث الأمل فى نفوسهم و تبشّر الصابرين.

و لم تمض فتره طويله حتّى فتح الله عليهم أبواب رحمته و برκτη.

بحوث

اشاره

١- أحكام الطلاق الرجعى

قلنا أنّه فى الطلاق الرجعى يستطيع الزوج متى شاء أن يرجع إلى زوجته خلال فتره العده إلى آخر يوم منها، بلا حاجه إلى عقد أو ما شابه، و الطريق إلى ذلك سهل يسير يمكن أن يتمّ بأى حديث أو عمل يشمّ منه رائحه العوده و يدلّ على الرجوع فى العلاقه الزوجيه، و قد اختصّت بعض الأحكام التى وردت فى الآيات أعلاه مثل «النفقه» و «السكن» بحاله الطلاق الرجعى، يضاف إلى ذلك عدم خروج المراه من بيت زوجها أثناء العده، فإنّها أيضا من مختصّيات الطلاق الرجعى أمّا الطلاق البائن غير القابل للرجوع، (كالطلاق للمره الثالثه) فإنّه غير

مشمول بتلك الأحكام.

أما حقّ النفقه و السكن فهو ثابت للنساء الحوامل إلى حين وضع الحمل.

و التعبير ب لا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا إشاره إلى أنّ كلّ الأحكام السابقه-أو بعضها-مرتبط بالطلاق الرجعى (١).

٢- لا يَكْلِفُ اللَّهَ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا

ليس العقل وحده يحكم بذلك، وإنما الشرع هو الآخر شاهد و دليل على ذلك. أى أنّ تكاليف البشر و مسئولياتهم إنّما هى بقدر طاقتهم و تعبير لا يُكَلِّفُ اللَّهَ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا التى وردت ضمن الآيات السابقه هو إشاره إلى هذا المعنى.

و لكن ورد فى بعض الروايات أنّ المقصود ب ما آتَاهَا هو «ما أعلمها» أى أنّ اللَّهَ يَكْلِفُ الناس بقدر ما أعلمهم به. و لذا استدلّ بهذه الآية على إثبات «أصل البراءة» فى مباحث علم الأصول، فمن لا يعلم حكما ليس عليه مسئوليته تجاه ذلك الحكم.

و نظرا لأنّ عدم الاطلاع يؤدّى أحيانا إلى عدم المقدرة، فمن الممكن أن يكون المقصود هو الجهل الذى يكون مصدرا للعجز.

و بناء على هذا فإنّه سيكون للآية مفهوم واسع يشمل عدم القدره و الجهل الذى يؤدّى إلى عدم القدره على إنجاز التكليف.

٣- أهميّة النظام العائلى

إنّ الدقّه و الظرافه التى عالجت بها الآيات القرآنيه أحكام النساء المطلقات و حقوقهنّ و باقى الجزئيات المتعلقة فى هذا المجال، الوارده فى آيات قرآنيه

ص: ٤٢٢

١- ١) -راجع الكتب الفقهيّه للتوسّع فى ذلك و منها كتاب «جواهر الكلام»، ج ٣٢، ص ١٢١.

أخرى، تمثل بمجموعها المنهج و القانون الإسلامى لمواجهه هذه المشاكل.

كلّ ذلك يبرز الأهميّة الخاصّة التي يوليها الإسلام لنظام العائلة و رعايه حقوق المرأة و الأبناء.فهو يسعى لمنع وقوع الطلاق قدر الإمكان،و يحاول استئصال جذور هذا العمل البغيض،و لكن إذا وصلت هذه الجهود إلى طريق مسدود و أصبح الطلاق و الانفصال هو العلاج الوحيد،عندها يحذّر من ضياع حقوق الأطفال و يرفض أن تذهب هذه الحقوق ضحيّة هذا النزاع،حتّى أنّه شرع حكم الطلاق بطريقه يمكن فى ضوءها الرجوع عنه غالباً.

إنّ أوامر الإمساك بمعروف و الطلاق بمعروف،و كذلك عدم الإضرار و التضييق على النساء و التشدّد فى أمرهنّ،و التشاور الحسن فى شؤون الأطفال، و ما إلى ذلك كلّها شواهد على ذلك.

غير أنّ عدم اطلاع المسلمين على هذه الأحكام و جهلهم بها،أو إعراضهم عن الالتزام بها رغم علمهم،أدى إلى نشوء مشاكل عائليه عديده حين الطلاق، و خاصّه فى شأن الأطفال.و ذلك نتيجة ابتعاد المسلمين عن مصدر الفيض الإلهى الذى هو القرآن.فمثلاً- فى الوقت الذى يدعو القرآن إلى عدم خروج النساء من بيت الزوج فى أيام العده،و لا يحقّ للزوج إكراهها على الخروج أثناء تلك الفتره المحدّده مما يؤدّى هذا الحكم إلى العدول عن الطلاق و رجوع النساء إلى الحياه الزوجيه،نرى قلّة من النساء و الرجال يلتزمون بذلك بعد وقوع الطلاق،و هذا ما يدعو إلى الأسف حقّاً.

اشاره

وَكَأَيُّنَ مِنْ قَوْمٍ عَتَتْ عَنْ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَقَالَتْ بَنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسِيرًا (٩) أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١)

التفسير

اشاره

العاقبه المؤلمه للعاصيين:

فى كثير من الموارد يأتى القرآن على ذكر الأمم السابقه بعد إيراد سلسله من الأحكام و التكاليف،لكى يرى المسلمون بأعينهم عاقبه كل من (الطاعه

و العصيان) فى تجارب الماضى و تأخذ القضية طابعا حسيا.

و لم يخرج القرآن الكريم فى هذه السوره عن هذا النهج، فبعد ذكر وظائف كل من الرجال و النساء عند الطلاق، يحذر العاصين و المتمردين من العواقب الوخيمه التى تنتظرهم بقوله فى البدايه: وَ كَأَيُّنْ مِنْ قَوْمٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَ رُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَ عَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْرًا (١).

و المقصود بـ«القريه» هو محل اجتماع الناس، و هو أعَمّ من المدينه و القرية، و المراد هو أهلها.

«عتت» من مادّه «عتو» على وزن «غلو» بمعنى التمرد على الطاعه.

و«نكر» على وزن «شكر» و يعنى العمل الصعب الذى لم يسبق له مثيل.

«حسابا شديدا» أى الحساب الدقيق المقرون بالشده و الصرامه، و يعنى العقاب الشديد الذى هو نتيجة الحساب الدقيق. و هو على كل حال إشاره إلى عاقبه الأقسام السابقه المتمرده العاصيه فى هذه الدنيا، التى هلكت بعضها بالطوفان، و بعضها بالزلازل، و آخرون بالصواعق و العواصف، و أمثالهم حلّ بهم الفناء و بقت ديارهم و آثارهم عبره للأجيال بعدهم.

لذلك يضيف تعالى فى الآيه اللاحقه: فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا .

و أى خساره أفدح من خسران رأس المال الذى وهبه الله، و الخروج من هذه الدنيا- ليس فقط بعدم شراء المتاع- و إنّما بالانتهاه إلى العذاب الإلهى و الدمار.

و يرى البعض أنّ «حسابا شديدا» و «عذابا نكرا» يشيران إلى «يوم القيامة»

ص: ٤٢٥

١- ١) - «كأين» على الرأى المشهور لعلماء الأدب اسم مركب من «كاف» التشبيه و «أى» مع التنوين الذى دخل فى بناء هذا الاسم، و يقرأ مع الوقف كذلك، و كتب أيضا فى كتابه المصاحف و معناها كمعنى «كم» الخبريه، رغم وجود فرق بسيط بينهما. و على الرأى غير المشهور فإنّها اسم بسيط و كافها و نونها جزء من الكلمه.

و اعتبروا الفعل الماضى من باب الماضى المراد به المستقبل، و لكن لا داعى لهذا التكلف، خاصه أن السوره تحدّثت عن يوم القيامة فى الآيات اللاحقه، فذلك يدلّ على أن المراد بالعذاب هنا هو عذاب الدنيا.

ثم يشير تعالى إلى عقابهم الاخرى بقوله: **أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا** عذابا مؤلما، مخيفا، مذلا، فاضحا، دائما أعدّه لهم منذ الآن فى نار جهنّم.

و الآن فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا .

إنّ الفكر و التفكير من جهه، و الإيمان و الآيات الإلهيه من جهه اخرى، تحدّركم و تدعوكم لملا حظه مصائر الأقسام السابقه المتمرّده التى عصت أمر ربّها، و الإعتبار بذلك و الحذر من أن تكونوا مثلهم، فقد ينزل عليكم الله غضبه و عذابه الذى لم يسبق له مثيل إضافه إلى عذاب الآخره.

و بعد ذلك يخاطب الله تعالى المؤمنين الذين يتفكّرون فى آيات الله بقوله:

قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا

و هو الشىء الذى يوجب تذكركم.

و أرسل لكم رسولا يتلو عليكم آيات الله الواضحه رسولا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .

علما أن هناك خلافا بين المفسّرين فى معنى كلمه «ذكر» و لكلمه «رسولا» اعتبر بعضهم أن «الذكر» يعنى القرآن، بينما فسّرها البعض الآخر بأنّها تعنى (رسول الله) لأنّ الرّسول هو سبب تذكّر الناس، و طبقا لهذا التفسير فإنّ كلمه «رسولا» التى تأتى بعدها تعنى شخص الرّسول، و ليس فى البين كلام محذوف.

و لكن يصبح معنى «الإنزال» هنا هو وجود الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم فى الامّه و بعثه فيها من قبل الله تعالى.

و لكن إذا أخذنا «الذكر» بمعنى «القرآن» فإنّ كلمه «رسولا» لا يمكن أن تكون بدلا، و فى الجملة محذوف تقديره «أنزل الله إليكم ذكرا و أرسل إليكم رسولا».

قال البعض: أن «الرَّسُولَ» يقصد به «جبرائيل» و بهذا يكون النزول نزولا حقيقيا، نزل من السماء، غير أن هذا التفسير لا ينسجم مع عبارته **يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ** لأن جبرائيل لم يقرأ الآيات القرآنية بصورة مباشرة على المسلمين.

و بصورة عامه، فإن كل أى من هذه الآراء يحتوى على نقاط قوه و نقاط ضعف، و يبقى التفسير أو الرأى الأول أفضل الآراء أى أن «الذكر» يقصد به «القرآن» و «رسولا» يقصد به رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. و ذلك لأن القرآن الكريم أطلق على نفسه «الذكر» فى آيات كثيره، خصوصا أنها كانت مقرونه بكلمه «إنزال» إلى الحد الذى أصبح كلما جاءت عبارته «إنزال الذكر» تداعى إلى الأذهان القرآن الكريم.

ثم نقرأ فى الآية (٤٤) من سوره النحل **وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .**

و جاء فى الآية (٦) من سوره «الحجر» **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ .**

و إذا جاء فى بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السّلام أن المقصود من «الذكر» هو رسول الله و «أهل الذكر» هم «الأئمه»، فقد يكون المقصود هو المعنى الباطنى للآيه، لأننا نعلم أن «أهل الذكر» فى آيه **فَشَبَّئِلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ** إن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ النحل (٤٣) ليس خصوص أهل البيت عليهم السّلام، بل إن شأن نزولها هو علماء أهل الكتاب، و لكن نظرا لاتساع معنى الذكر فإنه يشمل رسول الله كأحد مصاديقه.

على أى حال فإن الهدف النهائى من إرسال الرسول و إنزال هذا الكتاب السماوى، هو لإخراج الناس من الظلمات و الكفر و الجهل و ارتكاب الذنوب و المآثم و المفسد الأخلاقية، إلى نور الإيمان و التوحيد و التقوى.

و الواقع أن تمام أهداف بعثه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و نزول القرآن يمكن تلخيصها بهذه الجملة، و هى الخروج من الظلمات إلى النور.

و تجدر الإشارة إلى أنّ «الظلمات» ذكرت بصيغه الجمع بينما ذكر النور بصيغه المفرد، لأنّ الكفر و الشرك و الفساد تؤدّى إلى الفرقه و الاختلاف، بينما يؤدّى الإيمان و التوحيد و التقوى إلى الوحده و التلاحم.

و فى ختام الآيه يشير إلى أجر العاملين المخلصين بقوله: وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا .

و أشار بالفعل المضارع «يؤمن» و «يعمل» إلى أنّ إيمانهم و عملهم الصالح ليسا محدودين بحدود الزمان و المكان، و إنّما لهما استمرار و ديمومه (١).

و التعبير ب(خالدين) دليل على كون الجنّه خالده، و بذلك تكون كلمه «أبدا» التى جاءت بعدها تأكيد لهذا الخلود.

و التعبير ب«رزقا» بصيغه نكره إشارة إلى عظمه و أهمّيه الأرزاق الطيبه التى يهيئها الله لهذه الجماعه، و قد يتّسع معناها ليشمل كلّ النعم الإلهيه فى الدنيا و الآخرة، لأنّ الصالحين و المتّقين لهم حياتهم الكريمة حتّى فى الحياه الدنيا.

ص: ٤٢٨

١ - ١) - ينبغى الالتفات إلى أنّ الضمائر فى الآيه بعضها بصيغه الجمع و بعضها الآخر بصيغه المفرد، و هذا يعنى أنّه فى الموارد التى جاء بصيغه المفرد يكون بمعنى الجنس و الجمع أيضا.

اشاره

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)

التفسير

اشاره

الهدف من خلق العالم:

هذه الآيه هي آخر آيه من سوره الطلاق، وفيها إشاره معبره و صريحه إلى عظمه و قدره البارئ جلّ شأنه في خلق السموات و الأرض و بيان الهدف النهائي للخلق، ثم تكمل الآيه الأبحاث التي وردت في الآيات السابقة حول الثواب العظيم الذي أعدّه الله للمؤمنين المتّقين، و العهود التي قطعها على نفسه لهم فيما يخصّ حلّ مشاكلهم المعقّده. إذ من الطبيعي أنّ الذي أوجد هذا الخلق العظيم له القدره على الوفاء بالعهود سواء في هذا العالم أو العالم الآخر.

يقول تعالى أولاً: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ .

وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ

.

بمعنى أنّ الأرضين سبع كما السماوات سبع، و هذه هي الآيه الوحيدة التي

تشير إلى الأرضين السبع في القرآن الكريم.

و الآن لنر ما هو المقصود من السموات السبع و الأرضين السبع؟ مرّت أبحاث مطوّله في هذا المجال في ذيل الآيه (٢٩) من سوره البقره، و في ذيل الآيه (١٢) من سوره فصلّت، لذا نكتفى هنا بإشاره مقتضبه و هى:

إنّه من الممكن أن يكون المراد من عدد (٧) هو الكثره، فكثيرا ما ورد هذا التعبير للإشاره إلى الكثره في القرآن الكريم و غيره، فنقول أحيانا للمبالغه لو أتيت بسبعه أبحر لما كفت.

و بناء على هذا فسيكون المقصود بالسموات السبع و الأرضين السبع هو الإشاره إلى العدد العظيم و الهائل للكواكب السماويه و الكواكب التى تشبه الأرض.

أمّا إذا اعتبرنا العدد سبعة هو لعدد السموات و عدد الأرضين، فإنّ مفهوم هذه الآيه مع الالتفات إلى الآيه (٦) من سوره الصافات التى تقول: **إِذَا زَيَّنا السَّماءَ الدُّنيا بِزِينَةِ الكُواكبِ** سيكون شيئا آخر، و هو أنّ علم البشر و معرفته مهما اتّسعت فهى محدوده و متعلّقه بالسماه الاولى التى توجد وراءها ثوابت و سيارات سته هى عباره عن العوالم الاخرى التى لا تتسع لها معرفتنا المحدوده و لا ينالها إدراكنا الضيّق.

أمّا الأرضين السبع و ما حولها، فربّما تكون إشاره إلى طبقات الأرض المختلفه، لأنّ الأرض تتكوّن من طبقات مختلفه كما ثبت اليوم علميّاً. أو لعلّها تكون إشاره إلى المناطق السبع التى تقسّم بها الأرض فى السابق و حالياً. علما أنّ هناك اختلافا بين التقسيم السابق و التقسيم الحالى، فالتقسيم الحالى يقسّم الأرض إلى منطقتين: منطقه المنجمد الشمالى، و المنجمد الجنوبى. و منطقتين معتدلتين، و آخرين حارّتين، و منقطه استوائيه. أمّا سابقا فكان هناك تقسيم آخر لهذه المناطق السبع.

و يمكن أن يكون المراد هنا من العدد «سبعه» المستفاد من تعبير (مثلهنّ) هو الكثرة أيضا التي أشير بها إلى الكرات الأرضيه العديده الموجوده فى العصر الراهن، حتّى قال بعض علماء الفلك: إنّ عدد الكرات المشابهه للأرض التى تدور حول الشمس يبلغ ثلاثه ملايين كره كحدّ أدنى (١).

و نظرا لقلّه معلوماتنا حول ما وراء المنظومه الشمسيه، فإنّ تحديد عدد معيّن حول هذا الموضوع يبقى أمرا صعبا. و لكن على أى حال فقد أكّد علماء الفلك الآخرون أنّ هناك ملايين الملايين من الكواكب التى وضعت فى ظروف تشبه ظروف الكره الأرضيه، ضمن مجرّه المجموعه الشمسيه، و هى تمثّل مراكز للحياه و العيش.

و ربّما ستكشف التطورات العلميه القادمه معلومات أوسع و أسرار اخرى حول تفسير مثل هذه الآيات.

ثمّ يشير تعالى إلى إداره هذا العالم الكبير و تدبيره بقوله جلّ شأنه يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ .

و واضح أنّ المراد من «الأمر» هنا هو الأمر التكوينيّ لله تعالى فى خصوص إداره و تدبير هذا العالم الكبير، فهو الهادى و هو المرشد و هو المبدع لهذا المسار الدقيق المنظّم، و الحقيقه أنّ هذه الآيه تشبه الآيه (٤) من سوره السجده حيث تقول: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ .

على أى حال فإنّ هذا العالم سيفنى و يتلاشى إذا ما رفعت عنه يد التدبير و الهدايه الإلهيه لحظه واحده.

و أخيرا يشير تعالى إلى الهدف من وراء هذا الخلق العظيم حيث يقول:

لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا

.

ص: ٤٣١

١ - ١) - تفسير «المراغى»، ج ٢٨، ص ١٥١، فى حديث نقل عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال: «لهذه النجوم التى فى السماء مدائن مثل المدائن التى فى الأرض». (تفسير البرهان، ج ٤، ص ١٥).

كم هو تعبير لطيف، إذ يعتبر الهدف من هذا الخلق العظيم هو تعريف الإنسان بصفات الله في علمه و قدرته، و هما صفتان كافيتان لتربيته الإنسان.

و من ثم يجب أن يعلم الإنسان أنّ الله محيط بكلّ أسرار وجوده، عالم بكلّ أعماله ما ظهر منها و ما بطن. ثم يجب أن يعلم الإنسان أنّ وعد الله في البعث و المعاد و الثواب و العقاب و حتميه انتصار المؤمنين، كلّ ذلك غير قابل للتخلف و التأخر.

نعم، إنّ هذا الخالق العظيم الذى له هذه «القدره و العلم» و الذى يدير هذا العالم بأجمعه، لا بدّ أنّ أحكامه على صعيد تنظيم علاقات البشر و قضايا الطلاق و حقوق النساء ستكون بمنتهى الدقه و الإتيان.

أوردنا بحثاً مفصلاً حول موضوع «الخلق» فى ذيل الآيه (٥٦) من سورة الذاريات.

الجدير بالذكر أنّ هناك إشارات وردت فى آيات عديده من القرآن الكريم تبين الهدف من خلق الإنسان أو الكون، و قد تبدو مختلفه، و لكن بالنظره الدقيقه نلاحظ أنّها ترجع إلى حقيقه واحده.

١- فى الآيه (٥٦) من سورة الذاريات يعتبر «العباده» هى الهدف من خلق الجنّ و الإنس و ما خلقت الجنّ و الإنس إلا ليعبدون .

٢- و فى الآيه (٧) من سورة هود يضع امتحان الإنسان و تمحيصه كهدف لخلق السموات و الأرض: هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .

٣- فى الآيه (١١٩) من سورة هود يقول: إنّ الرحمه الإلهيه هى الهدف «و لذلك خلقهم».

٤- و فى الآيه مورد البحث اعتبر العلم و المعرفه بصفات الله هى الهدف «...لتعلموا...».

إنّ تدقيقاً بسيطاً في هذه الآيات يرينا أنّ بعضها مقدّمه للبعض الآخر، فالعلم و المعرفة مقدّمه للعبوديه، و العباده هي الاخرى مقدّمه للامتحان و تكامل الإنسان، و هذا مقدّمه للاستفاده من رحمه الله «فتأمل!» ربّنا قد عرفتنا بهدف خلقك العظيم فأعنا على الوصول إلى ذلك الهدف.

اللهم، إنّ رحمتك واسعه و كرمك دائم و قدرتك نافذه، فأفرض علينا من رحمتك.

اللهم، إنّك أنزلت القرآن و الرّسول لتخرج الناس من الظلمات إلى النور فأخرجنا من ظلمات الذنوب و أهواء النفوس و أنر قلوبنا بنور الإيمان و التقوى.

آمين يا ربّ العالمين نهايه سوره الطلاق

ص: ٤٣٣

سورة التّحریم

اشاره

مدنیہ و عدد آیاتہا اثنتا عشرہ آیہ

ص: ۴۳۵

محتوى السوره:

تتكوّن هذه السوره من أربعة أقسام رئيسيّة:

القسم الأوّل: يرتبط بقصّه الرّسول صلّى الله عليه وآله و سلّم مع بعض أزواجه حينما حرم بعض أنواع الطعام على نفسه، فنزلت الآيات من ١-٥ وفيها لوم لزوجات الرّسول لأسباب سنذكرها في سبب النزول.

القسم الثّاني: خطاب لكلّ المؤمنين في شؤون التّربية و رعايه العائله و لزوم التّوبه من الذّنوب، و هو من الآيه ٦-٨.

القسم الثّالث: و هو الآيه التاسعه التى تتضمّن خطابا إلى الرّسول صلّى الله عليه وآله و سلّم بضروره مجاهدته الكفّار و المنافقين.

القسم الرّابع: و هو القسم الأخير للسوره، من الآيه ١٠-١٢ و يتضمّن توضيحا للأقسام السابقيه بذكر نموذجين صالحين للنساء، و هما (مريم العذراء، و زوجه فرعون) و نموذجين غير صالحين (زوجه نوح، و زوجه لوط) و يحذّر نساء النّبي من هذين النموذجين الأخيرين و يدعوهم إلى الاقتداء بالنموذجين الأوّلين.

فضيله تلاوه سوره التّحریم:

فى حديث عن الرّسول صلّى الله عليه وآله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سوره يا أيّها النّبي لم تحرم ما

أحل الله لك أعطاه الله توبه نصوحا» (١).

و

فى حديث عن الإمام الصادق قال: «من قرأ سورة الطلاق و التحريم فى فريضه أعاده الله من أن يكون يوم القيامه ممّن يخاف أو يحزن و عوفى من النار و أدخله الله الجنّه بتلاوته إياهما و محافظته عليهما لأنّهما للنبي صلّى الله عليه و آله و سلّم» (٢).

ص: ٤٣٨

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣١١.

٢-٢) (ثواب الأعمال) طبقا لنقل تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٦٧.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّهُ أَيْمَانُكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنَّ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَاتِيَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيَّابَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)

اسباب النزول

وردت روايات عديدة في أسباب نزول هذه السورة في كتب الحديث

ص: ٤٣٩

والتفسير والتاريخ، عن الشيعة والسنة، انتخبنا أشهر تلك الروايات و أنسبها و هي:

كان رسول الله يذهب أحيانا إلى زوجته (زينب بنت جحش) فتبقيه في بيتها حتى «تأتي إليه بعسل كانت قد هيأت له صلى الله عليه وآله وسلم ولكن لما سمعت عائشه بذلك شقّ عليها الأمر، و لذا قالت: إنها قد اتفقت مع «حفصه» إحدى (أزواج الرسول) على أن يسألـ الرسول بمجرد أن يقترب من أيّ منهما بأنه هل تناول صمغ «المغافير» (و هو نوع من الصمغ يترشح من بعض أشجار الحجاز يسمى «عرفط» و يترك رائحه غير طيبه، علما أنّ الرسول كان يصرّ على أن تكون رائحته طيبه دائما) و فعلا سألت حفصه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذا السؤال يوما وردّ الرسول بأنّه لم يتناول صمغ «المغافير» و لكنّه تناول عسلا عند زينب بنت جحش، و لهذا أقسم بأنّه سوف لن يتناول ذلك العسل مرّه اخرى، خوفا من أن تكون زنابير العسل هذا قد تغذّت على شجر صمغ «المغافير» و حذرّها أن تنقل ذلك إلى أحد لكي لا يشيع بين الناس أنّ الرسول قد حرّم على نفسه طعاما حلالا فيقتدون بالرسول و يحرمونه أو ما يشبهه على أنفسهم، أو خوفا من أن تسمع زينب و ينكسر قلبها و تتألم لذلك.

لكنّها أفشت السرّ فتبيّن أخيرا أنّ القصّه كانت مدروسة و معدّه فتألم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لذلك كثيرا فنزلت عليه الآيات السابقة لتوضّح الأمر و تنهى من أن يتكرّر ذلك مرّه اخرى في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (١).

و جاء في بعض الروايات أنّ الرسول ابتعد عن زوجاته لمدّه شهر بعد هذا الحادث (٢)، انتشرت على أثرها شائعه أنّ الرسول عازم على طلاق زوجاته، الأمر الذي أدّى إلى كثره المخاوف بينهنّ (٣) و ندمن بعدها على فعلتهن.

ص: ٤٤٠

١- ١) -هذا الحديث أورده في الأصل (البخارى) في ج ٦، من صحيحه ص ١٩٤، و التوضيحات التي ذكرت في الأقواس تستفاد من كتب اخرى.

٢- ٢) -تفسير القرطبي و تفاسير اخرى ذيل الآية مورد البحث.

٣- ٣) -تفسير في ظلال القرآن، ج ٨، ص ١٦٣.

التوبيخ الشديد لبعض زوجات الرسول:

مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ رَجُلًا عَظِيمًا كَالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَهْمَهُ أَمْرُهُ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ، بَلْ أَمْرُهُ يَهْمُ الْمَجْتَمَعَ الْإِسْلَامِيَّ وَالبشرية جمعاء، ولهذا يكون التعامل مع أيِّه دسيسه حتى لو كانت بسيطة تعاملًا حازمًا وقاطعًا لا يسمح بتكررها، لكي لا- تتعرض حيثية الرسول واعتباره إلى أي نوع من التصدع والخدش والآيات محل البحث تعتبر تحذيرًا من ارتكاب مثل هذه الأعمال حفاظًا على اعتبار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

البداية كانت خطابًا إلى الرسول: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .

و من الواضح أنَّ هذا التحريم ليس تحريمًا شرعيًا، بل هو- كما يستفاد من الآيات اللاحقة- قسم من قبل الرسول الكريم، و من المعروف أنَّ القسم على ترك بعض المباحات ليس ذنبًا.

و بناء على هذا فإنَّ جملة لِمَ تُحَرِّمُ لَمْ تَأْتِ كتوبيخ و عتاب، وإنما هي نوع من الإشفاق و العطف.

تمامًا كما نقول لمن يجهد نفسه كثيرًا لتحقيق فائده معيَّنه من أجل العيش ثم لا يحصل عليها، نقول له: لماذا تتعب نفسك و تجهدها إلى هذا الحدِّ دون أن تحصل على نتيجة توازي ذلك التعب؟ ثم يضيف في آخر الآية: وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ...

و هذا العفو و الرحمة إنّما هو لمن تاب من زوجات الرسول اللاتي رتبْنَ ذلك العمل و أعددناه. أو أنّها إشارة إلى أنَّ الرسول ما كان ينبغي له أن يقسم مثل هذا القسم الذي سيؤدى-احتمالًا-إلى-جرأه و تجاسر بعض زوجاته عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

و يضيف في الآية اللاحقة أنَّ الله قد أوضح طريق التخلص من مثل هذا

القسم: قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحْلَةَ أَيْمَانِكُمْ (١) أى أعط كَفَّارَه القسم و تحرّر منه.

و يذكر أنّ الترك إذا كان راجحاً على العمل فيجب الالتزام بالقسم و الحنث فيه ذنب تترتب كفّاره عليه، أمّا فى الموارد التى يكون فيها الترك شيئاً مرجوحاً مثل «الآيه مورد البحث» فإنّه يجوز الحنث فى القسم، و لكن من الأفضل دفع كفّاره من أجل الحفاظ على حرمة القسم و احترامه (٢).

ثُمَّ يَضِيفُ: وَ اللَّهُ مُؤَلِّكُمْ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

فقد أنجاكم من مثل هذه الأقسام و وضع لكم طريق التخلص منها طبقاً لعلمه و حكمته.

و يستفاد من بعض الروايات أنّ النبى أعْتَقَ رقبه بعد هذا القسم و حلّ ما كان قد حرّمه بالقسم.

و فى الآيه اللاحقه يتعرّض لهذا الحادث بشكل أوسع: وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا تَبَيَّنَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ .

ما هذا السرّ الذى أسره النبى لبعض زوجاته ثم لم يحفظنه؟ طبقاً لما أوردناه فى أسباب النزول فإنّ هذا السرّ يتكوّن من أمرين:

الأول: تناول العسل عند زوجته (زينب بنت جحش).

و الثانى: تحريم العسل على نفسه فى المستقبل.

أمّا الزوجه التى أذاعت السرّ و لم تحافظ عليه فهى «حفصه» حيث أنّها نقلت ذلك الحديث الذى سمعت به إلى عائشه.

ص: ٤٤٢

-
- ١ - ١) - «الراغب» فى «المفردات»، يقول: إذا جاءت كلمه «فرض» مع «على» فإنّها تدلّ على الوجوب، و أمّا إذا جاءت معها «لام» فإنّها تدلّ على عدم المنع و بهذا يكون الفرض فى الآيه السابقه هو السماح و الإباحه و ليس الوجوب. و عبارته «تحلّه» - مصدر من باب تفعيل - بمعنى إباحه و الحلّيه، أو بتعبير آخر العمل على فتح عقده القسم، و هو الكفّاره.
- ٢ - ٢) - كفّاره القسم حسب ما يستفاد من الآيه (٨٦) من سوره المائده عبارته عن إطعام عشرة مساكين، أو إكساؤهم، أو تحرير رقبه. و إن كان لا يقدر على شىء من ذلك فصيام ثلاثه أيام.

أما الرسول صَلَّى الله عليه وآله وسلم فقد أطلع على إفشاء هذا السرّ عن طريق الوحي، و ذكر بعضه «لحفصه» و من أجل عدم إخراجها كثيرا لم يذكر لها القسم الثاني (و لعلّ القسم الأول يتعلّق بأصل شرب العسل، و الثاني هو تحريم العسل على نفسه).

و على كلّ فإنّه: فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ .

و يتّضح من مجموع هذه الآيات أنّ بعض زوجات الرسول لم يكتفين بإيذاء النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم بكلامهنّ، بل لا يحفظن سرّه، و حفظ السرّ من أهمّ صفات الزوجه الصالحه الوفيه لزوجها، و كان تعامل الرسول صَلَّى الله عليه وآله وسلم معهنّ على العكس من ذلك تماما إلى الحدّ الذي لم يذكر لها السرّ الذي أفشته كاملا لكي لا يجرّجها أكثر، و اكتفى بالإشارة إلى جزء منه.

و لهذا

جاء في الحديث عن الإمام على عليه السلام: «ما استقصى كريم قطّ، لأنّ الله يقول: عَرَفَ بَعْضُهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ (١)» .

ثمّ يتحدّث القرآن مع زوجتي الرسول اللتين كانتا وراء هذا الحادث بقوله:

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا

و قد اتّفق المفسّرون الشيعة و السنّه على أنّ تلك الزوجتين هما «حفصه بنت عمر» و «عائشه بنت أبي بكر».

«صغت» من مادّه «صغو» على وزن «عفو» بمعنى الميل إلى شيء ما، لذلك يقال «صغت النجوم» أي مالت النجوم إلى الغروب» و لهذا جاء اصطلاح «إصغاء» بمعنى الاستماع إلى حديث شخص آخر. و المقصود من «صغت قلوبكما» أي مالت من الحقّ إلى الباطل و ارتكاب الذنب (٢) .

ص: ٤٤٣

(١ - ١) - تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٣٩٢.

(٢ - ٢) - طبقا للتفسير الذي ذكرناه و الذي اختاره أكثر المفسّرين فإنّ هناك شيئا محذوفاً في الآية تقديره «إنّ تتوبا إلى الله كان خير لكما» أو تقدير آخر مشابه، و لكن احتمل بعض آخر أنّه ليس هناك محذوف في الآية و جمله (صغت قلوبكما) جزاء الشرط (بشرط أن يكون الميل إلى الحقّ و ليس العكس).

ثُمَّ يَضِيفُ تَعَالَى: وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ .

وَيَتَّضِحُ مِنْ هَذَا كَمْ تَرَكْتَ هَذِهِ الْحَادِثَةَ مِنْ أَثَرِ مَوْلَمَ فِي قَلْبِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَرُوحِهِ الْعَظِيمَةِ، وَرَغْمَ قُدْرَةِ الرَّسُولِ الْمُتَكَامِلَةِ نَشَاهِدُ أَنَّ اللَّهَ يَدَافِعُ عَنْهُ إِذَا يَعلَنُ حَمَايَهُ جِبْرَائِيلُ وَالْمُؤْمِنِينَ لَهُ.

وَمِنْ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنَّهُ وَرَدَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (مَا مَضْمُونُهُ) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: سَأَلْتُ عُمَرَ: مَنْ كَانَتِ الْمَرْأَتَانِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَى النَّبِيِّ مِنْ أَزْوَاجِهِ، فَقَالَ: تِلْكَ حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ، قَالَ: فَقُلْتُ وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لِأُرِيدَ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ هَذَا قَالَ:

فَلَا- تَفْعَلْ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ عِنْدِي مِنْ عِلْمٍ فَاسْأَلْنِي فَإِنْ كَانَ لِي عِلْمٌ خَبَرْتُكَ بِهِ، قَالَ ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ إِنْ كُنَّ فِي الْجَاهِلِيَةِ مَا تَعَدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْرًا حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ...» (١).

و

فِي تَفْسِيرِ الدَّرِّ الْمَنْشُورِ، وَرَدَ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ضَمِنَ حَدِيثُ مَفْصَّلٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ عُمَرُ: «...عَلِمْتُ بَعْدَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ أَنَّ النَّبِيَّ اعْتَرَلَ جَمِيعَ النِّسَاءِ، وَأَقَامَ فِي «مَشْرَبَةِ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ»، فَأَتَيْتُهُ وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ طَلَّقْتَ نِسَاءً كَ؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ:

اللَّهُ أَكْبَرُ، كُنَّا مَعَشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَجَدْنَا قَوْمًا تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَتَعَلَّمْنَ مِنْ نِسَائِهِمْ، فَغَضِبْتُ عَلَى امْرَأَتِي يَوْمًا فَإِذَا هِيَ تَرَايَعُنِي فَأَنْكَرْتُ أَنْ تَرَايَعُنِي فَقَالَتْ مَا تَنْكُرُ مِنْ ذَلِكَ فَوَاللَّهِ إِنْ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ لِيرَاجِعْنَهُ وَتَهْجُرَهُ إِحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ... فَقُلْتُ لِابْنَتِي حَفْصَةَ لَا تَفْعَلِي ذَلِكَ أَبَدًا وَإِنْ فَعَلْتَهُ جَارَتُكَ (يَعْنِي عَائِشَةَ) لِأَنَّكَ لَسْتَ هِيَ...» (٢).

(٢)

وَلَكِنْ هَذَا الْإِحْتِمَالُ بَعِيدٌ جَدًّا لِأَنَّ الشَّرْطَ جَاءَ بِصَيَغَةِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ بَيْنَمَا الْجَزَاءُ بِصَيَغَةِ الْفِعْلِ الْمَاضِي وَهَذَا غَيْرُ جَائِزٍ فِي عَرَفِ أَكْثَرِ النُّحَوِيِّينَ، وَيَذْكَرُ أَنَّ «قُلُوبَكُمْ» جَاءَتْ بِصَيَغَةِ الْجَمْعِ لَا- الْمُثْنَى، وَذَلِكَ لِتَلَاوُفِ اجْتِمَاعِ أَلْفَاظِ التَّشْبِيهِ بِصُورِهِ مُتَتَالِيَةِ الَّذِي لَا يَتَنَاسَبُ مَعَ بِلَاغِهِ الْقُرْآنَ وَفَصَاحَتِهِ.

ص: ٤٤٤

١- ١) -صحيح البخاري، ج ٦، ص ١٩٥.

٢- ٢) -الدّر المنثور، ج ٦، ص ٢٤٣.

فى آخر آيه من هذه الآيات يخاطب الله تعالى جميع نساء النبى بلهجه لا- تخلو من التهديد: عَسَىٰ رَبُّهُ إِنِ طَلَّقَكَ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِيَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيَّابَاتٍ وَأَبْكَارًا.

لذا فهو ينذرهن ألا يتصورن أنَّ الرُّسول صَلَّى الله عليه و آله و سلّم سوف لن يطلقهن، أو يتصورن أنَّ النبى لا يستبدلهن بنساء أخريات أفضل منهن، و ذلك ليكففن عن التآمر عليه و إلا فسيحرمن من شرف منزله «زوجه الرسول» إلى الأبد، و ستأخذ نساء أخريات أفضل منهن هذا اللقب الكريم.

بحوث

اشاره

١- صفات الزوجه الصالحه:

يضع القرآن الكريم عدّه صفات للمرأة الصالحه التى يمكنها أن تكون نموذجا يقتدى به فى انتخاب الزوجه اللائقه.

الأوّل «الإسلام» ثمّ «الإيمان» أى الاعتقاد الذى ينفذ و يترسّخ فى أعماق قلب الإنسان. ثمّ حاله «القنوت» أى التواضع و طاعه الزوج. بعد ذلك «التوبه» و يقصد أنّ الزوجه إذا ما ارتكبت ذنبا بحقّ زوجها فإنّها سرعان ما تتوب و تعتذر عن ذلك. و تأتى بعد ذلك «العباده» التى جعلها الله سبحانه ليظهر بها قلب الإنسان و روحه و يصنعها من جديد، ثمّ «إطاعه أوامر الله» و الورع عن محارمه.

و ممّا يذكر أنّ جماعه من المفسّرين - بل أكثرهم - اعتبروا كلمه «سائح» بمعنى «صائم» و لكن طبقا لما أورده «الراغب» فى «المفردات» فإنّ الصوم على قسمين: «صوم حكى» و هو الامتناع عن تناول الطعام و الماء، و «صوم حقيقى»:

و هو امتناع أعضاء الإنسان عن ارتكاب المعاصى.

و المقصود بالصوم هنا هو المعنى الثانى، «إذ أنّ مناسبات الحال و المقام تقوى

قول الراغب و تجعله مناسبا، غير أنه يجب أن يعلم أن السائح فسر أيضا بمعنى السائر في طريق طاعه الله» (١).

و من الجدير بالذكر أن القرآن لم يعط أهميته تذكر للباكر و غير الباكر، فإنه عند ما ذكر الصفات المعنوية للزوجه الصالحة ذكر هذه المسألة بصورة عابره و دون أى تركيز.

٢- من هم (صالح المؤمنين)؟

مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ صَالِحَ الْمُؤْمِنِينَ، لَهَا مَعَانٍ وَاسِعَةٌ تَشْمَلُ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ الْأَتْقِيَاءَ الَّذِينَ كَمَلَ إِيْمَانُهُمْ، وَرَغْمَ أَنَّ كَلِمَةَ (صَالِح) وَرَدَّتْ هُنَا بِصِيغَةِ الْمَفْرَدِ، وَلَكِنْ يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَفَادَ مِنْهَا الْعُمُومُ لِأَنَّهَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الْجِنْسِ (٢).

و لكن ما هو المصداق الأكمل و الأتم لهذا المصطلح؟ يستفاد من روايات عديده أن المقصود هو الإمام على أمير المؤمنين عليه السلام.

فِي حَدِيثٍ عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: «لَقَدْ عَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ عَلِيًّا أَصْحَابَهُ مَرَّتَيْنِ: أَمَّا مَرَّةً فَحَيْثُ قَالَ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ» وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَحَيْثُ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ... أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ بِيَدِ عَلِيٍّ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، هَذَا صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ!!؟» وَ قَدْ نَقَلَ هَذَا الْمَعْنَى فِي كِتَابِ عَدِيدِهِ لِعُلَمَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْهُمْ الْعَلَّامَةُ «الثَّعْلَبِيُّ» وَ «الْكُنْجِيُّ» فِي «كَفَايَةِ الطَّالِبِ» وَ «أَبُو حَتَّانَ الْأَنْدَلُسِيُّ» وَ «السَّبْطُ بْنُ الْجَوْزِيِّ»

ص: ٤٤٦

١ - ١) - «سائح» من مادّة «السياحة» و كانت تطلق في الأصل بمعنى الجولان في العالم، بدون زاد و متاع، و العيش اعتمادا على مساعدات الناس، لذلك فالصائم الذي يمسك عن الطعام حتّى يحين وقت الإفطار، شبيه بالسائح، من هذه الناحية، لذا أطلقت هذه اللفظة «السائح» على «الصائم».

٢ - ٢) - يرى البعض أن كلمة «صالح» هنا، تأتي بمعنى الجمع، نظرا لأنّ واو «صالحوا» حذفت للإضافة لذا فإنّها لم تظهر في رسم الخطّ القرآني إلا أنّ هذا المعنى بعيد في نظرنا.

وغيرهم (١).

وقد أورد جمع من المفسرين منهم «السيوطي» في «الدر المنثور» في ذيل الآيه مورد البحث و«القرطبي» في تفسيره المعروف، وكذلك «الآلوسي» في «روح المعاني» في تفسير هذه الآيه أوردوا هذه الروايه.

و بعد أن نقل مؤلف (روح البيان) هذه الروايه عن (مجاهد) قال: ويؤيد هذه الروايه الحديث المعروف: «حديث المنزله» الذي وصف فيه الرسول مكانه على عليه السلام منه بقوله لعلي «أنت مني بمنزله هارون من موسى» نظرا لأن عنوان الصالحين استعمل في القرآن الكريم للإشاره إلى الأنبياء. منها وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (سوره الأنبياء الآيه ٧٢) وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٢). (حيث أطلق في الاولى على مجموع الأنبياء و في الثانيه على يوسف).

و لكون على بمنزله هارون فإنه سيكون كذلك مصداقا ل(الصالح) (فتأمل)! خلاصه القول: أن هناك عددا كثيرا من الأحاديث وردت في هذا المجال، فبعد أن نقل المفسر المعروف (المحدث البحراني) في تفسير البرهان روايه في هذا المجال عن محمد بن عباس (٣) أنه جمع ٥٢ حديثا تناول هذا الموضوع من طريق الشيعة و السنه ثم قام هو بنقل بعضها (٤).

٣- عدم رضا الرسول عن بعض زوجاته

هناك على طول التاريخ عظماء كثيرون لم يحظوا بزوجات تناسب شأنهم و اهتماماتهم، و نتيجة لعدم توفر الشروط اللازمه بزوجاتهم، فقد ظلوا يعانون من

ص: ٤٤٧

١- ١) - تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣١٦.

٢- ٢) - يوسف، الآيه ١٠١.

٣- ٣) - يبدو أن محمّد بن عباس هنا هو (أبو عبد الله المعروف بـ «ابن الحيّام» مؤلف كتاب «ما أنزل من القرآن في أهل البيت» الذي قال جمع من العلماء: إنه لم يؤلف كتاب مثله إلى الآن) جامع الرواه، ج ٢، ص ١٣٤.

٤- ٤) - تفسير البرهان، ج ٤، ص ٣٥٣، ذيل الحديث ٢.

ذلك كثيرا، وقد ذكر لنا القرآن الكريم نماذج من هذه المعاناه وقعت للأنبياء العظام.

و ربّما توضّح الآيات السابقه أنّ معاناه الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم من بعض أزواجه كانت من هذا القبيل، فنظرا لوجود غيره و التسابق فيما بينهنّ كنّ يسبّبن متاعب للنبي الكريم. فقد كنّ أحيانا يعترضن عليه أو يفشين سرّه، الأمر الذي جعل القرآن الكريم يوجّه لهنّ خطابا مباشرا بالتوبيخ و أصدر أقوى البيانات فى هذا المجال، حتّى أنّه هدّدهنّ بالطلاق. و قد لا حظنا الرّسول قد غضب على زوجاته و أظهر عدم رضاه لمدّه شهر تقريبا بعد نزول هذه الآيات أملا فى إصلاحهنّ.

و يمكن أن نلاحظ بشكل واضح-من خلال حياه الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم- أنّ بعض زوجاته لم يدركن مقام النبوه فحسب، بل قد يتعاملن معه كإنسان عادى، و أحيانا يتعرضنّ له بالإهانه.

و بناء على هذا فإنّه لا معنى للإصرار على أنّ جميع زوجات الرّسول كنّ على قدر عال من الكمال و اللياقه، خصوصا مع الأخذ بالاعتبار صراحه الآيات السابقه.

و لم يكن هذا المعنى مقتصرًا على حياه الرّسول فقط، فبعد و فاته نقل لنا التاريخ أمثله مشابهه، خاصّه فى قصّه حرب الجمل و الموقف من خليفه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و ما جرى من امور ليس هنا مجال الخوض فيها.

و من الواضح أنّ الآيات السابقه تقول بشكل صريح: إنّ الله سيعطى النبي زوجات صالحات تتوفّر فيهنّ الصفات المذكوره فى الآيات إذا طلقكن و سرحكن، و هذا يكشف عن أنّ هناك من زوجات الرّسول ممّن لا تتوفّر فيهنّ تلك الصفات و الشروط.

و يؤيّد ذلك ما جاء فى سوره الأحزاب حول زوجات الرّسول.

إنّ حفظ السرّ و المحافظه عليه و عدم إفشائه، ليس فقط من صفات المؤمنين، بل هي صفه ينبغي توفرها بكلّ إنسان ذي شخصيه قويّه محترمه، و تتجلّى أهميّه هذه الصفه أكثر مع الأصدقاء و الأقرباء و بالأخصّ بين الزوج و الزوجه. وقد لا حظنا في الآيات السابقه كيف أنّ القرآن لام أزواج النبي بشدّه و وبّخهنّ على إفشائهنّ للسرّ و عدم محافظتهنّ عليه.

ورد عن أمير المؤمنين قوله: «جمع خير الدنيا و الآخره في كتمان السرّ و مصادقه الأخيار، و جمع الشرّ في الإذاعه و مؤاخاه الأشرار» (١).

٥- لا تحرّموا على أنفسكم ما أحله الله لكم

من المؤكّد أنّ الله لم يحلّ أو يحرم شيئا إلّا طبقا لحسابات و مصالح دقيقه، و بناء على هذا فلا مجال لأن يقوم الإنسان بتحليل الحرام أو تحريم الحلال حتّى مع القسم، فإنّ الحنث جائز في مثل هذه الموارد.

نعم، إذا كان مورد القسم من المباحات التي يكره عملها أو الأولى تركها، يجب الالتزام بالقسم حينئذ.

ص: ٤٤٩

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَهُ نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفُ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)

التفسير

اشاره

قوا أنفسكم وأهليكم النار:

تخاطب الآيات السابقة جميع المؤمنين، وترسم لهم المنهج الصالح لتربيته الزوجات والأولاد والأسره بشكل عام، فهي تقول أولاً:
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا

و ذلك بحفظ النفس من الذنوب و عدم الاستسلام للشهوات و الأهواء، و حفظ العائلة من الانحراف بالتعليم و التربيه و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و تهيئه الأجواء الصالحه و المحيط الطاهر من كل رذيله و نقص.

و ينبغي مراعاة هذا البرنامج الإلهي منذ اللحظات الاولى لبناء العائلة، أى منذ أول مقدمات الزواج، ثم مع أول لحظه لولاده الأولاد، و يراعى و يلاحظ بدقه حتى النهايه.

و بعبارة اخرى: إنّ حقوق الزوجه و الأولاد لا تقتصر على توفير المسكن و المأكل، بل الأهمّ تربيته نفوسهم و تغذيتها بالأصول و التعاليم الإسلاميه و تنشئتها نشأه تربويه صحيحه.

و التعبير ب«قوا» إشاره إلى أنّ ترك الأطفال و الزوجات دون أيّ متابعه أو إرشاد سيؤدى إلى هلاكهم و دخولهم النار شئنا أم أيينا. لذا عليكم أن تقوهم و تحذروهم من ذلك.

«الوقود» هو الماده القابله للاشتعال مثل (الحطب) و هو بمعنى المعطى لشراره النار كالكبريت-مثلا-فإنّ العرب يطلقون عليه (الزناد).

و بناء على هذا فإنّ نار جهنّم ليس كنيران هذا العالم، لأنّها تشتعل من داخل البشر أنفسهم و من داخل الصخور و ليس فقط صخور الكبريت التى أشار إليها بعض المفسرين، فإنّ لفظ الآيه مطلق يشمل جميع أنواع الصخور.

و قد اتّضح فى هذا العصر أنّ كلّ قطعه من الصخور تحتوى على مليارات المليارات من الذرات التى إذا ما تحرّرت الطاقه الكافيه فيها فسينتج عن ذلك نار هائله يصعب على الإنسان تصوّرها.

و قال بعض المفسرين: إنّ «الحجاره» عباره عن تلك الأصنام التى كانوا يعبدونها.

و يضيف القرآن قائلا: عَلَيْهَا مَلَائِكَهٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

و بهذا لا يبقى طريق للخلاص و الهروب، و لن يؤثر البكاء و الالتماس و الجزع و الفزع.

و من الواضح أنّ أصحاب الأعمال و المكلفين بتنفيذها، ينبغي أن تكون معنوياتهم و روحيتهم تنسجم مع تلك المهام المكلفين بتنفيذها. و لهذا يجب أن يتّصف مسئولو العذاب و المشرفون عليه بالغلظة و الخشونه، لأنّ جهنّم ليست مكانا للرحمة و الشفقة، و إنّما هي مكان الغضب الإلهي و محلّ النقمه و السخط الإلهيين. و لكن هذه الغلظة و الخشونه لا تخرج هؤلاء عن حدّ العدالة و الأوامر الإلهيه. إنّما: يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ دون أيّه زياده أو نقصان.

و تساءل بعض المفسّرين حول تعبير (لا يعصون) الذي ينسجم مع القول بعدم وجود تكليف يوم القيامة. و لكن يجب الانتباه إلى أنّ الطاعة و عدم العصيان من الأمور التكوينية لدى الملائكة لا التشريعية.

بتعبير آخر: إنّ الملائكة مجبولون على الطاعة غير مختارين، إذ لا رغبه و لا ميل لهم إلى سواها.

في الآيه اللاحقه يخاطب الكفّار و يصف وضعهم في ذلك اليوم العصيب بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

قد جاءت هذه الآيه بعد الآيه السابقه التي خاطب بها المؤمنين، ليكون واضحا أنّ عدم الالتزام بأوامر الله و عدم الاهتمام بالنساء و الأولاد و الأهل قد تكون نتيجه و عاقبه كعاقبه الكفّار يوم القيامة.

و التعبير بـ ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يؤيد هذه الحقيقه مرّه اخرى، و هي أنّ جزاء المؤمنين يوم القيامة إنّما هو أعمالهم نفسها التي تظهر أمامهم و ترافقهم.

و ممّا يؤيد ذلك أيضا التعبير الذي ورد في الآيه السابقه الذي يقول إنّ نار جهنّم:

و ممّا يجدر ذكره أنّ عدم قبول الاعتذار ناتج عن كونه نوعاً من التوبة، و التوبة لا تقبل في غير هذا العالم، سواء كان قبل دخول النار أو بعد دخولها.

و يلقي القرآن الضوء في الآيه اللاحقه على طريق النجاه من النار حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾.

نعم. إنّ أول خطوه على طريق النجاه هي التوبة و الإقلاع عن الذنب، التوبة التي يكون هدفها رضا الله و الخوف منه. التوبة الخالصة من أى هدف آخر كالخوف من الآثار الاجتماعيه و الآثار الدنيويه للذنوب. و أخيرا التوبة التي يفارق بها الإنسان الذنب و يتركه إلى الأبد.

و من المعلوم أنّ حقيقه التوبة هي الندم على الذنب، و شرطها التصميم على الترك في المستقبل. و أمّا إذا كان العمل قابلاً لأن يجبر و يعوّض فلا بدّ من الجبران و التعويض، و التعبير يُكفّر عَنْكُمْ إشارة إلى هذا المعنى. و بناء على هذا يمكننا تلخيص أركان التوبة بخمسه أمور (ترك الذنب، الندم، التصميم على الاجتناب في المستقبل، جبران ما مضى، الاستغفار).

«نصوح» من مادّه نصح، بمعنى طلب الخير بإخلاص، و لذلك يقال للعسل الخالص بأنّه (ناصح) و بما أنّ من يريد الخير واقعاً يجب أن يكون عمله توأماً للإتقان جاءت كلمه «نصح» أحياناً بهذا المعنى، و لذا يقال للبناء المتين بأنّه «ناصح» -على وزن كتاب- و يقال للخياط «ناصح»، و كلا المعنيين -أى الخلوص و المتانّه- يجب توفرهما في التوبة النصوح (1).

و أمّا حول المعنى الحقيقي للتوبة النصوح؟ فقد وردت تفاسير مختلفه

ص: ٤٥٣

١-١) -يتصوّر البعض أنّ «نصوح» اسم شخص معين، و ذكروا له قصّه مفصّله، و لكن يجب الالتفات إلى أنّ «نصوح» ليس اسماً لشخص، بل يعطى معنى و صفياً رغم أنّه لا يبعد صحّه القصّه المذكوره.

و متعدّده حتّى أوصلها البعض إلى ٢٣ تفسيراً (١).

غير أنّ جميع هذه التفاسير تعود إلى حقيقته واحده و فروعها و الأمور المتعلّقه بها و شرائطها المختلفه.

و من هذه التفاسير القول بأنّ التوبه (النصوح) يجب أن تتوفّر فيها أربعة شروط: الندم الداخلى، الاستغفار باللسان، ترك الذنب، و التصميم على الاجتناب فى المستقبل.

و قال البعض الآخر بأنّها (أى التوبه النصوح) ذات شروط ثلاثه (الخوف من عدم قبولها، و الأمل بقبولها، و الاستمرار على طاعه الله.

أو أنّ التوبه «النصوح» التى تجعل الذنوب دائماً أمام أعين أصحابها، ليشعر الإنسان بالخجل منها.

أو أنّها تعنى إرجاع المظالم و الحقوق إلى أصحابها، و طلب التحليل و براءه الذمّه من المظلومين، و المداومه على طاعه الله.

أو هى التى تشتمل على امور ثلاثه: قلّه الأكل، قلّه القول، قلّه النوم.

أو التوبه النصوح هى التى يرافقها بكاء العين، و اشمئزاز القلب من الذنوب و ما إلى ذلك من فروع التوبه الواقعيه و هى التوبه الخالصه التامّه الكامله.

جاء فى حديث عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم عند ما سأله معاذ بن جبل عن «التوبه النصوح» أجابه قائلاً: «أن يتوب التائب ثم لا يرجع فى الذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع» (٢).

و بهذا التعبير اللطيف يتّضح أنّ التوبه يجب أن تحدث انقلاباً فى داخل النفس الإنسانيه، و تسدّ عليها أى طريق للعوده إلى الذنب، و تجعل من الرجوع أمراً مستحيلاً كما يستحيل إرجاع اللبن إلى الضرع و الثدى.

ص: ٤٥٤

١-١) -تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٦ و ٦٧.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣١٨.

وقد جاء هذا المعنى فى روايات اخرى، وكلها توضّح الدرجه العاليه للتوبه النصوح، فإنّ الرجوع ممكن فى المراتب الدنيا من التوبه، وتكرّر التوبه حتّى يصل الإنسان إلى المرحله التى لا يعود بعدها إلى الذنب.

ثم يشير القرآن الكريم إلى آثار التوبه الصادقه النصوح بقوله: **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ**.

وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ

و يضىء لهم طريقهم فى المحشر و يوصلهم إلى الجنّه.

و هنا يتوجهون إلى الله بطلب العفو: **يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَ اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**.

و بذلك تكون التوبه(النصوح)لها خمس ثمرات مهمّه:

الاولى:غفران الذنوب و السيئات.

الثانيه:دخول الجنّه المملوءه بنعم الله.

الثالثه:عدم الفضيحه فى ذلك اليوم العصيب الذى ترتفع فيه الحجب و تظهر فيه حقائق الأشياء،و يفتضح الكاذبون الفجار.نعم فى ذلك اليوم سيكون للرسول صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين شأن عظيم،لأنهم لم و لن يقولوا إلا ما هو واقع.

الرابع:أنّ نور إيمانهم و عملهم يتحرّك بين أيديهم فيضىء طريقهم إلى الجنّه.

(و اعتبر بعض المفسّرين أنّ«النور»الذى يتحرّك أمامهم إنّما هو نور العمل،و كان لنا تفسير آخر أوردناه فى ذيل الآيه ١٢ من سوره الحديد).

الخامس:يتجهون إلى البارئ أكثر من ذى قبل،و يرجونه تكميل نورهم و الغفران الكامل لذنوبهم.

١-تعليم و تربية العائلة

من الواضح أنّ الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فريضه عامه على جميع الناس و لا تخصّ بعضا دون آخر.غير أنّ مسئوليّه الإنسان تجاه زوجته و أبناؤه أكد من غيرها و أشدّ إلزاما، كما يتجلّى ذلك بشكل واضح من الروايات الواردة فى مصادر عديده،و كذلك الآيات السابقه التى تدعو الإنسان لأن يبذل أقصى جهده لتربية أهله و تعليمهم،و نهيمهم عن ارتكاب الذنوب و حثهم على اكتساب الخيرات،و لا ينبغى عليه أن يقنع و يكتفى بتوفير الغذاء الجسمى لهم.

و بما أنّ المجتمع عباره عن عدد معين من وحدات صغيره تدعى«العائلة» فإنّ الاهتمام بالعائلة و تربيتها تربية إسلاميه صحيحه سيجعل أمر إصلاح المجتمع أسهل و أيسر.

و تبرز هذه المسئوليه أكثر و تكتسب أهميّه خاصّه فى العصر الراهن،حيث تجتاح المجتمع موجات من الفساد و الضلال الخطره،و تحتاج إلى وضع برنامج دقيق و مدروس لتربية العائلة لمواجهة هذه الموجات دون التأثير بها و الانجراف مع تيارها.

فإنّ الآخريه ليست هى النار الوحيديه التى يكون مصدرها الإنسان نفسه و من داخله،بل نار الدنيا هى الآخريه تستمد وجودها من هذا الإنسان،لهذا يجب على كلّ إنسان أن يقى نفسه و عائلته من هذه النار.

جاء فى الحديث أنّ أحد الصحابه سأل النبى بعد نزول الآيه السابقه:كيف أقى أهلى و نفسى من نار جهنّم،فأجابه صلى الله عليه و آله و سلّم:

«تأمرهم بما أمر الله،و تنهاهم عمّا نهاهم الله،إن أطاعوك كنت قد وقيتهم،و إن عصوك كنت قد قضيت ما عليك» (١).

ص: ٤٥٦

فى حديث آخر جامع و لطيف عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «ألا كلّكم راع و كلّكم مسئول عن رعيته، فالأمير على الناس راع و هو مسئول عن رعيته، و الرجل راع على أهل بيته و هو مسئول عنهم، و المرأة راعية على أهل بيت بعلها و ولده و هى مسئولة عنهم، ألا فكلّكم راع و كلّكم مسئول عن رعيته» (١).

و نختم هذا البحث

بحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام فى تفسير هذه الآية قال فيه:

«علّموا أنفسكم و أهليكم الخير و أدّبوهم» (٢).

٢- التوبه باب إلى رحمه الله

كثيرا ما تهجم على الإنسان الذنوب و اللوابس -خاصه فى بدايات توجّهه و سلوكه إلى الله- و إذا أغلقت جميع أبواب العوده و الرجوع بوجهه، فإنّه سيبقى فى نهجه هذا إلى الأبد، و لهذا نجد الإسلام قد فتح بابا للعوده و سمّاه «التوبه»، و دعا جميع المذنبين و المقصّرين إلى دخول هذا الباب لتعويض و جبران الماضى.

يقول الإمام على بن الحسين عليه السلام فى مناجاه التائبين:

«إلهى أنت الذى فتحت لعبادك بابا إلى عفوك سمّيته التوبه، فقلت توبوا إلى الله توبه نصوحاً فما عذر من أغفل دخول الباب بعد فتحه!!» (٣).

و قد شدّدت الروايات على أهميه التوبه إلى الحدّ الذى نقرأ

فى الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله تعالى أشدّ فرحا بتوبه عبده من رجل أضلّ راحلته و زاده فى ليله ظلماء فوجدها» (٤).

ص: ٤٥٧

١- (١) (مجموعه ورام)، ج ١، ص ٦.

٢- (٢) (الدرّ المنثور)، ج ٦، ص ٢٤٤.

٣- (٣) -المناجاه الخامسه عشر.

٤- (٤) -اصول الكافى، ج ٢، باب التوبه، الحديث ٨.

كل هذه الروايات العظيمة تحثّ و تؤكد على هذا الأمر الحياتي المهمّ.

لكن ينبغي التأكيد على أنّ التوبه ليست مجرد (لقلقه لسان) و تكرار قول (استغفر الله) و إنّما للتوبه شروط و أركان مرّت الإشارة إليها في تفسير التوبه النصوص في الآيات السابقه.

و كلّما تحقّقت التوبه بتلك الشروط و الأركان فإنّها ستؤتي ثمارها و تعفى آثار الذنب من قلب و روح الإنسان تماما، و لذا ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السّلام: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، و المقيم على الذنب و هو مستغفر منه كالمستهزئ» (١).

و قد وردت بحوث اخرى عن التوبه في ذيل الآية (١٧) من سوره النساء و في ذيل الآية (٥٣) من سوره الزمر.

ص: ٤٥٨

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأْمُرْهُمْ بِجَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغَيِّبْنَا عَنْهُمَا مِنْ آلِهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاحِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَزَيْمَ ابْنَتِ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَانِنِينَ (١٢)

التفسير

اشاره

نماذج من النساء المؤمنات و الكافرات:

بما أنّ المنافقين يفرحون لإفشاء أسرار الرسول و إذاعه الأخبار الداخليه عن بيته،و يرحبون ب بروز المشاجرات و الاختلافات بين زوجاته-التي مضت

الإشارة إليها في الآيات السابقة- بل إنهم كانوا يساهمون في إشاعه تلك الأخبار و إذاعتها بشكل أوسع، نظرا لكل ذلك فقد خاطب القرآن الكريم الرسول بأن يشدد على المنافقين و الكافرين و يغلظ عليهم. حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَاوْلَاهُمْ جَهَنَّمَ وَاَنْتَ الْمَصِيرُ .

الجهاد ضد الكفار قد يكون مسلحا أو غير مسلح، أما الجهاد ضد المنافقين فإنه بدون شك جهاد غير مسلح، لأن التاريخ لم يحدثنا أبدا عن أن الرسول خاض مره معركة مسلحه ضد المنافقين. لهذا

ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن رسول الله لم يقاتل منافقا قط إنما يتألفهم» (١).

و بناء على ذلك فإن المراد من الجهاد ضد المنافقين إنما هو توبيخهم و إنذارهم و تحذيرهم، بل و تهديدهم و فضحهم، أو تأليف قلوبهم في بعض الأحيان. فللجهاد معنى واسع يشمل جميع ذلك. و التعبير ب«أغلظ عليهم» إشاره إلى معاملتهم بخشونه و فضحهم و تهديدهم، و ما إلى ذلك.

و يبقى هذا التعامل الخاص مع المنافقين، أى عدم الصدام المسلح معهم، ما داموا لم يحملوا السلاح ضد الإسلام و ذلك بسبب أنهم مسلمون فى الظاهر، و تربطهم بالمسلمين روابط كثيرة لا يمكن معها محاربتهم كالكفار، أما إذا حملوا السلاح فيجب أن يقابلوا بالمثل، لأنهم سوف يتحولون إلى (محاربين).

و لم يحدث مثل ذلك أيام حياه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم لكنه حدث فى خلافة أمير المؤمنين على عليه السلام حيث خاض ضدهم معركة مسلحه.

و ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود من «الجهاد ضد المنافقين» الذى ورد ذكره فى الآيه السابقه هو إجراء الحدود الشرعيه بحقهم، فإن أكثر الذين كانوا تجرى عليهم الحدود هم من المنافقين. و لكن لا دليل على ذلك، كما لا دليل على

ص: ٤٦٠

أن الحدود كانت تجرى على المنافقين غالبا.

الجدير بالذكر أن الآية السابقة وردت أيضا و بنفس النص في سورة التوبة الآية ٧٣.

و من أجل أن يعطى الله تعالى درسا عمليا حيّا إلى زوجات الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلّم عاد مرّه اخرى يذكر بالعاقبه السيئه لزوجتين غير تقيتين من زوجات نبين عظيمين من أنبياء الله، و كذلك يذكر بالعاقبه الحسنه و المصير الرائع لامرأتين مؤمنتين مضمحيتين كانتا فى بيتين من بيوت الجبابره، حيث يقول **أُولَئِكَ** **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا، فَلَمْ يُغَيِّرْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ** (١).

و بناء على هذا فإنّ القرآن يحذّر زوجتى الرسول اللتين اشتركتا فى إذاعه سرّه، بأنكما سوف لن تنجوا من العذاب لمجرّد كونكما من أزواج النّبى كما فعلت زوجتا نوح و لوط فواجهتا العذاب الإلهى.

كما تتضمّن الآيات الشريفه تحذيرا لكلّ المؤمنين بأنّ القرب من أولياء الله و الانتساب إليهم لا يكفى لمنع نزول عذاب الله و مجازاته.

و ورد فى كلمات بعض المفسّرين أنّ زوجة نوح كانت تدعى «و الهه» و زوجة لوط «والعه» (٢) بينما ذكر آخرون عكس ذلك أى أنّ زوجة لوط اسمها (والهه) و زوجة نوح اسمها (والعه) (٣).

و على أيّه حال فإنّ هاتين المرأتين خانتا نبين عظيمين من أنبياء الله.

ص: ٤٦١

١ - ١) - «ضرب» أخذ هنا مفعولين، الأوّل «امرأه نوح» ذكره مؤخرا، و الثانى «مثلا»، و يحتمل أن «ضرب» أخذت مفعولا واحدا و هو «مثلا» و كلمه «امرأه نوح» بدل. (البيان فى غريب اعراب القرآن، ج ٢، ص ٤٤٩).

٢ - ٢) - «القرطبى» ج ١٠، ص ٦٦٨٠.

٣ - ٣) - «روح المعانى» ج ٢٨، ص ١٤٢ (و قيل أنّ اسم امرأه نوح «واغله» أو «والغه»).

و الخيانه هنا لا تعنى الانحراف عن جادّه العفّه و النجابه، لأنّهما زوجتا نبيّين و لا يمكن أن تخون زوجه نبي بهذا المعنى للخيانه،
فقد جاء عن الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم: «ما بغت امرأه نبي قطّ».

كانت خيانه زوجه لوط هي أن أفشت أسرار هذا النبي العظيم إلى أعدائه، و كذلك كانت زوجه نوح عليه السّلام.

و ذهب الراغب في «المفردات» إلى أنّ للخيانه و النفاق معنى واحدا و حقيقه واحده، و لكن الخيانه تأتي في مقابل العهد و الأمانه، و النفاق يأتي في الأمور الدينيه و ما تقدّم من سبب النزول و مشابهته لقصّه هاتين المرأتين توجب كون المقصود من الخيانه هنا هو نفس هذا المعنى.

و على كلّ حال فإنّ الآيه السابقه تبدّد أحلام الذين يرتكبون ما شاء لهم أن يرتكبوا من الذنوب و يعتقدون أنّ مجرد قربهم من أحد العظماء كاف لتخليصهم من عذاب الله، و من أجل أن لا يظنّ أحد أنّه ناج من العذاب لقربه من أحد الأولياء، جاء في نهايه الآيه السابقه: فَلَمْ يُغَيِّبْ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِينَ .

ثمّ يذكر القرآن الكريم نموذجين مؤمنين صالحين فيقول: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ .

من المعروف أنّ اسم زوجه فرعون (آسيه) و اسم أبوها (مزامح) و قد آمنت منذ أن رأت معجزه موسى عليه السّلام أمام السحره، و استقرّ قلبها على الإيمان، لكنّها حاولت أن تكتّم إيمانها، غير أنّ الإيمان برسالة موسى و حبّ الله ليس شيئا يسهل كتمانها، و بمجرد أن اطّلع فرعون على إيمانها نهاها مرّات عديده و أصرّ عليها أن تتخلّى عن رساله موسى و ربّه، غير أنّ هذه المرأه الصالحه رفضت الاستسلام إطلاقا.

و أخيرا أمر فرعون أن تثبت يداها و رجلاها بالمسامير، و تترك تحت أشعه

الشمس الحارقة، بعد أن توضع فوق صدرها صخره كبيره. و فى تلك اللحظات الأخيرة كانت امرأه فرعون بهذا الدعاء إذ قالت: رَبِّ ابْنِ لِيْ عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِيْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِيْ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ وَ قد استجاب لها ربّها و جعلها من أفضل نساء العالم إذ يذكرها فى صفّ مريم.

فى روايه عن الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم: «أفضل نساء أهل الجنّة خديجه بنت خويلد، و فاطمه بنت محمّد و مريم بنت عمران، و آسيا بنت مزاحم امرأه فرعون (1)» .

و من الطريف أنّ امرأه فرعون كانت تستصغر بيت فرعون و لا- تعتبره شيئاً مقابل بيت فى الجنّة و فى جواره تعالى، و بذلك أجابت على نصائح الناصحين فى أنّها ستخسر كلّ تلك المكاسب و تحرم من منصب الملكة (ملكة مصر) و ما إلى ذلك. لسبب واحد هو أنّها آمنت برجل راع كموسى.

□
و فى عبارته وَ نَجِّنِيْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِيْ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ تضرب مثلاً رائعاً للمرأة المؤمنة التى ترفض أن تخضع لضغوط الحياه، أو تتخلّى عن إيمانها مقابل مكاسب زائلة فى هذه الدنيا.

لم تستطع بهارج الدنيا و زخارفها التى كانت تنعم بها فى ظلّ فرعون، و التى بلغت حدّاً ليس له مثيل. لم تستطع كلّ تلك المغريات أن تثنيها عن نهج الحقّ، كما لم تخضع أمام الضغوط و ألوان العذاب التى مارسها فرعون. و قد واصلت هذه المرأة المؤمنة طريقها الذى اختارته رغم كلّ الصعاب و اتّجهت نحو الله معشوقها الحقيقى.

و تجدر الإشارة إلى أنّها كانت ترجوا أن يبنى الله لها بيتاً عنده فى الجنّة لتحقيق بعدين و معنيين: المعنى المادى الذى أشارت إليه بكلمه «فى الجنّة»، و البعد المعنوى و هو القرب من الله «عندك» و قد جمعتهما فى عبارته صغيره

ص: ٤٦٣

ثم يضرب الله تعالى مثلاً- آخر للنساء المؤمنات الصالحات، حيث يقول جلّ من قائل: وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا (١).

فهى امرأه لا زوج لها أنجبت ولدا صار نبيا من أنبياء الله العظام (من اولى العزم).

و يضيف تعالى قائلا: وَ صَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَ كُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَانِنِينَ .

كانت فى القمه من حيث الايمان، إذ آمنت بجميع الكتب السماويه و التعاليم الإلهيه، ثم إنها كانت قد أخضعت قلبها لله، و حملت قلبها على كفها و هى على أتم الاستعداد لتنفيذ أوامر البارى جلّ شأنه.

و يمكن أن يكون التعبير (الكتب) إشارة إلى كل الكتب السماويه التى نزلت على الأنبياء، بينما التعبير ب (كلمات) إشارة إلى الوحي الذى لا يكون على شكل كتاب.

و نظرا لرفعه مقام مريم و شدّه إيمانها بكلمات الله، فقد وصفها القرآن الكريم فى الآية (٧٥) من سورة المائده (صديقه).

و قد أشار القرآن إلى مقام هذه المرأة العظيمه فى آيات عديده، منها ما جاء فى السوره التى سميت باسمها أى (سوره مريم).

على أيه حال فإنّ القرآن الكريم تصدّى للشبهات التى أثارها بعض اليهود المجرمين حول شخصيه هذه المرأة العظيمه، و نفى عنها كلّ التهم الرخيصه حول عفافها و طهارتها و كلّ ما يتعلّق بشخصيتها الطاهره.

و التعبير ب فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا لإظهار عظمه و علو هذه الروح، كما أشرنا إلى ذلك سابقا. أو بعبارة اخرى: إنّ إضافه كلمه (روح) إلى «الله» إضافه

تشريفيه لبيان عظمه شىء مثل إضافه «بيت» إلى «الله».

و من الغريب ما كتبه بعض المفسرين من اعتبارهم عائشه أفضل النساء، و أنها أعظم من غيرها من النساء ذوات القدر الكبير و الشأن عند الله. و لقد كان حرّياً بهم أن لا يتطرقوا إلى هذا الحديث فى هذه السوره، التى نزلت لتعلن خلاف ما ذهبوا إليه و بشكل صريح لا يقبل الجدل. فإنّ كثيرا من مفسري و مؤرخي أهل السنّه أكّدوا على أنّ اللوم و التوبيخ اللذين وردا فى الآيات السابقه كانا موجّهين إلى زوجتى الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم «حفصه» و «عائشه» و منها ما جاء فى صحيح البخارى الجزء السادس صفحه ١٩٥ و نحن ندعو بهذه المناسبه أهل التفكير الحرّ جميعا لأن يعيدوا تلاوه آيات هذه السوره ثمّ ليتعرّفوا على قيمه و جداره مثل هذه الأحاديث.

اللهمّ جنبنا الحبّ الأعمى و البغض الأعمى الذى لا يقوم على البرهان بقدر ما يقوم على العصبية، و اجعلنا من المستسلمين الخاضعين بكلّ وجودنا إلى آيات قرآنك المجيد.

ربّنا و لا تجعلنا من الذين غضب عليهم الرسول فلم يرض أعمالهم و طريقه حياتهم.

اللهمّ هب لنا استقامه لا نتأثّر معها بالضغوط، و لا نخضع لعذاب الفراعنه و جبابره العصر.

آمين ربّ العالمين نهايه سوره التحريم

بدايه الجزء التاسع و العشرون من القرآن الكريم

سوره الملك

اشاره

مكيه و عدد آياتها ثلاثون آيه

ص: ٤٦٧

محتوى سوره الملك:

تمثل هذه السوره بدايه الجزء التاسع و العشرين من القرآن الكريم، و هى من السور التى نزلت جميع آياتها فى مكّه المكرّمه على المشهور، كما هو شأن غالبية سور هذا الجزء، إن لم يكن جميعها كما يذهب إلى ذلك بعض المفسّرين (1)، بخلاف ما عليه سور الجزء السابق حيث كانت مدنيه.

و لكن كما سنرى لا حقا أنّ سوره الدهر (سوره الإنسان) من السور المدنيه.

و تسمّى سوره الملك أيضا ب (المنجيه)، و كذلك تسمّى ب (الواقيه) أو (المانعه) بلحاظ أنّها تحفظ الإنسان الذى يتلوها من العذاب الإلهى أو عذاب القبر، و هى من السور التى لها فضائل عديده، و قد طرحت فى هذه السوره مسائل قرآنيه مختلفه، إلا أنّ الأصل فيها يدور حول ثلاثه محاور هى:

١- أبحاث حول المبدأ، و صفات الله سبحانه، و نظام الخلق العجيب و المدهش، خصوصا خلق السموات و النجوم و الأرض و ما فيها من كنوز عظيمه..

و كذلك ما يتعلّق بخلق الطيور و المياه الجاريه و الحواس كالاذن و العين، بالإضافة إلى وسائل المعرفه الاخرى.

٢- و فى المحور الثانى تتحدّث الآيات الكريمه عن المعاد و عذاب الآخره،

ص: ٤٦٩

و الحوار الذى يدور بين ملائكة العذاب الإلهى و أهل جهنم،بالإضافه إلى امور اخرى فى هذا الصدد.

٣-و أخيرا فإنّ آيات المحور الثالث تدور حول التهديد و الإنذار الإلهى بألوان العذاب الدنيوى و الاخرى للكفّار و الظالمين.

و يذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المحور الأساس لجميع هذه السوره يدور حول مالكيه الله سبحانه و حاكميته و التى وردت فى أوّل آيه منها (١).

فضيله تلاوه السوره:

نقلت روايات عديده عن الرّسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم و أئمّه أهل البيت عليهم السّلام فى فضيله تلاوه هذه السوره نقرأ منها ما يلى:

عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سوره تبارك فكأنّما أحى ليله القدر» (٢).

و

جاء فى حديث آخر عنه صلّى الله عليه و آله و سلّم: «وددت أن تبارك الملك فى قلب كلّ مؤمن» (٣).

و

جاء فى حديث عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام أنّه قال: «سوره الملك هى المانع، تمنع من عذاب القبر، و هى مكتوبه فى التوراه سوره الملك، و من قرأها فى ليله فقد أكثر و أطاب و لم يكتب من الغافلين» (٤).

و الأحاديث كثيره فى هذا المجال.

ص: ٤٧٠

١-١) فى ظلال القرآن، ج ٨، ص ١٨٤.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٢٠.

٣-٣) -المصدر السابق.

٤-٤) -المصدر السابق.

و من الطبعی أنّ جمیع هذه الآثار العظیمه لا تكون إلاّ من خلال التدبّر فی قراءه آیات هذه السوره و العمل بها، و الاستلھام من محتوياتها فی الممارسات الحياتیه المختلفه.

ص: ٤٧١

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا لِّمَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥)

التفسير

اشاره

عالم الوجود المتكامل:

تبدأ آيات هذه السوره بمسأله مالكيه و حاكميه الله سبحانه، و خلود ذاته المقدسه، و هي في الواقع مفتاح جميع أبحاث هذه السوره المباركه (١) .

ص: ٤٧٢

١- ١) - هذه السوره هي ثاني سوره تبدأ بكلمه (تبارك) و سوره الفرقان هي الاخرى بدأت ب (بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى

يقول تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

«تبارك»: من مادّه (بركه) فى الأصل من (برك) على وزن (ترك) بمعنى (صدر البعير)، و عند ما يقال: (برك البعير) يعنى وضع صدره على الأرض. ثم استعملت الكلمه بمعنى الدوام و البقاء و عدم الزوال، و أطلقت كذلك على كل نعمه باقيه و دائمه، و من هنا يقال لمحلّ خزن الماء (بركه) لأنّ الماء يبقى فيها مدّه طويله.

و قد ذكرت الآيه أعلامه دليلاً - ضمّتيًا على أنّ الذات الإلهيه مباركه، و هو مالكيته و حاكميته على الوجود، و قدرته على كل شىء، و لهذا السبب فإنّ وجوده تعالى كثير البركه و لا يعتريه الزوال.

ثمّ يشير سبحانه فى الآيه اللاحقه إلى الهدف من خلق الإنسان و موته و حياته، و هى من شؤون مالكيته و حاكميته تعالى فيقول: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَتُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .

«الموت»: حقيقته الانتقال من عالم إلى عالم آخر، و هذا الأمر وجودى يمكن أن يكون مخلوقاً، لأنّ الخلقه ترتبط بالأمر الوجوديه، و هذا هو المقصود من الموت فى الآيه الشريفه، أمّا الموت بمعنى الفناء و العدم فليس مخلوقاً، لذا فإنّه غير مقصود.

ثمّ إنّ ذكر الموت هنا قبل الحياه هو بلحاظ التأثير العميق الذى يتركه الالتفات إلى الموت، و ما يترتب على ذلك من سلوك قويم و أعمال مقترنه بالطاعه و الالتزام، إضافة إلى أنّ الموت كان فى حقيقته قبل الحياه.

أمّا الهدف من الامتحان فهو تربيته الإنسان كي يجسّد الاستقامه و التقوى و الطهر فى الميدان العملى ليكون لائقاً للقرب من الله سبحانه، و قد بحثنا ذلك مفصّلاً فيما سبق (١).

ص: ٤٧٣

١- ١) عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا .

كما أنَّ الجدير بالملاحظة في قوله «أحسن عملاً» هو التأكيد على جانب (حسن العمل)، و لم تؤكد الآية على كثرته، و هذا دليل على أنَّ الإسلام يعير اهتماماً (للكيفية) لا (للكمية)، فالمهم أن يكون العمل خالصاً لوجهه الكريم، و نافعاً للجميع حتى و لو كان محدود الكمية.

لذا ورد في تفسير (أحسن عملاً)، روايات عدّه،

فعن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال:

«أتمكم عقلاً، أشدكم لله خوفاً، و أحسنكم فيما أمر الله به، و نهى عنه نظراً، و إن كان أقلكم تطوعاً» (١).

حيث أنَّ العقل الكامل يطهر العمل، و يجعل التّيه أكثر خلوصاً لله عزّ و جلّ و يضاعف الأجر.

و

جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال حول تفسير (أحسن عملاً):

«ليس يعني أكثر عملاً، و لكن أصوبكم عملاً، و إنّ الإصابه خشيه الله و التّيه الصادقه. ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص، أشدّ من العمل، و العمل الخالص هو الذي لا تريد أن يحمذك عليه أحد إلاّ الله عزّ و جلّ» (٢).

و تحدّثنا في تفسير الآية: وَمِمَّا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٣)، و قلنا: أنّ الهدف من خلق الإنسان في تلك الآية هو العبودية لله عزّ و جلّ، و هنا نجد الهدف:

(اختباره بحسن العمل). و ممّا لا شكّ فيه أنّ مسأله الاختبار و الامتحان لا تنفكّ عن مسأله العبودية لله سبحانه، كما أنّ لكمال العقل و الخوف من الله تعالى و التّيه الخالصه لوجهه الكريم - و التي أشير لها في الروايات أعلاه، أثراً في تكامل روح العبودية.

و من هنا نعلم أنّ العالم ميدان الامتحان الكبير لجميع البشر، و وسيله هذا

ص: ٤٧٤

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٢٢.

٢-٢) -تفسير الصافي، الآيات مورد البحث.

٣-٣) -الذاريات، الآية ٥٦.

الامتحان هو الموت و الحياه،و الهدف منه هو الوصول إلى حسن العمل الذى مفهومه تكامل المعرفه،و إخلاص النية،و إنجاز كل عمل خيّر.

و إذا لاحظنا أنّ بعض المفسّرين فسّر (أحسن عملاً) بمعنى ذكر الموت أو التهيؤ و ما شابه ذلك، فإنّ هذا فى الحقيقة إشاره إلى مصاديق من المعنى الكلى.

و بما أنّ الإنسان يتعرّض لأخطاء كثيره فى مرحله الامتحان الكبير الذى يمرّ به، فيجدر به ألا يكون متشائماً و يائساً من عون الله سبحانه و مغفرته له،و ذلك من خلال العزم على معالجه أخطائه و نزواته النفسيه و إصلاحها، حيث يقول تعالى:

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ

نعم،إنّه قادر على كلّ شىء،و غفّار لكلّ من يتوب إليه.

و بعد استعراض نظام الموت و الحياه الذى تناولته الآيه السابقه،تتناول الآيه اللاحقه النظام الكلى للعالم،و تدعو الإنسان إلى التأمل فى عالم الوجود،و التهيؤ لمخاض الامتحان الكبير عن طريق التدبّر فى آيات هذا الكون العظيم،يقول تعالى: الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا .

بالنسبه إلى موضوع السموات السبع فقد استعرضنا شيئاً حولها فى تفسير الآيه (١٢) من سوره الطلاق،و نضيف هنا أنّ المقصود من (طباقاً) هو أنّ السموات السبع، كلا منها فوق الاخرى، إذ أنّ معنى (المطابقه)فى الأصل هو الشىء فوق شىء آخر.

و يمكن اعتبار «السموات السبع»إشاره إلى الكرات السبع للمنظومه الشمسيه،و التى يمكن رؤيتها بالعين المجرّده،حيث تبعد كلّ منها مسافه معيّنه عن الشمس أو تكون كلّ منها فوق الاخرى.

أمّا إذا اعتبرنا أنّ جميع ما نراه من النجوم الثابته و السياره ضمن السماء الاولى،فيتّضح لنا أنّ هنالك عوالم اخرى فى المراحل العليا،حيث أنّ كلّ واحد منها يكون فوق الآخر.

ثُمَّ يَضِيفُ سُبْحَانَهُ: مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ .

إِنَّ الْآيَةَ أَعْلَاهُ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ عَالَمَ الوجود-بِكُلِّ مَا يَحِيطُهُ مِنَ الْعَظَمَةِ-قَائِمٌ وَفْقَ نِظَامٍ مُسْتَحْكَمٍ، وَقَوَانِينٍ مُنْسَجَمَةٍ، وَمُقَادِيرٍ مُحْسُوبَةٍ، وَدَقِّهِ مُتَنَاهِيَةٍ، وَلَوْ وَقَعَ أَى خَلَلٍ فِى جُزْءٍ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الْفَسِيحِ لَأَدَّى إِلَى دِمَارِهِ وَفَنَائِهِ.

و هَذِهِ الدَّقَّةُ الْمُتَنَاهِيَةُ، وَالنِّظَامُ الْمُحَيَّرُ، وَالْخَلْقُ الْعَجِيبُ، يَتَجَسَّدُ لَنَا فِى كُلِّ شَيْءٍ، ابْتِدَاءً مِنَ الذَّرَّةِ الصَّغِيرَةِ وَ مَا تَحْوِيهِ مِنَ الْإِلِكْتُرُونَاتِ وَ النِّيُوتِرُونَاتِ وَ الْبَرُوتُونَاتِ، وَ انْتِهَاءً بِالنِّظَمِ الْحَاكِمِ عَلَى جَمِيعِ الْمُنْظُومَةِ الشَّمْسِيَةِ وَ الْمُنْظُومَاتِ الْآخَرَى، كَالْمَجَرَّاتِ وَ غَيْرِهَا.. إِذْ أَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ يَخْضَعُ لِسَيْطَرِهِ قَوَانِينُ مُتَنَاهِيَةٍ فِى الدَّقَّةِ، وَ يَسِيرُ وَفْقَ نِظَامٍ خَاصٍّ.

وَ خِلَاصُهُ الْقَوْلُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِى الوجودِ لَهُ قَانُونٌ وَ بَرْنَامِجٌ، وَ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ نِظَامٌ مُحْسُوبٌ.

ثُمَّ يَضِيفُ تَعَالَى مُؤَكِّدًا: فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ .

«فُطُورٌ» مِنْ مَادَّةٍ (فَطَرَ)، عَلَى وَزْنِ (سَطَرَ) بِمَعْنَى الشَّقِّ مِنَ الطُّولِ، كَمَا تَأْتِى بِمَعْنَى الْكُسْرِ (كَافِطَارِ الصِّيَامِ) وَ الْخَلَلِ وَ الْإِفْسَادِ، وَ قَدْ جَاءَتْ بِهَذَا الْمَعْنَى فِى الْآيَةِ مُورِدُ الْبَحْثِ.

وَ يَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّمَا دَقَّقَ وَ تَدَبَّرَ فِى عَالَمِ الْخَلْقِ وَ الوجودِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَىٰ أَى خَلَلٍ أَوْ اضْطِرَابٍ فِيهِ.

لِذَا يَضِيفُ سُبْحَانَهُ مُؤَكِّدًا هَذَا الْمَعْنَى فِى الْآيَةِ الْآخِرَةِ حَيْثُ يَقُولُ: ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَ هُوَ حَسِيرٌ .

«كَرَّتَيْنِ» مِنْ مَادَّةٍ (كَرَّ) عَلَى وَزْنِ (شَرَّ) بِمَعْنَى التَّوَجُّهِ وَ الرَّجُوعِ إِلَى شَيْءٍ مُعَيَّنٍ، وَ (كَرَّهَ) بِمَعْنَى التَّكَرُّارِ وَ (كَرَّتَيْنِ) مَثْنَاهَا.

إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْمُفَسِّرِينَ ذَكَرَ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الـ (كَرَّتَيْنِ) هُنَا لَيْسَ التَّنْثِيَةُ، بَلِ الْإِلْتِفَاتُ وَ التَّوَجُّهُ الْمَتَكَرِّرُ الْمَتَعَاقِبُ وَ الْمُتَعَدِّدُ.

و بناء على هذا فإنّ القرآن الكريم يأمر الناس في هذه الآيات أن يتطلّعوا و يتأملوا و يدقّقوا النظر في عالم الوجود ثلاث مرّات - كحدّ أدنى - و يتدبّروا أسرار الخلق. و بمعنى آخر فإنّ على الإنسان أن يدقّق في خلق الله سبحانه مرّات و مرّات، و عند ما لا يجد أى خلل أو نقص في هذا النظام العجيب و المحيّر لخلق الكون، فإنّ ذلك سيؤدّي إلى معرفه خالق هذا الوجود العظيم و مدى علمه و قدرته اللامتناهيه، ممّا يؤدّي إلى عمق الإيمان به سبحانه و القرب من حضرته المقدّسه.

«خاسئ» من مادّه (خسأ) و (خسوء) على وزن (مدح، و خشوع) و إذا كان مورد استعمالها العين، فيقصد بهما التعب و العجز، أمّا إذا استعملت للكلب فيقصد منها طرده و إبعاده.

«حسير» من مادّه (حسر)، على وزن (قصر) بمعنى جعل الشئ عاريا، و إذا ما فقد الإنسان قدرته و استطاعته بسبب التعب، فإنّه يكون عاريا من قواه، لذا فإنّها جاءت بمعنى التعب و العجز.

و بناء على هذا فإنّ كلمتي (خاسئ) و (حسير) اللتين وردتا في الآيه أعلاه، تعطيان معنى واحدا في التأكيد على عجز العين، و بيان عدم مقدرتها على مشاهدته أى خلل أو نقص في نظام عالم الوجود.

و فرّق البعض بين معنى الكلمتين، إذ قال: إن (خاسئ) تعنى المحروم و غير الموفّق، و (حسير) بمعنى العاجز.

و على كلّ حال فيمكن استنتاج أساسين من الآيات المتقدّمه:

الأول: أنّ القرآن الكريم يأمر جميع السائرين في درب الحقّ أن يتدبّروا و يتأملوا كثيرا في أسرار عالم الوجود و ما فيه من عجائب الخلق، و أن لا يكتفوا بالنظر إلى هذه المخلوقات مرّه واحده أو مرّتين، حيث أنّ هنالك أسرارا كثيره و عظيمه لا تتجلّى و لا تظهر من خلال النظره الاولى أو الثانيه. بل تستدعى النظر الثاقب و المتعاقب و الدقه الكثيره، حتّى تتضح الأسرار و تتبيّن الحقائق.

الأمر الثاني:الذى يتبين لنا من خلال التدقيق فى هذا النظام،هو إدراك طبيعه الانسجام العظيم بين مختلف جوانب الوجود،بالإضافه إلى خلوه من كل نقص و عيب و خلل.

و إذا ما لوحظ فى النظره الأوليه لبعض الظواهر الموجوده فى هذا العالم (كالزلازل و السيول،و الأمراض، و الكوارث الطبيعيه الاخرى،و التى تصيب البشر أحيانا فى حياتهم)و اعتبرت شرورا و آفات و فسادا،فإنه من خلال الدراسات و التدقيقات المتأمله يتبين لنا أنّ هذه الأمور هى الاخرى تمثل أسرارا أساسيه غايه فى الدقه (١).

إنّ لهذه الآيات دلالة واضحه على دقه النظام الكونى،حيث معناها أنّ وجود النظام فى كل شىء دليل على وجود العلم و القدره على خلق ذلك الشىء،و إلاّ، فإنّ حصول حوادث عشوائيه غير محسوبه لا يمكن أبدا أن تكون منطلقا للنظام و مبدأ للحساب.

يقول الإمام الصادق عليه السلام فى حديث مفضل المعروف عنه «إنّ الإهمال لا يأتى بالصواب،و التضاد لا يأتى بالنظام» (٢).

ثمّ تتناول الآيه التاليه صفحه السماء التى يتجسّد فيها الجمال و الروعه،حيث النجوم المتلألئه فى جوّ السماء المشعّه بضوئها الساحر فى جمال و لطافه،حيث يقول سبحانه: وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ .

إنّ نظره متأمله فى ليله مظلمه خاليه من الغيوم إلى جوّ السماء المليء بالنجوم كاف لإثارة الانتباه فينا إلى تلك العوالم العظيمه،و خاصّه طبيعه النظم

ص: ٤٧٨

١- ١) - ذكرنا شرحا لهذا الموضوع فى مباحث (إثبات وجود الله)و ذلك عند جوابنا على أدلّه الماديين فى موضوع (الآفات و البلايا)،يرجى مراجعه كتاب (خالق العالم).

٢- ٢) - بحار الأنوار، ج ٣، ص ٦٣.

الحاكمه عليها، و الروعه المتناهيه فى جمالها و لطافتها و عظمتها، و سكونها المقترن بالأسرار العجيبه، و الهيئه التى تلقى بظلالها على جميع العوالم، ممّا يجعل الإنسان أمام عالم ملىء بالمعرفه و نور الحق، و يدفعه باتّجاه عشق البارئ عزّ و جلّ الذى لا يمكن وصفه و التعبير عنه بأى لسان.

و تؤكد الآيه الكريمه-مرّه اخرى-الحقيقه القائله بأنّ جميع النجوم التى نشاهدها ما هى إلّا جزء من السماء الاولى، و التى هى أقرب إلينا من أى سماء اخرى من السموات السبع، لذا أطلق عليها اسم(السماء الدنيا) أى السماء القريبه و التى هى أسفل جميع السموات الاخرى.

«الرجوم»بمعنى(الرصاص) و هى إشاره إلى الشهب التى تقذف كرصاصه من جهه إلى اخرى من السماء، كما أنّ(الشهب)هى بقايا النجوم المتلاشيه و التى تأثرت بحوادث معيّنه، و بناء على هذا، فإنّ المقصود بجعل الكواكب رجوما للشياطين، هو هذه الصخور المتبقّيه.

أمّا كيفيه رجم الشياطين برصاصات الشهب(الأحجار الصغيره)التي تسير بصوره غير هادفه فى جو السماء، فقد بيّناه بشكل تفصيلى فى التفسير الأمثل فى تفسير الآيه(١٨)من سوره الحجر، و كذلك فى تفسير الآيه(٢٠)من سوره الصافات.

ملاحظه

اشاره

عظمه عالم الخلق:

بالرغم من أنّ القرآن الكريم نزل فى مجتمع الجاهليه و التأخّر.. إلّا- أنّنا عند ما نلاحظ آياته نراها غالبا ما تدعو المسلمين إلى التفكّر و التأمل بالأسرار العظيمه التى يزخر بها عالم الوجود، الأمر الذى لم يكن مفهوما فى ذلك العصر،

ص: ٤٧٩

و هذا دليل واضح على أنّ القرآن الكريم صادر من مبدأ آخر، وأنّ العلم و المعارف الإنسانية كلّما تقدّمت فإنّها تؤكّد عظمه القرآن الكريم أكثر فأكثر.

فالكره الأرضيه التي نعيش عليها-مع كبر حجمها و سعتها-صغيره في مقابل مركز المنظومه الشمسيه (قرص الشمس)، بحيث أنّها تساوى مليون و مائتى ألف كره أرضيه مثل أرضنا.

هذا من جهه، و من جهه اخرى فإنّ منظومتنا الشمسيه جزء من مجرّه عظيمه، يطلق عليها اسم «درب التبانّه» (١).

و طبقا لحسابات العلماء الفلكيين فإنّه يوجد في مجرتنا فقط (١٠٠/٠٠٠/٠٠٠/٠٠٠)-مائة مليار-نجمه، حيث تكون الشمس و مع ما عليها من عظمه إحدى نجومها المتوسطه.

و من جهه ثالثه فإنّ في هذا العالم الواسع مجرّات كثيره إلى حدّ أنّها تخرج عن الحساب و العدد، و كلّما تطوّرت التلسكوبات الفلكيه العظيمه تمّ كشف مجرّات اخرى عديده.

فما أعظم قدره هذا الربّ الذي وضع هذه الأسرار الكبيره مع ذلك النظام الدقيق «العظمه لله الواحد القهّار».

ص: ٤٨٠

١- ١) (المجرّات) هي: مجاميع من النجوم تعرف باسم (مدن النجوم)، و مع أنّ بعضها قريب من البعض الآخر نسبيا، إلا أنّ الفاصله بين بعضها و البعض الآخر تكون أحيانا ملايين السنين الضوئيه.

اشاره

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)

التفسير

اشاره

لو كنا نسمع أو نعقل:

كان الحديث في الآيات السابقة عن معالم العظمه و القدره الإلهيه و دلالتها في عالم الوجود، أما في الآيات مورد البحث فإنه تعالى يتحدث عن الأشخاص الذين يعرضون و يتنكبون عن أدله الحق، و يكابرون في تحدى البراهين الدامغه،

و يسلكون طريق الكفر و الشرك، و يقذفون أنفسهم كالشياطين في اتون العذاب الإلهي.

يقول تعالى في البدايه: وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ .

ثمّ يستعرض توضيحا لهذا اللون من العذاب الرهيب فيقول تعالى: إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ .

نعم، إنهم عند ما يلقون فيها بمنتهى الذلّ و الحقاره تقترن حاله إلقائهم بصور صوت مرعب و شديد من جهنّم، حيث يسيطر الرعب و الخوف على جميع وجودهم.

«شهيّق» في الأصل بمعنى صوت قبيح و منكر كصوت الحمار، و يقال أنّه مأخوذ من مادّه (شهوq) بمعنى كونه طويلا (لذا يطلق على الجبل العالى بأنّه شاهق) و من هنا فإنّه (شهيّق) جاءت بمعنى الأين الطويل.

و قال البعض: إنّ (الزفير) هو الصوت الذى يتردّد فى الحلق، أمّا (الشهيّق) فهو الصوت الذى يتردّد فى الصدر، و فى كلّ الأحوال فإنّها إشارة إلى الأصوات المرعبة و المؤلمه.

ثمّ يضيف تعالى مستعرضا شدّه غضب (جهنّم) و شدّه هيجانها و انزعاجها بقوله تعالى: تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ (١).

إنّها حراره هائله جدّا و نار حارقه مزمره كما لو وضعنا إناء كبير على نار محتدمه فإنّه لا يلبث أن يفور و يغلى بشكل يكاد فيه أن يتلاشى و يذوب، أو كأنسان يكاد أن يتفجّر من شدّه الغضب و الثوره و الانفعال، هكذا هو منظر جهنّم، مركز الغضب الإلهي.

ثمّ يستمرّ تعالى بقوله: كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ .

ص: ٤٨٢

فلما ذا إذن أوقعتم أنفسكم في هذا المصير البائس، وهذا البلاء العظيم و الساعه الرهيبه، إِنَّ الملائكه (خزنه جهنم) يستغربون و يكادون أن يصعقوا لما أصابكم و ما أوقعتم به أنفسكم، في مثل هذه الداهيه مع الوعى الذى حباكم به الله سبحانه و ما تفضل به عليكم من نعمه الرسل الإلهيين و القاده من الأنبياء و المرسلين.. فكيف اخترتم لأنفسكم مقراً كهذا؟ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ، فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ .

و هكذا يأتى الاعتراف: نعم قد جاءنا الرسل إِلَّا أَنَّا كَذَّبْنَاهم و لم نسمع نداءهم المحيى للنفوس بل خالفناهم و عارضناهم و اعتبرناهم ضالين، و أخرجناهم من بين صفوفنا، و أبعدناهم عنا..

ثم يذكر القرآن الدليل الأصلى على شقايتهم و تعاستهم و لكن على لسانهم فيقول: وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ، أجل هكذا يأتى اعترافهم بذنوبهم بعد فوات الأوان فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ .

و فى هذه الآيات و ضمن بيان المصير المرعب لهؤلاء يشير إلى السبب الحقيقى لذلك، فمن جهة أعطاهم الله تعالى الاذن السامعه و العقل، و من جهة اخرى بعث إليهم الرسل و الأنبياء بالدلائل الواضحه فلو اقترن هذان الأمران فالنتيجه هى ضمان سعادته الإنسان، أمّا لو كان للإنسان اذن لا يسمع بها، و عين لا يبصر بها، و عقل لا يفكر به، فلو جاءه جميع الأنبياء و المرسلين بكافه معاجزهم و كتبهم، لم ينتفع بشيء. و

قد ورد فى الحديث الشريف، أَنَّ بعض المسلمين ذكروا شخصا عند رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و أثنوا عليه، فقال صَلَّى الله عليه و آله و سلم: «كيف عقل الرجل» ف قيل: يا رسول الله نحن نسأل عن سعيه و عبادته و خيراته و أنت تسأل عن عقله؟! فقال صَلَّى الله عليه و آله و سلم: «إِنَّ الْأَحْمَقَ يَصِيبُ بِحِمْقِهِ أَعْظَمَ مِنْ فَجْورِ الْفَاجِرِ، وَ إِنَّمَا يَرْتَفِعُ الْعِبَادُ غَدَا فِي الدَّرَجَاتِ وَ يَنَالُونَ الزُّلْفَى مِنْ رَبِّهِمْ عَلَى قَدَرِ عَقُولِهِمْ!». .

«سحق» على وزن (قفل) و هي في الأصل بمعنى طحن الشيء و جعله ناعماً كما تطلق على الملابس القديمة، إلا أنها هنا بمعنى البعد عن رحمه الله، و بناء على هذا فإن مفهوم قوله تعالى: فَسَيَحْضُرُكَ لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ هو: فبعداً لأصحاب النار عن رحمه الله، و لأن لعنه و غضب الله تعالى يكون توأماً مع التجسيد الخارجى له، فإن هذه الجملة بمثابة الدليل على أن هذه المجموعه بعيدة عن رحمه الله بشكل كلى.

ملاحظه

اشاره

المقام السامى للعقل:

ليست هذه هي المره الاولى التى يشير فيها القرآن الكريم إلى مقام العقل السامى، كما أنها ليست المره الاولى التى يصرح فيها بأن العامل الأساسى لتعاسه الإنسان و دخوله عوالم الخسران و الضياع و العاقبه التعيسه، و سقوطه و فى وحل الذنوب و جهنم..هو عدم الاستفادة من هذه القوه الإلهيه العظيمة، و إغفال هذه القدره الجباره، و عدم استثمار هذه الجوهره و النعمه الربانيه، و ذلك واضح و يبين لكل من قرأ القرآن و تدبر آياته، حيث يلاحظ أن هذا الأمر مؤكّد عليه فى مناسبات شتى..

و على الرغم من الأكاذيب التى يطلقها البعض بأن الدين هو وسيله لتخدير العقول و الإيعراض عن أوامرها و متطلّباتها، فإن الإسلام قد وضع أساس معرفه الله تعالى و سلوك طريق السعاده و النجاه، ضمن مسئوليّه العقل.

لذا فإن القرآن الكريم يوجّه نداءاته بصوره مستمرّه و فى كلّ مكان إلى (أولو الألباب) و (أولو الأبصار) و أصحاب الفكر من العلماء و المتعمّقين فى شؤون المعرفه.

و لقد وردت في المصادر الإسلامية روايات كثيرة في هذا الصدد، بشكل لا يمكن إحصاؤه، و الطريف أن كتاب الكافي المعروف، و الذي هو أكثر الكتب اعتباراً في مجال الحديث يحتوي على (أبواب) أو (كتب) أولها كتاب باسم كتاب (العقل و الجهل) و كل من يلاحظ الروايات التي وردت بهذا الخصوص يدرك عمق النظرة الإسلامية إلى هذه المسألة.

و نحن هنا نقتطف منها روايتين:

جاء في حديث عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «هبط جبرائيل على آدم، فقال:

يا آدم، إنني أمرت أن أخيرك واحده من ثلاث فاخترها ودع إثنين، فقال له آدم:

يا جبرائيل و ما الثلاث؟ فقال: العقل و الحياء و الدين، فقال آدم إنني قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء و الدين: انصرفا و دعاه. فقالا: يا جبرئيل، إننا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال: فشأنكما و عرج» (١).

و هذا من أجمل ما يمكن أن يقال في العقل، و طبيعته علاقته مع الحياء و الدين، إذ أن العقل إذا ما انفصل عن الدين فإن الدين سيكون في مهبط الرياح و يتعرض إلى الانحراف بسبب الأهواء و فقدان الموازن الموضوعية الأساسية.

أمّا «الحياء» الذي هو الرادع للإنسان عن ارتكاب القبائح و الذنوب، فهو الآخر من ثمار شجرة العقل و معرفه.

و هكذا نرى أن آدم عليه السلام كان يتمتع بدرجة عالية من العقل، حيث أنه عليه السلام اختار العقل ممّا خیر به من الأمور الثلاث، و بذلك اصطحب الدين و الحياء أيضاً.

و نقراً

في حديث للإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من كان عاقلاً كان له دين و من كان له دين دخل الجنة» (٢).

و بناء على هذا فإن الجنة هي مكان أولى الأبواب، و من الطبيعي أن المقصود

ص: ٤٨٥

١-١) -أصول الكافي طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٨٢.

٢-٢) -أصول الكافي طبقاً لنور الثقلين، ج ٥، ص ٣٨٢.

من العقل هنا: هو المعرفة الحقيقيّة الراسخه و ليس ألعيب الشياطين التي تلاحظ في أعمال و ممارسات السياسيين و الظالمين و المستكبرين في عالمنا المعاصر.

حيث أنّ ذلك كما

يقول الإمام الصادق هو (شبيهه بالعقل، و ليست بالعقل) (١).

ص: ٤٨٦

١- (١) - نفس المصدر أعلاه.

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَاسْتَزُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)

التفسير

اشاره

خالق الوجود علیم بأسراره:

بعد ما بينا في الأبحاث التي تناولتها الآيات السابقة-مصير الكفار يوم القيامة، فإن القرآن الكريم يتناول في الآيات مورد البحث حاله المؤمنين و جزاءهم العظيم عند الله سبحانه..

يقول في البدايه: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

«الغيب» هنا إشاره لمعرفة الله تعالى غير المرئيه، أو الإشاره إلى المعاد غير المشاهد، أو يقصد به الأمران معا.

كما يحتمل أن يكون إشاره إلى الخوف من الله تعالى بسبب ما عمل الإنسان من خطايا و ذنوب في السر، ذلك أن الإنسان إذا لم يقترب ذنوبا في السر، فإنه لن يجزأ عليها في العلانيه.

و يحتمل أن يكون هذا التعبير إشارة إلى خلوص التيه في الابتعاد عن الذنوب و المعاصي، و الالتزام بالأوامر الإلهية، إذ أن العمل السرى يكون أبعد عن الرياء.

كما لا مانع من الجمع بين هذه الآراء.

التعبير ب(مغفره) بصوره (نكره)، و كذلك (أجر كبير) إشارة إلى عظمته و أهميته، إذ أن هذه المغفره و هذا الأجر من العظمه أنه غير معروف و لا واضح للجميع.

ثم يضيف للتأكيد: وَ أَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

نقل بعض المفسرين عن (ابن عباس) قوله في سبب نزول هذه الآية: (إن جماعة من الكفار-أو المنافقين- كانوا يذكرون الرسول بالسوء بدون علمه، و كان جبرئيل عليه السلام يخبر الرسول بذلك، و كان بعضهم يقول للآخر (أسرُوا قولكم) فنزلت الآية أعلاه موضحة أن جهرهم أو إخفاءهم لأقوالهم هو مما يعلمه الله تعالى) (١).

و تأتي الآية اللاحقه دليلا و تأكيدا على ما ورد في الآية السابقة، حيث يقول تعالى: أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ .

ذكرت احتمالات متعدده في تفسير عبارته: أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ فقال البعض:

إن القصد منها هو أن الذى خلق القلوب يعلم ما تكن فيها من أسرار.

أو أن الرب الذى خلق العباد هل يجهل أسرارهم.

أو أنه تعالى الذى خلق عالم الوجود جميعا عارف و مطلع بجميع أسرارهم، و عندئذ هل تكون أسرار الإنسان-الذى هو جزء من هذا العالم العظيم-خافيه على الله تعالى؟ و لا يدراك هذه الحقيقة لا-بد من الالتفات إلى أن مخلوقات الله تعالى دائما تحت رعايته، و ذلك يعنى أن فيض وجوده يصل كل لحظه إلى مخلوقاته، فإنه

ص: ٤٨٨

سبحانه لم يخلقهم ليركهم بدون رعايه.و فى الأصل فإنّ جميع الممكنات مرتبطه دائما بوجوده تعالى،و إذا ما فقدت تعلّقها بذاته المقدّسه لحظه واحده فإنّها ستسلك طريق الفناء،إنّ الانتباه و إدراك طبيعه هذه العلاقه القائمه و الخلقه و الأواصر الثابته،هى أفضل دليل على علم الله بأسرار جميع الموجودات فى كلّ زمان و مكان.

«اللطيف» مأخوذ فى الأصل من (اللطيف)و يعنى كلّ موضوع دقيق و ظريف، و كلّ حركه سريعه و جسم لطيف،و بناء على هذا فإنّ وصف الله تعالى ب (اللطيف) إشارة إلى علمه عزّ و جلّ بالأسرار الدقيقه للخلق،كما جاءت أحيانا بمعنى خلق الأجسام اللطيفه و الصغيره و المجهرية و ما فوق المجهرية.

إنّ جميع ما ذكرنا سابقا إشاره إلى أنّ الله اللطيف عارف و مّطلع على جميع النوايا القلبيه الخفيه،و كذلك أحاديث السرّ،و الأعمال القبيحه التى تنجز فى الخفاء و الخلوه..فهو تعالى يعلم بها جميعا.

قال بعض المفسّرين فى تفسير (اللطيف): (هو الذى يكلف باليسير و يعطى الكثير).

و فى الحقيقه فإنّ هذا نوع من الدقّه فى رحمه.

و قال البعض أيضا: إنّ وصفه تعالى ب (اللطيف) بلحاظ نفوذه سبحانه فى أعماق كلّ شىء،و لا يوجد مكان خال منه تعالى فى العالم أجمع،فهو فى كلّ مكان و كلّ شىء.

إنّ جميع هذه الأمور ترجع إلى حقيقه واحده،و هى التأكيد على عمق معرفه الله سبحانه و علمه بالأسرار الظاهره و الباطنه لجميع ما فى الوجود

اشاره

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَيَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨)

التفسير

اشاره

لا أمان للعاصين من عقاب الله:

بعد الأبحاث التي استعرضناها في الآيات السابقة بالنسبة لأصحاب النار و أصحاب الجنة، والكافرين و المؤمنين، يشير تعالى في الآيات مورد البحث إلى بعض النعم الإلهية، ثم إلى أنواع من عذابه، وذلك للترغيب و التشويق بالجنة لأهل الطاعة، والإنذار بالنار لأهل المعصية، يقول تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا .

فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ

«ذلّول» بمعنى (مطيع) و هو أجمل تعبير يمكن أن يطلق على الأرض، لأنّ هذا المركب السريع السير جدّاً، مع حركته المتعدّده، يلاحظ هادئاً إلى حدّ يبدو و كأنّه ساكناً بصورة مطلقة.

يقول بعض العلماء: إنّ للأرض أربع عشرة حركة مختلفه، ثلاث منها هي:

الاولى: حركتها حول نفسها.

و الثانيه: حول الشمس.

و الثالثه: مع مجموعه المنظومه الشمسيه فى وسط المجرّه.

هذه الحركات التى تكون سرعتها عظيمه، هي من التناسب و الانسجام إلى حدّ لم يكن ليصدق أحد أنّ للأرض حركة لو لا إقامه البراهين القطعيه على حركتها.

هذا من جهه، و من جهه اخرى. فإنّ قشره الأرض ليست قويّه و قاسيه إلى حدّ لا يمكن معه العيش فوقها، و لا ضعيفه لئنه لا قرار لها و لا هدوء، و بذلك فإنّها مناسبه لحياء البشر تماماً، فلو كان معظم سطح الكره الأرضيه مغموراً بالوحل، و المستنقعات-مثلاً- فعندئذ تتعدّر الاستفادة منها، و كذلك لو كانت الرمال الناعمه تغمرها فإن قدم الإنسان تغور فيها حتّى الركب، و كذا لو كانت مكوّناتها من الصخور الحادّه القاسيه فعندئذ يتعدّر المشىء عليها، و من هنا يتّضح معنى استقرار الأرض و هدوئها.

و من جهه ثالثه فإنّ بعدها عن الشمس ليس هو بالقرب منها إلى حدّ يؤدّى بحراره الشمس إلى أن تحرق كلّ شىء على وجهها، و لا هو ببعيد عنها بحيث يتجمّد كلّ شىء على سطحها.

و كذلك بالنسبه لضغط الهواء على الكره الأرضيه، فإنّه متناسب بما يؤدّى إلى هدوء الإنسان و راحتة، فهو ليس بالشديد بالصوره التى يسبّب له الاختناق، و لا بالمنخفض بالشكل الذى يتلاشى فيه معه.

و الأمر نفسه يقال فى الجاذبيه الأرضيه،هى ليست شديده إلى حدّ تتهشّم فيها عظام الإنسان،و لا بالضعيفه التى يكون فيها معلقا لا يستطيع الاستقرار فى مكان.

و الخلاصه:إنّ الأرض(ذلول)و مطيعه و مسخّره لخدمه الإنسان فى جميع المجالات،و الظريف هنا بعد وصفه تعالى للأرض بأنّها(ذلول)أمره لعباده بأن يسيروا فى(مناكبها).

و«مناكب»جمع(منكب)على وزن(مغرب)بمعنى الكتف،و بذلك تسخر الأرض للإنسان و يضع قدميه عليها سائرا على كتفها و هى هادئه و متوازيه و محتفظه بتعادلها.

كما تحمل فى نفس الوقت إشارة إلى ضروره السعى فى الأرض فى طلب الرزق و الحصول عليه،و إلّا فسيكون الحرمان نصيب القاعدين و المتخلفين عن السعى.

إنّ التعبير ب(الرزق)-هنا-تعبير جامع و شامل،حيث يعنى كافّه الموارد الأرضيه،و هو أعمّ من النعم الحيوانيه و النباتيه و المعدنيه التى فيها.

و يجب الالتفات إلى أنّ هذا ليس هو الهدف الأساس لخلقكم،إذ أنّ كلّ ذلك وسائل فى طريق(نشوركم)و بعثكم و حياتكم الأبدية.

و بعد هذا الترغيب و التشويق يستعرض تعالى أسلوب التهديد و الإنذار فيقول سبحانه: أَمْ نُنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ .

نعم،إنّ البارئ تعالى إذا أمر أو أراد فإنّ هذه الأرض الذلول الهادئه تكون فى حاله هيجان و طغيان كدابه جموح،تبدأ بالزلازل،و تتشقق و تدفنكم و بيوتكم و مدنكم تحت ترابها و حجرها،و تبقى راجفه مضطربه مزمره بعد أن تقضى عليكم و على مساكنكم التى متّعتم فيها برهه من الزمن.

جمله(فإذا هى تمور)يمكن أن تكون إشارة إلى قدره الله سبحانه على أن

يَأْمُرُ الْأَرْضَ أَنْ تَبْتَلِعَكُمْ، وَتَنْقَلِبَكُمْ بِاسْتِمْرَارٍ - وَأَنْتُمْ فِي دَاخِلِهَا - مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ بِحَيْثُ أَنَّ الْهَدُوءَ لَا يَشْمَلُكُمْ حَتَّى وَ أَنْتُمْ فِي قُبُورِكُمْ.

و هَكَذَا تَفْقِدُ الْأَرْضُ اسْتِقْرَارَهَا وَ هَدُوءَهَا إِلَى الْأَبَدِ، وَ تَسِيْطُرُ الزَّلَازِلُ عَلَيْهَا، وَ هَذَا الْأَمْرُ سَهْلُ الْإِدْرَاكِ وَ التَّصَوُّرِ لِلَّذِينَ عَاشُوا فِي الْمَنَاطِقِ الزَّلَازِلِيَّةِ، وَ شَهِدُوا كَيْفَ أَنَّ الزَّلَازِلَ تَسْتَمِرُّ عَدَّةَ أَيَّامٍ أَوْ أَشْهُارٍ وَ تَبْقَى الْأَرْضُ غَيْرَ مُسْتَقَرَّةٍ وَ تَسْلُبُ مِنْ سَكَّانِ تِلْكَ الْمَنَاطِقِ لَذَّةَ النَّوْمِ وَ الْأَكْلِ وَ الرَّاحَةِ، غَيْرَ أَنَّ تَصَوُّرَ هَذَا الْأَمْرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَامَّةِ النَّاسِ الَّذِينَ أَلْفَوْا هَدُوءَ الْأَرْضِ أَمْرٌ صَعْبٌ.

التعبير بـ (من في السماء) إشارة إلى ذات الله المقدَّسه، و لَمَّا كَانَتْ حَاكِمِيَّتُهُ عَلَى جَمِيعِ السَّمَاوَاتِ وَ مِنْ فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُسَلَّمَةِ، فَمَا بِالْكَ بِحَاكِمِيَّتِهِ عَلَى الْأَرْضِ، إِنَّهَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا شَكَّ فِيهَا - أَيْضًا - بَلْ هِيَ مِنْ بَابِ الْأُولَى.

قال البعض: إِنَّ الْعِبَارَةَ السَّابِقَةَ إِشَارَةٌ إِلَى مَلَائِكَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي السَّمَاءِ الْمَكْلُوفِينَ بِتَنْفِيزِ أَوْامِرِهِ تَعَالَى.

ثُمَّ يَضِيفُ سُبْحَانَهُ: أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَلَا - يُلْزَمُ حَتْمًا حَدُوثَ زَلْزَلَةٍ لِتُسْمِرَكُمْ، بَلْ يَكْفِي أَنْ نَأْمُرَ عَاصِفَهُ رَمْلِيَةً لِتُدْفَنَكُمْ تَحْتَ رَمَالِهَا.. وَ حِينَئِذٍ سَتَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ إِذْكَارِي وَ تَهْدِيدِي: فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ .

إِنَّ إِدْرَاكَ طَبِيعَةِ هَذَا التَّسَاوُلِ سَهْلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ عَاشُوا فِي الْمَنَاطِقِ الرَّمْلِيَّةِ الْمُتَحَرِّكِهَ وَ الرِّيَّاحِ (الْحَاصِبَةِ)، وَ هِيَ الرِّيَّاحُ الَّتِي تَحَرَّكَ كَمِّيَّاتُ الْحَصَى الْمُتَرَاكِمَةِ وَ تَنْقَلِبُهَا مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ (فَهَؤُلَاءِ يَدْرُكُونَ إِمْكَانِيَّةَ دَفْنِ الْبُيُوتِ أَوْ الْقُرَى فِي لَحْظَاتٍ تَحْتَ تَلَالٍ مِنَ الْحَصَى وَ الرَّمَالِ الْمُتَحَرِّكِهَ، وَ كَذَلِكَ الْقَوَافِلُ السَّائِرَةُ فِي وَسْطِ الصَّحَرَاءِ.

وَ فِي الْحَقِيقَةِ فَإِنَّ الْآيَاتِ أَعْلَاهُ تَوَكَّدُ أَنَّ عَذَابَ الْعَاصِينَ وَ الْمُجْرِمِينَ لَا يَنْحَصِرُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَقَطْ، حَيْثُ يَسْتَطِيعُ الْبَارِئُ عَزَّ وَ جَلَّ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى حَيَاتِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِحَرَكَهٍ بَسِيطَةٍ لِلْأَرْضِ، أَوْ بِحَرَكَهٍ الرِّيَّاحِ، وَ إِنْ أَفْضَلَ دَلِيلٌ

على هذه الإمكانية الإلهية هو وقوع مثل هذه الأمور في الأمم السابقة.

لذا فإن الله تعالى يقول في آخر آيه من هذه الآيات: وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١).

نعم فلقد عاقبنا قسما من هؤلاء بالزلازل المدمّره، و أقواما آخرين بالصواعق، و بالطوفان، و بالرياح.. و بقيت مدنهم المدمّره موضع درس و اعتبار لمن كان له قلب واع.

ص: ٤٩٤

١ - ١) - «نكير» بمعنى (الإنكار) و جاءت هنا كناية عن العقوبه، لأنّ إنكار الله تعالى مقابل أفعال هؤلاء القوم جاءت عن طريق مجازاتهم، و ممّا يجب الانتباه له أنّ هذه الكلمه كانت في الأصل (نكيرى)، كما أنّ (نذير) في الآيه السابقه أصلها (نذيرى)، فحذفت ياء المتكلم و بقيت الكسره تدلّ عليها.

اشاره

أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يُزْزِقُكُمْ إِنَّ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١)

التفسير

اشاره

انظروا إلى الطير فوقكم:

في الآيات الاولى لهذه السوره كان البحث عن قدره الله سبحانه و ملكيته، و عن السموات السبع و النجوم و الكواكب..و يستمر هذا اللون من الحديث في أول آيه-مورد البحث-وذلك بذكر مفردة اخرى من كائنات هذا الوجود،و التي تبدو في ظاهرها صغيره و يقول تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ (١). .

ص: ٤٩٥

هذه الأجسام بالرغم من قانون الجاذبيه الأرضيه تنطلق من الأرض و تحلق ساعات فى السماء بكل راحه، و أحيانا أيا ما و أسابيع و شهوراً، و تستمر بحركتها السريعه المرنه و بدون أى مشاكل.

فالبعض منها يفتح جناحيه عند الطيران (صافات) و كأنّ هنالك قوه خفيه تحرّكه، و الاخرى ترفرف بأجنحتها عند الطيران بصورة مستمره و قد تكون (يقبضن) إشاره إلى هذا المعنى.

و تطير مجاميع اخرى بتحريك أجنحتها تاره و فتحها اخرى. كما أنّ هنالك قسماً آخر يحرك أجنحته لفته عند الطيران، و عند ما يحقق سرعه معينه يجمعها بصورة كليّه ك (العصفور).

و خلاصه القول: فإنّ الطيران واحد، إلّا أنّ صورته مختلفه و لكل طريقته و برنامجه الخاص به.

فمن يا ترى خلق أجسام هذه الطيور بهذه الصوره التى جعلها تستطيع السير فى الهواء بكل سهوله و راحه؟ و من ذا الذى وهبها هذه القدره و علّمها الطيران، خصوصاً حالات الطيران الجماعى المعقد للطيور المهاجره، التى تستمرّ - أحيانا - شهوراً عديده، و تقطع فى رحلتها هذه الاف الكيلومترات، و تمرّ بأجواء بلدان كثيره، و تجتاز الجبال و الوديان و الغابات و البحار حتّى تصل إلى مقصدها؟ فمن يا ترى علم و أعطى هذه الطيور كلّ هذه القوه، و هذا الوعى و المعرفه؟ لذا يقول فى ختام الآيه مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بِصِيرٌ .

إنّ الله تعالى الذى وضع باختيارها الوسائل و القوى و الإمكانيات المختلفه للطيران، نعم، إنّ الله الرحمن الذى شملت رحمته الواسعه جميع الكائنات، و أعطى للطيور ما هو موضع حاجتها فى الطيران، و حافظ عليها فى السماء، هو بذاته المقدسه يحفظ الأرض و الكائنات الاخرى. و عند ما يشاء غير ذلك فلن يكون عندئذ للطيور قدره الطيران و لا للأرض حاله الهدوء و الاستقرار.

التعبير ب(الصفات و يقبضن)لعله إشارة إلى طيور مختلفه أو لحالات متنوّعه من الطيران (١).

و لقد بحثنا بشكل تفصيلي عجائب عالم الطيور و غرائب مسأله الطيران فى تفسير الآيه (٧٩)من سوره النحل.

ثم يشير تعالى فى الآيه اللاحقه إلى أنّ الكافرين ليس لهم أى عون أو مدد مقابل قدره الله عزّ و جلّ حيث يقول: أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ (٢).

إنّ هؤلاء الذين هم(جند لكم)ليسوا عاجزين عن مساعدتكم و نصرتكم فحسب،بل إذا شاء الرحمن جعلها سبب عذابكم و دماركم،و حتّى هذه النعم المسخّره لسعادتكم كالماء و الهواء و التراب و النار و التى تمثّل ركنا أساسيا من أركان حياتكم لا يمكنها أن تنقذكم من البلاء،بل إنّها نفسها إذا أمرت فإنّها ستكون موضع عذابكم و موتكم و نقمه عليكم.

نعم لقد كانت هذه النعم سببا لهلاك و دمار كثير من الأقوام العاصين و يحدّثنا التاريخ أنّ الكثير من الجبابره و الطغاه و المتمرّدين على أوامر الله كان هلاكهم على يد أقرب الناس إليهم،و هذا ما يلاحظ كذلك فى عصرنا أيضا،حيث أنّ أكثر المجاميع وفاء للسلطه تثور ضدّهم و ينتقم الله من هؤلاء الظالمين بالظالمين الذين كانوا عوناً لهم.

ألا- إنّ الكافرين إلّا- فى غرورٍ فلقد أعمت عقولهم حجب الجهل و الغرور، و لا- يعتبرون أو يتّعظون بما حصل للأقوام البائده السابقه،و لا لما يصيب الآخرين

ص: ٤٩٧

١- ١) -سبب ذكر(الصفات)بصوره صفه و(يقبضن)بصوره فعل مضارع،لأنّ انفتاح أجنحه الطيور برنامج على نمط واحد و لا يحصل فيه تغيير،فى الوقت الذى نلاحظ فيه أنّ انفتاح و انقباض الأجنحه يكون عملا مكرّرا(فتأمّل).

٢- ٢) (أم)فى هذه الجمله حرف عطف،و(من)مبتدأ و(هذا)مبتدأ(ثان)و(الذى)خبرها و(هو جند لكم)صلتها،و (ينصركم)يكون وصفا لل(جند)،و الجمله هى خبر للمبتدأ الأوّل.(البيان فى غريب إعراب القرآن ج ٢ ص ٤٥٩)إلّا- أنّ المناسب هو أن يكون(الذى)عطف بيان و(ينصركم)خبر،لأنّ الجمله بدونه ناقصه.(فتأمّل).

فى حياتنا المعاصره.

«جند» فى الأصل بمعنى الأرض غير المستويه و القويّه، و التى تتجمّع فيها الصخور الكثيره، و لهذا السبب فإنّ هذه الكلمه (جند) تطلق على العدد الكثير من الجيش.

و قد اعتبر بعض المفسّرين كلمه (جند) فى الآيه-مورد البحث-إشاره إلى الأصنام، التى لا تستطيع مطلقا تقديم العون للمشركين فى يوم القيامه، إلّا أنّ للآيه فى الظاهر مفهوما واسعا و الأصنام أحد مصاديقها.

ثم يضيف سبحانه مؤكّدا ما سبق: **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ (١).**

فإذا أمر الله السماء أن تمتنع عن المطر، و الأرض عن الإنبات، و أمر الآفات الزراعيه بالفتك بالمحاصيل..فمن القادر غيره أن يطعمكم الطعام؟ و إذا ما قطع الله الرزق المعنوى عنكم و الوحي السماوى من الوصول إليكم، فمن القادر غيره على إرشادكم و إنقاذكم من براثن الضلال؟إنّها لحقائق واضحه و أدلّه دامغه، إلّا أنّ العناد هو الذى يشكّل حجابا للإدراك و للشعور الحقّ: **بَلْ لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ .**

و حتّى فى حياتنا المعاصره و مع كلّ ألوان التقدّم العلمى فى الجوانب المختلفه، خصوصا فى مجال الصناعه الغذائيه.فإذا ما منع الله المطر عن الأرض سنه واحده فىا لها من فاجعه عظمى تحلّ بالعلم، و إذا ما أصيبت النباتات بالجراد و الآفات سنه واحده فىا لها من كارثه كبرى تحلّ بالبشريه.

ص: ٤٩٨

(١ - ١) -نلاحظ أنّ جزاء الشرط فى الآيه محذوف تقديره(إن أمسك رزقه من يرزقكم غيره).

العوامل الأربعة في محروميه البشر:

استعرضت الآيات السابقه أهمّ العوامل التي أدت بالعصاه و المتمرّدين على أوامر البارئ عزّ و جلّ إلى المصير البائس و العاقبه الخائبه. و كانت أهمّ هذه العوامل: إعراض آذانهم عن الإصغاء، و عقولهم عن الفهم، و قلوبهم عن الوعي..

كما كانت في الآيات مورد البحث أربعة عوامل اخرى ساهمت في العاقبه السيئه لهؤلاء التي هي: بؤس الإنسان و ضلاله، هذه العوامل هي: (الغرور) و (اللجاجه) و (العتوّ) و (النفور).

و إذا ما أمعنا النظر جيّدا في هذه العوامل فإنّنا نلاحظ أنّ لها ارتباطا مع العوامل السابقه، حيث أنّ هذه الصفات الرديئه تولّد حجابا على الآذان و العيون و البصائر، و تمنع الإنسان من إدراك الحقائق.

اشاره

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدْعُونَ (٢٧)

التفسير

اشاره

السائر سويًا على جاده التوحيد:

تعقيبا لما ورد في الآيات السابقة بالنسبه إلى الكافرين و المؤمنين، فإنَّ الله تعالى يصوّر لنا-في أوّل آيه من هذه الآيات-حاله هاتين المجموعتين ضمن تصوير رائع و لطيف، حيث يقول تعالى: أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ

فهنا شبه المعاندين و المغرورين كمن يسير فى جادّه متعرّجه غير مستويه كثيره المنعطفات و قد وقع على وجهه، يحرك يديه و رجليه للاهتمام إلى سبيله، لأنّه لا يبصر طريقه جيّداً، و ليس بقادر على السيطرة على نفسه، و لا بمطلع على العقبات و الموانع، و ليست لديه القوّه للسير سريعاً، و بذلك يتعثّر فى سيره.. يمشى قليلاً ثمّ يتوقّف حائراً.

كما شبّه المؤمنين برجال منتصبى القامات، يسرون فى جادّه مستويه و مستقيمه ليس فيها تعرّجات و اعوجاج، و يمشون فيها بسرعه و وضوح و قدره و وعى و علم و راحه تامّه.

إنّه -حقاً- لتشبيه لطيف فذّ، حيث إنّ آثار هذين السبيلين واضحه تماماً، و انعكاساتها جليّه فى حياه هذين الفريقين، و ذلك ما نلاحظه بأنّ أعيننا.

و يرى البعض أنّ مصداق هاتين المجموعتين هما: (الرّسول الأكرم) و (أبو جهل) فهما مصاديق واضحه للآيه الكريمه، إلّا أنّ ذلك لا يحدّد عموميه الآيه.

و ذكرت احتمالات متعدّده فى تفسير (مكبا على وجهه). إلّا أنّ أكثر الاحتمالات المنسجمه مع المفهوم اللغوى للآيه هو ما ذكرناه أعلاه، و هو أنّ الإنسان غير المؤمن يكون مكبا على وجهه و يمشى زاحفا بيده و رجليه و صدره.

و قيل أنّ المقصود من (مكبا) هو المشى الاعتيادى و لكنّه مطأطئ الرأس لا يشخص مسيره بوضوح أبداً.

كما يرى آخرون أنّ المقصود ب(مكبا) هو الشخص الذى لا يستطيع أن يحفظ توازنه فى السير، فهو يخطو خطوات معدوده ثمّ ما يلبث أن يسقط على الأرض و ينهض ليمشى، ثمّ تتكرر هذه الحاله.

و يستفاد ممّا ذكره الراغب فى مفرداته أنّ المقصود ب(مكبا) هو الشخص الذى يدور حول محور الذات و الأنانيه، معرضاً عن الاهتمام بغيره.

إِلَّا أَنَّ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ أَنْسَبُ حَسَبَ الظَّاهِرِ، وَذَلِكَ بِقَرِينِهِ الْمَقَابِلَةِ مَعَ وَضْعِ الْمُؤْمِنِينَ وَالَّذِينَ عَبَّرَتْ عَنْهُمْ الْآيَةُ بِ(سَوِيًّا).

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَهَلْ أَنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ (مَكْنِيًّا) وَ(سَوِيًّا) تَمَثَّلُ وَضْعَ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ فَقَطْ؟ أَمْ فِي الْعَالَمِينَ (الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)؟ لَا دَلِيلَ عَلَى مَحْدُودِيَةِ مَفْهُومِ الْآيَةِ وَانْحِصَارِهَا فِي الْآخِرَةِ، فَهَمَّا فِي الدُّنْيَا كَمَا هُمَا فِي الْآخِرَةِ.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْأَنَانِيِّينَ الْمُنْشِدِينَ إِلَى مَصَالِحِهِمُ الْمَادِيَّةِ وَالْمُنْغَمَسِينَ فِي شَهْوَاتِهِمْ، السَّائِرِينَ فِي دَرْبِ الضَّلَالِ وَالْهَوَى، كَمَنْ يَرُومُ الْعُبُورَ مِنْ مَكَانٍ مَلِيءٍ بِالْأَحْجَارِ زَاحِفًا عَلَى صَدْرِهِ، بِخِلَافٍ مَنْ تَحَرَّرَ مِنْ قَيْدِ الْهَوَى فِي ظِلِّ الْإِيمَانِ حَيْثُ يَكُونُ مَسِيرُهُ وَاضِحًا وَمُسْتَقِيمًا وَنَظَرَاتُهُ عَمِيقَةً وَثَاقِبَةً.

ثُمَّ يُوَجِّهُ اللَّهُ تَعَالَى الْخُطَابَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الْآيَةِ الْلَاخِقَةِ يَقُولُ: قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ .

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لَكُمْ وَسِيلَةً لِلْمُشَاهَدَةِ وَالْإِبْصَارِ (الْعَيْنِ) وَكَذَلِكَ وَسِيلَةً وَقَنَاءً لِلْإِطْلَاقِ عَلَى أَفْكَارِ الْآخِرِينَ وَمَعْرِفَةٍ وَجِهَاتٍ نَظَرِهِمْ مِنْ خِلَالِ الْاسْتِمَاعِ (الْإِذْنِ) ثُمَّ وَسِيلَةً أُخْرَى لِلتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ فِي الْعُلُومِ وَالْمَحْسُوسَاتِ وَاللَّامَحْسُوسَاتِ (الْقَلْبِ).

وَخِلَاصُهُ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَضَعَ جَمِيعَ الْوَسَائِلِ اللَّازِمَةِ لَكُمْ لِتَعَرَّفُوا عَلَى الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ، إِلَّا أَنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَشْخَاصِ مِنْ يَدْرِكُ هَذِهِ النِّعَمَ الْعَظِيمَةَ وَيَشْكُرُ اللَّهَ الْمُنْعِمَ، حَيْثُ أَنَّ شُكْرَ النِّعْمَةِ الْحَقِيقِيَّ يَتَجَسَّدُ بِتَوْجِيهِ النِّعْمَةِ نَحْوَ الْهَدَفِ الَّذِي خَلَقَتْ مِنْ أَجْلِهِ، تَرَى مِنْ هُوَ الْمُسْتَفِيدُ مِنْ هَذِهِ الْحَوَاسِ (الْعَيْنِ وَالْإِذْنَ وَالْعَقْلَ) بِصُورِهِ صَحِيحِهِ فِي هَذَا الطَّرِيقِ؟ ثُمَّ يَخَاطَبُ الرَّسُولُ مَرَّةً أُخْرَى حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

وَفِي الْحَقِيقَةِ فَإِنَّ الْآيَةَ الْأُولَى تَعَيَّنَ (الْمَسِيرَ)، وَالثَّانِيَّةُ تَتَحَدَّثُ عَنْ (وَسَائِلَ)

العمل) أمّا الآيه-مورد البحث-فإنّها تشخّص (الهدف و الغايه)و ذلك بالتأكيد على أنّ السير يجب أن يكون فى الطريق المستقيم،و الصراط الواضح المتمثّل بالإسلام و الإيمان،و بذل الجهد للاستفاده من جميع وسائل المعرفه بهذا الاتجاه، و التحرك نحو الحياه الخالده.

و الجدير بالملاحظه هنا أنّ التعبير فى الآيه السابقه ورد ب(أنشأكم)و فى الآيه مورد البحث ب(ذراكم)،و لعلّ تفاوت هذين التعبيرين هو أنّه فى الأولى إشاره إلى الإنشاء و الإيجاد من العدم(أى إنكم لم تكونوا شيئا و قد خلقكم الله تعالى)و فى الثانيه إشاره إلى خلق الإنسان من مادّه التراب،و ذلك يعنى أنّ الله خلق الإنسان من التراب.

ثمّ يستعرض سبحانه قول المشركين فى هذا المجال و الردّ عليهم،فيقول تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .

إنّ المشركين يطالبون بتعيين التاريخ بصوره دقيقه ليوم القيامه،كما أنّهم يطالبون بحسم هذا الأمر الذى يتعلّق بمصير الجميع متىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ؟ .

و ذكروا احتمالين فى المقصود من(هذا الوعد):الأوّل:هو وعد يوم القيامه، و الآخر:هو تنفيذ الوعد بالنسبه للعقوبات الدنيويه المختلفه،كوقوع الزلازل و الصواعق و الطوفانات.إلّا- أنّ المعنى الأوّل أكثر تناسبا حسب الظاهر،و ذلك بلحاظ ما ورد فى الآيه السابقه.كما أنّ بالإمكان الجمع بين المعنيين.

و يجيبهم الله سبحانه على تساؤلهم هذا بقوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

إنّ هذا التعبير يشبه تماما ما ورد فى الآيات القرآنيه العديده التى من جملتها

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي (١).

و لا بدّ أن يكون الجواب بهذه الصورة، حيث أنّ تحديد تأريخ يوم القيامة إن كان بعيدا فإنّ الناس سيغرقون بالغفلة، وإن كان قريبا فإنّهم سيعيشون حاله الهلع و الاضطراب. و على كلّ حال فإنّ الأهداف التربوية تتعطل في الحالتين.

و يضيف في آخر آية من هذه الآيات بأنّ الكافرين حينما يرون العذاب و الوعد الإلهي من قريب تسودّ وجوههم: فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا فسيماهم طافحه بآثار الحزن و الندم وَ قِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ .

«تدعون» من مادّه (دعاء) يعنى أنّكم كنتم تدعون و تطلبون دائما أن يجيء يوم القيامة، و ها هو قد حان مواعده، و لا سبيل للفرار منه (٢).

و هذا المضمون يشبه ما جاء في قوله تعالى مخاطبا الكفار في يوم القيامة:

هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ

(٣)

و على كلّ حال، فإنّ الآية الشريفة ناظره إلى عذاب يوم القيامة كما ذهب إليه أغلب المفسّرين، و هذا دليل على أنّ جملة متّى هذا الوعد إشارة إلى موعد يوم القيامة.

يقول الحاكم أبو القاسم الحسكاني: عند ما شاهد الكفار شأن و مقام الإمام على عليه السّلام عند الله تعالى. اسودّت وجوههم (من شدّه الغضب) (٤).

و نقل هذا المعنى أيضا

في حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّ هذه الآية نزلت

ص: ٥٠٤

١- (١) - الأعراف، الآية ١٨٧.

٢- (٢) - «تدعون» من باب (افتعال)، و من مادّه دعاء، بمعنى الطلب و الرجاء، أو من مادّه (دعوا) بمعنى الطلب أو إنكار شيء معيّن.

٣- (٣) - الذاريات، الآية ١٤.

٤- (٤) - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٣٠.

بحقّ أمير المؤمنين على عليه السّلام و أصحابه (١).

و هذا التّفسير نقل عن طرق الشيعة و أهل السنّه، و هو نوع من التطبيق المصداقي، و إلّا فإنّ هذه الآيه تناولت موضوع (القيامه) و مثل هذه التطبيقات ليست قليله في عالم الروايات.

ص: ٥٠٥

١- ١) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٨٥.

اشاره

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللَّهُ وَ مَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)

التفسير

اشاره

من الذى يأتىكم بالمياه الجاريه؟

إنَّ الآيات أعلامه،التي هى آخر آيات سوره الملك،تبدأ جميعها بكلمه(قل) مخاطبه الرسول الأ-كرم صَلَّى الله عليه و آله و سلم،حيث أنها تمثل استمرارا للأبحاث التى مرّت فى الآيات السابقه حول الكفّار،و تعكس هذه الآيات الكريمه جوانب اخرى من البحث.

يخاطب البارئ عزّ و جلّ فى البدايه-الأشخاص الذين يرتقبون وفاه رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و أصحابه،و يتصوّرون أنّ بوفاته سوف يمحق دين الإسلام و ينتهى كلّ شىء.و هذا الشعور كثيرا ما ينتاب الأعداء المخذولين إزاء القيادات

القويّه و المؤثره، يقول تعالى مخاطبا إياهم: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .

ورد في بعض الروايات أنّ كفّار مكّه، كانوا دائما يسبّون الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و المسلمين، و كانوا يتمنّون موته ظلّنا منهم أنّ رحيله سينهى دعوته كذلك، لذا جاءت الآية أعلاه ردّا عليهم.

كما جاء شبيه هذا المعنى في قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ (١).

لقد كانوا غافلين عن وعد الله سبحانه لرسوله الأمين، بأنّ اسمه سيكون مقترنا مع مبدأ الحقّ الذي لا يعتريه الفناء و إذا جاء أجله فإنّ ذكره لن يندرس، نعم، لقد وعده الله سبحانه بانتصار هذا المبدأ، و أنّ ترفرف رايه هذا الدين على كلّ الدنيا، و حياه الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أو موته لن يغيّرا من هذه الحقيقه شيئا.

كما ذكر البعض تفسيراً آخر لهذه الآية و هو: إنّ خطاب الله لرسوله الكريم - الذي يشمل المؤمنين أيضا - مع ما عليه صلّى الله عليه و آله و سلّم من الإيمان الراسخ، كان يعكس الخوف و الرجاء معا في آن واحد. فكيف بكم أنتم أيّها الكافرون؟ و ما الذي تفكّرون به لأنفسكم؟ و لكن التفسير الأوّل أنسب حسب الظاهر.

و استمرارا لهذا البحث، يضيف تعالى: قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسْتَغْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

و هذا يعنى أنّنا إذا آمنّا بالله، و اتّخذناه وليّا و وكيلا لنا، فإنّ ذلك دليل واضح على أنّه الربّ الرحمن، شملت رحمته الواسعه كلّ شيء، و غمر فيض ألطافه و نعمه الجميع (المؤمن و الكافر)، إنّ نظره عابره إلى عالم الوجود و صفحه الحياه تشهد

ص: ٥٠٧

على هذا المدعى، أمّا الذين تعبدونهم من دون الله فما ذا عملوا؟ وما ذا صنعوا؟ وبالرغم من أنّ ضلالكم واضح هنا فى هذه الدنيا، إلاّ أنّه سيّضح بصورة أكثر فى الدار الآخرة. أو أنّ هذا الضلال و بطلان دعاواكم الفارغه ستظهر فى هذه الدنيا عند ما ينتصر الإسلام بالإمدادات الإلهيه على جيش الكفر بشكل إعجازى و خارق للعادة، عندئذ ستبين الحقيقه أكثر للجميع.

إنّ هذه الآيه- فى الحقيقه- نوع من المواساه للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين، كى لا يظنّوا أو يتصوّروا أنّهم وحدهم فى هذا الصراع الواسع بين الحقّ و الباطل، حيث أنّ الرحمن الرحيم خير معين لهم و نعم الناصر.

و يقول تعالى فى آخر آيه، عارضا لمصداق من رحمته الواسعه، و التى غفل عنها الكثير من الناس: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ .

إنّ للأرض فى الحقيقه قشرتين متفاوتتين: (قشره قابله للنفوذ) يدخل فيها الماء، و اخرى (غير قابله للنفوذ) تحفظ بالماء، و جميع العيون و الآبار و القنوات تولدت من بركات هذا التركيب الخاصّ للأرض، إذ لو كانت القشره القابله للنفوذ لوحدها على سطح الكره الأرضيه جميعا و لأعماق بعيدة، فإنّ جميع المياه التى تدخل جوف الأرض لا يقرّ لها قرار، و عندئذ لا يمكن أن يحصل أحد على قليل من الماء. و لو كانت قشره الأرض غير قابله للنفوذ لتجمعت المياه على سطحها و تحوّلت إلى مستنقع كبير، أو أنّ المياه التى تكون على سطحها سرعان ما تصبّ فى البحر، و هكذا يتمّ فقدان جميع الذخائر التى هى تحت الأرض.

إنّ هذا نموذج صغير من رحمه الله الواسعه يتعلّق بموت الإنسان و حياته.

«معين» من مادّه (معن)، على وزن (طعن) بمعنى جريان الماء.

و قال آخرون: إنّها مأخوذه من (عين) و الميم زائده. لذا فإنّ بعض المفسّرين ذهبوا إلى أنّ معنى (معين) تعنى الماء الذى يشاهد بالعين بغضّ النظر عن جريانه.

إلاّ أنّ الغالبية فسّروه بالماء الجارى.

و بالرغم من أنّ الماء الصالح للشرب لا- ينحصر بالماء الجارى، إلاّ أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ الماء الجارى يمثّل أفضل أنواع ماء الشرب، سواء كان من العيون أو الأنهار أو القنوات أو الآبار المتدفّقه..

و نقل بعض المفسّرين أنّ أحد الكفّار عند ما سمع قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ قال: (رجال شداد و معاول حداد) و عند نومه ليلا نزل الماء الأسود فى عينيه، و فى هذه الأثناء سمع من يقول: أتى بالرجال الشداد و المعاول الحداد ليخرجوا الماء من عينيك.

و من الواضح أنّه فى حالة عدم وجود القشره الصلبه و غير القابله للنفوذ، فإنّه لا يستطيع أى إنسان قوى و لا أى معول حادّ أن يستخرج شيئا من الماء (١).

تعقيب

جاء فى الروايات عن أئمّه أهل البيت عليهم السّلام أنّ المراد من الآيه الأخيره من هذه السوره هو ظهور الإمام المهدي عليه السلام و عدله الذى سيعمّ العالم.

فقد جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «نزلت فى الإمام القائم عليه السّلام، يقول: إن أصبح إمامكم غائبا عنكم، لا- تدرون أين هو؟ فمن يأتىكم بإمام ظاهر يأتىكم بأخبار السموات و الأرض، و حلال الله و حرامه؟ ثم قال: و الله ما جاء تأويل هذه الآيه، و لا بدّ أن يجيء تأويلها» (٢).

و الروايات فى هذا المجال كثيره، و ممّا يجدر الانتباه له أنّ هذه الروايات هى من باب (التطبيق).

و بعباره اخرى فإنّ ظاهر الآيه مرتبط بالماء الجارى، و الذى هو علّه حياه

ص: ٥٠٩

١- ١) -أبو الفتوح الرازى، ج ١١، ص ٢١٩.

٢- ٢) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٨٧.

الموجودات الحيّة. أمّا باطن الآيه فإنّه يرتبط بوجود الإمام عليه السّلام و علمه و عدالته التي تشمل العالم، و التي هي الاخرى تكون سببا لحياء و سعادته المجتمع الإنساني.

و لقد ذكرنا مرّات عدّه أنّ للآيات القرآنيه معاني متعدّده، حيث لها معنى باطن و ظاهر، إلّا أنّ فهم باطن الآيات غير ممكن إلّا للرسول و الإمام المعصوم، و لا- يحقّ لأى أحد أن يطرح تفسيراً ما لباطن الآيات. و ما نستعرضه هنا مرتبط بظاهر الآيات، أمّا ما يرتبط بباطن الآيات فعليّنا أن نأخذه من المعصومين عليهم السّلام فقط.

لقد بدأت سورة الملك بحاكميه الله و ماله كيته تعالى، و انتهت برحمانيته، و التي هي الاخرى فرع من حاكميته و ماله كيته سبحانه، و بهذا فإنّ بدايتها و نهايتها منسجمتان تماماً.

اللهم، أدخلنا في رحمتك العامّه و الخاصّه، و أرو ظمّاننا من كوثر ولايه أولياءك.

ربّنا، عجل لنا ظهور عين ماء الحياه الإمام المهدي، و اطفئ عطشنا بنور جماله..

ربّنا، ارزقنا اذنا صاغية و عينا بصيره و عقلاً كاملاً، فأقشع عن قلوبنا حجب الأنانيه و الغرور لنرى الحقائق كما هي، و نسلک إليك على الصراط المستقيم بخطوات محكمه و قامه منتصبه..

آمين ربّ العالمين نهايه سورة الملك

مکیه و عدد آیاتها اثنتان و خمسون آیه

ص: ۵۱۱

محتوى السوره:

بالرغم من أنّ بعض المفسّرين شكّك في كون السوره بأجمعها نزلت في مكّه، إلّا أنّ نسق السوره و محتوى آياتها ينسجم تماما مع السور المكيه، لأنّ المحور الأساسى فيها يدور حول مسأله نبوّه رسول الإسلام صلّى الله عليه وآله و سلّم و مواجهه الأعداء الذين كانوا ينعته بالجنون وغيره، و التأكيد على الصبر و الاستقامه و تحدّى الصعاب، و إنذار و تهديد المخالفين لهذه الدعوه المباركه بالعذاب الأليم.

و بشكل عامّ يمكن تلخيص مباحث هذه السوره بسبعه أقسام:

١- فى البدايه تستعرض السوره بعض الصفات الخاصّه لرسول الإنسانىه محمّد صلّى الله عليه وآله و سلّم و خصوصا أخلاقه البارّه الساميه الرفيعه، و لتأكيد هذا الأمر يقسم البارئ عزّ و جلّ فى هذا الصدد.

٢- ثمّ تتعرّض بعض الآيات الوارده فى هذه السوره إلى قسم من الصفات السيئه و الأخلاق الذميمة لأعدائه.

٣- كما يبيّن قسم آخر من الآيات الشريفه قصّه (أصحاب الجنّه) و التى هى بمثابة توجيه إنذار و تهديد للسالكين طريق العناد من المشركين.

٤- و فى قسم آخر من السوره ذكرت عدّه امور حول القيامة و العذاب الأليم للكفّار فى ذلك اليوم.

٥- كما جاء فى آيات اخرى جمله إنذارات و تهديدات للمشرّكين.

٦- ونلاحظ في آيات أخرى من السورة الأمر الإلهي للرسول العظيم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن يواجه الأعداء بصبر و استقامه وقوه وصلابه.

٧- وأخيرا تختتم السورة موضوعاتها بحديث حول عظمه القرآن الكريم، وطبيعته المؤامرات التي كان يحوكمها الأعداء ضد الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

انتخاب(القلم)اسما لهذه السورة المباركه،كان بلحاظ ما ورد في أول آيه منها،و ذكر البعض الآخر أنّ اسمها(ن).

و يستفاد من بعض الروايات التي وردت في فضيله هذه السورة أنّ اسمها«ن و القلم».

فضيله تلاوه سوره القلم:

نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فضيله تلاوه هذه السورة أنّه قال: «من قرأ(ن و القلم)أعطاه الله ثواب الذين حسن أخلاقهم» (١).

كما نقرأ

في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من قرأ سورة(ن و القلم) في فريضه أو نافله،آمنه الله أن يصيبه في حياته فقر أبدا،و أعاده إذا مات من ضمه القبر،إن شاء الله» (٢).

و هذا الأجر و الجزاء يتناسب تناسباً خاصاً مع محتوى السورة،و الهدف من التأكيد على هذا النوع من الأجر من تلاوه السورة هو أن تكون التلاوه مقرونه بالوعى و المعرفة و من ثم العمل بمحتواها.

ص: ٥١٤

١-١) -تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٨٧.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٣٠.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيُّكُمْ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧)

التفسير

اشاره

عجا لأخلاق الساميه:

هذه السوره هي السوره الوحيدده التي تبدأ بحرف (ن) حيث يقول تعالى:

ن

.

و قد تحدّثنا مرّات عديده حول الحروف المقطّعه، خصوصا في بدايه سوره (البقره) و(آل عمران) و(الأعراف) و الشئ الذي يجدر إضافته هنا هو ما اعتبره البعض من أنّ (ن) هنا تخفيف لكلمه (الرحمن) فهي إشاره لذلك. كما أنّ البعض الآخر فسّر رها بمعنى (اللوح) أو (الدواه) أو (نهر فى الجنّه) إلّا أنّ كلّ تلك الأقوال ليس لها دليل واضح.

ص: ٥١٥

و بناء على هذا فإنَّ الحرف المقطَّع هنا لا يختلف عن تفسير بقيَّة الحروف المقطَّعة و التي أشرنا إليها سابقا.

ثمَّ يقسم تعالى بموضوعين يعتبران من أهمِّ المسائل في حياة الإنسان، فيقول تعالى: وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ .

كم هو قسم عجيب؟ و قد يتصوَّر أنَّ القسم هنا يتعلَّق ظاهرا بمواضيع صغيره، أى قطعه من القصب-أو شىء يشبه ذلك-و بقليل من مادَّة سوداء، ثمَّ السطور التي تكتب و تخطَّ على صفحه صغيره من الورق.

إلا- أننا حينما نتأمَّل قليلا- فيه نجده مصدرا لجميع الحضارات الإنسانية في العالم أجمع، إنَّ تطور و تكامل العلوم و الوعى و الأفكار و تطور المدارس الدينيه و الفكرية، و بلوره الكثير من المفاهيم الحياتيه..كان بفضل ما كتب من العلوم و المعارف الإنسانية في الحقول المختلفه، ممَّا كان له الأثر الكبير فى يقظه الأمم و هدايه الإنسان..و كان ذلك بواسطه(القلم).

لقد قسّمت حياة الإنسان إلى عصرين:(عصر التأريخ)و(عصر ما قبل التأريخ)و عصر تأريخ البشر يبدأ منذ أن اخترع الإنسان الخطَّ و استطاع أن يدوّن قصّه حياته و أحداثها على الصفحات، و بتعبير آخر، يبدأ عند ما أخذ الإنسان القلم بيده، و دوّن للآخرين ما توصّل إليه(و ما يسطرون)تخليدا لماضيّه.

و تتضح عظمه هذا القسم بصوره أكثر عند ما نلاحظ أنَّ هذه الآيات المباركه حينما نزلت لم يكن هنالك كتاب و لا أصحاب قلم،و إذا كان هنالك أشخاص يعرفون القراءه و الكتابه، فإنَّ عددهم فى كلّ مكّه-التي تمثّل المركز العبادى و السياسى و الاقتصادى لأرض الحجاز-لم يتجاوز ال(٢٠)شخصا.و لذا فإنَّ القسم ب(القلم)فى مثل ذلك المحيط له عظمه خاصّه.

و الرائع هنا أنَّ الآيات الاولى التى نزلت على قلب رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم فى(جبل النور)أو(غار حراء)قد أشرير فيها أيضا إلى المنزله العليا للقلم، حديث يقول تعالى:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ

(١)

و الأروع من ذلك كله أنّ هذه الكلمات كانت تنطلق من فم شخص لم يكن يقرأ أو يكتب، و لم يذهب للمكاتب من أجل التعليم قط، و هذا دليل أيضا على أنّ ما ينطق به لم يكن غير الوحي السماوى.

و ذكر بعض المفسرين أنّ كلمه (القلم) هنا يقصد بها: (القلم الذى تخطّ به ملائكة الله العظام الوحي السماوى)، (أو الذى تكتب به صفحه أعمال البشر)، و لكن من الواضح أنّ للآيه مفهومها واسعا، و هذه الآراء تبين مصاديقها.

كما أنّ لجمله **يَسْطُرُونَ** مفهومها واسعا أيضا، إذ تشمل جميع ما يكتب فى طريق الهدايه و التكامل الفكرى و الأخلاقى و العلمى للبشر، و لا ينحصر بالوحي السماوى أو صحائف أعمال البشر (٢).

ثم يتطرّق سبحانه لذكر الأمر الذى أقسم من أجله فيقول تعالى: **مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ** .

إنّ الذين نسبوا إليك هذه النسبه القبيحه هم عمى القلوب و الأبصار، و إلاّ فأين هم من كلّ تلك النعم الإلهيه التى وهبها الله لك؟ نعمه العقل و العلم الذى تفوّقت بها على جميع الناس و نعمه الأمانه و الصدق و النبوه و مقام العصمه... إنّ الذين يتّهمون صاحب هذا العقل الجبار بالجنون هم المجانين فى الحقيقه، إنّ ابتعادهم عن دليل الهدايه و موجّه البشريه لهو الحمق بعينه.

ثم يضيف تعالى بعد ذلك: **وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ** أى غير منقطع، و لم لا

ص: ٥١٧

١- ١) -العلق، الآيه ١-٥.

٢- ٢) -اعتبر البعض أنّ (ما) فى (ما يسطرون) مصدرية، و اعتبرها بعض آخر بآئها (موصوله) و المعنى الثانى أنسب، و التقدير هكذا: (ما يسطرونه)، كما اعتبرها البعض أيضا بمعنى (اللوح) أو (القرطاس) الذى يكتب عليه، و فى التقدير (ما يسطرون فيه) كما اعتبر البعض (ما) هنا إشاره لذوى العقول و الأشخاص الذين يكتبون هذه السطور، إلاّ أنّ المعنى الذى ذكرناه فى المتن أنسب من الجميع حسب الظاهر.

يكون لك مثل هذا الأجر، في الوقت الذي وقفت صامدا أمام تلك التهم و الافتراءات اللئيمه، و أنت تسعى لهدايتهم و نجاتهم من الضلال و واصلت جهدك في هذا السبيل دون تعب أو ملل؟ «ممنون» من مادّه (مَنْ) بمعنى (القطع) و يعنى الأجر و الجزاء المستمرّ الذى لا ينقطع أبدا، و هو متواصل إلى الأبد، يقول البعض: إنّ أصل هذا المعنى مأخوذ من «المنّه»، بلحاظ أنّ المنّه توجب قطع النعمه.

و قال البعض أيضا: إنّ المقصود من غَيْرَ مَمْنُونٍ هو أنّ الله تعالى لم تكن لديه منّه مقابل هذا الأجر العظيم. إلا أنّ التفسير الأوّل أنسب.

و تعرض الآيه اللاحقه و صفا آخر لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و ذلك بقوله تعالى:

وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ

تلك الأخلاق التى لا نظير لها، و يحار العقل فى سموّها و عظمتها من صفاء لا يوصف، و لطف منقطع النظير، و صبر و استقامه و تحمّل لا مثيل لها، و تجسيد لمبادئ الخير حيث يبدأ بنفسه أولا فيما يدعو إليه، ثمّ يطلب من الناس العمل بما دعا إليه و الالتزام به.

عند ما دعوت- يا رسول الله- الناس- لعباده الله، فقد كنت أعبد الناس جميعا، و إذ نهيتهم عن سوء أو منكر فإنّك الممتنع عنه قبل الجميع، تقابل الأذى بالنصح، و الإساءه بالصفح، و التضرّع إلى الله بهدايتهم، و هم يؤلمون بدنك الطاهر رميا بالحجاره، و استهزاء بالرساله، و تقابل وضعهم للرماد الحارّ على رأسك الشريف بدعائك لهم بالرشد.

نعم لقد كنت مركزا للحبّ و منبعا للعطف و منهلا- للرحمه، فما أعظم أخلاقك؟ «خلق» من مادّه (الخلق) بمعنى الصفات التى لا تنفك عن الإنسان، و هى ملازمه له، كخلقه الإنسان.

و فسّر البعض الخلق العظيم للنبي ب(الصبر فى طريق الحقّ، و كثره البذل

و العطاء، و تدبير الأمور، و الرفق و المداراه، و تحمّل الصعاب في مسير الدعوه الإلهيه، و العفو عن المتجاوزين، و الجهاد في سبيل الله، و ترك الحسد و البغض و الغلّ و الحرص... و بالرغم من أنّ جميع هذه الصفات كانت متجسّده في رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم إلا أنّ الخلق العظيم له لم ينحصر بهذه الأمور فحسب، بل أشمل منها جميعا.

و فسّر الخلق العظيم أيضا ب (القرآن الكريم) أو (مبدأ الإسلام) و من الممكن أن تكون الموارد السابقه من مصاديق المفهوم الواسع للآيه أعلاه.

و على كلّ حال فإنّ تأصل هذا (الخلق العظيم) في شخصيه الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم هو دليل واضح على رجاحه العقل و غزاره العلم له و نفى جميع التّهم التي تنسب من قبل الأعداء إليه.

ثمّ يضيف سبحانه بقوله: فَسْتَبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ .

بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ

أى من منكم هو المجنون (١).

«مفتون»: اسم مفعول من (الفتنه) بمعنى الابتلاء، و ورد هنا بقصد الابتلاء بالجنون.

نعم، إنّهم ينسبون هذه النسب القبيحه إليك ليعبدوا الناس عنك، إلا أنّ للناس عقلا و إدراكا، يقيمون به التعاليم التي يتلقونها منك، ثمّ يؤمنون بها و يتعلّمونها تدريجيّا، و عندئذ تتّضح الحقائق أمامهم، و هي أنّ هذه التعاليم العظيمه مصدرها البارئ عزّ و جلّ، أنزلها على قلبك الطاهر بالإضافة إلى ما منحك من نصيب عظيم في العقل و العلم.

كما أنّ مواقفك و تحرّكاتك المستقبلية المقرونة بالتقدّم السريع لانتشار الإسلام، ستؤكّد بصوره أعمق أنّك منبع العلم و العقل الكبيرين، و أنّ هؤلاء الأقزام

ص: ٥١٩

الخفافيش هم المجانين، لأنهم تصدّوا لمحاربه نور هذه الشمس العظيمة المتمثله بالحقّ الإلهي و الرساله المحمديه.

و من الطبيعي فإنّ هذه الحقائق ستتوضّح أمامهم يوم القيامة بصوره دامغه، و يخسر هنالك المبطلون، حيث تتبيّن الأمور و تظهر الحقيقه.

و للتأكيد على المفهوم المتقدّم يقول سبحانه مرّه اخرى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

و بلحاظ معرفه الباري عزّ و جلّ بسبيل الحقّ و بمن سلكه و من جانبه و تخلف أو انحرف عنه، فإنّه يطمئن رسوله الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم بأنّه و المؤمنون في طريق الهدايه و الرشد، أمّا أعداؤه فهم في متاه الضلاله و الغوايه.

و جاء في حديث مسند أنّ قريشا حينما رأّت رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم يقدم الإمام على عليه السلام على الآخرين و يجلّه و يعظّمه، غمزه هؤلاء و قدحوا به صلّى الله عليه و آله و سلّم و قالوا: (لقد فتن محمّد به) هنا أنزل الله تعالى قرآنا و ذلك قوله: ن وَ الْقَلَمِ وَ أَقْسَمَ بِذَلِكَ، وَ إِنَّكَ يَا مُحَمَّدٌ غَيْرُ مُفْتُونٍ وَ مُجْنُونٍ حَتَّى قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ حيث الله هو العالم بالأشخاص الذين ضلّوا و انحرفوا عن سواء السبيل، و هي إشاره إلى قريش التي كانت تطلق هذه الاتهامات، كما أنّه تعالى أعرف بمن اهتدى، و هي إشاره إلى الإمام على عليه السلام (1).

بحثان

إشاره

١- دور القلم في حياه الإنسان

إنّ من أهمّ معالم التطور في الحياه البشريه - كما أشرنا سابقا - هو ظهور

ص: ٥٢٠

١- (١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٣٤، (نقل الطبرسي هذا الحديث بسنده عن أهل السنّه).

الخطّ و ما ثبتته القلم على صحائف الأوراق و الأحجار، إذ أنّ هذا الحدث أدّى إلى فصل (عصر التاريخ) عن (عصر ما قبل التاريخ).

إنّ ما يثبت القلم على صفحات الورق هو الذى يحدّد طبيعته الانتصار أو الانتكاسه لمجتمع ما من المجتمعات الإنسانية، و بالتالى فإنّ ما يسطّره القلم يحدّد مصير البشر فى مرحله ما أو مكان ما.. ف(القلم) هو الحافظ للعلوم، المدوّن للأفكار، الحارس لها، و حلقة الاتصال الفكرى بين العلماء، و القناه الرابطه بين الماضى و الحاضر، و الحاضر و المستقبل. بل حتّى موضوع ارتباط الأرض بالسماء قد حصل هو الآخر عن طريق اللوح و القلم أيضا.

فالقلم يربط بين بنى البشر المتباعدين من الناحيه الزمانيه و المكانيه، و هو مرآه تعكس صور المفكرين على طول التاريخ فى كلّ الدنيا و تجمعها فى مكتبه كبيره.

و القلم: حافظ للأسرار، مؤتمن على ما يستودع، و خازن للعلم، و جامع للتجارب عبر القرون و الأعصار المختلفه. و إذا كان القرآن قد أقسم به فلهذا السبب، لأنّ القسم غالبا لا يكون إلّا بأمر عظيم و ذى قيمه و شأن.

و من الطبيعى عندئذ أن يكون (القلم) و سيله ل (ما يسطرون) من الكتابه، و نلاحظ القسم بكليهما لقد أقسم القرآن الكريم ب (الوسيله) و كذلك (بحصاد) تلك الوسيله (و ما يسطرون).

و جاء

فى بعض الروايات «إنّ أوّل ما خلق الله القلم».

نقل هذا الحديث محدّثوا الشيعة عن الإمام الصادق عليه السلام (١).

و جاء هذا المعنى أيضا فى كتب أهل السنّه فى خبر معروف (٢).

ص: ٥٢١

١- (١) - نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٨٩، حديث ٣.

٢- (٢) - تفسير الفخر الرازى، ج ٣، ص ٧٨.

و جاء

فى روايه اخرى: (أول ما خلق الله تعالى جوهرة) (١).

و

ورد فى بعض الأخبار أيضا: (إنَّ أول ما خلق الله العقل) (٢).

و يمكن ملاحظه طبيعه الارتباط الخاص بين كل من (الجوهرة) و (القلم) و (العقل) الذى يوضح مفهوم كونهم أول ما خلق الله سبحانه من الوجود.

جاء فى نهايه الحديث الذى نقلناه عن الإمام الصادق عليه السلام إنَّ الله تعالى قال للقلم بعد خلقه إياه: أكتب، و أنه كتب ما كان و ما سيكون إلى يوم القيامة.

و بالرغم من أنَّ المقصود من القلم فى هذه الروايه هو قلم التقدير و القضاء، إلّا أنَّ جميع ما هو موجود من أفكار و علوم و تراث، و ما توصّل إليه العقل البشرى على طول التاريخ، و ما هو مثبت من مبادئ و رسالات و تعاليم و أحكام.. يؤكّد على دور القلم فى الحياه الإنسانيه و مصير البشره.

إنَّ قادة الإسلام العظام لم يكتفوا بحفظ الأحاديث و الروايات و العلوم و المعارف الإلهيه فى ذاكرتهم بل كانوا يؤكّدون على كتابتها، لتبقى محفوظه لأجيال المستقبل (٣).

و قال بعض العلماء: (البيان بيانان: بيان اللسان، و بيان البنان، و بيان اللسان تدرسه الأعوام، و بيان الأقلام باق على مرّ الأيام) (٤).

و قالوا أيضا: (إنَّ قوام امور الدين و الدنيا بشيئين: القلم و السيف، و السيف تحت القلم) (٥).

و قد نظّم بعض شعراء العرب هذا المعنى بقولهم:

كذا قضى الله للأقلام مذ برت

أنّ السيوف لها مذ أرهفت خدم

ص: ٥٢٢

١-١) -المصدر السابق.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٥٦ (حديث ٢٠، ١٩، ١٨، ١٧، ١٦، ١٤).

٤-٤) -تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٣٢.

(إنّ هذا التعبير إشاره بديعه إلى برى القلم بواسطه السكين، وجعل الشفره الحادّه بخدمه القلم من البدايه) (١).

و يقول شاعر آخر، في هذا الصدد و من وحى الآيات مورد البحث:

إذا أقسم الأبطال يوما بسيفهم

و عدوّه ممّا يجلب المجد و الكرم

كفى قلم الكتاب فخرا و رفعه

مدى الدهر إنّ الله أقسم بالقلم (٢)

و إنّه لحقّ، و ذلك أنّه حتّى الانتصارات العسكريه إذا لم تستند و تركز على ثقافه قويّه فإنّها لن تستقيم طويلا. لقد سجلّ المغول أكبر الانتصارات العسكريه فى البلدان الإسلاميه، و لأنّهم كانوا شعبا سطحيّا فى مجال المعرفه و الثقافه فلم يؤثروا شيئا، و أخيرا اندمجوا فى حضاره الإسلام و ثقافه المسلمين و غيروا مسارهم.

و مجال البحث فى هذا الباب واسع جدّا، إلّا أنّنا-التزاما بمنهج التفسير و عدم الخروج عنه- ننهى كلامنا هنا بحديث معبر عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم فى هذا الموضوع حيث

يقول: «ثلاثه تخرق الحجب، و تنتهى إلى ما بين يديّ الله: صرير أقلام العلماء، و وطئ أقدام المجاهدين، و صوت مغازل المحصنات» (٣).

و من الطبيعى أنّ كلّ ما قيل فى هذا الشأن، يتعلّق بالأقلام التى تلتزم جانب الحقّ و العدل، و تهدى إلى صراط مستقيم، أمّا الأقلام المأجوره و المسمومه و المضلّه، فإنّها تعتبر أعظم بلاء و أكبر خطر على المجتمعات الإنسانيه.

٢- نموذج من أخلاق الرسول

بالرغم من أنّ الانتصارات التى تمّت على يد الرسول محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم كانت

ص: ٥٢٣

١-١) -المصدر السابق.

٢-٢) -روح البيان، ج ١٠، ص ١٠٢.

٣-٣) (الشهاب فى الحكم و الآداب)، ص ٢٢.

برعايه الله سبحانه و إمداده، إلا أنّ ذلك كان اقتارانا بعوامل عديده أيضا، ولعلّ أحد أهمّ هذه العوامل هو: سمو الأخلاق عند رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و جاذبيته الشخصيه، إنّ أخلاقه صلّى الله عليه و آله و سلّم كانت من العلو و الصفات الإنسانيه الساميه لدرجه أنّ الدّ أعدائه كان يقع تحت تأثيرها كما أنّ مكارم الأخلاق التي أودعت فيه كانت تجذب و تشدّ المحيّن و المردين إليه بصورة عجيبه.

و إذا ما ذهبنا إلى القول بأنّ السمو الأخلاقي لرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم كان معجزه أخلاقيه، فإنّنا لا نبالغ في ذلك، كما سنوضح لذلك نموذجا من هذا الإعجاز الأخلاقي.. ففي فتح مكّه و عند ما استسلم المشركون أمام الإراده الإسلاميه، و رغم كلّ حربهم للإسلام و المسلمين و شخص الرّسول الكريم بالذات، و بعد تماديهم اللّثيم و كلّ ممارساتهم الإجراميه ضدّ الدعوه الإلهيه.. بعد كلّ هذا الذي فعلوه، فإنّ رسول الإنسانيه أصدر أمرا بالعفو العامّ عنهم جميعا، و غصّ الطرف عن جميع الجرائم التي صدرت منهم، و كان هذا مفاجأ للمقرّبين و البعيدين، الأصدقاء و الأعداء، و كان سببا في دخولهم في دين الله أفواجا، بمصداق قوله تعالى: وَ رَأَيْتِ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا .

لقد وردت في كتب التّفسير و التاريخ قصص كثيره حول حسن خلق الرّسول الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم في عفوه و تجاوزه و عطفه و رأفته، و توضحيته و إثارة و تقواه... بحيث أنّ ذكرها جميعا يخرجنا عن البحث التّفسيري.. إلا أنّنا سنكتفي بما يلي:

و

جاء في حديث عن الحسين بن علي عليه السّلام أنّه قال: سألت أبي أمير المؤمنين عن رسول الله كيف كان سيرته في جلسائه؟ فقال: كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظّ، و لا غليظ و لا صخّاب، و لا فحّاش، و لا عيّاب، و لا مدّاح، يتغافل عمّا لا يشتهى، فلا يؤيّس منه و لا يخيب فيه مؤمّليه، قد ترك نفسه من ثلاث: المرء و الإكثار و ما لا يعنيه، و ترك الناس من ثلاث كان لا يذمّ أحدا و لا يعيّره، و لا يطلب عثراته و لا عورته و لا يتكلّم إلّا في ما رجا ثوابه، إذا تكلم أطرق

جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده الحديث...» (١).

نعم لو لم تكن هذه الأخلاق الكريمة و هذه الملكات الفاضله، لما أمكن تطويع تلك الطباع الخشنه و القلوب القاسيه، و لما أمكن تليين أولئك القوم الذين كان يلفهم الجهل و التخلف و العناد، و يحدث فيهم انعطافا هائلا لقبول الإسلام..

و لتفرّق الجميع من حوله بمصداق قوله تعالى: لَا تَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ .

و كم كان رائعا لو أحيينا و التزمنا بهذه الأخلاق الإسلاميه القدوه، و كان كلّ منّا يحمل قبسا من إشعاع خلق و أخلاق رسولنا الكريم و خاصّه في عصرنا هذا حيث ضاعت فيه القيم، و تنكّب الناس عن الخلق القويم.

و الروايات في هذا الصدد كثيره، سواء ما يتعلّق منها حول شخص الرّسول الكريم أو ما يتعلّق بواجب المسلمين في هذا المجال، و نستعرض الآن بعضا من الروايات في هذا الموضوع.

١-

جاء في حديث أنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (٢).

و لذا فإنّ أحد الأهداف الأساسيه لبعثه الرّسول السعى لتكامل الأخلاق الفاضله و تركيز الخلق السامى.

٢-و

جاء في حديث آخر عنه صلّى الله عليه و آله و سلّم: «إنّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجه قائم الليل و صائم النهار» (٣).

٣-و

ورد عنه أيضا صلّى الله عليه و آله و سلّم: «ما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن» (٤).

ص: ٥٢٥

١- (١) -معانى الأخبار، ص ٨٣ (بتلخيص قليل).

٢- (٢) -مجمع البيان، ج ١، ص ٣٣٣.

٣- (٣) -المصدر السابق.

٤- (٤) -المصدر السابق.

نقل عنه صَلَّى الله عليه وآله وسلم أَنَّهُ قَالَ: «أَحَبُّكُمْ إِلَى اللَّهِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوَطُّونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ. وَ أَبْغَضُكُمْ إِلَى اللَّهِ الْمَشَاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمَفْرُقُونَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ، الْمَلْتَمِسُونَ لِلْبَرَاءِ الْعَثَرَاتِ» (١).

٥-و نقرأ

فِي حَدِيثٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أَكْثَرُ مَا يَدْخُلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَى اللَّهِ وَحَسَنُ الْخَلْقِ» (٢).

٦-و

جَاءَ فِي حَدِيثٍ عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (إِنَّ أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنَهُمْ أَخْلَاقًا) (٣).

٧-و

وَرَدَ حَدِيثٌ عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«عَلَيْكُمْ بِحَسَنِ الْخَلْقِ، فَإِنَّ حَسْنَ الْخَلْقِ فِي الْجَنَّةِ لَا مَحَالَةَ، وَإِيَّاكُمْ وَسُوءَ الْخَلْقِ، فَإِنَّ سُوءَ الْخَلْقِ فِي النَّارِ لَا مَحَالَةَ» (٤).

إِنَّ مَا يَسْتَفَادُ مِنْ مَجْمُوعِ الْأَخْبَارِ -أَعْلَامِهِ- بِشَكْلِ وَاضِحٍ وَجَلِيِّ، أَنَّ حَسْنَ الْخَلْقِ مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ، وَوَسِيلُهُ لِتَحْقِيقِ مَرْضَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمُؤَشِّرٌ عَلَى عَمَقِ الْإِيمَانِ، وَمِرَآةٌ لِلتَّقْوَى وَالْعِبَادَةِ.. وَالحديث في هذا المجال كثير جدًا.

ص: ٥٢٦

١-١) -مجمع البيان، ج ١، ص ٣٣٣.

٢-٢) -سفينة البحار، ج ١، ص ٤١٠، وجاء هذا المضمون في وسائل الشيعة، ج ٨، في ٥٠٤، وكذلك في تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٧٠٧.

٣-٣) -وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٠٦، حديث ٢١.

٤-٤) -روح البيان، ج ١، ص ١٠٨.

اشاره

فَلَا تُطْعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَذُؤُوا لَوْ تُذْهِنُ فَيَذْهَبُونَ (٩) وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتْلٌ بَعِيدٌ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تَتَلَا عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ (١٦)

التفسير

اشاره

اجتنب أصحاب هذه الصفات:

بعد أن تعرّضت الآيات السابقة إلى الأخلاق الساميه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تلتها الآيات أعلاه مستعرضه أخلاق أعدائه ليتّضح لنا الفرق بين الأخلاقيتين، وذلك من خلال المقارنه بينهما.

يقول تعالى في البدايه: فَلَا تُطْعِ الْمُكَذِّبِينَ .

إنّهم أناس ضالّون، ويدفعون الآخرين للتكبر على الله ورسوله، وينهونهم عن قبول مبدأ الهدايه، وقد استهانوا، واستخفّوا بقيم الحقّ، وإنّ الطاعه والاستجابه

لهؤلاء سوف لن تكون نتيجتها إلا الضلال و الخسران.

ثم يشير تعالى إلى جهد هؤلاء المتواصل في إقناع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بمصالحتهم و الإعراض عن آلهتهم و ضلالهم فيقول: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيْدُهُنَّ .

إن من أمانيتهم و رغبتهم أن تلين و تنعطف باتجاههم، و تغض الطرف عن تكليفك الرسالي من أجلهم.

و نقل المفسرون أن هذه الآيات نزلت حينما دعا رؤساء مكة و ساداتها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للسير على نهج أجدادهم في الشرك بالله و عبادة الأوثان، و قد نهى الله تعالى رسوله الكريم عن الاستجابة لهم و إطاعتهم (١).

و نقل البعض الآخر أن (الوليد بن المغيرة) و كان أحد زعماء الشرك قد عرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أموالا طائلة، و حلف أنه سيعطيها ل (محمد) إذا تخلى عن مبدئه و دينه (٢).

و الذى يستفاد من لحن الآيات -بصوره واضحة- و مما جاء فى التواريخ، أن المشركين الذين أعمى الله بصيرتهم، عند ما شاهدوا التقدم السريع للإسلام و انتشاره، حاولوا إعطاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعض المكاسب فى مقابل تقديم تنازلات مماثلة، فى محاولة لترتيب نوع من الصلح معه صلى الله عليه وآله وسلم. و هذا هو منهج أهل الباطل -دائما- فى الظروف و الأحوال التى يشعرون فيها أنهم سيخسرون كل شئ و يفقدون مواقفهم، لذا فإنهم اقترحوا عليه صلى الله عليه وآله وسلم إعطاءه أموالا طائلة، كما اقترحوا تزويجه بأجمل بناتهم، كما عرضوا عليه جاها و مقاما و ملكا بارزا، و ما إلى ذلك من أمور كانوا متعلقين بها و متفاعلين معها و متهاكين عليها، و يقيسون الرسول بقياسها.

إلا أن القرآن الكريم حذر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مرارا من مغبه إبداء أى تعاطف مع

ص: ٥٢٨

١-١) -الفخر الرازى، ج ٣٠، ص ٨٥، و المراغى، ج ٢٩، ص ٣١.

٢-٢) -تفسير القرطبي، ج ١، ص ٦٧١٠.

عروضهم واقتراحاتهم الماكره و أكد على عدم مDAHنه أهل الباطل أبدا.

كما جاء فى قوله تعالى: وَ أَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ اخْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ .

«يدهنون» من مادّه (مداهنه) مأخوذه فى الأصل (الدهن) و تستعمل الكلمه فى مثل هذه الموارد بمعنى إظهار اللين و المرونه، و فى الغالب يستعمل هذا التعبير فى مجال إظهار اللين و الميل المذموم كما فى حاله النفاق.

ثم ينهى سبحانه مرّه اخرى عن اتّباعهم و طاعتهم، حيث يسرد الصفات الذميمة لهم، و التى كلّ واحد منها يمكن أن تكون وحدها سببا للابتعاد عنه و الصدود عن الاستجابة لهم.

يقول تعالى: وَ لَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ .

تقال كلمه «حلاّف» على الشخص الكثير الحلف، و الذى يحلف على كلّ صغيره و كبيره، و هذا النموذج فى الغالب لا يتّسم بالصدق، و لذا يحاول أن يطمئن الآخرين بصدقه من خلال الحلف و القسم.

«مهين» من (المهانه) بمعنى الحقاره و الضّعفه، و فسّرها البعض بأنّها تعنى الأشرار أو الجهله أو الكاذبين.

ثم يضيف عزّ و جلّ: هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ .

«همّاز» من مادّه (همز)، (على وزن رمز) و يعنى: الغيبه و استقصاء عيوب الآخرين.

«مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ» تطلق على الشخص الذى يمشى بين الناس بإيجاد الإفساد و الفرقه، و إيجاد الخصومه و العداء فيما بينهم (و ممّا يجدر الالتفات إليه أنّ هذين الوصفين وردا بصيغه المبالغه، و التى تحكى غايه الإصرار فى العمل و الاستمرار بهذه الممارسات القبيحه).

ثم يسرد تعالى أوصافا اخرى لهم، حيث يقول فى خامس و سادس و سابع

صفه ذميمه لأخلاقهم: مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ .

و من صفاتهم أيضا أنهم ليسوا فقط مجانبين لعمل الخير، و لا يسعون فى سبيله، و لا يساهمون فى إشاعته و العون عليه..بل إنهم يقفون سداً أمام أى ممارسه تدعو إليه، و يمنعون كلَّ جهد فى الخير للآخرين، و بالإضافة إلى ذلك فإنهم متجاوزون لكل السنن و الحقوق التى منحها الله عزَّ و جلَّ لكلِّ إنسان ممَّا تطف به من خيرات و بركات عليه.

و فوق هذا فهم مدنسون بالذنوب، محتطبون للآثام، بحيث أصبح الذنب و الإثم جزءا من شخصياتهم و طباعهم التى هى مَناعه للخير، معتديه و آثمه.

و أخيرا يشير إلى ثامن و تاسع صفه لهم حيث يقول تعالى: عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ .

«عتل» كما يقول الراغب فى المفردات: تطلق على الشخص الذى يأكل كثيرا و يحاول أن يستحوذ على كلِّ شىء، و يمنع الآخرين منه.

و فسر البعض الآخر كلمه (عتل) بمعنى الإنسان السىء الطبع و الخلق، الذى تتمثل فيه الخشونه و الحقد، أو الإنسان سىء الخلق عديم الحياء.

«زним» تطلق على الشخص المجهول النسب، و الذى ينتسب لقوم لا نسبه له معهم، و هى فى الأصل من (زنمه)، (على وزن عظمه) و تقال للجزء المتدلَّى من اذن الغنم، فكانَّها ليست من الاذن مع أنَّها متصله بها.

و التعبير بشكل عام إشارة إلى أنَّ هاتين الصفتين هما أشدَّ قبحا و ضعه من الصفات السابقه كما استفاد ذلك بعض المفسرين.

و خلاصه البحث أنَّ الله تعالى قد أوضح السمات الأساسيه للمكذَّبين، و بيَّن صفاتهم القبيحه و أخلاقهم الذميمه بشكل لا نظير له فى القرآن بأجمعه، و بهذه الصوره يوضح لنا أنَّ الأشخاص الذين وقفوا بوجه الإسلام و القرآن، و عارضوا الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلَّم كانوا من أخسَّ الناس و أكثرهم كذبا و انحطاطا و خسَّه، فهم

يتتبعون عيوب الآخرين، نَمَـَامون، معتدون، آثمون، ليس لهم أصل و نسب، و فى الحقيقه أَننا لا نتوقَّع أن يقف بوجه النور الرسالى إِلَّا أمثال هؤلاء الأشرار.

و يحذّر سبحانه فى الآيه اللاحقه من الاستجابه لهم و التعامل معهم بسبب كثره أموالهم و أولادهم: بقوله: **أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَ بَيْنَ .**

و ممّا لا شكّ فيه أَنَّ الرّسول صَلَّى الله عليه و آله و سلّم لم يكن ليستسلم لهؤلاء أبداً، و هذه الآيات ما هى إِلَّا تأكيد على هذا المعنى، كى يكون خطّه الرسالى و طريقته العمليه واضحه للجميع، و لن تنفع جميع الإغراءات الماديّه فى عدوله عن مهمّته الرساليه.

و بناء على هذا فإنّ الجملة أعلاه تأتى تكمله للآيه الكريمه: **وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ .**

إلّا- أَنَّ البعض اعتبر ذلك بيانا و علّه لظهور هذه الصفات السلبيه، حيث الغرور الناشئ من الثروه و كثره الأولاد جرّهم و دفعهم إلى مثل هذه الرذائل الأخلاقيه.

و لهذا يمكن ملاحظه هذه الصفات فى الكثير من الأغنياء و المقتدرين غير المؤمنين. إلّا أَنَّ لحن الآيات يتناسب مع التفسير الأوّل أكثر، و لهذا اختاره أغلب المفسّرين.

و توضّح الآيه اللاحقه ردود فعل هؤلاء الأشخاص ذوى الصفات الأخلاقيه المريضه إزاء الآيات الإلهيه، حيث يقول تعالى: **إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .**

و بهذا المنطق السقيم و الحجج الواهيه يعرض عن آيات الله عزّ و جلّ، فيضللّ و يغوى و يدعو الآخرين للغى و الضلال، و لهذا يجب عدم الاستجابه لهؤلاء و عدم السماع لهم فى مثل هذه الأمور، و الإعراض عنهم و عدم طاعتهم، و هذا تأكيد للنهى عن طاعتهم الذى تعرّضت إليه الآيات السابقه.

و توضّح لنا آخر آيه- من هذه الآيات- مفرده من مفردات الجزاء الذى سيلاقيه أمثال هؤلاء فيضيف سبحانه: **سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ .**

و هذا التعبير كاشف و معبّر عن سوء النهايه المذلّه لهؤلاء، إذ جاء التعبير أوّلا

بالخرطوم الذى يستعمل للفيل وللخنزير فقط، وهو دلالة واضحة فى تحقيرهم.

و ثانيا: أنَّ الأنف فى لغة العرب غالبا ما يستعمل كناية عن العزّه و العظمه، كما يقال للفارس حين إذلاله: مرّغوا أنفه بالتراب، كناية عن زوال عزّته.

و ثالثا: أنَّ وضع العلامه تكون عادة للحيوانات فقط، بل حتّى بالنسبه إلى الحيوانات فإنّها لا تعلّم فى وجوها-خصوصا أنوفها- أضف إلى ذلك أنَّ الإسلام قد نهى عن مثل هذا العمل.

و مع كلّ ما تقدّم تأتى الآيه الكريمه ببيان معبرّ واف و واضح أنَّ الله تعالى سيذلّ هؤلاء الطغاه الذين امتلأوا عجا بدواتهم، المتمادين فى عنادهم و إصرارهم على الباطل، و تجاوزهم على الرّسول و الرساله.. سيذلّهم بتلك الصوره التى تحدّث عنها الآيه و يفضحهم على رؤوس الأشهاد ليكونوا موضع عبره للجميع.

إنّ التاريخ الإسلامى ينقل لنا كثيرا من صور الإذلال و الامتهان لأمثال هذه المجموعه المخالفه للحقّ المعانده فى ضلالها، المكابره فى تمسّكها بالباطل، بالرغم من تقدّم الرساله الإسلاميه و قوّتها و انتصاراتها، كما أنَّ فضيحتهم فى الآخره ستكون أدهى و أمرّ.

قال بعض المفسّرين: إنّ أكثر آيات هذه السوره كان يقصد بها (الوليد بن المغيره) أحد رموز الشرك الذى واجه الإسلام و تعرّض لرسوله الأمين محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم، إلّا أنَّ من المسلّم به أنَّ هذا القصد، لا يمنع من تصميم و توسعه مفهوم الآيات الكريمه و شموليته (١).

ص: ٥٣٢

١ - ١) - قال البعض: إنّ وضع العلامه على الأنف قد تحقّق عمليّا فى غزوه بدر، حيث وُجّهت ضربات إلى أنوف بعض سادات الكفر و كبرائهم، و قد بقيت آثارها على أنوفهم، و إذا كان المقصود فى ذلك (الوليد بن المغيره) فقد توفّى بذلّ قبل غزوه بدر. و جاء فى الخطبه المعروفه للإمام على بن الحسين عليه السّلام فى مسجد الشام قوله: «أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتّى قالوا: لا إله إلّا الله» يقصد الإمام على عليه السّلام بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٣٨. إنّ لهذا التعبير و بلحاظ ما جاء فى الآيه مورد البحث، حيث يقول تعالى: (سنسمه على الخرطوم) دلالة فى غايه اللطف و الروعه، حيث يرينا أنَّ الإراده الإلهيه قد تحقّقت على يد عبده المخلص على بن أبى طالب عليه السّلام.

١- الرذائل الأخلاقية

بالرغم من أنّ الآيات أعلاه تحدّثت عن الصفات الأخلاقية الرذيلة للمخالفين و المعاندين لرسول الإسلام محمد صلى الله عليه و آله و سلم، إلا أنّها في الوقت نفسه تعكس لنا نماذج و مفردات للصفات السلبية التي تبعد الإنسان عن الله عزّ و جلّ، و تسقطه في وحل الشقاء و البؤس، ممّا يستدعي من المؤمنين الملتزمين أن يكونوا على حذر منها و يراقبوا أنفسهم بدقّة من التلوّث بها، و لذا فقد أكّدت الروايات الإسلامية كثيرا على هذا المعنى. و من جملة ذلك ما يلي:

١-نقرأ

في حديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: «ألا أنبئكم بشارركم؟ قالوا:

بلى يا رسول الله، قال: المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباعثون للبراءة للمعائب» (١).

لقد كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يؤكّد كثيرا على البناء الأخلاقي للشخصية الإسلامية، حتّى أنّه

قال: «لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئا، فإنّي أحبّ أن أخرج إليكم و أنا سليم الصدر» (٢).

٢-و أخيرا نقرأ

في حديث عنه صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: «لا يدخل الجنّة جواظ، و لا جعظري، و لا عتل زنيم».

يقول الراوي: قلت: فما الجواظ؟ قال صلى الله عليه و آله و سلم: كلّ جماع مَناع، قلت: فما الجعظري؟ قال صلى الله عليه و آله و

سلم: الفضّ الغيظ؟ قلت: فما العتل الزنيم؟ قال صلى الله عليه و آله و سلم: رحب الجوف سيء الخلق أكل شروب غشوم ظلوم»

(٣).

ص: ٥٣٣

١-١ (١) -أصول الكافي، ج ٢، باب النميمة/حديث رقم ١.

٢-٢ (٢) (سنن أبي داود)أو(صحيح الترمذی)مطابقا لما نقل في ظلال القرآن، ج ٨، ص ٢٣٠.

٣-٣ (٣) -نور الثقلين، ج ٥، ص ١٩٤.

إن من جملة الخصائص التي يتميز بها تجار السياسة، والأشخاص و المجاميع غير الرساليه، أنهم يتلَوْنون و يتصرفون بالشكل الذي يتماشى مع مصالحهم، فلا ضوابط و لا ثوابت تحكمهم، بل هم على استعداد دائم للتنازل عن كثير من الشعارات المدعاه من جانبهم، مقابل تحقيق بعض المكاسب أو الحصول على بعض الامتيازات. أما متبنياتهم المدعاه فلا تشكّل شيئاً مقدساً بالنسبه إليهم، و يحورونها بما تقتضيه مصالحهم، وهذا المفهوم هو ما تشير إليه الآية الكريمه حيث يقول تعالى: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ

أما أهل المبادئ و الالتزام فإنهم لا يضحّون بأهدافهم المقدّسه مطلقاً و لا يسامون عليها أو يدهنون أبدأ، و لن يتخلّوا عن متبنياتهم و يقوموا بعمل أو صلح على خلاف ما تمليه عليهم مبادئهم العقائديه، خلافاً لما عليه تجار السياسة..

إن هذا المقياس من أفضل الدلائل لتشخيص السياسيين المنحرفين عن غيرهم من المبدئين، و الأشخاص الذين يسايرون هؤلاء المنحرفين لا شكّ أنهم بعيدون عن طريق الله و أوليائه.

اشاره

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ اُعْذُوا عَلَيْنَا خَرُثُكُمُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٢) فَمَا نَزَلْنَاهُمْ إِلَّا فِي سَحَابٍ مُمِدَّةٍ الْمَوْتِ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَغَدُوا عَلَيْنَا حَزْدٌ قَادِرِينَ (٢٥)

التفسير

اشاره

قصه (أصحاب الجنة):

في الآيات أعلاه يستعرض لنا القرآن الكريم-بما يتناسب مع البحث الذي ورد في الآيات السابقة- قصة أصحاب الجنة كنموذج لذوى المال الذين غرقوا فى أنانيتهم، فأصابهم الغرور، وتخلّوا عن القيم الإنسانية الخيره، وأعماهم حبّ المال عن كثير من الفضائل.. فالآيات الكريمه تذكر لنا قصه مجموعه من الأغنياء كانت لهم جنّه (بستان مثمر) إلا أنّهم فقدوها فجأه، وذلك لعتوّهم و غرورهم

و كبرهم على فقراء زمانهم.

و يبدو أنّها قصّه معروفه فى ذلك الزمان بين الناس، و لهذا السبب استشهد بها القرآن الكريم.

يقول فى البدايه: **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ** .

لقد تعدّدت الروايات فى مكان هذه الجنّه، فقليل: إنّها فى أرض اليمن بالقرب من صنعاء، و قيل: هى فى الحبشه، و هناك قول بأنّها فى أرض الشام، و ذهب آخرون إلى أنّها فى الطائف.. إلّا أنّ المشهور أنّها كانت فى أرض اليمن.

و موضوع القصّه هو: أنّ شيخا مؤمنا طاعنا فى السنّ كان له بستان عامر، يأخذ من ثمره كفايته و يوزّع ما فضل من ثمرته للفقراء و المعوزين، و قد ورثه أولاده بعد وفاته، و قالوا: نحن أحقّ بحصاد ثمار هذا البستان، لأنّ لنا عيالا و أولادا كثيرين، و لا طاقة لنا باتّباع نفس الأسلوب الذى كان أبونا عليه.. و لهذا فقد صمّموا على أن يستأثروا بثمار البستان جميعا، و يحرموا المحتاجين من أى عطاء منها، فكانت عاقبتهم كما تحدّثنا الآيات الكريمه عنه..

يقول تعالى: **إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١)** .

وَلَا يَسْتَنْتُونَ

أى لا يتركون منها شيئا للمحتاجين.

و عند التدقيق فى قرارهم هذا يتّضح لنا أنّ تصميمهم هذا لم يكن بلحاظ الحاجه أو الفاقه، بل إنّّه ناشئ عن البخل و ضعف الإيمان، و اهتزاز الثقة باللّه سبحانه، لأنّ الإنسان مهما اشتدّت حاجته، فإنّه يستطيع أن يترك للفقراء شيئا ممّا أعطاه اللّه.

و قيل: إنّ المقصود من عدم الاستثناء هو عدم قولهم (إن يشاء اللّه) حيث كان الغرور مسيطرا عليهم، ممّا حدا بهم إلى أن يقولوا: غدا سنذهب و نفعل ذلك،

ص: ٥٣٦

١ - ١) - «يصرم» من مادّه (صرم)، (على وزن ضرب) بمعنى حصد الفاكهه، و بمعنى القطع المطلق، و جاءت أيضا بمعنى تقويه عمل ما و إحكامه.

معتبرين الأمر مختصاً بهم، و غافلين عن مشيئه الله، و لذا لم يقولوا: (إن شاء الله).

إِلَّا أَنَّ الرَّأْيَ الْأَوَّلَ أَصَحُّ (١).

ثُمَّ يَضِيفُ تَعَالَى اسْتِمْرَارًا لِهَذَا الْحَدِيثِ: فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نَائِمُونَ .

لَقَدْ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهَا نَارًا حَارِقَةً، وَ صَاعِقَةً مَّهْلَكَةً، بَحِثْ أَنَّ جَنَّتَهُمْ صَارَتْ مَتَفَحَّمَةً سُودَاءَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ، وَ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ سِوَى الرَّمَادِ .

«طَائِفٌ» مِنْ مَادَّةِ (طَوَافٌ)، وَ هِيَ فِي الْأَصْلِ بِمَعْنَى الشَّخْصِ الَّذِي يَدُورُ حَوْلَ شَيْءٍ مُّعَيَّنٍ، كَمَا تَسْتَعْمَلُ أحيانًا كُنَايَةً عَنِ الْبَلَاءِ وَ الْمَصِيبَةِ الَّتِي تَحُلُّ فِي اللَّيْلِ، وَ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمَقْصُودُ هُنَا .

«صَّرِيمٌ» مِنْ مَادَّةِ (صَرَمٌ) بِمَعْنَى (الْقَطْعُ) وَ هُنَا بِمَعْنَى (اللَّيْلُ الْمَظْلَمُ) أَوْ (الشَّجَرُ بَدُونِ الثَّمَارِ) أَوْ (الرَّمَادُ الْأَسْوَدُ) لِأَنَّ اللَّيْلَ يَقْطَعُ عِنْدَ مَجِيءِ النَّهَارِ، كَمَا أَنَّ النَّهَارَ يَقْطَعُ عِنْدَ مَجِيءِ اللَّيْلِ، وَ لَذَا يُقَالُ أحيانًا لِلَّيْلِ وَ النَّهَارِ (صَرِيمَانِ)، وَ الْمَقْصُودُ بِذَلِكَ هُوَ: الْبَلَاءُ السَّمَاوِيُّ الَّذِي تَمَثَّلَ بِصَاعِقِهِ عَظِيمِهِ -فِيمَا يَبْدُو- أَحَالَاتِ الْبَسْتَانِ إِلَى فَحْمٍ وَ رَمَادٍ أَسْوَدَ، وَ هَكَذَا فَعَلَ الصَّوَاعِقُ غَالِبًا .

وَ عَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنَّ أَصْحَابَ الْبَسْتَانِ بَقُوا عَلَى تَصَوُّرِهِمْ لِأَشْجَارِ جَنَّتِهِمْ الْمَمْلُوءَةِ بِالثَّمَرِ، جَاهِزَةً لِلْقُطْفِ: فَتَنَادَوْا مُضْجِحِينَ (٢) .

وَ قَالُوا: أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَزْئِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ .

«أَغْدُوا» مِنْ مَادَّةِ (غَدَوْهُ) بِمَعْنَى بَدَايَةِ الْيَوْمِ، وَ لَذَا يُقَالُ لِلْغَدَاءِ الَّذِي يُؤْكَلُ فِي أَوَّلِ الْيَوْمِ -وَجِبَهُ الْإِفْطَارُ- غَدَاءٌ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ (غَدَاءً) تُقَالُ فِي التَّعَابِيرِ

ص: ٥٣٧

١ - ١) -بِالْإِضَافَةِ إِلَى التَّنَاسُبِ الْخَاصِ الْمَوْجُودِ بَيْنَ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ مَعَ أَصْلِ الْقِصَّةِ، فَإِنَّا إِذَا عَتَبْنَا الْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ الْمَقْصُودُ، كَانَ يَجِبُ أَنْ يُقَالَ (وَ لَمْ يَسْتَنُوا) بِدَلَالَةٍ عَنْ (وَ لَا يَسْتَنُونَ) .

٢ - ٢) -يَقُولُ الرَّائِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: إِنْ (تَنَادَا). أَصْلُهَا مِنْ (نَدَاءٍ) مُشْتَقَّةٌ مِنْ (نَدَى)، بِمَعْنَى الرُّطُوبَةِ الْمَأْخُوذَةِ، لِأَنَّ الْمَعْرُوفَ أَنَّ الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ تَكُونُ فِي أَفْوَاهِهِمْ رَطُوبَةٌ كَافِيَةٌ يَتَكَلَّمُونَ بِرَاحَةٍ، وَ يَتَّصِفُ كَلَامُهُمْ بِالْفَصَاحَةِ .

المستعمله حاليا لوجبه الأكل المتناوله فى وقت الظهر.

و على ضوء المقدمات السابقه: فَأَنْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخَفَتُونَ .

لقد كانوا يتكلمون بهدوء حتى لا يصل صوتهم إلى الآخرين، ولا يسمعون مسكين، و يأتى لمشاركتهم فى عمله جنى الثمر أو تناول شىء من الفاكهه.

و يرتقب الفقراء يوم الحصاد بفارغ الصبر فى مثل هذه الأيام، لأنهم تعودوا فى كل سنه أن ينالهم شىء من الفاكهه كما كان يفعل ذلك الشيخ المؤمن، إلا أن تصميم الأبناء البخلاء على حرمان الفقراء من العطاء، و السريه التى غلفوا بها تحرّكاتهم، لم تدع أحدا يتوقع أن وقت الحصاد قد حان.. حيث يطلع الفقراء على الأمر بعد انتهائه، و بهذا تكون النتيجة: وَ غَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ .

«حرد» على وزن «فرد» بمعنى الممانعه التى تكون توأما مع الشده و الغضب، نعم إنهم كانوا فى حاله عصبية و انفعاليه من حاجه الفقراء لهم و انتظار عطاياهم، و لذا كان القرار بتصميم أكيد على منعهم من ذلك.

و تطلق كلمه (حرد) أيضا على السنوات التى ينقطع فيها المطر، و على الناقه التى ينقطع حليبها.

إشارة

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوُمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَئِنَّ الْعَذَابَ الْآخِرَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣)

التفسير

إشارة

أصحاب البستان و المصير المؤلم:

الآيات الشريفة-أعلاه-استمرار لقصته أصحاب الجنة،التي مرّت علينا فى الآيات السابقة..فلقد تحرّكوا فى الصباح الباكر على أمل أن يقطعوا محصولهم الكثير،و يستأثروا به بعيدا عن أنظار الفقراء و المحتاجين،و لا يسمحوا لأى أحد من الفقراء بمشاركتهم فى هذه النعمة الإلهية الوافرة،غافلين عن تقدير الله...فإذا بصاعقه مهلكه تصيب جنّتهم فى ظلمه الليل فتحولها إلى رماد،فى وقت كان

أصحاب الجنّة يغطّون في نوم عميق.

يقول القرآن الكريم: فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ .

المقصود من (ضالّون) يمكن أن يكون عدم الاهتداء إلى طريق البستان أو الجنّة، أو تضييع طريق الحقّ كما احتمل البعض، إلّا أنّ المعنى الأوّل أنسب حسب الظاهر.

ثمّ أضافوا: يَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أى أردنا أن نحرم الفقراء و المحتاجين من العطاء إلّا أنّنا حرّمنا أكثر من الجميع، حرّمنا من الرزق المادّي، و من البركات المعنويه التي تحصل عن طريق الإنفاق في سبيل الله للفقراء و المحتاجين.

قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ

ألم أقل لكم اذكروا الله بالتعظيم و تجنّبوا مخالفته و اشكروا نعمته و امنحوا المحتاجين شيئا ممّا تفضّل الله به عليكم؟! لكنكم لم تصغوا لما قلته لكم، و أخيرا وصلتكم إلى هذه النتيجة البائسه في هذا اليوم الأسود.

و يستفاد ممّا تقدّم أنّ أحدهم كان شخصا مؤمنا ينهّاهم عن البخل و الحرص، إلّا أنّهم كانوا لا يسمعون كلامه، و لقد أفصح عن رأيه بقوّه بعد هذه الحادثه، و أصبح منطقهم أكثر حدّه و قاطعيه. و قد وبّخهم كثيرا على موقفهم من الفقراء، و وجّه لهم ملامه عنفيه.

و تستيقظ ضمائرهم في تلك اللحظه و يعترفون بخطئهم و ذنوبهم و قالوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ .

إنّ التعبير ب(أوسطهم) في الآيه السابقه يمكن أن يكون بلحاظ حدّ الاعتدال في العقل و الفكر و العلم و قيل: إنّ الوسط في السنّ و العمر. إلّا أنّه مستبعد جدّا، و ذلك لعدم وجود ارتباط بين العمر و هذه مقاله الوافيه المعبره. و الارتباط يكون عادة-بمثل هذا الكلام بين العقل و الفكر.

و التعبير ب لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ مأخوذ بلحاظ أنّ أصل و جذر كلّ الأعمال

الصالحه هو الإيمان و معرفه الله و تسبيحه و تنزيهه.

و قد فسّر البعض «التسبيح» هنا بمعنى (شكر النعمه) و التي من ملازماتها إعانه المحرومين، و هذان التفسيران لا يتنافيان مع بعضهما البعض، و هما مجموعان في مفهوم الآيه الكريمه.

لقد سبق تسبيحهم (الاعتراف بالذنب)، و لعلّ هذا كان لرغبتهم في تنزيه الله تعالى عن كلّ ظلم بعيدا عما نزل بجنتهم من دمار و بلاء عظيم، و كأنّ لسان حالهم يقول: ربّنا إنّنا كنّا نحن الظالمين لأنفسنا و للآخرين، و لذا حقّ علينا مثل هذا العذاب، و ما أصابنا منك هو العدل و الحكمه.

كما يلاحظ في قسم آخر من آيات القرآن الكريم-أيضا- أنّ التسبيح قبل الإقرار بالظلم، حيث نقرأ ذلك في قصّه يونس عليه السّلام عند ما أصبح في بطن الحوت، و ذلك قوله: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (١).

و الظلم بالنسبه لهذا النّبي العظيم هو بمعنى ترك الأولى، كما أوضحنا ذلك في تفسير هذه الآيه.

إِلَّا أَنْ الْمَسْأَلَةَ لَمْ تَنْتَه إِلَى هَذَا الْحَدِّ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: فَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ .

و الملاحظ من منطوق الآيه أنّ كلّ واحد منهم في الوقت الذي يعترف بذنبه، فإنّه يلقي بأصل الذنب على عاتق الآخر، و يوبّخه بشدّه، و أنّه كان السبب الأساس فيما و صلوا إليه من نتيجة بائسه مؤلمه، و كلّ منهم-أيضا- يؤكّد أنّه لم يكن غريبا عن الله و عداله إلى هذا الحدّ.

نعم، هكذا تكون عاقبه كلّ الظالمين عند ما يصبحون في قبضه العذاب الإلهي.

و مع الإقرار بالذنب فإنّ كلا منهم يحاول التخلّص ممّا لحق بهم، و يسعى جاهدا

ص: ٥٤١

لتحويل مسئوليته البؤس و الدمار على الآخرين.

و يحتمل أن يكون شعور كلّ منهم-أو غالبيتهم-بالأدوار المحدوده لهم فيما حصل،هو الذى دفع كلا منهم للتخلّى عن مسئوليته ما حصل،و ذلك كأن يقترح شخص شيئاً،و يؤيّده الآخر فى هذا الاقتراح،و يتبنّى ثالث هذا العمل،و يظهر الرابع رضاه بسكوته..و من الواضح فى مثل هذه الأحوال مساهمه الجميع فى هذه الجريمة و مشاركتهم فى الذنب.

ثُمَّ يَضِيفُ تَعَالَى: قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ .

لقد اعترفوا فى المرحله السابقه بالظلم،و هنا اعترفوا بالطغيان،و الطغيان مرحله أعلى من الظلم،لأنّ الظالم يمكن أن يستجيب لأصل القانون إلّا أنّ غلبه هواه عليه يدفعه إلى الظلم،أما الطاغى فإنّه يرفض القانون و يعلن تمرّده عليه و لا يعترف برسميّته.

و يحتمل أن يكون المقصود بالظلم هو:(ظلم النفس)،و المقصود بالطغيان هو (التجاوز على حقوق الآخرين).

و ممّا يجدر ملاحظته أنّ العرب تستعمل كلمه (ويس)عند ما يواجهون مكروها و يعتبرون عن انزعاجهم منه،كما أنّهم يستعملون كلمه (ويح)أحياناً، و أحياناً اخرى(ويل)و عاده يكون استعمال الكلمه الاولى فى المصيبه البسيطه، و الثانيه للأشدّ، و الثالثه للمصيبه الكبيره،و استعمال كلمه (الويل)من قبل أصحاب البستان يكشف عن أنّهم كانوا يعتبرون أنفسهم مستحقّين لأشدّ حالات التوبيخ.

و أخيراً-بعد عوده الوعى إلى ضمائرهم و شعورهم.بل و اعترافهم بالذنب و الإنابه إلى الله-توجّهوا إلى البارئ عزّ و جلّ داعين،و قالوا: عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (١) فقد توجّهنا إليه و نريد منه انفاذا ممّا

ص: ٥٤٢

و السؤال المطروح هنا: هل أنّ هؤلاء ندموا على العمل الذى أقدموا عليه، و قرّروا إعادته النظر فى برامجهم المستقبلية، و إذا شملتهم النعمة الإلهية مستقبلا فسيؤدّون حقّ شكرها؟ أم أنّهم وبّخوا أنفسهم و كثر اللوم بينهم بصوره موقته، شأنهم شأن الكثير من الظالمين الذين يشتدّ ندمهم وقت حلول العذاب، و ما إن يزول الضرّ الذى حاقّ بهم إلّا و نراهم يعودون إلى ما كانوا عليه سابقا من ممارسات مريضه؟ اختلف المفسّرون فى ذلك، و المستفاد من سياق الآيه اللاحقه أنّ توبتهم لم تقبل، بلحاظ عدم اكتمال شروطها و شرائطها، و لكن يستفاد من بعض الرّوايات قبول توبتهم، لأنّها كانت عن تيه خالصه، و عوضهم عن جنتهم بأخرى أفضل منها، مليئه بأشجار العنب المثمره.

و يقول تعالى فى آخر آيه من هذه الآيات، بلحاظ الاستفاده من هذا الدرس و الاعتبار به: **كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ** **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** .

و هكذا توجه الآيه خطابها إلى كلّ المغرورين، الذين سحرهم المال و أبطرتهم الثروه و الإمكانيات الماديه، و غلب عليهم الحرص و الاستئثار بكلّ شىء دون المحتاجين.. بآنّه لن يكون لكم مصير أفضل من ذلك. و إذا ما جاءت صاعقه و أحرقت تلك الجنّه، فمن الممكن أن تأتى صاعقه أو عذاب عليكم من أمثال الآفات و الحروب المحليه و العالميه المدمره، و ما إلى ذلك، لتذهب بالنعم التى تحرصون عليها.

(١)

كانت متعدّيه ب(عن) تكون بمعنى الانصراف و عدم الاعتناء بشىء معيّن.

١- الاستئثار بالنعم بلاء عظيم

جبل الإنسان و طبع على حب المال، ويمثل هذا الحب غريزه في نفسه، لأن له فوائد شتى، وهذا الحب غير مذموم إذا كان في حد الاعتدال، وجعل نصيب منه للمحتاجين، وهذا لا- يعنى الاقتصار على أداء الحقوق الشرعيه فقط، بل أداء بعض الإنفاقات المستحبه.

و جاء فى الروايات الإسلاميه ضروره جعل نصيب للمحتاجين الحاضرين ممّا يقطف من ثمار البساتين و حصاد الزرع. وهذا ما يعرف بعنوان (حقّ الحصاد) و هو مقتبس من الآية الشريفه: **وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ (١)**، وهذا الحقّ غير حقّ الزكاه، و ما يعطى للمحتاجين الحاضرين منه أثناء قطف الثمار أو حصاد الزرع غير محدود بحدّ معيّن (٢).

إلا- أنّ التعلّق بالمال حينما يكون بصورة مفرطه و جشعه فإنّه يأخذ شكلا منحرفا و أنانيا، وقد لا يكون بحاجه إليه، فحرمان الآخرين و الاستئثار بالأموال و التلذذ بحيازه النعم و المواهب الإلهيه دون سواه، مرض و بلاء كما نلاحظ فى حياتنا المعاصره مفردات و نماذج كثيره فى مجتمعاتنا البشريه تعيش هذه الحاله.

و قصّه (أصحاب الجنّه) التى حدّثنا الآيات السابقه عنها، هى كشف و تعريه واضحه لهذه النفسيات المريضة لأصحاب الأموال الذين يستأثرون بالخير و النعم و الهبات الإلهيه، و يؤكّدون بحصرها فيهم دون سواهم.. و يتجسّد هذا المعنى فى الخطّه التى أعدّت من جانب أصحاب الجنّه فى حرمان المحتاجين، بالتفصيل الذى ذكرته الآيات الكريمه..

ص: ٥٤٤

١- ١) - الأنعام، الآية ١٤١.

٢- ٢) - يمكن مطالعه الروايات التى جاءت فى هذا المجال فى ج ٦، من (وسائل الشيعة) أبواب زكاه الغلات، باب ١٣، و فى (سنن البيهقي) ج ٤، ص ١٣٣.

و غاب عن بالهم أنّ آهات هؤلاء المحرومون تتحوّل في أحيان كثيرة إلى صواعق محرقه، تحيل سعادته هؤلاء الأغنياء الظالمين إلى وبال، وتظهر هذه الصواعق على شكل كوارث و مفاجات و ثورات، ويشاهدون آثارها المدمّره بأمّ أعينهم، ويتحوّل ترفهم و بذخهم إلى زفراء و آهات و صرخات تشقّ عنان السماء، معلنين التوبه و الإقلاع عن الممارسات الاستثنائية، و لات ساعه متاب.

٢-العلاقة بين(الرزق)و(الذنوب)

مما يستفاد-ضمننا-من القصّه أعلاه وجود علاقته بين الذنب و الرزق، و ممّا يؤيّد هذا ما

ورد في حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «إنّ الرجل ليذنب الذنب، فيدركه الرزق، و تلا هذه الآية: إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ، فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١) .

و نقل عن ابن عباس أيضا أنّه قال: إنّ العلاقة بين الذنب و قطع الرزق، أوضح من الشمس، كما بينّها الله عزّ و جلّ في سورة ن و القلم (٢) .

ص: ٥٤٥

١-١) -تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٩٥، (حديث ٤٤).

٢-٢) -تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٣٧.

اشاره

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) لَكُمْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْفِيلَةِ إِنَّ لَكُمْ لَهَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلِّمُوا لَهُمْ سَلَامًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١)

التفسير

اشاره

١- استجواب كامل:

إنَّ طريقه القرآن الكريم فى الكشف عن الحقائق، واستخلاص المواقف، تكون من خلال عمله مقارنة يعرضها الله سبحانه فى الآيات الكريمه، وهذا الأسلوب مؤثر جدًا من الناحية التربويه.. فمثلا تستعرض الآيات الشريفه حياه الصالحين و خصائصهم و ميقاتهم و معاييرهم.. ثم كذلك بالنسبه إلى الطالحين و الظالمين، و يجعل كلا منهما فى ميزان، و يسلط الأضواء عليهما من خلال عمله

مقارنه، للوصول إلى الحقيقة.

و تماشيا مع هذا المنهج و بعد استعراض النهايه المؤلمه ل(أصحاب الجنة) في الآيات السابقة، يستعرض الباري عزّ و جلّ حاله المتقين فيقول: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ .

«جَنّات» من (الجنة) حيث كلّ نعمه متصوّره على أفضل صوره لها تكون هناك، بالإضافة إلى النعم التي لم تخطر على البال.

و لأنّ قسما من المشركين و المترفين كانوا يدعون علوّ المقام و سموّه في يوم القيامة كما هو عليه في الدنيا، لذا فإنّ الله يوبّخهم على هذا الادّعاء بشدّه في الآية اللاحقه. بل يحاكمهم فيقول: أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .

هل يمكن أن يصدّق إنسان عاقل أنّ عاقبه العادل و الظالم، المطيع و المجرم، المؤثر و المستأثر واحده و متساويه؟ خاصّه عند ما تكون المسأله عند إله جعل كلّ مجازاته و مكافآته وفق حساب دقيق و برنامج حكيم.

و تستعرض الآية (٥٠) من سورة فضّلت موقف هؤلاء الأشخاص المماثل لما تقدّم، حيث يقول تعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ .

نعم، إنّ الفئه المغروره المقتنعه بتصرّفاتنا الراضيه عن نفسها.. تعبر أنّ الدنيا و الآخره خاصّه بها و ملك لها.

ثمّ يضيف تعالى أنّه لو لم يحكم العقل بما تدعون، فهل لديكم دليل نقلى ورد في كتبكم يؤيّد ما تزعمون: أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخَيَّرُونَ (١) أى ما اخترتم من الرأى..

إن توقّعكم في أن تكون العناصر المجرمه من أمثالكم مع صفوف المسلمين

ص: ٥٤٧

١ - ١) - جملة (إنّ لكم..) مفعول به ل (تدرسون) و طبقا للقواعد فإنّها يجب أن تقرأ (أن) ب (فتح الهمزه). إلّا أنّ مجيء اللام على رأس اسم (أن) جعلها تقرأ (إن) ب (كسر الهمزه) و ذلك لأنّ الفعل يصبح معلقا عن العمل.

و على مستواهم...،حديث هراء لا يدعمه العقل،و لم يأت فى كتاب يعتد به و لا هو موضع اعتبار.

ثمّ تضيف الآية اللاحقه أنّه لو لم يكن لديكم دليل من العقل أو النقل،فهل أخذتم عهدا من الله أنّه سيكون معكم إلى الأبد: أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ .

و تتساءل الآية الكريمه عن هؤلاء مستفسره عمن يستطيع الادعاء منهم بأنّه قد أخذ عهدا من الله سبحانه فى الاستجابه لميوله و أهوائه،و إعطائه ما يشاء من شأن و مقام،و بدون موازين أو ضوابط،و بصوره بعيده عن مقاييس السؤال و موازين الاستجابه؟حتى يمكن القول بأنّ المجرمين متساوون مع المؤمنين (١).

و يضيف سبحانه-استمرارا لهذه التساؤلات-كى يسدّ عليهم جميع الطرق و من كلّ الجهات،فيقول: سَيَلُهمُ أَيُّهمُ بِذَلِكَ زَعِيمٌ فمنّ منهم يضمن أنّ المسلمين و المجرمين سواء،أو يضمن أنّ الله تعالى سيؤتيه كلّ ما يريد؟!.

و فى آخر مرحله من هذا الاستجواب العجيب يقول تعالى: أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ .

فالآيه تطلب من المشركين تقديم الدليل الذى يثبت أنّ هذه الأصنام المنحوته من الحجاره،و التى لا قيمه لها و لا شعور،تكون شريكه الله تعالى و تشفع لهم عنده.

و ذهب بعض المفسرين إلى أنّ(شركاء)هنا بمعنى(شهداء).

و من خلال العرض المتقدّم نستطيع القول:إنّ هؤلاء المجرمين لإثبات ادّعاءاتهم فى التساوى مع المؤمنين فى يوم القيامه،بل أفضليتهم أحيانا كما يذهب بعضهم لذلك،لا بدّ لهم أن يدعموا قولهم هذا بإحدى الوسائل الأربعه

ص: ٥٤٨

١- ١) -فسّر البعض مصطلح(بالغه)هنا بمعنى(مؤكّد)،و فسّرها البعض الآخر بأنّها(مستمر)و المعنى الثانى أنسب،و بناء على هذا فإنّ(الجارّ و المجرور)فى(إلى يوم القيامه)تكون متعلّقه ب(بالغه).

التاليه:إمّا دليل من العقل،أو كتاب من الكتب السماويه،أو عهد من الله تعالى،أو بواسطه شفاعه الشافعين و شهاده الشاهدين.و
بما أنّ جواب جميع هذه الأسئلة سلبى،لذا فإنّ هذا الادّعاء فارغ من الأساس و ليست له أيّ قيمه.

ص: ٥٤٩

اشاره

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)

التفسير

اشاره

العجز عن السجود:

تعقيبا للآيات السابقة التي استجوب الله تعالى فيها المشركين و المجرمين استجوابا موضوعيا، تكشف لنا هذه الآيات جانبا من المصير البائس في يوم القيامة لهذه الثلة المغرمة في حبها لذاتها، و المكثرة للدعاءات، هذا المصير المقترن بالحقاره و الذله و الهوان.

يقول تعالى: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (١).

ص: ٥٥٠

جمله يُكشَفُ عَنْ سَاقٍ كما قال جمع من المفسِّرين، كناية عن شدَّة الهول و الخوف و الرعب و سوء الحال، إذ أنَّ المتعارف بين العرب عند مواجهتهم أمراً صعباً أنَّهم يشدُّون ثيابهم على بطونهم ممَّا يؤدِّي إلى كشف سيقانهم.

و نقرأ جواب ابن عباس المفسِّر المعروف عند ما سئل عن تفسير هذه الآية قال: كلُّما خفى عليكم شيء من القرآن ارجعوا إلى الشعر فإنَّ الشعر ديوان العرب، أ لم تسمعوا قول الشاعر:

و قامت الحرب بنا على ساق.

إنَّ هذا القول كناية عن شدَّة أزمه الحرب.

و قيل: إنَّ (ساق) تعنى أصل و أساس الشيء، كساق الشجرة، و بناء على هذا فإنَّ جمله (يكشف عن ساق) تعنى أنَّ أساس كلِّ شيء يتَّضح و يتبيَّن في ذلك اليوم، إلَّا أنَّ المعنى الأول أنسب حسب الظاهر.

و في ذلك اليوم العظيم يدعى الجميع إلى السجود للبارئ عزَّ و جلَّ، فيسجد المؤمنون، و يعجز المجرمون عن السجود، لأنَّ نفوسهم المريضة و ممارساتهم القبيحة قد تأصَّلت في طباعهم و شخصياتهم في عالم الدنيا، و تطفح هذه الخصال في اليوم الموعود و تمنعهم من إحناء ظهورهم للذات الإلهية المقدَّسه.

و هنا يثار سؤال: إنَّ يوم القيامة ليس بيوم تكاليف و واجبات و أعمال، فلم السجود؟ يمكن استنتاج الجواب من التعبير الذي ورد في بعض الأحاديث، نقرأ

في الحديث التالي عن الإمام الرضا عليه السَّلام في قوله تعالى: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ قال: «حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجداً و تدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود» (١).

(١)

السابقة، إلَّا أنَّ هذا المعنى مستبعد.

ص: ٥٥١

و بتعبير آخر: فى ذلك اليوم تتجلى العظمه الإلهيه، و هذه العظمه تدعو المؤمنين للسجود فيسجدون، إلا أن الكافرين حرموا من هذا الشرف و اللطف.

و تعكس الآيه اللاحقه صورته جديده لحالتهم حيث يقول سبحانه: [□]خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ [□](١). .

هذه الآيه الكريمه تصف لنا حقيقه المجرمين عند ما يدانون فى إجرامهم و يحكم عليهم، حيث نلاحظ الذله و الهوان تحيط بهم، و تكون رؤوسهم مطأطئه تعبيرا عن هذه الحاله المهينه.

ثم يضيف تعالى: [□]وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سَالِمُونَ .

إلا أنهم لن يسجدوا أبدا، لقد صحبوا روح التغطرس و العتو و الكبر معهم فى يوم القيامة فكيف سيسجدون؟ إن الدعوه للسجود فى الدنيا لها موارد عديده، فتارة بواسطه المؤذنين للصلاه الفرديه و صلاه الجماعه، و كذلك عند سماع بعض الآيات القرآنيه و أحاديث الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و الأئمه المعصومين عليهم السلام.. و لذا فإن الدعوه للسجود لها مفهوم واسع و تشمل جميع ما تقدم.

ثم يوجه البارئ عز و جل الخطاب لنبيه الكريم و يقول: فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ .

و هذه اللهجه تمثل تهديدا شديدا من الواحد القهار لهؤلاء المكذبين المتمردين، حيث يخاطب الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بقوله: لا تتدخل، و اتركنى مع هؤلاء، لا عاملهم بما يستحقونه. و هذا الكلام الذى يقوله رب قادر على كل شىء، - بالضمن - باعث على اطمئنان الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين أيضا، و مشعرا لهم بأن الله معهم و سيقص من جميع الأعداء الذين يثيرون المشاكل و الفتن و المؤامرات أمام

ص: ٥٥٢

الرَّسُولَ وَالرَّسَالَةَ، وَلَنْ يَتْرَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى تَمَادِيهِمْ.

ثُمَّ يَضِيفُ سُبْحَانَهُ: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ .

نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إذا أحدث العبد ذنباً جدد له نعمه فيدع الاستغفار، فهو الاستدراج» (١).

والذى يستفاد من هذا الحديث-والأحاديث الأخرى فى هذا المجال-أنَّ الله تعالى يمنح-أحياناً-عباده المعاندين نعمه وهم غارقون فى المعاصى والذنوب وذلك كعقوبه لهم. فيتصورون أنَّ هذا اللطف الإلهي قد شملهم لجدارتهم ولياقتهم له فيأخذهم الغرور المضاعف، وتستولى عليهم الغفلة.. إلا أنَّ عذاب الله ينزل عليهم فجأه ويحيط بهم وهم بين أحضان تلك النعم الإلهية العظيمة.. وهذا فى الحقيقة من أشدَّ ألوان العذاب ألماً.

إنَّ هذا اللون من العذاب يشمل الأشخاص الذين وصل طغيانهم وتمردهم حدَّ الأعلى، أمَّا من هم دونه فى ذلك فإنَّ الله تعالى يتبهم وينذرهم عن ممارساتهم الخاطئة عسى أن يعودوا إلى رشدهم، ويستيقظوا من غفلتهم، ويتوبوا من ذنوبهم، وهذا من اللطاف البارئ عزَّ وجلَّ بهم.

و بعبارة أخرى: إذا أذنب عبد فإنه لا يخرج من واحده من الحالات الثلاث التالية:

إمَّا أن يتبَّه ويرجع عن خطئه ويتوب إلى ربِّه.

أو أن ينزل الله عليه العذاب ليعود إلى رشده.

أو أنَّه غير أهل للتوبة ولا للعودة للرشد بعد التنبيه له، فيعطيه الله نعمه بدل البلاء وهذا هو: (عذاب الاستدراج) والذى أشير له فى الآيات القرآنية بالتعبير

ص: ٥٥٣

لذا يجب على الإنسان المؤمن أن يكون يقظا عند إقبال النعم الإلهيه عليه، و ليحذر من أن يكون ما يمنحه الله من نعم ظاهريه يمثّل في حقيقته(عذاب الاستدراج)و لذلك فإنّ المسلمين الواعين يفكّرون في مثل هذه الأمور و يحاسبون أنفسهم باستمرار،و يعيدون تقييم أعمالهم دائما، كي يكونوا قريبين من طاعه الله،و يؤدّون حقّ الألفاف و النعم التي وهبها الله لهم.

جاء في حديث أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام قال: إنّني سألت الله تبارك و تعالى أن يرزقني مالا فرزقني،و إنّني سألت الله أن يرزقني ولدا فرزقني، و سألته أن يرزقني دارا فرزقني،و قد خفت أن يكون ذلك استدراجا؟ فقال:«أمّا مع الحمد فلا» (١).

و التعبير ب(أملئ لهم)إشاره إلى أنّ الله تعالى لا يستعجل أبدا بجزاء الظالمين،و الاستعجال يكون عادة من الشخص الذي يخشى فوات الفرصه عليه، إلّا أنّ الله القادر المتعال أيّما شاء و في أي لحظه فإنّه يفعل ذلك،و الزمن كلّ تحت تصرّفه.

و على كلّ حال فإنّ هذا تحذير لكلّ الظالمين و المتطاولين بأن لا تغرّهم السلامه و النعمه أبدا،و ليرتقبوا في كلّ لحظه بطش الله بهم (٢).

ص: ٥٥٤

١-١) -اصول الكافي نقلا عن نور الثقلين، ج ٢، ص ١٩٧، ح ٥٩.

٢-٢) -سبق كلام حول عقوبه(الاستدراج) في الآية(١٨٣) من سوره الأعراف،و كذلك في الآية(١٧٨)سوره آل عمران.

اشاره

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْ لَا أَنْ تَدَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠)

التفسير

اشاره

لا تستعجل بعذابهم:

استمرارا للاستجواب الذى تمّ فى الآيات السابقه للمشرّكين و المجرمين، يضيف البارئ عزّ و جلّ سؤالين آخرين، حيث يقول فى البدايه: أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ .

أى إذا كانت حجتهم أنّ الاستجابه لدعوتك تستوجب أجرا ماديا كبيرا، و أنّهم غير قادرين على الوفاء به، فإنّه كذب، حيث أنّك لم تطالبهم بأجر، كما لم يطلب أى من رسل الله أجرا.

«مغرم» من مادّه (غرامه) وهى ما يصيب الإنسان من ضرر دون أن يرتكب جنايه، و(مثقل) من مادّه (ثقل) بمعنى الثقل، و بهذا فإنّ الله تعالى أسقط حجّه اخرى ممّا يتذرّع به المعاندون.

و قد وردت الآيه أعلاه و ما بعدها(نصّا) فى سوره الطور (آيه ٤٠-٤١).

ثمّ يضيف و استمرارا للحوار بقوله تعالى: أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ .

حيث يمكن أن يدعى هؤلاء بأنّ لهم ارتباطا بالله سبحانه عن طريق الكهنة، أو أنّهم يتلقّون أسرار الغيب عن هذا الطريق فيكتبونها و يتداولونها، و بذلك كانوا فى الموقع المتميّز على المسلمين، أو على الأقل يتساوون معهم.

و من المسلّم به أنّه لا دليل على هذا الادّعاء أيضا، إضافة إلى أنّ لهذه الجملة معنى (الاستفهام الإنكارى)، و لذا فمن المستبعد ما ذهب إليه البعض من أنّ المقصود من الغيب هو (اللوح المحفوظ)، و المقصود من كتابه هو القضاء و القدر، و ذلك لأنّهم لم يدّعوا أبدا أنّ القضاء و القدر و اللوح المحفوظ فى أيديهم.

و لأنّ العناد و اللامنطقية التى كان عليها أعداء الإسلام تؤلم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و تدفعه إلى أن يدعو الله عليهم، لذا فإنّّه تعالى أراد أن يخفّف شيئا من آلام رسوله الكريم، فطلب منه الصبر و ذلك قوله تعالى: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ .

أى انتظر حتّى يهىء الله لك و لأعدائك أسباب النصر، و يكسر شوكة أعدائك، فلا تستعجل بعذابهم أبدا، و اعلم بأنّ الله ممهلهم و غير مهملهم، و ما المهلة المعطاه لهم إلّا نوع من عذاب الاستدراج.

و بناء على هذا فإنّ المقصود من (حكم ربك) هو حكم الله المقرّر الأكيد حول انتصار المسلمين.

و قيل أنّ المقصود منها هو: أن تستقيم و تصبر فى طريق إبلاغ أحكام الله تعالى.

كما يوجد احتمال آخر أيضا و هو أنّ المقصود بالآيه أنّ حكم الله إذا جاء

فعليك أن تستسلم لأمره تعالى و تصبر، لأنه سبحانه قد حكم بذلك (١).

إلا أن التفسير الأول أنسب.

ثم يضيف تعالى: وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ :

و المقصود من هذا النداء هو ما ورد في قوله تعالى: فَنادىٰ في الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٢).

و بذلك فقد اعترف النبي يونس عليه السلام بترك الأولى، و طلب العفو و المغفرة من الله تعالى. كما يحتمل أن يكون المقصود من هذا النداء هو اللعنة التي أطلقها على قومه في ساعه غضبه. إلا أن المفسرين اختاروا التفسير الأول لأن التعبير ب«نادى» في هذه الآية يتناسب مع ما ورد في الآية (٨٧) من سورة الأنبياء، حيث من المسلم أنه نادى ربه عند ما كان عليه السلام في بطن الحوت.

«مكظوم» من مآذ (كظم) على وزن (هضم) بمعنى الحلقوم، و (كظم السقاء) بمعنى سدّ فوهه القربه بعد امتلائها، و لهذا السبب يقال للأشخاص الذين يخفون غضبهم و ألمهم و يسيطرون على انفعالاتهم و يكظمون غيظهم... بأنهم: كاظمون، و المفرد: كاظم، و لهذا السبب يستعمل هذا المصطلح أيضا بمعنى (الحبس).

و بناء على ما تقدّم فيمكن أن يكون للمكظوم معنيان في الآية أعلاه: المملوء غضبا و حزنا، أو المحبوس في بطن الحوت، و المعنى الأول أنسب، كما ذكرنا.

و يضيف سبحانه في الآية اللاحقة: لَوْ لَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٣).

من المعلوم أن يونس عليه السلام خرج من بطن الحوت، و القى في صحراء يابسه،

ص: ٥٥٧

١- ١) في هذه الصورة ستكون اللام في (لحكم ربك) هي لام التعليل.

٢- ٢) -الأنبياء، الآية ٨٧.

٣- ٣) -مع أن (النعمه) مؤنث، إلا أن فعلها (تداركه) جاء بصورة مذكر، و سبب هذا أن فاعل المؤنث يكون لفظيا، و أن الضمير المفعول أصبح فاصلا بين الفعل و الفاعل (فتأمل!).

عَبَّرَ عَنْهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِ(العراء) وَكَانَ هَذَا فِي وَقْتٍ قَبْلَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ تَوْبَتُهُ وَ شَمَلَهُ بِرَحْمَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ أَبَدًا مُسْتَحَقًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلذَّمِّ.

و نَقْرَأُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: فَتَبَذَّنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ وَ أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١) كَيْ يَسْتَرِيحَ فِي ظِلِّهَا.

كَمَا أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ (النِّعْمَةِ) فِي الْآيَةِ أَعْلَاهُ هُوَ تَوْفِيقُ التَّوْبَةِ وَ شُمُولُ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ لِحَالِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَسَبَ الظَّاهِرِ.

و هُنَا يَطْرَحُ سَوَالَانِ:

الأول: هُوَ مَا جَاءَ فِي الْآيَتَيْنِ ١٤٣، ١٤٤ مِنْ سُورَةِ الصَّافَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

فَلَوْ لَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ وَ هَذَا مُنَافٍ لِمَا وَرَدَ فِي الْآيَةِ مَوْرَدَ الْبَحْثِ.

و لِلْجَوَابِ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ يُمْكِنُ الْقَوْلُ: كَانَتْ بَانْتَظَارُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَقُوبَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا شَدِيدَةٌ، وَ الْآخَرَى أَخْفَى وَ طَآءُهَا. الْأُولَى الشَّدِيدَةُ هِيَ أَنَّ يَبْقَى فِي بَطْنِ الْحَوْتِ إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ، وَ الْأَخْفَى: هُوَ أَنَّ يَخْرُجَ مِنْ بَطْنِ الْحَوْتِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ وَ بَعِيدٌ عَنْ لُطْفِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ قَدْ كَانَ جَزَاؤُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْجَزَاءُ الثَّانِي، وَ رَفَعَ عَنْهُ مَا أَلَمَ بِهِ مِنَ الْبَعْدِ عَنِ الْأَلْطَافِ الْإِلَهِيَّةِ حَيْثُ شَمَلَتْهُ بَرَكَهَ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ وَ رَحْمَتِهِ الْخَاصَّةِ.

و السُّؤَالُ الْآخَرُ يَتَعَلَّقُ بِمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ (٢) وَ إِنَّ مَا يَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ مَوْرَدَ الْبَحْثِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ مَلُومًا وَ لَا مَذْمُومًا.

و يَتَضَحُّ الْجَوَابُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ بِالْإِثْبَاتِ إِلَى أَنَّ الْمَلَامَةَ كَانَتْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي التَّقَمَهُ الْحَوْتُ تَوًّا، وَ أَنَّ رَفَعَ الْمَذْمَةَ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِوَقْتِ التَّوْبَةِ وَ قَبُولِهَا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَ نَجَاتِهِ مِنْ بَطْنِ الْحَوْتِ.

لِذَا يَقُولُ الْبَارِئُ عَزَّ وَ جَلَّ فِي الْآيَةِ الْآخِرَةِ:

ص: ٥٥٨

١- ١) - الصَّافَاتِ، الْآيَةُ ١٤٥ وَ ١٤٦.

٢- ٢) - الصَّافَاتِ، الْآيَةُ ١٤٣.

و بذلك فقد حمّله الله مسئوليته هدايه قومه مرّه اخرى، و عاد إليه يبلغهم رساله ربّه، ممّا كانت نتيجته أن آمن قومه جميعا، و قد منّ الله تعالى عليهم بالطفه و نعمه و أفضاله لفته طويله.

و قد شرحنا قصّه يونس عليه السّلام و قومه، و كذلك بعض المسائل الاخرى حول تركه ل(الأولى) و استقراره فته من الزمن فى بطن الحوت و الإجابة على بعض التساؤلات المطروحه فى هذا الصدد بشكل مفصّل فى تفسير الآيات (١٣٩ - ١٤٨) من سوره الصافات و كذلك فى تفسير الآيات (٨٧، ٨٨) من سوره الأنبياء.

اشاره

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)

التفسير

اشاره

يريدون قتلك.. لكنهم عاجزون

هاتان الآيتان تشكّلان نهايه سوره القلم، و تتضمنان تعقيبا على ما ورد في بدايه السوره من نسبه الجنون إليه صلى الله عليه و آله و سلم من قبل الأعداء.

يقول تعالى: وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ .

«ليزلقونك» من مادّه (زلق) بمعنى الترحلق و السقوط على الأرض، و هي كناية عن الهلاك و الموت.

ثمّه أقوال مختلفه في تفسير هذه الآية:

١- قال كثير من المفسّرين: إنّ الأعداء حينما يسمعون منك هذه الآيات العظيمة للقرآن الكريم، فإنّهم يمتثلون غضبا و غلا، و تتوجّه إليك نظراتهم الحاقده و بمنتهى الغيظ، و كأنّما يريدون أن يطرحوك أرضا و يقتلوك بنظراتهم الخبيثه

و أضاف قسم آخر فى توضيح هذا المعنى، أنهم يريدون قتلک بالحسد عن طريق العين، و هو ما يعتقد به الكثير من الناس، لوجود الأثر المرموز فى بعض العيون و التى يمكن أن تؤثر على الطرف الآخر بنظره خاصه تمت المنظور.

٢-و قال البعض الآخر:إنها كناية عن نظرات ملؤها الحقد و الغضب، كما يقال عرفا:إن فلانا نظر إلى نظره و كأنه يريد التهامى أو قتلى.

٣-و يوجد تفسير آخر للآيه الكريمه يحتمل أن يكون أقرب التفاسير،و هو أن الآيه الكريمه أرادت أن تظهر التناقض و التضاد لدى هؤلاء المعاندين،و ذلك أنهم يعجبون و يتأثرون كثيرا عند سماعهم الآيات القرآنيه بحيث يكادون أن يصيبوك بالعين (لأن الإصابه بالعين تكون غالبا فى الأمور التى تثير الإعجاب كثيرا)إلا أنهم فى نفس الوقت يتهمونك بالجنون،و هذا يمثل التناقض حقاً. إذ أين الجنون و لغو الكلام و أين هذه الآيات المثيره للإعجاب و النافذه فى القلوب؟ إن هؤلاء ذوى العقول المريضة لا يدركون ما يقولون و ما وقعوا فيه من التناقض فيما ينسبونه إليك.

و على كل حال فإن ما يتعلق بموضوع حقيقه إصابه العين و صحتها-من وجهه النظر الإسلاميه أو عدمها،و كذلك من وجهه نظر العلوم الحديثه،فهذا ما سنستعرضه فى البحوث التالیه إن شاء الله.

و أخيرا يضيف تعالى فى آخر آیه: وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .

حيث أن معارف القرآن الكريم واضحه،و إنذاراته موقظه،و أمثاله هادفه، و ترغيباته و بشائره مربيه،و بالتالى فهو عامل و سبب ليقظه النائمین و تذكره للغافلين،و مع هذا فكيف يمكن أن ينسب الجنون إلى من جاء به؟ و تماشيا مع هذا الرأى فإن (ذكر)على وزن(فكر)تكون بمعنى(المذكّر).

و فسرha البعض الآخر بمعنى(الشرف)،و قالوا:إن هذا القرآن شرف لجميع

العالمين، وهذا ما هو وارد-أيضاً في قوله تعالى: **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ (١)**.

إلا أنَّ (الذكر) هنا بمعنى المذكر و المتبّه، بالإضافة إلى أنَّ أحد أسماء القرآن الكريم هو (الذكر) و بناء على هذا، فإنَّ التفسير الأوّل أصحَّ حسب الظاهر.

بحث

إشاره

هل أنَّ إصابه العين لها حقيقه؟

يعتقد الكثير من الناس أنَّ لبعض العيون آثارا خاصه عند ما تنظر لشيء ياعجاب، إذ ربّما يترتب على ذلك الكسر أو التلف، و إذا كان المنظور إنسانا فقد يمرض أو يجنّ..

إنَّ هذه المسأله ليست مستحيله من الناحيه العقليه، حيث يعتقد البعض من العلماء المعاصرين بوجود قوّه مغناطيسيه خاصه مخفيه في بعض العيون بإمكانها القيام بالكثير من الأعمال، كما يمكن تدريبها وتقويتها بالتمارين و الممارسه، و من المعروف أنَّ «التنويم المغناطيسي» يكون عن طريق هذه القوّه المغناطيسيه الموجوده في العيون.

إنَّ (أشعه ليزر) هي عبارته عن شعاع لا- مرئي يستطيع أن يقوم بعمل لا- يستطيع أى سلاح فتاك القيام به، و من هنا فإنَّ القبول بوجود قوّه في بعض العيون تؤثر على الطرف المقابل، و ذلك عن طريق أمواج خاصه ليس بأمر مستغرب.

و يتناقل الكثير من الأشخاص أنَّهم رأوا بأمّ أعينهم أشخاصا لهم هذه القوّه المرموزه في نظراتهم، و أنَّهم قد تسبّبوا في إهلاك آخرين (أشخاص و حيوانات و أشياء) و ذلك بإصابتهم بها.

ص: ٥٦٢

لذا فلا ينبغي الإصرار على إنكار هذه الأمور. بل يجدر تقبّل احتمال وجود مثل هذا الأمر من الناحية العقلية و العلمية.

كما جاء في بعض الروايات الإسلامية-أيضا- ما يؤيد وجود مثل هذا الأمر بصورة إجمالية كما

في الرواية التالية: «إنّ أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله إنّ بنى جعفر تصيبهم العين أ فأسترقى لهم؟ قال: نعم، فلو كان شيء يسبق القدر لسبقه العين». (المقصود من (الرقية) هي الأدعية التي يكتبونها و يحتفظ بها الأشخاص لمنع الإصابه بالعين و يقال لها التعويذه أيضا) (١).

و

جاء في حديث آخر أنّ أمير المؤمنين عليه السّلام قال: النّبي رقى حسنا و حسينا فقال: «أعيذكما بالكلمات التّامة و أسمائه الحسنی كلّها عامّه، من شرّ السّامه و الهامه، و من شرّ كلّ عين لأمه، و من شرّ حاسد إذا حسد» ثمّ التفت النّبي إلينا فقال: هكذا كان يعوذ إبراهيم إسماعيل و إسحاق (٢).

و

جاء في نهج البلاغه أيضا: «العين حقّ، و الرقى حقّ» (٣).

و لما كانت الأدعية توسّلا للبارئ عزّ و جلّ في دفع الشرّ و جلب الخير، فبأمر من الله تعالى يمنع تأثير القوّه المغناطيسيه للعيون، و لا مانع من ذلك، كما أنّ للأدعية تأثيرا في كثير من العوامل و الأسباب الضارّه و تبطل مفعولها بأمر الله تعالى.

كما يجدر الالتفات إلى هذه النقطة-أيضا- و هي: إنّ قبول تأثير الإصابه بالعين بشكل إجمالي لا- يعنى الإيمان بالأعمال الخرافيه، و ممارسات الشعوذ التي تنتشر بين العوام، إذ أنّ ذلك مخالف لأوامر الشرع، و يثير الشكّ في أصل

ص: ٥٦٣

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٤١.

٢-٢) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٤٠٠.

٣-٣) -نهج البلاغه، من الكلمات القصار جمله (٤٠٠)، (نقل هذا الحديث أيضا في صحيح البخارى، ج ٧، ص ١٧١ باب (العين حقّ) و لما ذكرناه فالعين حقّ) و كذلك في (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى)، كما نقل هذا المعنى من منابع مختلفه ج ٤، ص ٤٥١.

الموضوع عند غير المسلمين بهذه المسائل، كما أنّ هذه الأعمال تربك و تشوش الكثير من الحقائق بما يدس بها من الأوهام و الخرافات، و بذلك يكون الانطباع عنها سلبيا في الأذهان.

اللهم: احفظنا بحفظك من شرّ الأشرار، و مكائد الأعداء.

ربّنا، تفضّل علينا بالصبر و الاستقامه في سبيل تحصيل رضاك.

إلهي، وفقنا للاستفاده من نعمك اللامتناهيه و أداء شكرها قبل أن تسلب منّا.

آمين يا ربّ العالمين.

نهايه سورہ القلم

ص: ٥٦٤

مکیه و عدد آیاتها اثنتان و خمسون آیه

ص: ۵۶۵

محتوى السوره:

تدور موضوعات سوره الحاقّه حول ثلاثه محاور:

المحور الأوّل: و هو أهمّ محاور هذه السوره، يرتبط بمسائل يوم القيامة و بيان خصوصياتها، و قد وردت فيه ثلاثه أسماء من أسماء يوم القيامة و هى: (الحاقّه) و (القارعه) و (الواقعه).

أمّا المحور الثانى: فتدور أبحاثه حول مصير الأقوام الكافرين، خصوصاً قوم عاد و ثمود و فرعون، و تشتمل على إنذارات شديده لجميع الكفّار و منكرى يوم البعث و النشور.

و تتحدّث أبحاث المحور الثالث حول عظمه القرآن الكريم، و مقام الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و جزاء المكذّبين.

فضيله تلاوه سوره الحاقّه

جاء فى حديث عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: «من قرأ سوره الحاقّه حاسبه الله حساباً يسيراً» (١).

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: (أكثرُوا من قراءه الحاقّه، فإنّ قراءتها فى الفرائض و النوافل من الإيمان بالله و رسوله، و لم يسلب قارئها دينه حتّى يلقى الله) (٢).

ص: ٥٦٧

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٤٢.

٢-٢) -المصدر السابق.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨)

التفسير

اشاره

الطغاه و العذاب الأليم:

تبدأ هذه السوره بعنوان جديد ليوم القيامة، يقول تعالى: الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (١) والمراد من الحاقه هو اليوم الذي سيتحقق حتما.

ذهب أغلب المفسرين إلى أنّ (الحاقه) اسم من أسماء يوم القيامة، باعتباره

ص: ٥٦٨

١ - ١) - هناك وجهات نظر عدّه في إعراب جملة (الحاقه، ما الحاقه)، إلّا أنّ الأنسب في هذه الآراء هو أن يقال: إنّ (الحاقه) مبتدأ، و (ما) الاستفهاميه مبتدأ ثان و (الحاقه) الثانيه خبر للمبتدأ الثاني، و جملة (ما الحاقه) خبر للمبتدأ الأوّل.

قطعى الوقوع، كما هو بالنسبه ل(الواقعه) فى سورہ(الواقعه)، و قد جاء فى الآيه (١٦) من هذه السورہ الاسم نفسه، و هذا يؤكّد يقينيه ذلك اليوم العظيم.

«ما الحاقه»: تعبير لبيان عظمه ذلك اليوم، كما يقال: إنّ فلانا إنسان، يا له من إنسان، و يقصد من هذا التعبير وصف إنسانيته دون تقييد حدّها.

و التعبير بـ مَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ للتأكيد مرّة اخرى على عظمه الأحداث فى ذلك اليوم العظيم حتّى أنّ البارئ عزّ و جلّ يخاطب رسوله الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم بأنّك لا تعلم ما هو ذلك اليوم؟ (١).

و كما لا يمكن أن يدرك الجنين الذى فى بطن أمّه المسائل المتعلّقه بالدنيا، فإنّ أبناء الدنيا كذلك ليس بمقدورهم إدراك الحوادث التى تكون فى يوم القيامة.

و يحتمل أنّ المقصود من (الحاقه) هو الإشارة إلى العذاب الإلهى الذى يحلّ فجأه فى هذه الدنيا بالمشركين و المجرمين و الطغاه و أصحاب الهوى و المتمرّدين على الحقّ.

كما فسّرت (القارعه) التى وردت فى الآيه اللاحقه بهذا المعنى -أيضا و بلحاظ أنّ هذا التفسير يتناسب بصوره أكثر مع ما جاء فى الآيات اللاحقه التى تتحدّث عن حلول العذاب الشديد بقوم عاد و ثمود و فرعون و قوم لوط، فقد ذهب بعض المفسّرين إلى هذا الرأى أيضا.

و جاء فى تفسير (على بن إبراهيم) قوله: إنّ (الحاقه) هى الحذر من نزول العذاب) و هو نظير ما جاء فى الآيه التالىة: وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٢) (٣). ثمّ تستعرض الآيات الكريمه اللاحقه مصير الأقوام الذين أنكروا يوم

ص: ٥٦٩

-
- ١- ١) -ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ جملة (ما أدراك) تتحدّث عن المسائل المعلومه و المسلّمه، بينما جاءت (و ما يدريك) فى الموارد و المسائل المبهمه. مجمع البيان ج ١٠، ص ٣٤٣، كما نقل بعض المفسّرين هذا المعنى أيضا و منهم القرطبى.
- ٢- ٢) -تفسير (على بن إبراهيم) ج ٢، ص ٣٨٣، و مما يجدر الانتباه إليه أن كلمه (الحاقه) و (الحاق) من ماده واحده.
- ٣- ٣) -المؤمن، الآيه ٤٥.

القيامة، وكذلك نزول العذاب الإلهي في الدنيا، حيث يضيف تعالى: كَذَبَتْ ثُمُودٌ وَاعَادُ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثُمُودُ فَأَهْلَكُوا بِطَاغِيهِ .

لقد كان (قوم ثمود) يسكنون في منطقه جبلية بين الحجاز و الشام، فبعث الله النبي صالح عليه السلام إليهم، و دعاهم إلى الإيمان بالله... إلا أنهم لم يستجيبوا له، بل حاربوه و تحدّوه في إنزال العذاب الذي أوعدهم به إن كان صادقا، و في هذه الحالة من التمرد الذي هم عليه، سلّط الله عليهم (صاعقه مدمّره) أنهت كلّ وجودهم في لحظات، فخربت بيوتهم و قصورهم المحكمه، و تهاوت أجسادهم على الأرض.

و النقطة الجديره بالملاحظه هنا هي أنّ القرآن الكريم يعتبر عن عقاب هؤلاء الأقوام المتمردين ب (العذاب الشديد)، و قد كان العذاب الشديد بصور متعدّده حيث عبّر عنه ب (الطاغيه) كما جاء في الآيه مورد البحث و اخرى بال (رجفه) كما جاء في سوره الأعراف الآيه (٧٨) و ثالثه كان بصوره (صاعقه) كما ورد في سوره فضّلت الآيه (١٣)، و رابعه كان على شكل (صيحه) كما جاء في سوره هود الآيه (٦٧).

و في الحقيقه فإنّ جميع هذه التعابير ترجع إلى معنى واحد، لأنّ الصاعقه دائما تكون مقرونه بصوت عظيم، و رجفه على النقطة التي تقع فيها، و عذاب طاغ عظيم.

ثمّ تتطرّق الآيه اللاحقه لتحديثنا عن مصير (قوم عاد) الذين كانوا يسكنون في أرض الأحقاف الواقعه (في شبه جزيره العرب أو اليمن) و كانوا ذوى قامات طويله، و أجساد قويه، و مدن عامره، و أراض خضراء خصبه، و حدائق نضره..

و كان نبيهم (هود) عليه السلام يدعوهم إلى الهدى و الإيمان بالله... إلا أنّهم أصرّوا على كفرهم و تمادوا في طغيانهم و تمردوا على الحقّ، فانقم الله منهم شرّ انتقام، و أقبرهم تحت الأرض بعد أن سلّط عليهم عذابا شديدا مؤلما، سنوضح شرحه في

الآيات التالية.

يقول تعالى: وَ أَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ .

«صرصر» على وزن (دقتر) يقال للرياح الباردة أو المقترنه بصوت و ضوضاء، أو المسمومه، وقد ذكر المفسرون هذه المعانى الثلاث فى تفسيرها، و الجمع بين جميع هذه المعانى ممكن أيضا.

«عاتيه» من مادّه (عتو) على وزن (علو) بمعنى التمرد على القانون الطبيعى للرياح و ليست على أمر الله.

ثمّ تبين الآيه التاليه وصفا آخر لهذه الرياح المدمره، حيث يقول تعالى:

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا

«حسوما» من مادّه (حسم) على وزن (رسم) بمعنى إزاله آثار شىء ماء، و قيل للسيف (حسام) على وزن (غلام)، و يقال: (حسم) أحيانا لوضع الشىء الحارّ على الجرح للقضاء عليه من الأساس.

لقد حطّمت و أفنت هذه الريح المدمره فى الليالى السبع و الأيام الثمانيه جميع معالم حياه هؤلاء القوم، و التى كانت تتميز بالآبئه و الجمال، و استأصلتهم من الجذور (1).

و يصوّر لنا القرآن الكريم مآل هؤلاء المعاندين بقوله تعالى: فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا نَحْلٍ خَاوِيَةٍ .

إنّهُ لتشبيهه رائع يصوّر لنا ضخامه قاتمتهم التى اقتلعت من الجذور، بالإضافة إلى خواء نفوسهم، حيث أنّ العذاب الإلهى جعل الريح تتقاذف أجسادهم من جهه إلى اخرى.

«خاويه» من مادّه (خواء) على وزن (خواء) فى الأصل بمعنى كون الشىء

ص: ٥٧١

١- ١) - «حسوما» جاءت هنا صفه ل (سبع ليال و ثمانيه أيام)، كما اعتبرها البعض (حالا) لل (ريح) أو (مفعولا به).

خالياً، و يطلق هذا التعبير أيضاً على البطون الجائعة، و النجوم الخالية من المطر (كما في إعتقاد عرب الجاهلية)، و تطلق كذلك على الجوز الأجوف الفارغ من اللب.

و يضيف في الآية التالية: فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيهِ (١).

نعم لم يبق اليوم أى أثر لقوم عاد، بل حتى مدنهم العامرة، و عماراتهم الشامخة و مزارعهم النضرة لم يبق منها شىء يذكر أبداً.

لقد بحثنا قصه قوم عاد بصورة مفصلة في التفسير الأمثل، تفسير الآيات (٥٨ - ٦٠) من سورة هود.

ص: ٥٧٢

١ - ١) (باقية): صفه لموصوف مقدر، و كانت في الأصل (نفس باقية).

اشاره

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَهُ رَبِّيهِ (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)

التفسير

اشاره

أين الأذان الواعيه؟

بعد ما استعرضت الآيات الكريمه السابقه الأحداث التي مرّت بقومى عاد و ثمود،و تستمرّ هذه الآيات فى التحدّث عن الأقوام الاخرى كقوم(نوح)وقوم (لوط)لتكون درسا وعبره لمن وعى و كان له قلب سليم..يقول تعالى وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ .

ال«خاطئه»بمعنى الخطأ و(لكليهما معنى مصدرى)و المراد من الخطأ هنا هو الشرك و الكفر و الظلم و الفساد و أنواع الذنوب.

ال«المؤتفكات»جمع(مؤتفكه)من مادّه(ائتفاك)بمعنى الانقلاب،و هى هنا

إشارة إلى ما حصل فى مدن قوم لوط، حيث انقلبت بزلزله عظيمه.

و المقصود ب وَ مَنْ قَبْلَهُ هم الأقسام الذين كانوا قبل قوم فرعون، كقوم شعيب، و قوم نمرود الذين تناولوا على رسولهم.

ثُمَّ يَضِيفُ تَعَالَى: فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَهُ رَبِّيَّهٗ .

لقد خالف الفراعنه (موسى و هارون) عليهما السّلام و واجهوهما بمنتهى العنف و التشكيك و الملاحقه.. و كذلك كان موقف أهل مدينه (سدوم) من لوط عليه السّلام الذى بعث لهدايتهم و إنقاذهم من ضلالهم.. و هكذا كان-أيضا-موقف أقوام آخرين من رسلهم حيث تناول. و التشكيك و الإعراض و التحدى..

إِنَّ كُلَّ مَجْمُوعَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ الْمَتَمَرِّدِينَ قَدْ ابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِنُوعٍ مِنَ الْعَذَابِ، وَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ، فَالْفِرْعَانُ أَغْرَقَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي وَسْطِ النَّيْلِ الَّذِى كَانَ مَصْدَرًا لْخَيْرَاتِهِمْ وَ بَرَكَهَ بِلَدِهِمْ وَ إِعْمَارَ أَرْضِيهِمْ وَ دِيَارِهِمْ، وَ قَوْمَ لُوطٍ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ (الزَّلْزَالَ) الشَّدِيدَ ثُمَّ (مَطَرَ مِنَ الْحِجَارِ) مِمَّا أَدَّى إِلَى مَوْتِهِمْ وَ فَنَائِهِمْ مِنَ الْوُجُودِ.

«رأيه» و (ربا) من مادّه واحده، و هى بمعنى الإضافة، و المقصود بها هنا العذاب الصعب و الشديد جدّا.

لقد جاء شرح قصّه قوم فرعون فى الكثير من سور القرآن الكريم، و جاءت بتفصيل أكثر فى ما ورد من سورة الشعراء الآية (١٠) - (٦٨) يراجع التفسير الأمثل، و كذلك فى سورة الأعراف من الآية (١٠٣-١٣٧) راجع التفسير الأمثل، و كذلك فى سورة طه من الآية (٢٤-٧٩) راجع التفسير الأمثل.

و جاءت قصّه لوط أيضا فى الكثير من السور القرآنيه من جملتها ما ورد فى سورة الحجر الآية (٦١-٧٧) فى التفسير الأمثل.

و أخيرا تعرّض بإشاره موجزه إلى مصير قوم نوح و العذاب الأليم الذى حلّ بهم، قال تعالى: إِذَا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ .

إِنَّ طغيان الماء كان بصورة غطى فيها السحاب و من هنا جاء تعبير (طغى) حيث هطل مطر غزير جدًّا و كأنَّه السيل ينحدر من السماء، و فاضت عيون الأرض، و التقت مياههما بحيث أصبح كلُّ شيء تحت الماء (القوم و بيوتهم و قصور أكابرهم و مزارعهم و بساتينهم...) و لم تنج إلا مجموعته المؤمنين التى كانت مع نوح عليه السَّلام فى سفينه.

جمله (حملناكم) كناية عن حمل و إنقاذ أسلافنا و أجدادنا من الغرق، و إلا ما كنَّا فى عالم هذا الوجود (١).

ثمَّ يبيِّن الله سبحانه الغايه و الهدف من هذا العقاب، حيث يقول تعالى:

لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ

إنَّنا لم نرد الانتقام منكم أبداً، بل الهدايه و الخير و السعاده، كنَّا نروم أن تكونوا فى طريق الكمال و النضج التربوى و الوصول إلى ما ينبغى أن يكون عليه الإنسان المكرم.

«تعِيها» من مادّه (وعى) على وزن (سعى) يقول (الراغب) فى المفردات، و (ابن منظور) فى لسان العرب: إنَّها فى الأصل بمعنى الاحتفاظ بشيء معيّن فى القلب، و من هنا قيل لإناء (وعاء) لأنَّه يحفظ الشيء الذى يوضع فيه، و قد ذكرت هذه الصفة (الوعى) للآذان فى الآيات مورد البحث، و ذلك بلحاظ أنَّها تسمع الحقائق و تحتفظ بها.

و الإنسان تاره يسمع كلاماً إلاَّ أنَّه كأن لم يسمعه، و فى التعبير السائد: يسمع بإذن و يخرج من الاخرى.

و تاره اخرى يسمع الكلام و يفكر فيه و يتأمّله. و يجعل ما فيه خير فى قلبه،

ص: ٥٧٥

و يعتبر الإيجابي منه منارا يسير عليه في طريق حياته... وهذا ما يعبر عنه ب (الوعي).

تعقيب

أشاره

١- فضيله اخرى من فضائل الإمام على عليه السلام

جاء في كثير من الكتب الإسلامية المعروفة-أعم من كتب التفسير و الحديث -

أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال عند نزول الآية أعلاه وَ تَعِيَهَا أُذُنٌ وَأَعْيَهُ: «سألت ربي -أن يجعلها اذن على»، و بعد ذلك

كان يقول الإمام على عليه السلام: «ما سمعت من رسول الله شيئا قط فنسيته، إلا و حفظته» (١).

و نقل في (غايه المرام) ستّه عشر حديثا في هذا المجال عن طريق الشيعة و أهل السنّه، كما ينقل (المحدث البحراني) أيضا في تفسير (البرهان) عن (محمّد بن عباس) ثلاثين حديثا في هذا المجال نقلت عن طريق العامه و الخاصه.

و هذه فضيله عظيمه لقائد الإسلام العظيم الإمام على عليه السلام حيث يكون موضع أسرار الرسول، و وارث علمه صلى الله عليه وآله وسلم، و لهذا السبب فإنّ الجميع كانوا يرجعون إليه- الموافق له و المخالف- بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و ذلك عند ما يواجهون المشاكل الاجتماعيه و العلميه المختلفه، و يطلبون منه التدخل في حلّها، كما تحدّثنا بذلك كتب التواريخ بشكل تفصيلي.

ص: ٥٧٦

١- ١) -تفسير (القرطبي)، ج ١٠، ص ٦٧٤٣، و (مجمع البيان)، و (روح المعاني)، و (روح البيان)، و (أبو الفتوح الرازي) و (الميزان) نهايه الآيات مورد البحث، و جاء هذا الحديث أيضا في مناقب ابن المغازلي الشافعي ص ٢٦٥ (الطبعة الإسلامية).

٢-التناسب بين (الذنب)و(العقاب)

وردت فى الآيات أعلاه تعبيرات ملفته للنظر، فتعبير (الطاغيه) جاء فى مورد العذاب الذى سَلَطَ على قوم ثمود، وعبارة (العاتيه) جاءت فى مورد العذاب الذى حلّ بقوم عاد، و بالنسبه إلى ما أصاب قوم فرعون و قوم لوط فقد ورد تعبير (الرابيه) كما وردت عبارة (طغى الماء) فيما يتعلّق بطبيعته العذاب الذى شمل قوم نوح..و الملاحظ من التعبيرات السابقه أنّها جميعا تشترك فى مفهوم واحد و هو:

(الطغيان و التمرد) و هو نتيجة طبيعته لما كانت عليه هذه الأقوام جميعا أى إنّ عذاب هؤلاء الطغاه تحقّق بطغيان بعض المواهب الإلهيه للناس أعمّ من الماء و الهواء و التراب و النار.

كما أنّ هذه التعبيرات-أيضا-تؤكد على حقيقته مهمّه، و هى أنّ العقوبات التى نواجهها فى الدنيا و الآخرة ما هى إلا تجسيد لحقيقته أعمالنا، و أنّ أعمالنا نحن البشر تعود علينا خيرا كانت أم شرا.

اشاره

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَهُ ۖ وَاحِدَهُ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً ۖ وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧)

التفسير

اشاره

الصَّيْحَةُ الْعَظِيمَةُ:

استمرارا لما تعرّضت له الآيات الاولى من هذه السوره،و التي كانت تتعلّق بمسأله الحشر و القيامه،تعرض لنا هذه الآيات صوره عن الحوادث العظيمه فى ذلك اليوم الرهيب بأسلوب محرّك و مؤثّر فى النفوس كى تحيط الإنسان علما بما ينتظره من حوادث ذات شأن كبير فى ذلك الموقف الرهيب.

يقول تعالى فى البدايه: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَهُ ۖ وَاحِدَهُ .

لقد بيّنا فيما سبق أنّ ممّا يستفاد من القرآن الكريم أنّ نهايه عالم الدنيا و بدايه عالم الآخره تكون بصوت مفاجئ عظيم،و ذلك ما عبّر عنه ب(نفخه الصور).

و لهذا السبب استعمل البوق فى الماضى و الحاضر للاستفاده منه فى جمع و تهيئه الجيوش، و كذلك فى الإعلان عن موعد الاستراحه، حيث يتم العزف بالحن مختلفه حسب طبيعه الموضوع.الذى يعلن عنه،فالعزف للنوم و الاستراحه يختلف عن عزف التجمع و التهيؤ للحركه و التدريب...

إنّ مسأله انتهاء هذا العالم، و بدايه العالم الجديد عالم الآخره، هى عند الله بسيطه و هينه فى مقابل قدرته العظيمه، فبأمر واحد و فى لحظه مفاجئه ينتهى و يفنى من فى السموات و الأرضين، و بأمر آخر يلبس سبحانه الجميع لباس الحياه و يستعدون للحساب، و هذا هو مقصود الآيه الكريمه.

لقد تحدّثنا بصوره مفصّله حول خصوصيات (الصور) و كيفيه (النفخ) فيه، و عدد النفخات، و الفاصله الزمنيه بين كلّ نفخه، و ذلك فى تفسير سوره (الزمر) الآيه ٦٨ من التفسير الأمثل، لذا لا نرى ضروره لتكرار ذلك.

و الشىء الوحيد الذى نذكّر به هنا هو (نفخه الصور) و كما أشرنا أعلاه فهى (نفختان): (نفخه الموت)، و (نفخه الحياه الجديده)، لكن هل المقصود فى هذه الآيه الكريمه هو (النفخه الاولى) أم (الثانيه)؟ فهذا ما لا يوجد فيه رأى موحد بين المفسّرين، لأنّ الآيات التى ستأتى لاحقا بعضها يتناسب مع نفخه الموت، و الآخر يتناسب مع نفخه الحياه و الحشر، إلّا أنّ منطوق الآيات بشكل إجمالى فى رأينا تتناسب أكثر مع النفخه الاولى التى تحصل فيها نهايه عالم الدنيا.

ثم يضيف تعالى: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً .

«دكّ» كما يقول الراغب فى المفردات، و فى الأصل بمعنى (الأرض المستويه) و لأنّ الأرض غير المستويه تحتاج إلى الدك حتّى تستوى، لذا استعمل هذا المصطلح فى الكثير من الموارد بمعنى «الدق الشديد».

كما يستفاد من مصادر اللغه أنّ أصل معنى (دكّ) هو (الدقّ و التخریب) و لازم

ذلك الإستواء، لذا استعمل هذا المصطلح في هذا المعنى أيضا (١).

و على كل حال فإنَّ المقصود من هذه الكلمه- في الآيه مورد البحث- هو الدق الشديد للجبال و الأراضي اللامستويه بعضها ببعض بحيث تستوى و تتلاشى فيها جميع التعرجات.

ثم يضيف تعالى: **فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ**.

في ذلك اليوم العظيم لا- تتلاشى فيه الأرض و الجبال فحسب، بل يقع حدث عظيم آخر، و ذلك قوله تعالى: **وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ** و ذلك بيان لما تتعرض له، الأجرام السماويه العظيمه من انفلاقات و تناثر و تلاشى، حيث تضطرب هذه الأجرام الهائله و تتحوّل فيها النظام إلى فوضى و التماسك إلى ضعف، و الاستحكام إلى خواء بشكل عجيب. و ذلك من خلال حركات و تحولات مرعبه جدّا، كما يعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: **فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ** الرحمن ٣٧.

و بعباره اخرى فإنَّ الأرض و السماء الحاليتين تتدمران و تنتهيان، و يحدث عالم جديد على انقاض العالم السابق يكون أكمل و أتم و أعلى من عالمنا الدنيوى.

وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا

«أرجاء» جمع (رجا) بمعنى جوانب و أطراف شىء معين، و (الملك) هنا بالرغم من ذكرها بصيغه المفرد، إلا أنَّ المقصود بها هو الجنس و الجمع.

إنَّ ملائكه الرحمن- في الآيه أعلاه- يصطفون على جوانب و أطراف السماوات ينتظرون تلقى أمر الواحد الأحد لإنجازه بمجرد الإشارة، و كأنّهم جنود جاهزون لما يؤمرون به.

ص: ٥٨٠

ثم يقول تعالى: وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ .

إنَّ حملة العرش بالرغم من أنَّهم لم يشخَّصوا بصورة صريحة في هذه الآية و هل هم من الملائكة أم من جنس آخر؟ إلا أنَّ ظاهر تعبير الآية الكريمه أنَّهم من الملائكة، و من غير المعلوم أنَّ المقصود ب(ثمانية) هل هم ثمانية ملائكة؟ أم ثمانية مجاميع من الملائكة؟ سواء كانت هذه المجاميع صغيره أو كبيره.

جاء في الروايات الإسلاميه أنَّ حملة العرش في عالم الدنيا أربعة أشخاص أو أربع (مجاميع) إلا أنَّهم في يوم القيامة يكونون ضعف ذلك، كما نقرأ ذلك

في حديث عن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلَّم أنَّه قال: (إنَّهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فيكونون ثمانية) (١).

أما ما يتعلق بحقيقه العرش، و ماهيه الملائكة، فذلك كما يلي:

المقصود ب(العرش) كما هو واضح ليس تختاً مميّاً يكون للسلطين، و لكنّه - كما بيّنا سابقاً في تفسير كلمه (العرش) - بأنّها تعني (مجموعه عالم الوجود) حيث أنَّه عرش حكومه الله سبحانه، و يدبّر حكومته تعالى من خلاله بواسطة الملائكة الذين هم جاهزون لتنفيذ أمره سبحانه.

و جاء في روايه اخرى أنَّ حملة العرش في يوم القيامة أربعة من الأولين، و أربعة من الآخرين، و الأشخاص الأولون الأربعة هم: (نوح) و (إبراهيم)، و (موسى)، و (عيسى)، أما الأشخاص الآخرون الأربعة فهم (محمّد) و (على) و (الحسن)، و (الحسين) (٢).

و هذا الحديث من الممكن أن يكون إشاره إلى مقام شفاعتهم للأولين و الآخرين، و الشفاعه -عاده- تكون لمن هم أهل لها، و ممّن لهم لياقه لئليها، و مع ذلك فإنّه يوضّح المفهوم الواسع للعرش.

ص: ٥٨١

١-١) -تفسير(على بن إبراهيم) ج ٢، ص ٣٨٤.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٤٦.

أمّا إذا كان حمله العرش ثمانيه مجاميع، فمن الطبيعي أن تتعَيّد المجاميع للقيام بهذه المهمّة، سواء كان هؤلاء من الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء، ومّا تقدّم نلاحظ أنّ قسما من تدبير نظام و شؤون ذلك اليوم هو من مهمّة الملائكة و قسم من الأنبياء، حيث أنّ الجميع جاهزون لتنفيذ أمر الله، و يتحرّك بإرادته تعالى.

هنالك آراء في أنّ الضمير في (فوقهم) هل يرجع إلى «البشر»؟ أم إلى (الملائكة)؟ و بما أنّ الحديث في الجملة السابقه كان حول الملائكة، فإنّ الضمير يرجع إليهم حسب الظاهر، و بهذه الصورة فإنّ الملائكة تحيط بالعالم من جميع جهاته، و لهذا فإنّ المقصود ب(من فوقهم) هو (العلو من حيث المقام).

و هنالك احتمال بأنّ حمله عرش الله هم أشخاص أعلى و أفضل من الملائكة، و تماشيا مع هذا الاحتمال فإنّ ما جاء في الحديث السابق منسجم معه، حيث ورد فيه أنّ حمله عرش الله هم ثمانيه من الأنبياء و الأولياء.

و بما أنّ الحوادث المتعلّقه بيوم القيامة ليست واضحة لنا نحن سكّنه هذا العالم المحدود، لذا فليس بمقدورنا إذا إدراك المسائل المتعلّقه بحمله العرش في ذلك اليوم. إنّ الذي نتحدّث به عن هذه الأمور ما هو إلّا شبح يتراءى لنا من بعيد في ظلّ الآيات الإلهيه، و إلّا فلا تتّم رؤيه الحقيقه بدون معايشه الواقع (١).

و ممّا يجدر ملاحظته أنّ في (النفخه الاولى للصور) يموت و يفنى جميع من في السموات و الأرض، و بناء على هذا فإنّ مسأله بحث «حمله العرش» مرتبط «بالنفخه الثانيه»، حيث يتمّ إحياء الجميع، و بالرغم من أنّه لم يأت ذكر للنفخه الثانيه في الآيه أعلاه، إلّا أنّ ذلك يتّضح من خلال القرائن، و المطالب التي سترد في الآيات اللاحقه تتعلّق بالنفخه الثانيه أيضا (٢).

ص: ٥٨٢

١-١) -تطرقنا مرارا في هذا التفسير إلى المعانى التي وردت حول (العرش) لغويا و قرآنيا، و من ضمن ما بحثناه حول هذه المسأله ما جاء في نهايه الآيه ٥٤ من سوره الأعراف.

٢-٢) -في الحقيقه أنّه توجد آيه محذوفه بتقدير «ثم نفخ فيه اخرى».

اشاره

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينًا فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)

التفسير

اشاره

يا أهل المحشر: اقرؤا صحيفه أعمالى

قلنا فى تفسير الآيات السابقه أنّ (نفخ الصور) يحدث مرّتين.

الاولى: عند ما يأمر تعالى بنهايه العالم و موت الأحياء و تلاشى الوجود.

و الثانیه: بحدوث العالم الجديد،عالم الآخره حيث البعث و النشور...،و كما ذكرنا فإنّ بدايه الآيات تخبرنا عن النفخه الاولى،و لم تستعرض تفاصيل النفخه الثانيه.

و استمرارا للحديث فى هذا الصدد،و خصوصيات العالم الجديد الذى

سيكون عند النفخه الثانيه، تحدّثنا هذه الآيات عن شيء من ذلك حيث يقول تعالى: **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ**.

«تعرضون» من مادّه (عرض) بمعنى عرض شيء معيّن، بضاعه أو غيرها.

و ممّا لا شكّ فيه أنّ جميع ما فى الوجود-بشرا و غيره-هو بين يدى الله سبحانه، سواء فى هذه الدنيا أو فى عالم الآخرة، إلّا أنّ هذا الأمر يظهر و يتّضح بصوره أشدّ فى يوم القيامة، كما فى مسأله حاكميه الله المطلقه و الدائمه على عالم الوجود، حيث تتّضح فى يوم القيامة أكثر من أى وقت آخر.

إنّ جملة: **تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ** يمكن أن تكون إشاره إلى أنّ الأسرار الخاصّه بالإنسان و ما يحاول إخفاءه يتحوّل فى ذلك اليوم إلى حاله من الظهور و الوضوح كما يقول تعالى: **يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ** (١) فى ذلك اليوم لن يقتصر الوضوح و الظهور على أعمال البشر الخفيّه فحسب، بل على صفات و روحيات و أخلاقيات و تيّات الجميع فإنّها هى الاخرى تبرز و تظهر، وهذا أمر عظيم جدّا، بل إنّ أعظم من انفجار الأجرام السماويه و تلاشى الجبال-كما يقول البعض-حيث الفضيحه الكبرى للطالحين، والعزّه و الرفعه للمؤمنين بشكل لا-نظير له، يوم يكون الإنسان عريانا ليس من حيث الجسم فقط، بل أعماله و أسرار الخفيه تكون على رؤوس الأشهاد، نعم لا يبقى أمر مخفى من وجودنا و كيانتنا أجمع فى ذلك اليوم العظيم.

و يمكن أن يكون المراد هو الإشاره للإحاطه العلميه لله تعالى بجميع المخلوقات، و لكن التفسير الأوّل أنسب.

لذا يقول سبحانه بعد ذلك: **فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُ كِتَابِيَهُ** (٢).

ص: ٥٨٤

١-١) -الطارق، الآية ٩.

٢-٢) -«هاؤم» كما يقول أصحاب اللغه هى بمعنى (خذوا) و إذا كان المخاطب جمع مذكر، فيقال: (هاؤم)، و إذا جمعت جمع

إِنَّ الفرحه تملؤه بصوره لا مثيل لها، حتى يكاد يطير من شدة فرحته، حيث أن كل ذرة من ذرات وجوده تغمرها الغبطة و السعاده و الشكر لله سبحانه على هذه النعم و التوفيق و الهدايه التى من الله بها عليه و يصرخ (الحمد لله).

ثم يعلن بافتخار عظيم فيقول: إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَّهٖ (١).

«ظن» فى مثل هذه الموارد تكون بمعنى (اليقين) إنه يريد أن يقول: إن ما تفضل به الله تعالى على كان بسبب إيماني بهذا اليوم، و الحقيقة أن الإيمان بالحساب و الكتاب يمنح الإنسان روح التقوى، و التعهد و الإحسان بالمسؤوليه، و هذا من أهم عوامل تربيته الإنسان.

ثم يبين الله تعالى فى الآيات اللاحقه جانباً من جزاء و أجر هؤلاء الأشخاص حيث يقول: فَهُوَ فِي عِيشِهِ رَاضِيَهٖ (٢).

و بالرغم من أن الجملة أعلاه تجسد كل ما يستحق أن يقال فى هذا الموضوع، إلا أنه سبحانه يضيف للتوضيح الأكثر: فِي جَنَّةٍ عَالِيَهٗ.

إن الجنة التى تكون عاليه و رفيعه بشكل لم ير أحد مثلها قط، و لم يسمع بها، و لم يتصور مثلها.

قُطُوفُهَا دَانِيَهٗ

(٣)

حيث لا جهد مكلف و لا مشقة و لا صعوبة فى قطف الثمار، و لا عائق يحول من الاقتراب للأشجار المحملة بالثمار، و جميع هذه النعم فى متناول الأيدي بدون

(٢)

مؤنث (هائن) و إذا كان مفرداً مذكراً كان (هائ) و تكون (بالفتح)، و إذا كان مفرداً مؤنثاً فإن (الهائ) تكون مكسوره، و للتثنيه هاء، يقول الراغب فى المفردات: (هائ) تستعمل بمعنى الأخذ، و (هات) بمعنى العطاء.

ص: ٥٨٥

١ - ١) - ال «هائ» فى (حسابيه) تكون (هائ الاستراحه)، أو (هائ السكته)، و ليس لها معنى خاص. أيضاً فى (كتابه).

٢ - ٢) - «الرضا» تكون عادة حاله و صفه للأشخاص، إلا أنه سبحانه جعلها صفه للحياه نفسها فى الآيه أعلاه، و هذه تمثل نهايه التأكيد، يعنى أنها حياه يعمها الرضا و السرور.

٣ - ٣) - «قُطُوف» جمع (قطف) على وزن (حزب) بمعنى أن الثمر قد اقتطف، و تأتى أحياناً بمعنى الثمار المهينه للاقتطاف أيضاً.

و فى آخر آيه-مورد البحث-يوجه البارئ عزّ وجلّ خطابه المملوء بالحبّ و المودّه و الاعتزاز إلى أهل الجنّه بقوله: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ .

و هكذا كانت هذه النعمه العظيمه التى منحها الله لهؤلاء المتقين جزاء أعمالهم الصالحه التى أدخروها ليوم كان فيه الحساب الحقّ، و أرسلوها سلفاً أمامهم، و إنّ الأعمال الخيره و المحدوده هى التى أثمرت هذه الثمار الكبيره حيث ظلّ الرحمه الإلهيه و اللطف الربانى.

ملاحظات

إشاره

١- تفسير آخر لكلمه (العرش)

جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «حمله العرش-و العرش العلم-ثمانيه، أربعه منّا، و أربعه ممّن شاء الله» (١).

و

جاء أيضاً فى حديث آخر لأمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال: «فالذين يحملون العرش، هم العلماء، الذين حملهم الله علمه» (٢).

و نقراً

فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّه قال: «العرش ليس هو الله، و العرش اسم علم و قدره» (٣).

إنّ ما يستفاد من هذه الأحاديث-بشكل عام-أنّ للعرش تفسيراً آخر بالإضافة إلى التفسير السابق الذى ذكرناه سابقاً-و هو (صفات الله)-صفات مثل

ص: ٥٨٦

١- ١) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٤٠٦ (حديث ٢٨).

٢- ٢) -المصدر السابق، (حديث ٢٦).

٣- ٣) -المصدر السابق، (حديث ٢٧).

(العلم)و(القدرة)،و بناء على هذا،فإنَّ حملة العرش الإلهي هم حملة علمه،وكلّما كان الإنسان أو الملك أكثر علما،كان له سهم أكبر في حمل العرش العظيم.

و من هنا فإنَّ هذه الحقيقة تتبلور بصورة أفضل و هي:أنَّ العرش ليس تختا جسمانيا يشبه تخوت السلاطين،بل له معان عديدة كئائه مختلفه إذا استعمل منسوبا إلى الله تعالى.

٢-مقام الإمام على عليه السلام و شيعته

جاء في روايات عديدة أنَّ الآية: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ.. نزلت في حقِّ الإمام على عليه السلام و شيعته (١).

٣-جواب على سؤال

و السؤال المطروح هو:هل أنَّ دعوه المؤمنين لأهل المحشر لقراءة كتاب حسابهم و صحيفه أعمالهم-طبقا لما جاء في الآية الكريمه: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَه -تعني أنَّ صحيفه أعمالهم خاليه من أى ذنب؟ و في مقام الجواب يمكن أن نستفيد من بعض الأحاديث منها

حديث عن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلَّم حيث يقول: «يدنى الله العبد يوم القيامة،فيقرره بذنوبه كلّها،حتى إذا رأى أنَّه قد هلك قال الله تعالى:إِنِّي سترتها عليك في الدنيا و أنا أغفرها لك اليوم،ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه» (٢) (٢).

و قال البعض أيضا:إنَّ الله تعالى يبدِّل سيئات المؤمنين في ذلك اليوم إلى (حسنات)و بذلك لا تبدو أى نقطه سوداء في صحائف أعمالهم.

ص: ٥٨٧

١- (١) -تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٦٦.

٢- (٢) (في ضلال القرآن) ج ٨، ص ٢٥٦.

اشاره

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ (٢٥) وَلَمْ أَذْرَ مَا حَسَابِيهِ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ (٢٩)

التفسير

اشاره

يا ليتني مت قبل هذا:

كان الحديث في الآيات السابقة عن (أصحاب اليمن) حيث صحائف أعمالهم بأيديهم اليمنى، و يوجهون نداءهم إلى أهل المحشر بكل فخر للاطلاع على صحيفه أعمالهم وقراءتها، ثم يدخلون جنّات الخلد حيث تكون مستقرّهم الأبدى.

أمّا هذه الآيات فتستعرض الطرف المقابل لأصحاب اليمن و هم (أصحاب الشمال) و تقدّم مقارنه بين المجموعتين، حيث يقول تعالى: وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ، فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ (١).

ص: ٥٨٨

نعم، في ذلك اليوم العظيم، يوم البعث و يوم البروز و الظهور، يوم الحساب و المحكمه الإلهيه العظيمة، حيث تتوضّح و تنكشف حقيقه الأعمال القبيحه و السيئه للإنسان.. و عند ما يواجهها يبدأ يجأر و يصرخ و يطلق الزفرات الساخنه المتلاحقه من الأعماق على المصير السيئ الذى أوصل نفسه إليه، و الشرّ الذى جلبه عليها، و يتمنى أن يقطع علاقته بماضيه الأسود تماما، و يتمنى أن يموت و يفنى و يتخلّص من هذه الفضيحه الكبيره المهلكه، و يعبر عن هذا الشعور قوله تعالى: وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٢) و ذكرت تفاسير اخرى-أيضا-لمعنى قوله: يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ منها أن المقصود من (القاضيه)هى الموته الاولى، يعنى يا ليتنا لم نحى مرّه اخرى و نبعث من جديد، في حين كان أقبح شيء في نظرهم هو الموت، و يتمنى هؤلاء أن لو استمرّ موتهم و لم يواجهوا الخزي في حياتهم الثانيه في المحكمه الإلهيه العادله.

و قيل أن المقصود من «القاضيه» (نفخه الصور) الاولى حيث عبر عنها ب (القارعه) أيضا، و يعنى ذلك تمنّيهم عدم حدوث النفخه الثانيه، لذا فهم يقولون: يا ليت لم تكن هذه النفخه، إلا أن التفسير الذى تحدّثنا عنه في البدايه أنسب من الجميع.

ثم يضيف تعالى مستعرضا اعتراف المجرمين بذنوبهم فيقول: مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ فَأَلْأَمَآلِى الْتَى كُنْتُ أَجْمَعُهَا فِي الدُّنْيَا لَمْ تَنْقُذْنِي الْآنَ وَ لَمْ تَعْنَى وَ لَمْ تَدْفَعْ عَنِّي الْأَهْوَآلَ أَوْ تَحُلْ مَشَآكِلِي.

(هاء السكته)أو (الاستراحه) و كما قلنا فإن هذه الهاء ليس لها معنى خاصّ، بل إنّها تعتبر وقفا لطيفا في مثل هذه الكلمات، و لها تناسب مع الوضع الروحي و حاله الأشخاص الذين يقولون مثل هذا الكلام (يرجى الانتباه لذلك).

فليست أموالى لم تسعفنى فى هذه الشده، بل أنّ قدرتى و مقامى و سلطتى هى الاخرى هلكت و زالت عنى.

و خلاصه الأمر: إنّ الأموال و المقام و السلطان و القوه.. كلّها لم تفدنى و لم تدفع عنى ما أنا ملاقيه من عقاب على ما أسرفت فى السابق، و قد وقفت بين يدى محكمه العدل الإلهى، و أنا لا أملك أى قوه تنفعنى فى هذا اليوم، فقد ذهبت قدرتى، و قطع أملى من كلّ شىء، و تعطلت بى الأسباب. و هكذا يكون المجرمون فى نهايه الدّلّ و الخزى و الندم، و لات ساعه مندم.

اعتبر البعض معنى ال(سلطان) هنا هو الدليل و البرهان الذى يكون عاملا فى الإنتصار، و بذلك يكون تفسير الآيه، أنّ المذنب يقول فى ذلك اليوم: إنّى لا أملك أى دليل و حجّه أستطيع بها تبرير أعمالى فى حضره البارئ عزّ و جلّ.

و قيل أيضا أنّ المراد من(السلطان) هنا ليس السلطه الحكوميه، ذلك لأنّ الداخلين إلى جهنّم ليسوا جميعا سلاطين أو أمراء، بل إنّ المراد هو سلطه الإنسان على نفسه و حياته و إرادته، و لكن بما أنّ الكثير من أهل النار كانوا يتمتعون بسلطه و نفوذ فى عالم الدنيا، أو أنّهم كانوا من أصحاب الأموال.. لذا يمكن اعتبار وجهه النظر هذه صحيحه حسب الظاهر.

ملاحظه

اشاره

بعض القصص المثيره:

نقلت فى هذا المجال قصص كثيره تؤكّد على المفاهيم العامه التى احتوتها الآيات الكريمه أعلاه، كموضع شاهد و عبره و تأييد لما ذهبت إليه الآيات المباركات، لتكون درسا لأولئك الذين جعلوا(المال و السلطان) همهم الأول، و انغمسوا حتّى الأذقان فى الغفله و الغرور و الذنوب من أجلهما، و من جملتها ما

يلي:

١-نقل في (سفينه البحار)عن كتاب (النصائح)ما نصّه:(عند ما اشتدّ مرض هارون الرشيد في خراسان أمر بإحضار طبيب من طوس،ثم أوصى أن يعرض إدراره مع إدرار قسم من المرضى و الأصحاء على الطبيب،ففحص الطبيب قناني الإدرار الواحد بعد الاخرى،حتّى وصل إلى القنيه قال:قولوا لصاحب هذه القنيه أن يوصى،لأنّ قواه قد انهذت و بنيته قد هدمت،فعند سماع هارون هذا الكلام يئس من حياته، و تلا هذه الأبيات الشعريه:

إنّ الطبيب بطّبه و دوائه

لا يستطيع دفاع نحب قد أتى

ما للطبيب يموت بالداء الذي

قد كان يبرئ مثله فيما مضى

و في هذه الأثناء سمع الناس يتداولون خبر موته،و لكي يبطل مفعول هذه الإشاعه،أمر باستحضار دابه،و طلب أن يركب عليها،و عند ما امتطى الدابه ضعفت أرجلها عن حملة،قال:أنزلوني،فإنّ الذي أشاع هذه الشائعه قد صدق.ثم أمر بجلب أكفان له،و اختار كفنا منها نال إعجابه،و قال احضروا لى قبرا بالقرب من فراشى هذا،ثم نظر إلى قبره،و تلا هذه الآيات: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ﴾ (١).

٢-و نقل -أيضا-في نفس المصدر عن العالم الكبير (الشيخ البهائي)ما نصّه هكذا:(كان هنالك رجل كثير الحساب لنفسه و اسمه (توبه)،حوّل عمره البالغ ستين عاما إلى أيام فكان مجموعها (٢١٥٠٠)و عند ذلك قال:يا ويلي إذا لم أكن قد أذنبت في اليوم إلّا ذنبا واحدا فإنّ مجموع ذنوبي الآن يربو على واحد و عشرين ألف ذنب؟فكيف الاقى ربّي بواحد و عشرين ألف ذنب؟و بينما هو في

ص: ٥٩١

هذه الحال إذ صرخ صرخه سقط على أثرها على الأرض و سلم روحه إلى بارئها (١).

٣-ورد في كتاب «اليتيم» للثعالبي أنه لما حانت وفاه عضد الدوله لم يتحرّك لسانه إلا بهذه الآية ما أغنى عني ما لي هلك عني سلطانتي .

ص: ٥٩٢

١-١) -نفس المصدر، ص ٤٨٨ مادّه ذنب (باقتباس).

اشاره

خُذُوهُ فَعُلُوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَ لَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُنَ (٣٧)

التفسير

اشاره

خذوه فعلوه:

استمرارا للآيات السابقة التي كانت تتحدث عن (أصحاب الشمال) الذين يستلمون صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى، فتنتلق الآهات و الأنات، و يتمنى أحدهم الموت-يشير تعالى في الآيات أعلاه إلى قسم من العذاب الذي يلاقونه يوم القيامة فيقول: خُذُوهُ فَعُلُوهُ .

«غَلَّوهُ» من مادّه (غَلَّ)، و كما قلنا سابقا أنّ المراد هو السلسله التي كانوا يربطون بها أيدي و أرجل المجرمين إلى أعناقهم مقترن بالكثير من المشقه و الألم.

ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوْهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوْهُ

«السلسلة» في الأصل مأخوذة من مادّة (تسلسل) بمعنى الاهتزاز و الارتعاش، لأنّ حلقات السلسلة الحديدية تهتزّ و تتحرّك.

التعبير ب(سبعون ذراعاً) يمكن أن يكون من باب (الكثرة) إذ أنّ العدد سبعين كثيراً ما يستعمل للكثرة، كما يمكن أن يكون المقصود هو العدد (سبعون) نفسه، و على كلّ حال، فإنّ مثل هذا الزنجير يطوق به المجرمون بحيث يربطون به من كلّ جانب.

و قال بعض المفسّرين: إنّ هذه السلاسل الطويلة ليست لشخص واحد بل لمجاميع يربط كلّ منها بسلسلة، و ذكر هذه العقوبة بعد ذكر الغلّ في الآيات السابقة يتناسب أكثر مع هذا المعنى.

«ذراع»: بمعنى الفاصله بين الساعه و نهايه الأصابع، (و قياسها بحدود نصف متر) و كانت وحده الطول المستعمله عند العرب، و هي قياس طبيعي، و قال البعض إنّ (الذراع) الوارد في الآيه الكريمه هو غير الذراع المتعارف عليه، حيث أنّ كلّ وحده منه تمثّل فواصل عظيمه، و يربط بهذا الزنجير جميع أهل جهنّم.

و نكرّر هنا مرّه اخرى قولنا أنّ المسائل المرتبطه بالقيامه لا نستطيع تصويرها بالكامل بواسطه بياننا نحن سكّان الدنيا، إلّا أنّنا نعكس شبحاً فقط - من خلال ما جاء في الآيات و الروايات.

التعبير ب(ثمّ) في هذه الآيه يوضّح لنا أنّ المجرمين بعد دخولهم في النار يربطون بالسلسلة ذات السبعين ذراعاً، و هذه عقوبه جديده لهم. كما يوجد احتمال أنّ هذه السلاسل الفرديه أو الجماعيه تكون قبل الدخول في جهنّم، و(ثمّ) جاءت للتأخير في الذكر.

و تتطرق الآيتان التاليتان لبيان السبب الرئيسي لهذا العذاب العسير، فيقول

تعالى: إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ .

و كلما كان الأنبياء و الأولياء و رسل الله تعالى يدعونه للتوجه إلى (الواحد الأحد) لم يكن ليقبل، و لذا فإن ارتباطه بالخالق كان مقطوعا بصورة تامه.

و لَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ

و بهذا الشكل فإن هؤلاء قد قطعوا علاقتهم مع (الخلق) أيضا.

و بهذا اللحاظ فإن العامل الأساسي لبؤس هؤلاء المجرمين هو قطع علاقتهم مع (الخالق) و (الخلق).

و يستفاد من التعبير السابق-بصوره واضحه-أنه يمكن تلخيص أهم الطاعات و العبادات و أوامر الشرع بهذين الأساسين: (الإيمان) و (إطعام المسكين) و هذا يمثل إشاره إلى الأهميه البالغه لهذا العمل الإنسانى العظيم و الحقيقه كما يقول البعض: إن أردأ العقائد هو (الكفر) كما أن أفبح الرذائل الأخلاقية هو (البخل).

و الطريف فى التعبير أنه لم يقل (كان لا يطعم)، بل قال: كان لا يحث الآخرين على الإطعام، إشاره إلى:

أولا: إن حل مشكله المحتاجين و إشباع الجائعين لا يمكن أن يتغلب عليها شخص واحد، بل يجب دعوه الآخرين أيضا للمساهمه بمثل هذا العمل، ليعم الخير و الفضل و الإحسان جميع الناس.

ثانيا: قد يكون الشخص عاجزا عن إطعام المساكين، و لكن الجميع بإمكانهم حث الآخرين على ذلك.

ثالثا: محاربه صفه البخل، حيث أن من صفات البخيل أنه يمتنع عن العطاء و البذل، و لا يرغب أو يرتاح لبذل و عطاء الآخرين أيضا.

و ينقل أن شخصا من القدماء كان يأمر زوجته بأن تطبخ طعاما أكثر من

حاجتهم لإعطاء المساكين، ثم كان يقول: (أخرجنا نصف السلسلة من أعناقنا و ذلك بالإيمان بالله، والنصف الآخر بالإطعام) (١)

ثم يضيف تعالى: فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ أى صديق مخلص و حميمٌ وَ لَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشْلِينَ أى القيق و الدم.

و الجدير بالملاحظة هنا هو أن (الجزاء) و (العمل) لهؤلاء الجماعة متناسبان تماما، فبسبب قطع علاقتهم بالله، فليس لهم هنالك من صديق و لا - حميم، كما أن سبب امتناعهم عن إطعام المحتاجين فإن طعامهم فى ذلك اليوم لن يكون إلا القيق و الدم، لأنهم حرموا المساكين من الإطعام و تركوهم نهبا للجوع و الألم فى الوقت الذى كانوا يتمتعون لسنين طويله بالذ و أطيب الأطحمه.

يقول الراغب فى المفردات: «غسلين» غسله أبدان الكفار فى النار، إلا أن المتعارف عليه أن المقصود به هو الدم و القيق النازل من أجسام أهل النار، و يحتمل أن (الراغب) قد قصد هذا المعنى أيضا.

كما أن التعبير ب (الطعام) يناسب هذا المعنى كذلك.

و هنا يطرح سؤال، و هو متعلق بما ورد فى الآية الكريمة فى قوله تعالى:

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ

(٢)

، و قد فسروا (الضريع) بأنه نوع من الشوك.

و كذلك ما ورد بهذا الشأن فى قوله تعالى: إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامٌ لِلْآثِمِينَ (٣)، و قد فسروا (الزقوم) بأنه نبات مرّ غير مستساغ الطعم ذو رائحه نتنه حيث يكثر وجود مثل هذا النبات فى أرض (تهامه) و هو مرّ و حارق و ذو صمغ.

و السؤال هو: كيف يمكن الجمع بين هذه الآيات و الآية مورد البحث؟

ص: ٥٩٦

١- ١) -روح المعانى، ج ٢٩، ص ٥١.

٢- ٢) -الغاشيه، الآية ٦.

٣- ٣) -الدخان، ٤٣-٤٤.

قال البعض فى الجواب: إنّ هذه الكلمات الثلاث (الضريع، و الزقوم، و الغسلين) إشاره إلى موضوع واحد و هو (نبات خشن غير مستساغ الطعم يكون طعام أهل النار).

و قيل: إنّ أهل النار فى طبقات مختلفه، و إنّ كلّ صنف من هذه النباتات و الأطعمه يكون غذاء لمجموعه منهم، أو طبقه من طبقاتهم.

و قيل: إنّ غذاء أهل النار هو (الزقوم و الضريع)، و شرابهم (الغسلين)، و التعبير ب (الطعام) عن الشراب فى هذه الآيه ليس بالجديد. و يضيف سبحانه فى آخر آيه مورد البحث فى قوله تعالى للتأكيد: لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ .

قال بعض المفسرين: إنّ (خاطئ) يقال للشخص الذى يرتكب خطأ عمداً، أمّا (المخطئ) فتطلق على من ارتكب خطأ بصورة مطلقه (عمداً أو سهواً) و بناء على ما تقدّم فإنّ طعام أهل جهنّم خاصّ للأشخاص الذين سلكوا درب الشرك و الكفر و البخل و الطغيان تمرّداً و عصياناً و عمداً.

ملاحظه

إشاره

بدايه وضع الحركات على حروف القرآن الكريم:

أخرج «البيهقى» فى شعب الإيمان عن «صعصعه بن صوحان» قال: جاء أعرابى إلى على بن أبى طالب فقال: كيف هذا الحرف «لا يأكله إلاّ الخاطون» كلّ و الله يخطو؟ (أى إنّ جميع الناس تخطو و تمشى فهل إنّ الجميع سوف يأكل من هذا الطعام؟) فتبسّم على و قال: يا أعرابى (لا يأكله إلاّ الخاطون) قال: صدقت و الله يا أمير المؤمنين ما كان الله ليسلم عبده، ثمّ التفت على عليه السّلام إلى أبى الأسود

ص: ٥٩٧

فقال: «إنَّ الأعاجم قد دخلت في الدين كافَّة فضع للناس شيئاً يستدلُّون به على صلاح ألسنتهم، فرسم لهم الرفع و النصب و الخفض» (١). [\(١\)](#).

ص: ٥٩٨

١-١) - تفسير (الدرّ المنثور) لجلال الدين السيوطي، ج ٨، ص ٢٧٥.

اشاره

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣)

التفسير

اشاره

القرآن كلام الله قطعاً:

بعد الأبحاث التي مرّت بنا في الآيات السابقة حول القيامة و ما أعدّه الله سبحانه للمؤمنين و الكفار، يبين الباري عزّ و جلّ في هذه الآيات بحثاً وافياً حول القرآن و النبوءه، ليكون البحثان (النبوءه) و (المعاد) كلا منهما مكتملاً للآخر.

يقول الراغب في البدايه: فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ .

المعروف أنّ كلمه (لا) زائده و للتأكيد في مثل هذه الموارد، و لكن ذهب البعض إلى أنّ (لا) تعطى معنى النفي أيضاً، و يعنى ذلك أنّنى لا أقسم بهذا الأمر، لأنّه أولاً: لا توجد ضروره لمثل هذا القسم. و ثانياً: يجب أن يكون القسم باسم

الله، إلا أن هذا القول ضعيف، و المناسب هو المعنى الأول، إذ ورد في القرآن الكريم قسم باسم الله و بغيره في الكثير من الآيات.

جمله بِمَا تُبْصِرُونَ وَ مَا لَا تُبْصِرُونَ لها معنى واسع، حيث تشمل كل ما يراه البشر و ما لا يراه، و بعبارة اخرى تشمل كل عالم (الشهود) و (الغيب).

و قد ذكرت احتمالات اخرى لتفسير هاتين الآيتين، منها: أن المقصود من عبارة بِمَا تُبْصِرُونَ هو عالم الخلقه، و من وَ مَا لَا تُبْصِرُونَ هو الخالق عز و جل.

و قيل إن المقصود بالأولى هو النعم الظاهريه، و في الثانية النعم الباطنيه. أو أن المقصود بهما: البشر و الملائكه على التوالي، أو الأجسام و الأرواح، أو الدنيا و الآخرة.

إلا أن سعه مفهوم هاتين العبارتين يمنع من تحديدهما. و بناء على هذا فإن كل ما يدخل في دائره المشاهده و ما هو خارج عنها مشمول للقسم، إلا أنه يستبعد شمولهما للبارئ عز و جل، بلحاظ أن جعل الخالق مقترنا بالخلق أمر غير مناسب، خصوصا مع تعبير (ما) الذي جاء في الآية الكريمه و الذي يستعمل في الغالب لغير العاقل.

و يستفاد ضمنا من هذا التعبير بصوره جيده أن الأمور و الأشياء التي لا يراها الإنسان كثيره جدّا، و قد أثبت العلم الحديث هذه الحقيقه، و هي أن المحسوسات التي تحيطنا تشمل دائره محدوده من الموجودات -و الأشياء غير المحسوسه- سواء في مجال الألوان و الأصوات و الأمواج و المذاقات و غيرها- هي في الواقع أوسع دائره من الأمور الحسيه.

فالنجوم التي يمكن رؤيتها في مجموع نصفى الكره الأرضيه بحدود خمسه آلاف نجمه، طبقا لحسابات علماء الفلك، أمّا النجوم التي لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة فهي تعدّ بالمليارات.

و الأمواج الصوتيه التي تستطيع اذن الإنسان سماعها هي أمواج محدوده، أمّا الأمواج الصوتيه الاخرى التي لا- تستطيع الاذن سماعها فتقدّر بالآلاف.

و بالنسبه للألوان التي نستطيع رؤيتها فهي سبعة ألوان معروفه، وقد أصبح من المسلّم اليوم وجود ما لا- نهايه له من الألوان الاخرى، كلون ما وراء البنفسجى، و ما دون الأحمر، حيث لا يمكن أن تراها أعيننا.

أمّا عدد الحيوانات المجهرية التي لا ترى بالعين المجرّده فهي كثيره جدّا إلى حدّ أنّها ملأت جميع العالم، إذ توجد في قطره الماء أحياناً آلاف الآلاف منها، فما أضيق تفكير من يضع نفسه في إطار المحسوسات الماديه فقط، و يبقى جاهلاً لأمر كثيره لا تستطيع الحواس أن تدركها، أو أنّه ينكرها أحياناً؟ لقد أثبتت الدلائل العقليه و التجريبيه أنّ عالم الأرواح عالم أوسع بكثير من عالم أجسامنا، فلما ذا نحبس أنفسنا و عقولنا في إطار المحسوسات؟ ثمّ تستعرض الآيه اللاحقه جواب هذا القسم العظيم، حيث يقول تعالى بأنّ هذا القرآن هو قول رسول كريم: **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ .**

و المقصود من الرّسول هنا- بدون شكّ- هو الرّسول الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم و ليس جبرائيل، لأنّ الآيات اللاحقه تبيّن هذا المعنى بوضوح.

و السبب في نسبه القرآن إلى الرّسول بالرغم من أنّنا نعرف أنّه قول الله تعالى، لأنّ الرّسول مبلغ عنه، و خاصّه أنّ الآيه ذكرت كلمه «رسول» و هذا يعنى أنّ كلّ ما يقوله الرّسول فهو قول مرسله، بالرغم من أنّه يجرى على لسان الرّسول، و يسمع من فمه الشريف.

ثمّ يضيف تعالى: **وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (١)** وَ لَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ .

ص: ٦٠١

١- ١) (قليلًا) في هذه الآيه و في الآيه اللاحقه هي صفه (لمفعول مطلق) محذوف. و (ما) زائده و في التقدير هكذا، (و تؤمنون إيمانًا قليلًا).

تنفى هاتان الآيتان ما نسبته المشركون و المخالفون من تهم باطله لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إذ كانوا يقولون أحيانا: إنه (شاعر) و إن هذه الآيات من شعره، كما كانوا يقولون أحيانا: إنه (كاهن) و إن الذى يقوله هو (كهانه) لأن الكهنة أشخاص كانوا يتنبئون بأسرار الغيب أحيانا، و ذلك لارتباطهم بالجنّ و الشياطين، و كانوا يطلقون عن قصد كلاما مسجعا و جملا موزونه.

و لأنّ القرآن الكريم أيضا كان يتنبأ و يتحدّث عن أمور غيبية، و إنّ ألفاظه و عباراته لها نظام خاصّ، لذا اتّهم الرّسول صلى الله عليه و آله و سلم بهذه التّهم، فى حين أنّ الفرق بين الإثنين كالفرق بين الأرض و السماء.

لقد نقل البعض فى سبب نزول هذه الآيه أنّ (أبا جهل) نسب قول الشعر إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و أنّ (عقبه) أو (عتبه) هو الذى نسب الكهانه إلى رسولنا الكريم و كذلك الآخرون أيضا كانوا يردّدون هذه التّهم.

و فى الحقيقة فإنّ للقرآن الكريم ألفاظا منسجمه، و تعابير ذات نظم جميل تسحر الآذان و تبعث الاطمئنان فى الأرواح. إلّا أنّ هذا ليس له أى ارتباط مع شعر الشعراء، و لا مع سجع الكاهنين.

الشعر فى الغالب وليد الخيال، و معبر عن الأحاسيس الجياشه فى النفوس، و العواطف الملتهبه، و لهذا فإنّه يجسّد حاله عدم الاستقرار و عدم التوازن صعودا و نزولا، شدّه و انخفاضه، فى الوقت الذى نلاحظ أنّ القرآن الكريم، و هو يمثّل قّمه الروعه و الجاذبيه، فإنّه كتاب استدلالى و منطقى فى عرضه للمفاهيم، و عقلانى فى محتواه، و ما فيه من التنبؤ المستقبلى لا يشكّل قاعده أساسيه للقرآن الكريم، بالإضافة إلى أنّها صادقه جميعا بخلاف ما عليه تنبؤ الكهنة.

التعبير بـ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ و قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ هو توبيخ و لوم للأشخاص الذين يسمعون الوحى السماوى مقرونا بدلائل واضحه، إلّا أنّهم يعتبرونه (شعرا) أحيانا، و (كهانه) أحيانا اخرى. و قليلا ما يؤمنون.

و يقول سبحانه في آخر آيه-مورد البحث-كتأكيد على هويّه القرآن الربانيه: تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١).

و بناء على هذا فإنّ القرآن الكريم ليس بشعر و لا- كهانه، و ليس هو إنتاج فكر الرّسول، و لا- قول جبرائيل.. بل إنّ كلام الله سبحانه، حيث نزل بواسطه الوحي على القلب الطاهر لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و جاء هذا المعنى بعبارات مختلفه إحدى عشره مرّه في القرآن الكريم.

ص: ٦٠٣

١- ١) -«تنزيل» مصدر بمعنى (اسم مفعول)، و هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو منزل من ربّ العالمين).

اشاره

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)

التفسير

استمرارا للأبحاث المتعلقة بالقرآن الكريم، تستعرض الآيات التالية دليلا واضحا يؤكد يقينه كون القرآن من الله سبحانه، حيث يقول: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (١).

«أقاويل»: جمع (أقوال) و(أقوال) بدورها جمع (قول) و بناء على هذا فإن أقاويل جمع الجمع، و المقصود منها هنا هو الحديث الكذب.

ص: ٦٠٤

«وَقَوْلٍ» من مادّة (تَقَوْل) على وزن (تَكَلَّف) بمعنى الحديث المصطنع الذى لا أساس له من الصّحّة والحقيقه.

جمله لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ تعنى: لأخذنا من يده اليمنى و لعاقبناه و جازيناه و كلمه «اليمين» هنا كناية عن القدره، و ذلك بلحاظ أنّ الإنسان الذى ينجز أعمالا معيّنه بيده اليمنى يتمتّع بقدره و قوّه أفضل.

كما أورد بعض المفسرين احتمالات اخرى أيضا فى تفسير هذه الآيه، أعرضنا عن ذكرها بلحاظ كونها غير مشهوره و لا موزونه.

«وتين» بمعنى (عرق القلب) و المقصود به هو الشريان الذى عن طريقه يصل الدم إلى جميع أعضاء جسم الإنسان، و إذا قطع فإنّ الإنسان يتعرّض للموت فورا، و هذا تعبير عن أسرع عقوبه يمكن أن يعاقب بها الإنسان.

و فسّر البعض (الوتين) بأنّه العرق الذى يكون القلب معلقا به، أو العرق الذى يوصل الدم إلى الكبد، أو أنّه عرق النخاع الذى هو فى وسط العمود الفقرى، إلّا أنّ التفسير الأول أصحّ من الجميع حسب الظاهر.

«حاجزين» جمع (حاجر) بمعنى المانع.

و قد يتساءل البعض قائلا: إذا كان الموت الفورى و الهلاك الحتمى هو عقوبه كلّ من يكذب على الله سبحانه، فهذا يستلزم هلاك جميع من يدّعى النبوه كذبا و بسرعه، و هذا ما لم يلاحظ فى حياتنا العمليه، حيث بقى الكثير منهم لسنين طويله. بل حتّى معتقداتهم الباطله بقيت أيضا فتره زمنيه من بعدهم.

الجواب يتّضح جليّا بالانتباه إلى ما يلى: و هو أنّ القرآن الكريم لم يقل بأنّ الله يهلك كلّ مدّع يدّعى النبوه.. بل إنّ سبحانه خصّص هذه العقوبه لشخص الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم فيما لو انحرف عن طريق الحقّ، فسوف لن يهمل لحظه واحده، لأنّه

يكون سببا لضياح الرساله و ضلال الناس (١).

أما الأشخاص الذين يدعون ادعاءات باطله، وليس لديهم أى دليل عليها، فليس هنالك ضروره لأن يهلكهم الله فوراً، لأن بطلان ادعاءاتهم واضح لكل من يطلب الحق، إلا أن الأمر يلتبس و يصعب حينما يكون الادعاء بالنبوه مقترنا بأدله و معاجز دامغه كما هو بالنسبه للنبي الإلهي، فإن ذلك ممّا يؤدى إلى الانحراف عن طريق الحق.

و من هنا يتّضح بطلان ادعاء بعض (الفرق الضالّه) لإثبات ما يقوله أسيادهم من خلال الاستشهاد بهذه الآيه المباركه. فلو صحّ ذلك لكان (مسيلمه الكذاب) و كلّ مدّع كاذب من أمثاله يستطيعون إثبات ادعاءاتهم من خلال الاستدلال بهذه الآيه أيضاً.

و يذكر سبحانه مرّه اخرى فى الآيه اللاحقه مؤكّداً ما سبق عرضه فى الآيات السابقه و إِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ . إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ هَذَا أَنزَلَهُ لِلْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَرِيدُونَ أَن يَطْهَرُوا أَنفُسَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ، و يسيروا فى طريق الحقّ، و يبحثوا عن الحقيقه، و يسعوا للوصول إليها، أمّا من لم يصل إلى هذا الحدّ من صفاء النظره و تقوى النفس، فمن المسلّم أنّه لن يستطيع أن يستلهم تعاليم القرآن الكريم و يتذوّق حلاوه معرفه الحقّ المبين.

إنّ التأثير العميق الفدّ للقرآن الكريم الذى يحدثه فى نفوس سامعيه و قارئيه، هو بحدّ ذاته علامه على إعجازه و حقّانيته.

ثمّ يضيف تعالى: [□]وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ .

إنّ وجود المكذّبين المعاندين لم يكن مانعاً أبداً من الدليل على عدم حقّانيتهم.

ص: ٦٠٦

إِنَّ الْمُتَّقِينَ وَطُلَّابَ الْحَقِّ يَتَعَطَّوْنَ بِهِ، وَيُرُونَ فِيهِ سَمَاتَ الْحَقِّ، وَإِنَّهُ عَوْنٌ لَهُمْ فِي الْوُصُولِ إِلَى طَرِيقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

و بناء على هذا فكما يجدر بالإنسان-بل يجب عليه-أن يفتح عينه للاستفادة من إشعاع النور، فإنَّ عليه كذلك أن يفتح عين قلبه للاستفادة من نور القرآن العظيم.

و يضيف في الآية اللاحقه: وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ .

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرَ الَّذِينَ يَتَحَدَّثُونَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ الْيَوْمَ وَيَكْذِبُونَهُ، فَإِنَّهُمْ غَدَا حَيْثُ (يَوْمَ الظُّهُورِ) وَ (يَوْمَ الْبُرُوزِ) وَ هُوَ وَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ (يَوْمَ الْحَسْرَةِ) يَدْرُكُونَ مَدَى عَظَمَةِ النِّعْمَةِ الَّتِي فَرَّطُوا بِهَا بِسَبَبِ لِحَاجَتِهِمْ وَ عِنَادِهِمْ، وَ مَا جَلَبَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ، ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي يَشَاهِدُونَ فِيهِ مَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ نَعِيمٍ وَ نِعْمَةٍ، وَ عِنْدَئِذٍ تَكُونُ الْمَقَارَنَةُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَ بَيْنَ مَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ سَيَعْضُونَ أَصَابِعَ النَّدَمِ، يَقُولُ تَعَالَى: وَ يَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (١).

و لكي لا يتصور أحد أنَّ التَّكْذِيبَ وَ التَّشْكِيكَ كَانَ بِلِحَازٍ غَمُوضٍ وَ إِبْهَامٍ مَفَاهِيمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَيُضَيِّفُ فِي الْآيَةِ الْلاحقه: وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ .

التعبير ب(حَقُّ الْيَقِينِ) فِي إِعْتِقَادِ بَعْضِ الْمَفْسِّرِينَ هُوَ فِي قَبِيلِ (إِضَافَةِ شَيْءٍ إِلَى نَفْسِهِ) لِأَنَّ (الْحَقَّ) هُوَ (الْيَقِينُ) نَفْسُهُ وَ (الْيَقِينُ) هُوَ (عَيْنُ الْحَقِّ) وَ ذَاتُهُ، وَ ذَلِكَ كَمَا يَقَالُ: (الْمَسْجِدُ الْجَامِعُ) أَوْ (يَوْمُ الْخَمِيسِ)، وَ يَقَالُ لَهُ بِاصْطِلَاحِ النَّحَاهِ (إِضَافَةُ بَيَانِيَةٍ) إِلَّا أَنَّ الْأَفْضَلَ أَنْ يَقَالُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْإِضَافَةِ: (إِضَافَةُ الْمَوْصُوفِ إِلَى الصِّفَةِ).

يعنى أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ (يَقِينٌ خَالِصٌ) أَوْ بِتَعْبِيرٍ آخَرَ أَنَّ لِلْيَقِينِ مَرَا حِلَّ

ص: ٦٠٧

مختلفه، حيث يحصل أحيانا بالدليل العقلي كما فى حصول اليقين بوجود النار من خلال مشاهدته دخان من بعيد، لذا يقال لمثل هذا الأمر (علم اليقين).

و حينما نقرب أكثر و نرى اشتعال النار بأم أعيننا، فعند ذلك يصبح اليقين أقوى و يسمى عندئذ ب(عين اليقين).

و عند ما يكون اقترابنا أكثر فأكثر و نصبح فى محاذاه النار أو فى داخلها و نلمس حرارتها بأيدينا، فإن من المسلم أن هذه أعلى مرحله من مراحل اليقين، و تسمى ب(حق اليقين).

و الآيه أعلاه تقول: إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فى مثل هذه مرحله من اليقين، و مع هذا فإن عديمى البصيره ينكرونه و يشككون فيه.

و أخيرا يقول سبحانه فى آخر آيه-مورد البحث، و التى هى آخر آيه من سوره(الحاقه)- فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .

و الجدير بالملاحظه-هنا- أن مضمون هذه الآيه و الآيه السابقه قد جاء بتفاوت يسير مع ما ورد فى سوره الواقعه، و هذا التفاوت هو أن الآيه وصفت القرآن الكريم هنا بأنه (حق اليقين) أما فى نهايه سوره(الواقع) فكان الحديث عن المجاميع المتباينه للصالحين و الطالحين فى يوم القيامه.

ملاحظه

وصف القرآن الكريم فى هذه الآيات المباركه بأوصاف أربعه و هى «تنزيل» و «تذكره» و «حسره» و «حق اليقين». حيث يقول فى البدايه: تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثم يقول: وَ إِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ثم يقول تعالى: وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ و يضيف فى آخر وصف له بقوله: وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ .

و ذلك أن الآيه الاولى موجهه لجميع البشر، و الثانيه مختصه بالمتقين و الآيه

الثالثة تعنى الكافرين، والرابعة خاصه بالمقرّبين.

اللهم: إنّك تعلم أنّه لا شيء أفضل من اليقين، فارزقنا منه ما يكون معه إيماننا مصداقا لحقّ اليقين.

ربّنا: إنّ يوم القيامة هو يوم الحسره، فلا تجعلنا فى ذلك اليوم من الذين يتحسّرون لكثرة ذنوبهم، بل من قلّة طاعاتهم على الأقلّ..

ربّنا: آتتنا صحيفه أعمالنا بيدنا اليمنى، وأدخلنا فى جنّته عاليه فى عيشه راضيه.

آمين ربّ العالمين نهايه سوره الحاقّه و نهايه المجلد الثامن عشر

ص: ٦٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتي بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات ...

الإطلاق والدعم العلمي لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج في البحث والدراسة وتطبيقها في أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

١. JAVA

٢. ANDROID

٣. EPUB

٤. CHM

٥. PDF

٦. HTML

٧. CHM

٨. GHB

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

١. ANDROID

٢. IOS

٣. WINDOWS PHONE

٤. WINDOWS

وتقدّم مجاناً في الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزى

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزى ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فى طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
الغمامة
للبحوث والفكر
اصحان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايضاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩